

هاري ساغر

عظمت آفتاب

ترجمہ

خالد اسد عباسی

احمد عسان سبانی



دارِ رسالہ

عظيمة آشور

عظمة آشور

تأليف

هاري ساغر

ترجمة

خالد أسعد عيسى

أحمد غسان هادي

عظمة آشور

تأليف: هاري ساغر

ترجمة: خالد اسعد عيسى / أحمد غسان سيلانو

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعة تمت بـ:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

بمقر الطبعة محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٣٧٠٦٠ ١١ ٥٦٣ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٥٦٣ ٠٠٩٦٣

ص.ب: ٢٥٩ جرمانا

القدمة

جرت العادة تقديم تبرير إيضاحي لأي كتاب من نوع كتابنا هذا ، فالسبب الموجب لكتابة هذا الكتاب بسيط ، فلقد قضيت حوالي نصف عمري في دراسة موضوع الآشوريين ، ولهذا أود أن أتميز بإشراك الآخرين في معرفة بعض الفوائد التي وجدتها بعد دراسة أحوال ذلك الشعب.

والحقيقة أن الفارئ سرعان ما سوف يدرك أنني أحب الآشوريين حقاً ، مع ما فيهم من سلبيات وإيجابيات دون الشعور بوجوب الاعتذار عن هذا الحب ، ومع أن الآشوريين شأنهم شأن الشعوب الأخرى القديمة والحديثة قد أظهروا أساليب لا نعتبرها الآن لائقة في تعاملهم مع بني البشر حولهم ، إلا أنني لا أشعر بأي حرج عند الترويج لفكرتي وصوابها عن طريق تقديم الحكم على كل فعلٍ فعلوه ، وكل موقف اتخذوه على أساس معتقدات دينية قوية أو لبيبرالية متداولة.

إنني أعلم علم اليقين أن هناك كثيراً من الموضوعات التي قد حُذفت وكان من الأجدر مناقشتها ، إذ إن لدي ملاحظات تحتوي مواد ربما تؤلف كتاباً ضعف حجم هذا الكتاب ، غير أنه من الواجب أن نضع حداً لممارسة أي عمل ، لأنني عند اختياري لما يجب مناقشته توخيت أن أركز على الشؤون التي يسهل إثباتها بغير المناطق المتصلة بالعالم الحديث بشكل أكثر وضوحاً وعلى الموضوعات التي تبدو أكثر متعة وإمتاعاً.

ولكن من الواضح أن لا تلتقي هذه المعايير الثلاثة دوماً ولذلك فكان من واجبي أن أضحي بواحد منها أو أكثر.

ربما كان من الأجدي قول كلمة حول التواريخ ، إذ إننا نجد كتاباً آخرين يقدمون بعض تواريخ تختلف عن تواريخي بالنسبة للآلاف الأول قبل الميلاد بواقع سنة أو سنتين ، وبالنسبة للآلاف الثاني قبل الميلاد بواقع عقد أو أكثر ، وبالنسبة للآلاف الثالث بواقع قرن واحد ، ويمود وجود مثل هذه الفروق إلى الطريقة التي تتلاحم فيها مجموعات الشواهد التي قلّما تتواجد فيها تلك الحقيقة المطلقة

(بإستثناء الطواهر الفلكية) وفي رأيي أن التواريخ الدقيقة ليست ذات أهمية شريطة وضوح تعاقب الحوادث نسبياً.

ولكن التواريخ تؤلف كياناً مفيداً يُجبرني على تقديمها بحرية نسبياً.

هذا ، وسوف يلاحظ أولئك المتعمسون بمناقشة تواريخ منطقة ما بين النهرين أنني قد اتبعت النظام الذي اتبعه أستاذي السابق المحترم سيني سميث ، وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أتمكن من الموضوع كما فعل ، حيث لا يستطيع أحد غيره أن يفعل ذلك ، ولهذا فإن جميع التواريخ المتعلقة بأشور القديمة ينبغي أن يكون من المفهوم بأنها ترجع إلى فترة ما قبل الميلاد دون وجود أي دلالات خاصة.

وفي بعض الحالات أشير إلى أي تاريخ ذي علاقة بمنطقة ما ، وخوفاً من وقوع بعض الإشكالات البسيطة ، أضيف كلمتي ب. م أي: بعد الميلاد.

وليس بإمكانني أن أنهي هذه المقدمة دون التويه بشكري وامتناني لزوجتي التي كان لروحها المتفائلة التي لا تتوقف ولحماسها وآرائها العملية ، ما عزز تلك المتعة والاهتمام بالقيم مليئة تلك الرحلات العديدة التي قمنا بها معاً إلى بلاد آشور ، وفي آشور نفسها ، خلال سنوات وسنوات.

هاري ساغر

Hary Sags

الفصل الأول

آشور - الخلفية - البدايات

لا بُدَّ أن القُرَّاء في العالم الغربي قد سمعوا بالآشوريين فيما ذكرته التوراة عنهم، فقد أشارت إليهم التوراة بأنهم القوة الإمبراطورية التي قضت على مملكة إسرائيل، وأوقعت ما يسمَّى بالقبائل العشر في الأسر.

وبعد جيل من ذلك التاريخ قام الآشوريون بمهاجمة أورشليم عاصمة ما كان يسمَّى دولة يهوذا، ذلك الهجوم الذي أوحى إلى الشاعر بايرون نظم قصيدته التي تبدأ بـ: **هجم الآشوريون كالذئب على قطيع الغنم.**

وكانت مكائيبهم الحربية تلمع بالألوان الأرجوانية والذهبية.

ونتيجة لما ذكرته التوراة وما ذكره الشاعر بايرون، فقد وُصِمَ الآشوريون بالنسبة للعالم المتكلم باللغة الإنكليزية بصفاتهم البربرية الخالية من الشفقة والرحمة، كما وصفوا بالضرر والخبث.

والحقيقة أنهم كانوا حشنيين وقساة وغلاظ القلوب عند معاظلتهم على النظام، ولكنهم كانوا حماة للمدنية ولم يكونوا مخربين أو برابرة.

لقد حدثت فصول حوادث أورشليم خلال قرن اختفى فيه الآشوريون نهائياً كشعبٍ مميز، ولكن معظم ما ميَّز الآشوريين في تاريخ العالم كان له جنوره خلال ألف سنة أو ما يزيد ظهرت فيها هويتهم الوطنية التي كانت خلفهم عندما هاجموا فلسطين.

الإطار الجغرافي

لقد كانت الإمبراطورية الآشورية في أقصر امتدادها واسعة، فقد امتدت تلك الإمبراطورية لمدة قصيرة خلال تلك الفترة التوراتية من مصر من جهة إلى بلاد المصم (إيران) من الجهة الأخرى، والحقيقة أن الوطن الآشوري المركزي الذي

سيطر على أراضي الشرق الأدنى كلن منطقة صغيرة جداً ، فلم يكن أكبر من منطقة انجليا الشرقية أو ويلز في بريطانيا أو فلسطين ، أو ولاية كونيتكتكوت في أمريكا.

فلقد كانت آشور أصلاً تضم الأرض الممتدة على طول نهر دجلة الأوسط ، وكانت حدودها الشمالية ممتدة من شمال الموصل حيث سفوح الجبال لتصبح سهلاً ، وأما جنوباً فقد امتدت إلى مسافة مئة وثلاثين ميلاً شمال غرب بغداد ، في منطقة ينساب فيها نهر دجلة خلال سلسلة من التلال تدعى جبل مغول غرب دجلة ، وجبل حميرين إلى الشرق ، ويقع إلى غرب دجلة سهل واسع (وهو عبارة عن هضبة منخفضة من الحجر الكلسي) يدعى: منطقة الجزيرة ، حيث هناك سلسلة جبلية تدعى: جبل سنجان في نهايتها الشمالية ، وتمتد منطقة الجزيرة دون أي تقاطع شرقي غربي حتى نهر الخابور ، وفي هذا السهل المفتوح أمام البنى الرُّحْل من جهة الصحراء السورية كان امتداد السيطرة الآشورية في أي وقت من الأوقات يعتمد على القوة العسكرية والتصميم والعزم الآشوري.

وفي الجهة الجنوبية الشرقية لهذه المنطقة وعلى معاذاة نهر دجلة كانت تقع مدينة آشور وهي أقدم عواصمهم.

وفي المنطقة الشرقية داخل بلاد آشور كان هناك راقدان رئيسان لنهر دجلة وهما يحملان اسم الزَّاب ، وكان الزاب الأصغر أو الأدنى يلتقي بدجلة شمال جبل حميرين ، بينما كان الزاب الأكبر أو الأعلى يرفد دجلة على بُعد خمسة وعشرين ميلاً منحدرًا من الموصل.

وتؤلف سلاسل الجبال العالية التي يبدأ منها نهر الزاب منطقة ربع دائرية تحيط بدولة آشور من الشرق والشمال.

وهكذا وبينما نجد هناك سهلاً متصلاً إلى الغرب من دجلة ، إلا أن آشور الشرقية تنقسم إلى ثلاث مناطق ، فالقطاع الأول: عبارة عن سهل واقع بين الزاب الأكبر والجبال الشمالية ، وهذا ما جعل نينوى أعظم مدينة في الأزمنة القديمة ، كما هو الحال بالنسبة إلى الموصل في هذه الأيام.

أما القطاع الثاني: فهي المنطقة الواقعة بين الزابين ومركزها أرييل، وكان هذان القطاعان دوماً ابتداءً من الزمن الذي ظهرت به آشور هما العنصرين الرئيسيين في دولة آشور.

أما القطاع الثالث: فهو المنطقة الواقعة جنوب الزاب الأصفر الممتدة حتى جبل حرمين، وتضم هذه المنطقة كركوك وهي الآن مركز آبار البترول، أما في الأزمنة القديمة فكانت تدعى أرايخا **Arabkha** ولكن دولة آشور لم تسيطر على هذه المنطقة، وكانت أرايخا وأرييل ونيوى مع مدينة آشور الواقعة على الضفة القريبة لنهر دجلة، هذه المدن كانت هي المدن الرئيسية المهمة، وذلك لأن دولة آشور كانت على الغالب مؤلفة من مناطق ريفية.

وباعتبار هذه الأقسام الرئيسية الأربعة لم تكن آشور عبارة عن وحدة جغرافية متكاملة، فقد كانت هنالك فروق بارزة ذات علاقة بالأرض والمناخ موجودة بين كل جزء من هذه الأجزاء والجزء الآخر.

ولكن ومن جهة أخرى فقد كانت الجهات الرئيسية الأساسية متشابهة بحيث تصبح المنطقة بأكملها بلاداً واحدة منفصلة ومتميزة عن المنطقة الواقعة جنوبها، وفي معظم أراضيها كان معدل هطول الأمطار كافياً للزراعة دون اللجوء إلى عمليات الري وذلك على الأقل في السنوات الخصبة الجيدة، مع أنه وبالنسبة إلى المناطق الجنوبية القصية في آشور كان الوضع الزراعي هامشياً يتصف بتخلف وقصور زراعي أثناء الفصول الرديئة المحاصيل.

وإذا تابعنا الاتجاه جنوباً فيما وراء خط عرض جبل حرمين ينخفض معدل هطول الأمطار بشكلٍ لنمو الحبوب دون اللجوء إلى عمليات الري، وفي نفس منطقة خط العرض هذه هناك تغيرات في التربة وذلك لأن سهول آشور هنا معرضة لوجود الطمي الذي يسببه مجرى نهر دجلة، وتتحد هاتان الميزتان لإنشاء حدود جغرافية فيما بين آشور والأراضي المجاورة في الجنوب.

وخلال الألف الأولى والثانية قبل الميلاد كانت تلك الأراضي الجنوبية تعرف باسم بابل، وفي زمن أقدم كانت تعرف باسم أكاد وسومر (وهما نصفاهما

الشمالي والجنوبي) ولم تكن الحدود ما بين آشور وبابل في الأزمنة القديمة لتتبع الحدود الطبيعية، ولكنها كانت تتقدم وتتراوح إلى الأمام والخلف طبقاً لمقايير حياة الدولتين، هذا وتبقى الميزات الجغرافية التي تميز آشور عن بابل واضحة في هذه الأيام، فالرحلة في فصل الربيع من بغداد وهي عاصمة العراق الحديثة وخلال منطقة بابل القديمة إلى الموصل التي تقع قرب عدة عواصم آشورية تقود السائح إلى منطقة مختلفة، ففي منطقة بغداد جنوباً تصبح الزراعة المائدة هي زراعة أشجار النخيل، وليس هناك من غطاء عشبي عدا المناطق التي تكثر فيها الحدائق والمزارع، فالأراضي تبدو منبسطة في الأفق، وفي معظم أوقات السنة تصبح الأرض المعرضة لحرارة الشمس قاحلة وميتة ولا سيما حيث لا تصل إليها أفتية الري، ولكن عندما يقترب السائح من الموصل يجد هناك تغييراً جذرياً، فالأراضي المنبسطة تتحول إلى سهول منخفضة، وفي فصل الربيع تصبح خضراء بما تحمله من محاصيل الحبوب والمراعي المزدهرة بما فيها من الأزهار والأعلاف، وتخترق الوديان تلك السهول المتماوجة وتمتلئ تلك الوديان بالمياه بعد سقوط أمطار الربيع حيث ترى سلاسل التلال العالية في الأفق، وهنا يشعر السائح أنه قد وصل إلى آشور.

وتعتمد القوى الرئيسية في آشور القديمة على أراضيها الخصبة المزروعة بالذرة، ففي كل منطقة من مناطق آشور هناك بقع من الأرض مزروعة بالذرة، ولكن هناك منطقتين كبيرتين بصورة خاصة متميزتين بالقدر على الإنتاج وقد كانتا دوماً بهذا الشكل إحداهما سهل أربيل الذي يوصف بأنه أفضل منطقة منتجة للقمح في العراق، أما المنطقة الثانية فهي منطقة سهل الموصل، وإلى الغرب من نهر دجلة هناك حزام مزروع بالذرة الجيدة، وفي الجزيرة الواقعة إلى الجنوب من جبل سنجار يستطيع المرء أثناء السنوات الخصبة رؤية نبات الشمير النامي في ذلك السهل، مع أنه يقل حالماً ينتقل المرء إلى الجنوب حتى يصل إلى الخط الواصل بين الحرة وقلعة شرفاوط (وهي موقع عاصمة آشور القديمة).

وتذكر التوراة شيئاً عن أصل مملكة آشور ولكن باختصار، وينكر في سفر التكوين رقم (١٠ و ١١) أن مملكة نمرود كانت تتألف من بابل وأريش وأكاد وكلانة وكلها واقعة في أرض شنعار، ومن تلك الأرض هاجر نمرود إلى آشور وبني نينوى وقلة ممالك **Calah**، وليس هناك سوى قلة من علماء آثار آشور مستمدين للدفاع عن تلك التقاصيل، ولكن وبالنسبة لآشور فإن الملابس الرئيسية متفقة مع ما نعرفه من علم الآثار، فشنعار ما هي إلا صورة طبق الأصل عن سومر التي كانت هي الاسم القديم لأقصى جنوب العراق التي يرويها التهران العظيمان دجلة والفرات، فسي سومر بالذات بدأت الحضارة الأولى، وفي حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م ولا نعرف إلا القليل عن المكان الذي أتى منه السومريون فيما لو كانوا حقيقة مهاجرين أم كانوا من أهل البلاد الأصليين، ولسكننا نعرف الكثير عن حضارتهم القديمة في جنوب العراق.

وكانت إحدى مراكزهم الثقافية تدعى: أوروك، وإن اسم أيرشين التوراتي هو شكل من أشكال هذا الاسم، وكانت نينوى وكالا عاصمتين آشوريين في أزمان مختلفة، وكانت الأولى أقدم عهداً من الثانية ولكن مؤسستها المزعوم هو نمرود الذي يُعد أحجية من الأحاجي، وإن اسم آشور (الذي نُقِلَ على شكل اسهور أو اسشور أو أسور) ربما انطبق على اسم البلاد ككل، أو على اسم أقدم عاصمة من عواصمها، أو على اسم الإله الرئيسي فيها، مع أن ذكرها في التوراة يدل على البلاد فحسب.

هذا وقد انتشرت الحضارة السومرية في أعالي الفرات ودجلة. وإن المقولة التوراتية حول الهجرة من شنعار إلى آشور ما هي إلا انعكاس للحقيقة التي مفادها: إن أصول الحضارة الآشورية كانت على الأغلب من سومر.

لاحظ استعمال كلمة على الأغلب، فلقد كانت الأحوال الجغرافية شديدة الاختلاف بالنسبة إلى المنطقتين بحيث كان من الصعب انتقال الحضارة السومرية دون تغيير أو تبديل إلى آشور.

ولكن ظهرت عوامل جديدة لعبت دورها ، فقد كانت هناك وسيلة سهلة للاتصال عن طريق وادي نهر الخابور مع سورية ومع منطقة البحر الأبيض المتوسط والأناضول (اواسط سورية) وراء ذلك ، ولقد فتحت هذه الطريق في جميع الأزمنة ومسائل التواصل فيما بين آشور وأجزاء الشرق الأدنى الأخرى مما سبب حدوث نتائج ثقافية ، فمن نعلم الآن أنه قد حدثت تطورات مرموقة في الحضارة في فترة مبكرة في سورية الشمالية ظهرت آثارها في آشور ، إذ لم تكن التلال والجبال المحيطة بآشور من الشمال والشرق خالية من المصكان لتشكّل حواجز تامة تمنع الاتصال مع الأراضي حولها (وهي التي تدعى الآن تركيا وإيران) وهكذا أصبحت آشور مفتوحة لتلقي التأثيرات ذات الأنواع المختلفة من تلك الجهات أيضاً .

فترة ما قبل التاريخ

إن للمناطق المتاخمة لشمال وشرق آشور أهمية رئيسية بالنسبة للتاريخ البشري كشكل فضلاً عن صلتها بتاريخ آشور ، وتختص أهميتها على المدى الواسع ببداية القرى والزراعة .

وبالنسبة لأية فترة واقعة قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد ، فلا يلزم أن نتحدث عن وجود قرى في أو حول آشور أو في أي بقعة من بقاع العالم ، فقد كانت الكائنات البشرية لا تزال عبارة عن مخلوقات نادرة الوجود ، فعلى سفوح التلال كانت الكائنات البشرية أهل وجوداً من الأغنام البرية والماعز ، بينما قلما كانت هذه الكائنات البشرية ترى في سهول آشور عدا عن وجودها أشاء حملات صيد الحمر الوحشية التي كانت ترعى النباتات حتى بداية القرن العشرين بعد الميلاد .

ثانياً : كانت مثل هذه الكائنات تعيش على صيد الحيوانات وجمع النباتات البرية والبذور والفواكه بحيث لم يكن هناك من جامع يجمعهم بشكل دائم في بقعة معينة ، ولا يمكننا إنكار وجود قواعد موسمية بشكل كهوف أو مواقع في الهواء الطلق أو مساكن تعود إلى العهد الأول من العصر الحجري ، وهي معروفة قرب السليمانية ورواندوز Rowandoz بينما عثر على موقع في الهواء الطلق إلى

الشرق من كركوك، وعلى كل حال فإن عدم وجود الزراعة يُسقط من وجود المستوطنات الدائمة، فهناك موقع على ضفاف الفرات في سورية بُنيت فيه المستوطنات الدائمة قبل أن يبدأ الإنسان في ممارسة الزراعة المبكرة أو تربية الحيوانات، ولقد باثت الخطوة الأولى تجاه الزراعة تُعد أكبر تغيير حدث في أساليب البشر المعيشية نحو عام ٩٠٠٠ ق.م.

وتتراكم الشواهد حول المراحل الأولى لهذا التطور بشكل سريع من المواقع المكتشفة حديثاً في فلسطين وسورية، وفي مواقع ومناطق واقعة شمال وجنوب جبال طوروس، وعلى طول الجانب الغربي لزاغروس، ولقد نمت أنواع مختلفة من النباتات التي أصبحت في أشكالها المدجّنة من الأغذية الأساسية في العالم الغربي في هذه الأيام، وأهم هذه النباتات وبصورة خاصة القمح البري والشعير البري والبقول المختلفة، وقد كانت الأغنام البرية والماعز تتجول في تلك المنطقة نفسها، وبالتدريج بدأ الناس القاطنون على سفوح الجبال في ممارسة زراعة النباتات المفدية، ولا تزال الأنواع البرية الأصلية للقمح والشعير تنمو في بعض الأجزاء النائية من سفوح التلال، ولقد استطاع علماء الوراثة النباتية تتبع التغيرات ابتداءً من الأشكال البرية إلى الأشكال المعروفة التي وجدت في المواقع المكتشفة.

ولقد وصل تدجين الأغنام البرية والماعز مرحلة مرموقة في نفس تلك الفترة مع أنها لم تكن من المجموعة نفسها من الناس، أو مع أنها ربما لم تكن بدعة مفاجئة، ومن الممكن أن يكون الصيادون قد تعلموا خلال ألف سنة تنظيم حركات قطعانهم والحيوانات التي اصطادوها، وحصر الحدود التي تتجول فيها تلك الحيوانات، وإن توسيع هذا المجال بشكل عقلائي بقصد وضع قطمان المواشي تحت المراقبة سوف يصبح بداية عملية التهجين والانتقاء، وذلك إما بذبدها أو إطلاق سراح الحيوانات التي لا يمكن ضبطها لتذهب إلى البراري، وهنا تنتج فعلاً سلالات منتقاة للحصول على نوع من الحيوانات سهلة القيادة.

ويشار إلى هذه التطورات أي: ضبط المواد الغذائية نظراً لأهميتها بأنها ثورة العصر الحجري الحديث، ولكن المصطلح الزمني يجمع اصطلاحاً الثورة غير

مناسب، وقد انتشرت هذه التغييرات خلال ألاف السنين ، هذا ولم تستطع عملية رعي المواشي وزراعة الحبوب أن تحل محل المصادر القديمة لإنتاج الطعام خلال عقود أو حتى قرون، والحقيقة أنه ولدة فترة تقاس بألاف السنين بدلاً من مئات السنين، فإن عملية الصيد قد بقيت ذات أهمية مرموقة لأجل زيادة كميات المواد الغذائية.

وتعكس هذه الآثار في الحقيقة التي مفادها أن عملية الصيد بقيت عبارة عن نشاط شعائري مهم يظهر حق الملوك حتى نهاية الإمبراطورية، بينما كانت عملية صيد الأسماك (التي تختلف عن عملية تربية الأسماك) شكلاً من أشكال الصيد التي لا تزال من المصادر الرئيسة للحصول على الطعام.

ومع ذلك فقد أصبح إنتاج الطعام الطريقة السائدة للمعيشة في سفوح التلال الملاصقة لآشور، وحالما حدث هذا فقد حدثت حتماً نتائج أبعد تأثيراً، ولشدة التفاضل فقد اشتملت هذه النتائج على أمرين متناقضين الاستقرار والهجرة، فمن جهة أولى فقد ربطت الأعمال الزراعية (مع أنها لا تشمل تربية الأغنام والماعز) الأفراد المختصين لخدمة مساحة خاصة من الأرض، وكنتيجة لذلك نمت المستوطنات الدائمة - بشكل قرى وبعدها مدن- ومن جهة أخرى فإن تقنيات التدجين الجديدة كانت تعني أن لا ينحصر الإنسان في موطن معين عند عمله في تربية الأغنام والماعز، إذ من الممكن إطعام هذه المواشي وتربيتها في أي مكان مناسب حيث يوجد الكلاً المناسب.

وبكذلك فإن معاصيل الذرة من الممكن إنمائها بعيداً عن المستوطنة الأصلية حيث توجد التربة مع كميات من المطر كافية، وهكذا لم يعد الناس مرتبطين بنوع خاص من الأراضي والمناطق، فأصبح استعمار السهول الآشورية ممكناً، وهكذا نشأت في هذه الطريقة أولى القرى في تلك المنطقة.

ولقد كانت لهذه التغييرات نتائج مرموقة على كل من المسكان البشر وعلى المؤسسات البشرية الاجتماعية، فقد أصبح الإنسان والحالة هذه قادراً على توسيع مدى نفوذه لاسيما بعد تطوير أدوات الري، فأصبحت منطقة معينة من الأرض

قادرة على إعالة أعداد أكثر من البشر بعد إعطاء القدرة لعدد أكبر من السكان على استثمار مناطق كاملة من المستوطنات، وهكذا فمنذ ازدياد عدد السكان في مستوطنات بغيثها توجب إيجاد مؤسسات اجتماعية قادرة، بينما أصبحت زيادة عدد المستوطنات قادرة على جلب نوع من البنى التحتية، وعلى تنظيم قواعد السلوك عند هؤلاء، وذلك بقصد تقليل عدد الخصومات.

وعندما امتلكت العائلات أو المستوطنات المولفة من مجموعات من العائلات مخازن القمح وقطعان المواشي فقد أصبح من الواجب أن يستطيعوا حماية أنفسهم ضد المجموعات الأخرى من البشر الذين كانت تمزجهم تلك المخازن والقطعان، وكان هؤلاء ينظرون بأعين فارغة جائئة إلى تلك الممتلكات، وهذا ما أدى إلى ظهور المؤسسات الاجتماعية للدفاع والحرب، وبهذا نجد أن تهجين النباتات والحيوانات قد عدل وأملأ أشكالاً في المجتمعات الأولى.

وتبع ذلك تغييرات أخرى، فقد دعت الحاجة عندها لاستخدام الأدوات والأواني ل تخزين الفائض من الطعام، وكان هناك عدة مواد متواجدة تحت الطلب ابتداء من الحجارة التي كان من الممكن اقتلاعها حتى القصب المجذول، ولكن سوف تظهر مادة مناسبة بشكل أكثر لتستعمل بشكل عام حالما يتم اكتشاف الحقيقة التي مفادها أن الفخار إذا تعرض للنار فإنه يصبح قاسياً ضد الماء وأطول دواماً، هذا وقد استعمل الإنسان النار منذ عهد بعيد قبل وقت طويل من تدجين مواد الطعام والحيوانات، ولكننا لا نعلم متى حدث استعمال النار في صنع الفخار، فمن المحتمل أن ذلك الاكتشاف قد حدث من خلال احتراق القصب أو حاويات القصب من السلال المبطنة بالفخار، وهكذا بدأ عصر الفخار بهذه الطريقة.

ولقد تبع ذلك عدة نتائج، فقد أدت الحاجة إلى وجود نارٍ حامية من الممكن السيطرة عليها، والتي تنتج درجات حرارة عالية وذلك لإنتاج الأواني الفخارية الجيدة، أدى ذلك إلى تطوير صنع المواد القادرة على إنتاج حرارة هائلة، وهذا ما

أعلى الوسيلة التي استطاعت بها الأجيال القديمة القدرة على صهر المواد المعدنية
الخام.

وتأتي الشواهد الأولى على هذه التطورات في منطقتنا من مواقع زاوي وتشيمي
وشانيدار، فالموقع الأول على بعد ١٥ ميلاً إلى الشمال الشرقي من أنقرة ، وعلى
بعد نحو ثلاثين ميلاً من مهل الموصل قد حدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون
بواسطة الأشعة السينية بحوالي (٩٠٠٠) عام ق. م ، وكانت المساكن هناك عبارة
عن أكواخ دائرية بُنيت جدرانها من جلاميد النهر ، وتظهر الأدوات الحجرية أن
بعض المنتجات النباتية قد زُرعت لاستعمالها كطعام ، مع أننا في الوقت الحاضر
ليس لنا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كانت هذه المنتجات من الحبوب أو حبوب
البلوط أو الجوز أو المكسرات الأخرى المتوفرة في تلك المنطقة.

وأما الصيد فلا يزال المصدر الرئيس للحصول على الطعام مع أن هناك بقايا
الأغنام وعظامها تدل على ترويض الأغنام مما يظهر أن تربية الماشية قد بدأت.

وأما (شانا دار) قرب رواندوز فهو عبارة عن كهف يعود إلى نفس فترة زاوي
تشيمي ، وهناك إمكان اتصال هذين الموقعين وذلك لأن شانيدار من الممكن أن
تكون الملبأ الشتوي للأشخاص الذين كانوا يقضون الصيف في زاوي تشيمي ،
وهذا الموقع مهم بالنسبة لنا لكونه يمثلنا فكرة عن الاتصالات العائدة ، وقد
وجد هناك على السطح وهو مصدر بركماني زجاجي فاسي جذاب يستعمل في عمل
أدوات الزينة ، ولما لم يكن هناك أي مصدر للحصول على ذلك الحجر أقرب من
منطقة بحيرة فان الواقعة على بعد أكثر من مئة ميل إلى الشمال فوق أراضي جبلية
صعبة لذلك فلا مانع من وجود نوع من التجارة والصلات التجارية فيما بين هذه
المناطق.

نستطيع تتبع عمليات التطور في ضبط مواد الطعام من مواقع تعود إلى فترات
متأخرة ، فهي الحافة الشمالية لآشور عند جازمو إلى الشمال الشرقي من
كركوك مكان هناك مستوطنة تبلغ مساحتها من ثلاثة إلى أربعة هكتارين قد
احتلها الآشوريون ابتداءً من ٧٠٠٠ سنة ق. م فصاعداً ، ويميل علماء الآثار لأن

يكونوا أكثر كرمًا بالنسبة إلى الزمن وهم يفكرون أن هذا الزمن قصير بعد بداية عصر الزراعة ، ولكن علينا أن نلاحظ أن فترة هذا التطور قد دامت مدة تقرب من مدة عصر المسيح حتى يومنا هذا ، وقد كانت جارمو قرية صغيرة تحتوي على عشرين بيتاً أو ما يقارب ذلك وبها من السكان ما يقدر بمئة أو خمسين نسمة ، وقد زرع هناك نوعان من القمح (يمرغان بالأمير والابن ككورن) ونوع من الشعير وقد دلت بعض الشواهد على وجود ماعز مدجن وخنازير وكلاب في جارمو ، ولكن من الغرابة عدم وجود أغنام مدجنة وذلك بشواهد من زاوي تشيمي ، ولو كان عدم وجود هذه الشواهد مجرد حادث اكتشف فإن المفارقة مع زاوي تظهر وجود عدة طفرات فجائية عند تدجين أنواع مختلفة من الحيوانات مع اقتحام أهالي جارمو للأغنام.

أقدم القرى الأولى

وجدت أقدم أنواع المستوطنات في سهول آشور وسميت باسم موقع أم الدباغية على بُعد ١٥ ميلاً إلى الغرب من الحدود ، أو ما يقارب ذلك على الحدود الجنوبية القصية للمنطقة حيث من الممكن الزراعة بعد هطول الأمطار ، وهناك اختلاف حول ما إذا كانت هذه مستوطنة زراعية ، فهناك بقايا بيوت تدل على أن هذا الموقع كان مسكوناً باستمرار ولكن ليس من أول السنة إلى آخرها ، ولكن العنصر الأساسي في حياة مستوطنات أم الدباغية كان الصيد مع وجود الهدف الرئيس وهو حمار الوحش ، وهناك عدة شواهد تشير إلى هذا الاتجاه.

وتظهر الرسومات الجدارية في البيوت مشاهد الصيد وتشمل البنايات صفوفاً من القبور المستعملة لخبز الجلود (مع أن هذا الاستعمال لم يثبت تماماً) وقد وجد نحو سبعون في المئة من عظام الحيوانات في الموقع وكانت عظام حمار الوحش ، ومعظم العظام الأخرى كانت عظام غزلان ، مع أن هناك بعض عظام حيوانات مُدَجَّنة.

وهناك دلائل على تقنيات الصيد التي كانت تستعمل هناك وهي عبارة عن ألوف من كُرّات من الفخار كانت تستعمل في المقاتل، ولهذا فمن الممكن لذلك أن لا يكون موقع أم الدباغية هو مستوطنة زراعية بل قاعدة للصيد، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه من المظنون أنها بُنيت من قِبَل شعب متحرك على سطوح التلال يريدون استثمار الحمر الوحشية التي كانت متواجدة في الجزيرة (وظلت حتى استغذت في القرن العشرين).

ولقد وجدت مواقع لثقافة أم الدباغية إلى الشمال تجاه جبل سنجار، وما لم نعد أم الدباغية نفسها مستوطنة زراعية، فإنها إحدى تلك المستوطنات، وبعد تل سوتو معشلاً لأقدم مستوطنة زراعية مبكرة في السهول الآشورية مع وجود أول دليل مؤرخ من قبل الحفريات الروسية الذي يعود إلى حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م، هذا وبعد تل سوتو من المستوطنات (وهي القرى الصغيرة) الخلفية التي تكمن وراء بعض التلورات في أمكنة أخرى، مثل كافال هوبوك في الأناضول حيث نمت بلدة مساحتها نحو اثنين وثلاثين فدانا أو في أريحا في فلسطين.

ولقد سُبقت أول مستوطنات معروفة في آشور من قبل بعض القرى في فلسطين التي سبقتها زمنياً بـ ١٠٠ عام أو يزيد، وكذلك في الأناضول وإيران، ولكن ربما كان هناك بعض القرى المتقدمة والأقدم عهداً في آشور وهي أقدم من تلك القرى التي ذكرناها، لأنه من الواجب أن نتذكر أن معلوماتنا محدودة ومعرضة لضبوط من قبل البحوث في علم الآثار، مثلاً تقع مدينة أربيل في سهل تكسر مياهه، يمد الآن أفضل منطقة لزراعة الذرة في العراق، وهو على بعد مسيرة يوم واحد عن المناطق التي يمكن أن توجد فيها حتى الآن الحبوب البرية، والتي لا تزال نامية هناك، وإنه لتخمين معقول قولنا: إن أربيل كانت إحدى أقدم المستوطنات الزراعية الدائمة، ولتكن أربيل كانت مدينة ناجحة جداً بحيث تعرضت للاحتلال باستمرار منذ نشوئها.

وهذا ما أنتج وجود روائب أو تلال كبيرة ضخمة (لا تزال مسكونة) وكانت المسافة عميقة من قمة التلة حتى الأرض البكر بحيث أصبح من المستحيل إجراء

أي حفريات من مستويات باكورة، وعادة ما يسمي علماء الآثار بعض التجمعات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذه الكلمة أو الرطانة التي يفضل علماء الآثار استخدامها عندما يعنون المرحلة الثقافية) باسم ذلك الموقع الذي ثبتت معرفته لأول مرة، ولكن هذا الممل الملائم ربما كان مضللاً للرجل العادي نظراً لأنه يشجع الانطباع بأن تلك المرحلة الثقافية كان لها ارتباط وثيق مع الموقع الأول الذي سُميت باسمه، ولكن غالباً ما أصبح حامل الاسم عبارة عن مستوطنة صغيرة واقعة خلال منطقة صغيرة جداً، وهكذا حالما تستمر نحن الآن بالإشارة إلى مراحل ثقافة تُل حسونة وتُل حلفا) فلا ينبغي أن نفكر بها ونمدها أول المتطورين بالنسبة للمواقع التي تحمل تلك الأسماء.

تُل حسونة

بعد تلك البدايات المُمثلة بتُل سوتو، فإن أول نموذج رئيسي للمستوطنات الزراعية المعروفة في السهول الآشورية هي ما تدعى (بالحسونة) وهذا الاسم مأخوذ من اسم تلة ترابية صغيرة واقعة على بعد اثنين وعشرين ميلاً جنوب الموصل، ولقد أظهرت الحفريات بعض المراحل الثقافية التي تعود إلى تاريخها في الوقت الحاضر إلى بضعة قرون واقعة بعد عام ٦٠٠٠ ق.م، وقد حدثت تلك الحفريات في الجزيرة إلى الشرق من أربيل.

وفي مجمع حسونة كانت الزراعة بالتأكيد من النشاطات الرئيسية حيث وجدت أشكال من الشمير وعدة أنواع من القمح، ولقد وجدت عدة أدوات مطبخية نموذجية في حسونة تشير أيضاً إلى استعمال الحبوب على مقياس واسع، فقد وجد نوع غريب من الصعون المسطحة ذات سطوح داخلية مثقبة كانت تستعمل لفصل الحبوب عن الحسك، وقد كان وجود الحيوانات المدجنة التي ظهرت عظامها والتي برهنت على وجود الأغنام والماعز والخنازير والأبقار، وإن وجود فلصكات المفزل تشير إلى وجود إنتاج الأقمشة، ويشار إلى التجارة في مسافات طويلة بوجود حجارة الأولسيديان وبعض الأحجار الكريمة الثمينة، ولما كان أقرب مصدر

لبعض هذه المواد يبعد نحو مئتي ميل بعيداً عن الجبال، وسواء كانت هذه المواد قد حملها التجار المسافرون أو أنها انتقلت من مستوطنة إلى مستوطنة، إلا أن ليس لدينا أي واسطة لمعرفة ذلك، هذا وإن الاتصالات مع أي من هذه الأنواع ربما أسهمت في انتشار معرفة التكنولوجيا، مثلاً الإنتاج الزراعي أو وسائل البناء، وأعمال الري وصنع النحاس، ولقد وصل صنع النحاس إلى حصونة ومستوطناتها من أقصى الشمال.

وبحسب معرفتنا في الوقت الحاضر فإن أول استعمال للنحاس الذي كان يُطرق وهو بارد ويؤخذ من النحاس الوطني لعمل الأدوات الصغيرة، وحدث ذلك هيماً بين عام ٧٥٠٠ و ٦٥٠٠ قم في سايونو قرب ديار بكر، في جنوب شرقي تركيا وهذه كانت قريبة من السهول الآشورية ومن المصادر الآشورية للنحاس، ولقد حدثت عملية صهر النحاس من خاماته في كماتال هويوك الواقعة في أقصى غرب تركيا وربما كان ذلك بعد نحو ألف عام، فقد عرف استعمال النحاس بما فيه صهره مع أن ذلك كان على مقياس ضيق، وكان ذلك في أحد مواقع حصونة.

ولما لم يكن هناك أي مصدر من مصادر خامات النحاس في أي مكان قرب الموقع المشار إليه، فإنه من الواجب أن تكون آشور قد نالت نصيب السبق بالنسبة للتقدم إلى العصر المعدني، وذلك بالاتصال مع الشعوب الواقعة في أقصى الشمال في سفوح تلال طوروس.

لا نعلم إلا القليل عن مجتمع حصونة ولكن هناك أمراً نقوله بكل ثقة وهو: إن بنيتهم الاجتماعية كانت مرسية على العائلة، وقد استنتجنا ذلك من كونه بيوتهم عبارة عن مساكن صغيرة منفردة ولم تكن بنايات جماعية، ونحن نعلم أيضاً أنهم كانوا ملتزمين بالملكية الخاصة، نظراً لأنهم كانوا يستعملون اختتاماً كان المقصد الأساسي منها تحويل الملكية.

وكانت مستوطنات حصونة محددة في المناطق ذات الطول الكافي للأمطار اللازمة لنمو الحبوب، ومع ذلك فكان هناك في الجنوب، حيث لم يكن هطول المطر كافياً، أقوام آخرون قد طوروا أساليب بدائية للري وتدعى هذه المجموعات

باسم سامراء، ويختلف علماء طبقات الأرض فيما إذا كان هذا الاسم متميزاً عن حمصونة أم لم يكن، وإن أحد هذه المواقع الذي حُدد تاريخه عن طريق فحص الكربون بالأشعة السينية (أوالتعديد الزمني) حكما يحلو لعلماء الآثار أن يسموه عندما يسمعون للمرء أن يفترض بأنهم أصبحوا يقسمون تاريخاً مطلقاً) حُدد تاريخه بحوالي ٥٥٠٠ ق م بالنسبة لأقدم مرحلة، وبعد ذلك، حدثت تطورات معتبرة فأصبحت إحدى المستوطنات السامرية ذات اتساع كبير بحيث جاز لنا أن ندعوها بلدة صغيرة.

تل حَلَف

لقد طُفئ على مجموعات حمصونة المحصورة في شمال المراق نوع من الثقافة الأخرى والتي انتشرت وعرفت باسم حلف، وكان انتشار حلف واسعاً ليس جغرافياً فحسب بل زمنياً أيضاً، إذ إنه غطى نحو ألف عام تقريباً ابتداء من منتصف الألف السادس فصاعداً.

ويقسم علماء الآثار هذه الثقافة إلى ثقافة مبكرة وثقافة متوسطة وثقافة متأخرة حلفية، ويشيرون إلى تطورات مرموقة حدثت بين ثقافة وأخرى، وكان لهذا الوضع علاقة بأغراضنا الحالية، فهو يدل أن ثقافة حلف لم تكن مجلوبة بشكل جاهز من أي مكان آخر بل إن المستوطنين بنوها بالتدريج وبنوا طريقة حياتهم بأنفسهم بشكل ميداني، ولقد ثبت هذا الاعتقاد وهو أن مستوطنات حلف لم تكن وليدة حمصونة أو سامراء وذلك لوجود الفروق الظاهرة في أساليب صنع الفخار، وهناك شواهد إضافية تدل على أصول ثقافة حلف المستقلة، وهي وجود الطواهر المعمارية التي تبين أن أبنية حلف كانت ذات أشكال تشبه خلية النحل مرتكزة على أسس حجرية، ولم يكن هذا الشكل مرموفاً في أي ثقافة أخرى قبل التاريخ، ولكن هائلة هذه الأبنية غير معروفة وغير أكيدة، مع أن بعض العلماء يفسرونها بأنها نوع من الأضرحة، ولكن ومهما كان عملها أو فائدتها،

هذه براعتها تظهر أن شعب حلف الأولئك كانوا من القادمين الجدد إلى آشور،
وتشبيهاً لهذا القول وجود بعض مستوطنات حلقية على أرض بكر.

إن أول موقع حلفي معروف في آشور هو الأرياشية على مشارف نينوى القديمة،
وهي الآن جزء من الموصل الشرقية، ولكن هذه المجموعات ككل بدأ انتشارها
تقريباً من مرمسين في كلبيكية عبر مدورة وأشور حتى حوالي السليمانية في
مكدستان شمالاً إلى ديار بكر وبحيرة فان، وهناك تفسير ممكن لهذا التوسع
هو أنه كان يعكس نجاحاً زراعياً وزيادة في عدد السكان، نظراً لأن كل
ظاهرة وجود أرض زراعية خصبة واقعة حول مستوطنة بعينها قد فسرت بكونها
ناتجة عن ارتفاع عدد السكان، وهكذا كان أولئك الذين لا يملكون أرضاً
يرحلون ليؤسسوا مستوطنات جديدة في أمكنة أخرى، وأصبح المستوطنون في
السهول الآشورية جزءاً من المجموعات المترابطة من الشعب، ولكن هذه الفكرة
لا تزال مجرد تخمين ولم تثبت بعد كحقيقة، أي: من الممكن أن تكون الثقافة
المشتركة الواسعة الانتشار بدلاً من ذلك قضية روابط تجارية واقعة فوق هذه
المساحة المرموقة من الأرض.

هناك بعض المظاهر في المستوطنات المتأخرة في حلف تعكس تحسناً متميزاً
في نوعية الحياة، مثلاً: أصبحت الأواني الفخارية المزخرفة ذات جمال لا بأس به،
ووجد هناك حُجُب سعيرية ولوحات مزخرفة وخرز مصفورة من الحجارة، وكانت
الأعمال النحاسية متطورة، وكان في الأرياشية شبكة من الشوارع المرسوفة
بالحجارة، وذلك خدمة للسكان في الطقس الماطر حيث يكثُر الابل بالماء،
وكان فيها ورشة لعمل الأدوات الفخارية مما يدل على تطور الصناعة والتخصص،
ويظن بعض العلماء أنه كان في الأرياشية صانعو فخار متخصصون يصنعون
البضائع الضرورية للقرى القريبة من نينوى، وتبقى هذه الفكرة مجرد تخمين في
الوقت الحاضر دون وجود أي شاهد لتأييدها، ولكن هناك بالتأكيد إمكان
وجود مدن كبيرة قرب نينوى وفي أمكنة أخرى (ربما أرييل) خلال عصر حلف.

نقد لاحظنا وجود التجارة إلى جانب الزراعة الناجحة وكونها عاملاً ممكناً في ازدياد ازدهار حلف، وربما كانت الملاحظات التجارية لشعب حلف راجمة إلى الزمن الواقع قبل وصول هذا الشعب إلى آشور، وهناك اقتراح مفاده أن المنطقة التي أتى منها مستوطنو حلف كانت واقعة بين السهول الآشورية وبحيرة هان، وأنه سكان هذا الشعب يمارس التجارة في أوبسديان حيث كان هناك مصدر للتجارة إلى الغرب من بحيرة هان.

وإذا اعتبرنا هذه الفرضية فإن شعب حلف الذي استقر في سهول آشور كان من الممكن أن يحتفظ بملاقاته التجارية مع المناطق الشمالية وبهذا يحصلون على الثروة كوسطاء في تجارة أوبسديان، وهناك عامل آخر تمسب في ثراء حلف وهو التجارة بالمنسوجات ويظهر هذا الرأي من وجود بعض نواح بارزة في الأواني الفخارية من الممكن أنها قد نُقلت عن المنسوجات فإذا كانت المنسوجات حقاً جزءاً مرموقاً من تجارة حلف فإن هذا ربما أثر على أساليب الحياة بشكل دائم في تلك المنطقة، وأسهم في زيادة أهمية تجارة المنسوجات في آشور فيما بعد.

ولكن ما هي أهمية هذه المراحل الثقافية في ما أصبح فيما بعد يعرف باسم آشور، إذ إنه من الصعب أن ندعو ونعد شعوب أم الدبجية وحسونة وحلف أنهم هم الآشوريون الأوائل، ولكن ومن جهة أخرى فإنه من الصعب أيضاً أن نظن بأن هذه الشعوب قد اختفت أو ذابت من على وجه الأرض ولم تترك أي أثر من الخلف أو التراث الثقافي، وهكذا يبقى الاحتمال الذي مفاده أن هؤلاء المستوطنين الأوائل كانوا بالإضافة إلى كثير من الطوائف التي أسهمت في خلق الآشوريين فيما بعد (مهما كان الزمن بعيداً) وأن بعض مظاهر الحياة التي قدموها قد استمرت.

عيد

لقد بدأ نوع جديد من الفخر في الظهور في آشور بعد حلف وقد انتشر هذا النوع في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.

إنني مدّين بالاعتذار السريع لأنني بدأت بموضوع جديد بالحديث حول الفخار بدلاً من الحديث عن الشعب والناس. ولكن مهما ظهرت القطع الفخارية بشكل ممل، إلا أننا يجب أن نستعمل الشواهد الفخارية لأنها تمثل علامة تفسر وجود مجموعات ثقافية خاصة. وإن الثقافة الجديدة (أو المجموعات) التي تتميز بوجود نوع جديد من الفخار تدعى ثقافة عبيد. ولا شك أن كلا الفخار والثقافة المرافقة تطورت في أول الأمر في جنوب العراق في اقتصاد مرافق للري. وأن عدد وحجم مجموعات التلال التي تدل على وجود مستوطنات قديمة تظهر وجود زيادة لا بأس بها في عدد سكان جنوب العراق، وذلك بسبب الهجرة من جهة، ومن جهة أخرى الزيادة الطبيعية في عدد السكان الأصليين نتيجة لازدهار الزراعة التي أصبحت ممكنة عن طريق أدوات الري الفعالة.

ولقد انتشرت ثقافة عبيد التي كان الفخار عاملاً في وجودها انتشاراً واسعاً ابتداء من الخليج الفارسي إلى سورية ولا يمكننا القول بالتأكيد إن ذلك قد حدث بسبب الانتشار الثقافي أو أنه قد ترافق مع الهجرات الحقيقية، مع أن زيادة الفخار في حلف وعبيد في بعض المواقع يصوب الرأي الأخير.

من كان شعب عبيد ياترى؟ إن هذا سؤال خلافي جدلي. ففي جنوب العراق وجدوا حلقة واحدة في سلسلة المراحل الثقافية تدعى أحياناً أريبور أو حاجي محمد أو عبيد، أو أوروك أو جمعت نصر مع أن الميول المتداولة بين علماء الآثار اعتبار الاسمين الأولين من هذه الأسماء هما الأسماء أو الوجوه الأولى لعبيد، وأن جمعت نصر هي آخر وجه من وجوه أوروك، وقد استعملنا هذا الاصطلاح البسيط هنا. إذ إن فترة أوروك متصلة بالسومريين في الأزمنة التاريخية، وفي هذه الفترة نجد بعض البدع المؤثرة مثل نشوء المدن أو فن المعمار التذكاري. ومع ذلك يواجهنا الآن الجزء الأعور من المفضلة، فهل كانت ثقافة أوروك نتيجة لقدم (أو إصرار في اظهار النفس) السومريين الذين يمثلون مجموعة عرقية جديدة ذات ميول جديدة، أو هل هي تمثل حفرة نوعية إلى الأمام تمثل تطوراً مستمراً. ففي الحالة الأخيرة فإن شعوب

المراحل المسابقة في جنوب العراق وعبيد في جميع مراحلها من الممكن أن نعدّها من الشعوب السومرية الأصلية أو الأولى.

وإن زيادة السكان المرتبطة بعبيد تقدم لنا إمكان دخول نفوذ جماعة عرقية جديدة حتى في الحالة الأخيرة. ويبدو أنه من المؤكد أن هناك لغة غير لغة السومريين التي كانت سائدة في بداية الألف الثالثة وكانت معروفة هناك قبل عام ٢٥٠٠ ق.م، وذلك من أسماء الأمكنة التي ظلت باقية في جنوب العراق. وهذا يشير إلى أن السومريين كانوا فعلاً قادمين جديداً خلال الألف الرابع أو أنه على الأقل كانوا مجموعة متميزة بدأت تستغل نفوذها الثقافي، وجعلت هذا النفوذ معروفاً حينذاك، ولكن هناك شواهد ملموسة تؤيد وجهة النظر التي مفادها أن مجموعة عرقية خاصة قد لعبت دوراً مرموقاً في خلق ما يدعى بالثقافة السومرية، مع أن هذا الرأي لا يوافق عليه علماء الآثار الشباب الذين عدوا هذا الرأي شوكة في حلقهم، وعدوا أنه من الظلم اعتبار تفوق أي مجموعة عرقية على أخرى.

فهل كان العبيديون سومريين أصليين أم لم يكونوا؟ فقد كان وصولهم الطارئ إلى السهول الآشورية (أو بدلاً من ذلك انتشار نفوذهم الثقافي) قد جلب تطورات مهمة وخصوصاً في التجارة. هذا وإن اختفاء ثقافة حلف قد رافقه الانهيار في شبكة تجارتهم التي كانت واسمة الانتشار. وربما كانت هذه التجارة سبباً لهذا الانهيار، ولكن الاتصالات التجارية الواسعة التي مهزت نموذج الحياة الذي طغى على آشور فيما بعد، ولصفه تطور مرة ثانية في فترة عبيد الأخيرة، وهذا كان يشمل الروابط مع شمال سورية بالنسبة للخشب وفي المناطق الجبلية بالنسبة للنحاس الذي بدأ يلعب دوراً هاماً بعد أن تطورت تقنيات صب النحاس وسكبّه في قوالب. وإن اعتماد أهالي ما بين النهرين على هذه المواد الخام المطلوبة من تلك المناطق أصبحت فيما بعد العامل المهم في استراتيجية آشور الاقتصادية والمسكرية في المستقبل.

فجر التاريخ

لم تكن التطورات خلال بلاد آشور خلال فترات عبيد وما تلاها أي بين عام ٤٥٠٠ وعام ٢٥٠٠ ق م واضحة بالقدر الذي نتمناه. إذ إن زيادة حجم وكثرة المواد المعاصرة الآتية من أقصى الجنوب قد أبرزت هذه الحقيقة. ففي جنوب العراق تُظهر الفترات التالية للعبيدية المعروفة أثرياً باسم أوروك والسلالات الملكية الأولى، تظهر تطورات جديدة من نوع رائع ملقت للنظر. وهنا تقابل بداية تلك المجتمعات المعقدة التي ندعوها المدن ذات البنى ذات الضخمة للهياكل والاختصاصات الفائقة التطور والكتلية، أي جميع النواحي البارزة والمالم المرافقة للمومريين. وسرعان ما بدأت هذه التطورات بالتأثير على اممكة واقعة في خارج جنوب العراق. مثلاً في موقع يدعى حبويه الكبير الواقعة على الفرات في سورية. وهناك خرائب مدينة رئيسة عاشت قبل عام ٢٠٠٠ ق م وهي تظهر روابط لا يتطرق إليها الشك مع فترة أوروك في جنوب العراق. ولقد انتشرت تطورات أوروك والسلالات القديمة في أعالي نهر دجلة مع أن تأثيراتها لم تظهر في آشور مدة عدة قرون، وبسبب هذا التخلف أو التأخر الزمني علينا أن نفتحه عند إعادة تصديرتنا، ولبنس لدينا ما يبرر مله شواهدنا القليلة النادرة حول آشور خلال هذا الزمن بأخذها من المعلومات الوافية التي تشمل في حوالي نهاية هذه الفترة والوثائق المكتوبة التي لدينا والمختصة بسومر.

ومع ذلك يمكننا رؤية بعض تلك الاتجاهات التي كانت تطور بها الأشياء في آشور خلال هذين الألفين من السنين. فقد أضحت المستوطنات أكبر حجماً، لتصبح مدناً حقيقية وبمضها كان معاصراً بالأسوار لحمايتها. والاستنتاج الواضح كان خطر تعرض هذه المدن للهجوم المركز من الخارج الذي أظهر أن الحرب أصبح من معالم الحياة، وكان لهذه الملامح تأثير على البنى الاجتماعية. فقد كانت عمليات تحصين المدن تشمل التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي، وهذا يلزم ظهور زعماء الحروب القادرين على القيام بمهام القيادة الناجحة، وكل شيء ضروري في مصطلحات التنظيم الاجتماعي وترتيب الطبقات الاجتماعية. ولقد وجد

أحد الأختام من تلك الفترة وهو يصور أحد مظاهر الحرب، أي: مثلاً صف من الأسرى، وإن الاستيلاء على الأسرى في الحرب يمثل بداية مؤسسة العبيد والعبودية، مع وجود مجموعة اجتماعية معرومة من الحقوق، وإن تفسيرات هذا الختم لا يتطرق إليها الشك، ومع ذلك فهناك دلالات أخرى عن تطور الاختلافات الطبقية. وهكذا بدأت الينيائات المخصصة للعبادة تظهر وكان بعضها يؤلف مساكن تخص أقلية من الناس ذات ثروات أو قوى سياسية أو كليهما، وكانت القبور تقدم صورة مشابهة نظراً لأن قلة من هذه القبور كانت تحتوي مدافن فخمة لم تكن متوفرة للكثيرين.

ولكن التطور في بناء الأبنية الدينية غالباً ما يدل على تطور في المجتمع ككل. وهكذا فإننا نرى في معظم المواقع الأشورية خلال تلك الفترة المعابد التي تظهر زيادة متواضعة في الثروات والحجم. وهذا منافق للوضع الذي كان سائداً في سومر المعاصرة. فهناك ظهرت أبنية المعابد المخصصة للنظر بحيث أصبحت هذه في أواخر الألف الرابع النفاط الرئيسية التي تدل على الحياة الاقتصادية فضلاً عن الحياة الدينية. ولكن رغم هذه التفاضات العامة، كان هناك بعض الأمكنة داخل منطقة آشور حيث كان لتنفوذ السومري تأثيره في بناء المعابد، وهناك اثنان من هؤلاء وجدت في تل باريك في أعالي الخابور وتيب جاورا إلى الشمال الشرقي من نينوى، فضلاً عن سلسلة من المعابد الرائعة التي تشبه مثلاتها في الجنوب شهاباً تماماً. وفي الواقع أنها قد تأثرت بهؤلاء ولكن يبقى ذلك وضعاً شاذاً، وعلى العموم كانت المعابد خلال هذه الفترة أقل بهاء من القلاع، وهناك تفسيران لهذه الظاهرة. أحدهما أن الزعماء العلمانيين كانت لهم الميزة الأرض في المجتمع تقصق منزلة الكهنة، والتفسير الثاني هو أن زعماء الشؤون العلمانية هم نفس زعماء الكهنة، وأن رجال الطبقة الحاكمة قد استعملوا الأبنية العلمانية مراكز للإدارات الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك لم يكن هناك من حافز لنمو فكرة أبنية المعابد البارزة اللافتة للانتباه.

ولقد استمر تطوير التجارة، ويظهر هذا بوجود الأشياء المستوردة في القبور مثل الدودع الآتي من المحيط الهندي، أو الأشياء المصنوعة من المواد المستوردة مثل الفتيق الأحمر وحجر الجمشت أو اللازورد ومصدر الأخير هو أفغانستان. وهناك شاهد آخر على تقدم التجارة، إذ تظهر الأختام من فترة أوروك ومن تيب جاورا صلات الود والمحبة مع أولئك السكان من مستوطنتين معاصرتين في إيران، وقد قيل إن هذا يعني ويدل على نفوذ متبادل. ولما كان الفرض الرئيسي من الأختام هو وضع علامات على البضائع، فيصبح هذا دلالة قوية على سفر التجار من آشور إلى إيران، ويؤكد هذا الرأي أن تيب جاورا قد انحطت وتأخرت أهميتها في أواخر عصر أوروك مع حدوث توقف في العمل في إحدى المواقع الإيرانية المذكورة، وهي جيان ويمكن أن نمزو كلا هاتين الحقيقتين إلى توقف الطريق التجارية التي كانت قد تسببت بزيادة أهمية هذين السكان.

وتشير الشواهد من تل براك أنه قد أضيف إلى المعبد بعض النحاتين وصانفي الذهب، وهذا يدل على أنه قد بدأت في آشور نماذج منتشرة للتخصصات المهنية، ومع ذلك ينبغي علينا الحيلة في استنتاجاتنا من هذه الشواهد نظراً لأن تل براك كانت خاضعة لتفوذ الجنوب السومري فلم يكن من الضروري أن يكون هذا منطبقاً على بقية آشور، ولكي نرى كيف حدثت المرحلة التالية من التطور في آشور فإننا نحتاج لدراسة خلاصة مقتضية للحوادث في جنوب العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق. م.

التطورات في سومر

بعد ظهور المدن ظهر في سومر وبمحاذاة الفرات وإلى حد ما بمحاذاة دبالا عند من أول المدن، وكانت مستقلة ولكنها متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً، وظهرت سلالات وراثية ولكن الدول القوية مثل كيش وأوروك بدأت تمارس بعض أشكال الحكم على الآخرين، واتخذ أولئك الحكام لقب الملوك (ومعناها

الحربي الرجل العظيم) وإن الزمن الذي علا فيه شأن هذه التنظيمات السياسية يدعى فترة السلالات الأولى (مع تقسيمات ثانوية متعددة).

وفي أثناء فترة السلالات الأولى ظهر بعض الأقوام الذين أثبتوا وجودهم بالتدرج إلى جانب السومريين، ولكنهم كانوا من عناصر ثقافية أجنبية أخرى، وكانت هذه هي المجموعة الناطقة باللغات السامية هم الذين نعرفهم باسم الأكاديين، وكان أصلهم وموطنهم في الصحراء السورية إلى الغرب من منطقة ما بين النهرين، وقد وصلوا بعد عمليات طويلة من الهجرة (وربما بدأوا من فترة سابقة لعهد السومريين) فلم يبدؤوا بفرض حربي مفاجئ.

أسرة أكاد

في أوائل القرن الرابع والعشرين ق. م استطاع أحد أولئك الأكاديين المعروف باسم سرجون الذي كان يعمل أولاً في خدمة أحد ملوك السلالة الرابعة في كيش، استطاع أن يحصل على الاستقلال، ونفى لنفسه عاصمة تدعى أكاد وسرعان ما استطاع سرجون أن يوقع الهزيمة في جميع الحكام المحليين، فأصبح ملكاً لجميع أرجاء ما بين النهرين الجنوبية، ويمكننا أن نحدد تاريخ حكمه ما بين (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م) مع أن بعض العلماء الآخرين يخالفوننا التقدير بعدة عقود على أساس اختلاف التقديرات والحسابات.

وإن أهمية كل ذلك بالنسبة لآشور هي أن سرجون أظهر نفسه كأول رجل أميريائي، فقد قام آخر ملوك السلالات السومرية بهجوم على مناطق أعالي الفرات وربما وصل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، إلا أن سرجون تابع ذلك التوسع بقيامه بحملات واسعة عبر سورية حتى البحر الأبيض المتوسط وجبال أمانوس وربما فيما وراء تلك الجبال، حتى اجتاز أعماق آسيا الصغرى، ولكنه لم يكتف بذلك بل هاجم واستولى على منطقة أخرى تدعى موبارتو وكان هذا يعني الأراضي الشمالية إلى الشرق من سورية حيث كان الجزء الأوسط منها هو ما يدعى آشور.

وهكذا أصبحت آشور جزءاً من إمبراطورية أكاد ، ولقد استتجنا هذه المقولة من نقش وجد على رأس رمح من النحاس اكتشف في المدينة ينص على ما يلي:

((مانشتوسو ، ملك كيش: أنزورو خلدته صنع هذا الإهداء إلى الإله)).

وكان مانشتوسو هو حفيد مرجون والحاكم الثالث في تلك السلالة وكان لقبه ملك كيش يدل على كلمة إمبراطور ، وكان (أنزورو) واحداً من عدة أتباع تحكم باسم مانشتوسو وتابعة له.

ولقد سيطرت أسرة أكاد على نينوى أيضاً وهي إحدى المدن الرئيسية في آشور ، ونعلم هذا من قناع برونزي يخص أحد ملوك أكاد ، وهو قناع لنينوى صلات خاصة مع مانشتوسو عرفت من نقش يعود إلى ملك متأخر ، وهو يسجل أن المعبد الذي كان يعبد بناءه هذا الملك قد كان مانشتوسو قد بناءه ، وهكذا وعلى الأقل في حكم مانشتوسو وربما أثناء فترات طويلة من حكم الإمبراطورية الأكادية ، كانت آشور ونينوى جزءاً من كيان سياسي متكامل يدل على وضع ربما حدد الخطوة الأولى تجاه إنشاء مملكة موحدة ، وهي مملكة آشور ، مع وجود هاتين المدينتين كمركزين جنوبي وشمالي من مراكز تلك القوة.

نشوء البلدات والمدن

عدا عن شواهد الارتباط مع الإمبراطورية الأكادية ، لا نعلم إلا القليل بالضبط عن آشور قبل نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، مع أن علم الآثار قد ملأ تلك الصورة مثلاً ، نعلم الآن أن عدداً من البلدات كانت تنشأ في آشور في منتصف الألف الثالث ق م ، وقد وجدت إحدى هذه البلدات في تل تليا ، اكتشفت حفرياتها عام ١٩٦٧ م ، وفيما يمد من قبل الدكتور (جوليان ريد) من المتحف البريطاني ، وكان هذا المركز المزدهر الواقع إلى الجنوب من سلسلة جبال منجار يتألف من ١٢٠ فدناً بامتداد كثيف مع وجود منازل من الحجر والطوب ومسور خارجي

وشوارع ثم قلعة في الوسط، ويقدر عدد السكان بعشرة أو خمسة عشر ألف نسمة على الأقل.

ولكن يبقى أمامنا عدد من المشكلات بالنسبة لآشور في الألف الثالث ق م: فهناك مثلاً السؤال الأمامي حول وجود ذلك الحكيان الذي نستطيع أن ندعوه آشور، وكما رأينا فقد مضت فترة كانت آشور ونيوى تحت حكم أكاد، ولكن هذه العلاقة قد أتت من الخارج ولم تكن وحدة عضوية، إذن متى كان هناك لأول مرة وحدة مستقلة وطنية سياسية مؤسمة من ثلاث مدن رئيسية وهي نينوى وآشور وأربيل؟

إلى أي حد كانت ثقافة تلك البلاد ذات عنصر وطني مميز؟ وإلى أي حد قد استعيرت تلك الثقافة من الجنوب أو (بالنظر لما بدأنا في نعلمه حول الحضارة المبكرة في سورية) من الغرب؟ وماذا كان التركيب العرقي لتلك البلاد؟ وهل كان ذلك التركيب موحداً على صورة واحدة أم كان هناك مناطق متميزة متصلة بهجرات متتابعة لجماعات خاصة؟ وما هي اللغة التي كانت مستعملة؟

يمكن الإجابة على بعض هذه الأسئلة بشكل تجريبي وبعضها لا يمكن ذلك أبداً، هذا وإن كثرة الشواهد التصويرية القادمة من الجنوب تجعل جهلنا أسوأ وتزيد الطين بلة، ولكن هناك بعض الإشارات التي تقدم إجابات لبعض هذه الأسئلة على الأقل، إذ إن إلقاء نظرة على موقع آشور ربما أعطت بعض الدلالات لمعرفة أي نوع من الناس قد عاشوا هناك، ولماذا كان ذلك، فقد بُنيت على صحرة من الحجر الرملي مشرفة على الضفة القريبة لنهر دجلة، وإن هطول الأمطار لا يخدم إلا بصفة هامشية بالنسبة للزراعة في تلك المنطقة دون اللجوء إلى الري، ولطالما حدث نقصان وقحط في المحاصيل الزراعية، إذ إن الاستنتاج المعقول الوحيد هو أن الشعب الذي استقر في تلك الفترة لأول مرة كان يبني قاعدة من الممكن الدفاع عنها، ذات إمدادات دائمة من المياه، وقريبة من المراعي، ولكن هذا الشعب لم يكن مهتماً بالزراعة، وهذا يشير إلى أنهم كانوا رعاة من الجزيرة، كانوا في حالة منظمة بشكل كاف في مجتمع بحاجة إلى قاعدة رئيسية دائمة،

وأن أول المستوطنين قد أتوا من الجزيرة يظهر من كون وقوع آشور إلى الغرب من نهر دجلة ، فالمستوطنون يتوقفون عند النقطة حيث يصلون إلى النهر الرئيسي.

وبالمقارنة نجد أن نينوى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، إلى أقصى الشمال على مرأى سفوح التلال في طوروس ، وهذا يوحي أنها قد سكنت في الأصل من قبل أناس خرجوا من التلال في الجهة الشمالية الشرقية ، ولكن مركز أربيل يوحي بأصل مشابه ، وأن التقاليد الدينية تبعد بأنها تصل نينوى بأربيل ولكنها تفصلها عن آشور .

وكانت الآلهة التي تترافق مع المدينتين هي الآلهة عشتار ، وقد ذكرت عشتار نينوى وعشتار أربيل في مناسبات عدة واعتبرتا إلهتين وطنيتين رئيسيتين ، ولكن الإله المرافق لمدينة آشور كان إلهاً ذكراً يحمل نفس الاسم آشور ، ولا نعلم بعد كثيراً حول التاريخ المبكر لأي من المدن الثلاث الرئيسية : آشور ، ونينوى ، وأربيل ، مع أن هذه المدن قد تأسست منذ عهد طويل منذ عام (٢٥٠٠ ق.م) وتحتوي التلال التي تضمهم شواهد نستطيع أن نتقصى تلك التطورات في آشور لو كان لدينا النقود والوقت ، ولسوء الحظ فإن أربيل ظلت غير مكتشفة ، ومع أنه قد حصلت نشاطات أثرية لا بأس بها في آشور ونينوى إلا أن هناك صعوبات تقنية حددت المعلومات حول الفترات المبكرة ، وقد بدأ استكشاف نينوى بشكل متقطع منذ عام (١٨٤٢) ولكن الجزء الأعظم من نشاطات من هذا النوع قد تركزت بالقصور التي بُنيت في عصر الإمبراطورية في الألف الأول ، وكان الاستثناء الوحيد هو السبر العميق الذي حُفر من قبل M. E. L (سمي فيما بعد السيد ماكس مالمون عام ١٩٢٢) الذي وصل إلى الأرض المبكر بعد حفر تسمين قديماً أسفل قمة التل ، ولكن وبينما أعطى هذا العمل تتابع الأواني الفخارية رجوعاً إلى أزمنة ما قبل التاريخ ، وأظهر أن هذا التركام قد كان مسكوناً نحو عام (٥٠٠٠ ق.م) إلا أنه لم تقدم سوى معلومات قليلة نوعية حول نمو تلك المدينة وتقدمها اعتباراً من كونها مستوطنة حتى أصبحت مدينة رئيسية.

آشور الأولى

تأتي معلوماتنا حول آشور الأولى من معبد مكرّس للإله عشتار، وقد ثبتت صحة هذه المعلومات بعد عام (٢٨٠٠) ومن الواضح أن آشور في ذلك الوقت كانت عبارة عن مركز ديني تحتوي على عدة أبنية أثرية، على الرغم من أنها كانت مصنوعة من الآجر، وكان الدين يحتل مكاناً مرموقاً في البنية الاجتماعية والاقتصادية، وليس من الضروري أن نستنتج والحالة هذه أن القوة الدينية كانت منفصلة عن القوة المدنية على ضوء الألقاب الدينية ووظائف الملوك الآشوريين الذين سوف نقابلهم فيما بعد، بل إن كلتا القوتين كانتا متشابكتين.

هذا وإن اللقى التي وجدت في المعبد القديم لا تخبرنا إلا القليل حول الحياة في الألف الثالث ق.م، وبين هذه توجد نماذج من الفخار للمنازل، ومع أنه كان لتلك النماذج بعض الوظائف الدينية إلا أنه من المعقول أن نفترض أنها كانت نماذج لأنواع حقيقية من المساكن، وأن ما يظهر منها هو منزل ذو سقف منبسط مؤلف من طابقتين من الأمام وطابق واحد من الخلف.

وهذا يوحي أن المسكن النموذجي كان مؤلفاً من طابق واحد فيه حجرة واحدة عليها حسب ما تذكره التوراة، وهذه الحجرة مبنية فوق المنزل من الأمام، وهناك نموذج لنفس الشكل يظهر ثلاثة طوابق أي: حجرة علوية واحدة مبنية فوق بناء مؤلف من طابقتين، وهناك في المعبد القديم تماثيل يظهر بأنها سومرية تعود إلى فترة السلالات الأولى، وهذا لا يتطلب منا أن نفترض أن المجموعة الحاكمة في آشور كانت من السومريين ولمكنها تظهر أنه قد كان هناك نفوذ سومري ثقافي قوي.

وقد وجد نقش نافر من الجص يظهر الآلهة وهي مرتدية جواهرها حتى أذنيها وجيدها ولسكنها عازية عند ثدييها وسرثتها وهي مضطجعة على الفراش في سريرها، وهذا يظهر في الوقت نفسه وجود مراسم وطقوس تعبدية جنسية على شرف الآلهة ويظهر أيضاً استعمال السرير ويظهر هذا السرير بشكل لوح منبسط دون أرجل.

وهناك معلومات أخرى حول آشور الأولى يتقدمها اسم آشور ، فبالإضافة إلى الاسم المعتاد إلا أنه يشار إليه باسم بالثيل مع أن هذا الاسم الأخير قد حظي بتفسير سومري فيما بعد من قبل علم اشتقاق اللغة السامي إلا أنه لا ينتمي إلى السومرية ولا إلى السامية ، والحقيقة أنه ينتمي إلى لغة تابعة إلى طبقة قديمة من السكان كانت تستعمل حرف (el) في نهاية بعض أسماء الأماكن مثل كلمة بابل أو أرييل أو كوريل ولقد فسرت هذه الذي (el) بشكل مفلوط بأنها تشير إلى اسم الإله باللغة السامية. ولكن هذا الاسم غير السومري وغير السامي يوحي أنه قد نشأت مستوطنة هناك قبل أن يستوطن السومريون أو الساميون ويصبحون مسيطرين عرقياً في تلك المنطقة.

الفصل الثاني

ملوك آشور الأوتل

تنتهي فترة ما قبل التاريخ وتبدأ الفترة التاريخية عند كتابة المصادر، وأما بالنسبة لآشور فقد وصلت تلك المرحلة في النصف الثاني للألف الثالث ق. م أي بعد نصف ألف بالنسبة لوجود سومر في الجنوب، إذ إن علم الآثار الملوكي في إقليم ما قبل التاريخ لم يعد كذلك مع أنه يستمر في لعب دور حيوي، وذلك لأنه ترك لنا نقوشاً تعتمد عليها إعادة بناء التاريخ بصورة منتظمة، وبالنسبة لهذه الفترة وبالنسبة للألوف التالية من المئتين، فإن هذه النصوص على اختلافها في محتوياتها أو لغتها تمتلك شيئاً واحداً مشتركاً، فهي كلها مكتوبة بالخط المسماري، وفي هذا الخط تضغط الحروف في أقراص صغيرة من الفخار أو تقش على أنصاب من الحجر أو المعدن، وأما في محتوياتها فإنها اقتصادية ودينية وتاريخية أو قاموسية معجمية أو واحدة من الفصائل الأخرى، وبالنسبة للغة فمع أن اللغة السامية الأكادية كانت أكثر استعمالاً إلا أن هناك عدة لغات استعملت في النصوص، ولكن كان لجميع هذه النصوص جذورها القديمة حيث اخترعت الكتابة قبل عام ٣٠٠٠ بوقت قصير.

قائمة ملوك آشور

نمود بعض هذه النصوص المسمارية مثل النقوش الموجودة على بعض الأشياء المكسرة للمعابد مباشرة إلى الزمن الذي كتبت فيه، وهناك نصوص أخرى أكثر أناقة تحفظ فيها المعلومات حول الحوادث قبل تاريخ تأليفها.

وهناك وثيقة واحدة من النوع الأخير تبدو أنها تسهل علينا في تأليف أطر التاريخ الآشوري القديم، فالوثيقة المذكورة تدعى عادة قائمة ملوك آشور (وهي موجودة بعدة نسخ) وفيها يذكر أسماء الحكام اعتباراً من الألف الثالث حتى القرن الثالث ق. م وعندما تذكر هذه الوثيقة الملوك بتواريخ وجودهم وتضع

افتراضات معقولة للملوك ترجع إلى نحو ٢٥٠٠ ق م ولكن هناك أسباباً لعدم استعمالنا لها بهذا الأسلوب البسيط.

إن أول ملك آشوري معروف من النقوش التي صنعها لنفسه هو شمسي أداد الأول (١٨١٣ - ١٧٨١) إن هذا الملك هو الذي يقدم لنا أول نقطة ثابتة معينة بالنسبة للتواريخ الآشورية، نظراً لأنه تواكب مع تاريخ حمورابي في بابل الذي كانت تواريخه معروفة، وقبل الملك شمسي أداد، تذكر القائمة ثمانية وثلاثين ملكاً أو ملوكاً فرعونيين، وهذه الأسماء موضوعة بشكل مجاميع، فالسبعة عشر الأولى لخصت حياتهم بأنهم ملوك يعيشون في الخيام، وبعدها عشرة ملوك وصفوا بأنهم من الأجداد، وبعدها ذكرت مجموعتان كل منها تحتوي على أسماء ستة ملوك، وبعدها شمسي أداد.

ويلاحظ القارئ التنبه أن أعداد الملوك في قائمة الملوك (قبل شمسي أداد) تصل إلى ٢٩ ملكاً، مع أنه قد ذكر أن الملوك قبل شمسي أداد كان عددهم ٣٨، وهذا التناقض وقع لأن نفس الاسم ذكر في نهاية كل مجموعتين وهذه مصادفة تدل على أن بنية وأصل هذه القوائم تستحق فحصاً واستقصاءً أكثر.

إن المجموعة الأولى وهي أسماء الملوك الذين كانوا يعيشون في الخيام هي قائمة صحيحة ذات ترتيب تاريخي، نجد فيها أن الملكين الأخيرين يدعيان أشبيا وأببشال، ولكن المجموعة الثانية وهي مجموعة الملوك الذين كانوا أجداداً قد رُتبت بشكل مختلف فالأخير في الخط ذكر أولاً، وكان يتبع كل ملك اسم والده ويمد ذلك جذه بهذه الطريقة.

امنو ابن ايلو كبكبكي

ايلو كبكبكي ابن يازخور ايلو

يازخور ايلو ابن ياكاميني

وبالنسبة لمطابقة ياكاميني وستة أجيال أخرى قبله كان أقدمهم زمناً هو: أببشال بن أشبيا.

وهكذا وفي هذه المجموعة الثمانية ذكرت أسماء الملوك اعتباراً من الأخير إلى الأول، ولكن أياشال كما هو الحال في القائمة الأولى يذكر في المؤخرة مع أن هذا الترتيب يجمعه أقدم المجموعة، وبهذه الطريقة أصبح أياشال يخدم كهمزة وصل بين القائمتين مع أن الفروق بالشكل بين القائمتين تومي بأن لا علاقة بينهما.

إن هذه الترتيبات الاصطناعية غير الطبيعية تثير الشك حول طبيعة قائمة الملوك الآشوريين بالنسبة لفترة الأولى، وهكذا فسوف نمود إلى الأرض الصلبة لنرى ما تقوله الوثيقة حول شمسي أداد.

وبالنسبة لمعظم الملوك هناك تفاصيل وأهية، أما بالنسبة لشمسي أداد فإن القائمة تطلي تفاصيل خاصة بشكل استثنائي عندما تصف الظروف التي ارتفع بها إلى السلطة، وهنا نقرأ في الجزء المختص بهذه القضية مايلي:

شمسي أداد ابن إيلوكيكبي في زمن نارام سن (أحد ملوك آشور القدماء) ذهب إلى كاردونهاش (أي: بابل) ثم رجع من كاردونياش، واستولى على بلدة إيكالاتو وبقي في إيكالاتو مدة ثلاث سنوات، ثم خرج من إيكالاتو وأزال إيديشوم ابن نارام سن عن العرش واستولى على العرش.

ولا يخفى أن شمسي أداد استولى على الموش في آشور بعد إزالة ممثل أسرة حاكمة موجودة كانت هي الأسرة الآشورية الوطنية، مما يوضح أن شمسي أداد كان مفتصباً للسلطة، وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال الذي يطرحه المعاصرون فضلاً عنّا نحن وهو: ماذا كانت خلفية شمسي أداد؟ والجواب الذي تقدمه قائمة الملوك: إنه كان ابن إيلوكيكبي.

ولكننا صادفنا إيلوكيكبي قبلاً في تلك القائمة فقد كان هو والد أمهنو الذي كان هو الأول المذكور ولكنه كان الأخير بالنسبة للملوك الذين كانوا أجداداً، وهكذا يصبح السؤال: أجداد من؟

ومن الممكن الإجابة على هذا السؤال بشكل موثوق: فقد كانوا أجداد شمسي أداد الذي أدخل بشكل ذكي إلى قائمة آشورية من الحكام بقصد تدعيم

سلطته وجعلها شرعية أي جعل سلطنة المقتضب شمسي أداد شرعية، وهكذا بإضافة اسمه عن طريق أبياشال إلى قائمة الملوك القدماء في آشور الذين حكموا قبل الأسرة التي خلفها.

فقد استطاع شمسي أداد أن يتقدم وكأنه وريث الحق لتولي عرش آشور من أجداده الذين حكموا قبل الأسرة التي خلفها.

وهنا نود أن نمود بشكل مقتضب إلى المجموعة القديمة للحكام المزعومين في قائمة الملوك الآشوريين وهم السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن لدينا قائمة بأسماء أجداد الملك حمورابي البابلي الذي كان معاصراً لشمسي أداد، وفي هذه القائمة نجد اثني عشر اسماً في قائمة حمورابي متطابقة مع الاثني عشر اسماً من أسماء الملوك السبعة عشر الذين كانوا يعيشون في الخيام وهم من قائمة الملوك الآشوريين، والآن نلاحظ أن عائلات كبل من حمورابي وشمسي أداد كانت من أصل عموري وكان العموريون شعباً سامياً أتى إلى منطقة ما بين النهرين من الصحراء الغربية في وقت قصير قبل أو بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. وهكذا فإن الأسماء الاثني عشر المشتركة بين الآشوريين والبابليين ينبغي أن تمثل بعض الرؤساء والشيوخ من عهد البدو الرحل، قبل أن ينضم العموريون إلى مجموعات منفصلة، وقبل أن يستقروا في منطقة ما بين النهرين، وإن يلو كيكبي والد شمسي أداد يتصل مع هذا الخط من خلال أبياشال بن اشبيا، وهذا يصبح شمسي أداد هو السليل المباشر المنحدر من خط أقدم للزعماء البدو الرحل من الأزمنة القديمة.

وهنا لابد أن نذكر كلمة عن الأسماء الخمسة في مجموعة السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن بعضهم ربما كانوا هم الحكام الحقيقيين القدماء الذين حكموا آشور، واحدهم الذي كان حاكماً حقيقياً هو اشيبيا والد أبياشال نظراً لأن هناك إحدى الروايات المستقلة عن قائمة الملوك الآشوريين تذكر أنه كان قد بنى واحداً من أقدم المعابد في آشور، وإن هذا الاتصال مع إحدى المجموعات للزعماء العموريين من البدو الرحل المفترض أنهم من

أجداد شمسي آداد ، ولكونهم الحكام الحقيقيين لآشور منذ الأزمنة القديمة ككل هذا يخدم في إعطاء شمسي آداد صلة (ولو أنها زائفة) مع ملوك آشور تعود إلى المهود التي امتد بها حكم ملوك آشور الحقيقيين.

وهكذا فنحن لا نستطيع أن نثق بقائمة الملوك الآشوريين وبقيمتها كقائمة صادقة موثوقة لتعداد جميع الملوك في آشور قبل شمسي آداد ، وهذا يوصلنا إلى سؤال عمّن كان الحكام الحقيقيون القدماء في آشور؟ وفي معالجة هذه المشكلة علينا أن نلاحظ أن كثيراً من الشواهد القديمة لدينا إنما تعود إلى مدينة آشور بالذات أكثر من عودتها إلى آشور بشكل واسع ، ومع أن نفس الاسم يستعمل لمدينة آشور ولبلاذ آشور في اللغة الأكادية ، إلا أنه جغرافياً لم يكن الاسمان متماثلين ، فالأرض التي حكمتها مدينة آشور كانت أصغر مما نفهمه من بلاد آشور.

وعدا عن اشمال قائمة ملوك آشور لبعض الأسماء القديمة الذين لم يكونوا في أي وقت من الأوقات ملوكاً لآشور ، إلا أن هذه القائمة تفضل ذكر أسماء آخرين كانوا كذلك ، وإن أول هؤلاء المروطين لدينا كان شخصاً اسمه (إيتي) وهو مذكور في نقوش مقتضبة على قطعة من الألواح تعود إلى الفترة الأكادية القديمة ٢٤٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م. ومفادها مايلي: إيتي: الحاكم ابن إينين لآبا قد كرس هذا النقش إلى الآلهة إينين من غنائم (جاسور).

وكانت جاسور هي الاسم القديم لإحدى المدن عرفت فيما بعد باسم نوزي قرب كركوك ، وهكذا يخبرنا هذا النقش أن منطقة كركوك لم تكن في ذلك الوقت جزءاً من مملكة آشور ، بل كانت عبارة عن دولة مدينية منفصلة ومعاوية ، وهذا الانفصال لم يكن قضية عرقية نظراً لأن النصوص التي وجدت في جاسور تظهر أنه عند الحكم عن طريق الأسماء الخاصة الموجودة خلال الفترة الأكادية القديمة (وليس في وقت متأخر) فإن أكثرية السكان في تلك المدينة كانوا من الساميين كما هو الحال لدى سكان آشور ، ونظراً لأن آشور كانت لا تزال مستقلة ، عندها ربما يستتج المرء أن المدينتين الرئيسيتين نينوى وأربيل

وكلاهما بمهدتان عن جامور لم تكونا في ذلك الوقت جزءاً من مملكة أسامها آشور.

وقد لاحظنا في الفصل الأول سيطرة وقوة آشور ونيوى اللتين كانت تحكمهما الأسرة الأكادية في القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني والعشرين) وعند سقوط الإمبراطورية الأكادية بسبب غارات قامت بها شعوب آت من جبال زاغروس تدعى (غوثي) ولكن آشور أيضاً قد تأثرت وعانت من هذا السقوط كما نعلم من خراب أبنيتها التي كشفت عنها أبحاث علم الآثار.

سُلالة أور الثالثة

قبل عام ٢١٠٠ ق م بقليل ظهرت إمبراطورية أخرى في الجنوب وحكمت جميع منطقة ما بين النهرين لمدة قرن وتعرف هذه باسم سُلالة أور الثالثة، وقد كانت هذه الإمبراطورية أقل نفوذاً من إمبراطورية أكاد ولكنها كانت أكثر تنظيمياً إذ كان لها مراكز رئيسية يحكمها حكام منتقلون بدلاً من الأتباع المحليين، وهناك نقش يصف واحداً من هؤلاء الحكام يعود إلى عام ٢٠٠٠ ق م يذكر أنه - وفي ذلك التاريخ - كانت آشور تحت حكم أور، وأما أربيل فكانت تحكمها من حين لآخر سُلالة أور الثالثة وذلك طبقاً لما نعرفه من الوثائق الاقتصادية في الزمن الذي نُهب به أربيل ومن نقش سوري يعود إلى الزمن الذي يحدد فيه اسم الحاكم العسكري لأربيل.

لقد انهارت الإمبراطورية البيروقراطية التي تحكمها أور، وهي الرمز الأخير للسلطة السومرية السياسية، وذلك في عام ٢٠٠٦ ق م تحت ضغط العموريين الذين انقضوا عبر نهر الفرات من الصحراء السورية، ولكن بدأت تلك الإمبراطورية بالتفكك خلال بضعة عقود قبل انهيارها نهائياً وبذلك سمحت لأشور أن تستعيد بعض استقلالها.

نحن نستنتج هذه الفكرة من إحدى القصص التي تذكر أن شخصاً يدعى كيكيا بني أسوار آشور، ويمكننا أن نعرف تاريخ كيكيا نظراً لأن اسمه

مذكور في قائمة الملوك الآشوريين قبل اسمي ملوك نملك نقوشاً تخصهما، ونظراً لأن هذين النقشين يمكنهما من معرفة تاريخ هذين الملوك إلى زمن بعد ٢٠٠٠ ق م بقليل، لذلك فإن حكم كيكيكا ينبغي أن يكون قبل عام ٢٠٠٠، ولكن تظهر الحفريات أن بناء أسوار آشور قد حدث قبل ذلك بقرون، ومع ذلك فإن القصة التي تقول: إن كيكيكا هو الذي بنى تلك الأمور لا تخلو من الصعلة وأن لها بعض الأساس، ومن المحتمل أنها تمكمن خبر إعادة بناء الأسوار من قبل كيكيكا في الوقت الذي استطاع به أن يثبت نفسه كحاكم مستقل، وهذا من الممكن أن يكون في الزمن الذي بدأت به الأسرة الثالثة بالتقلم والتفتت.

آشور والتجارة

وحى زمن كيكيكا فإن آشور مع أنها كانت ذات أهمية استراتيجية بصفتها مركزاً قوياً في منتصف منطقة دجلة الوسطى، إلا أنها لم تكن ذات أهمية رئيسية عالمياً، ولقد بدأ هذا الوضع بالتغير فقد أصبحت النقوش التي تمثل ملوك آشور أكثر انتشاراً وإظهاراً لامتناد نفوذ آشور في الخارج ويشير أحد ملوك آشور في ذلك العهد، وهو إيلوشوما الذي حكم بعد عام ٢٠٠٠ ق م مرتين بأنه قد أتم تحرير شموب أككاد (يعني بابل جنوب منطقة ما بين النهرين) ويذكر بعض مدن بابل حتى مدينة أور جنوباً وهي على بُعد أربعمائة ميل من آشور، ومن الواضح أن هذا الملك قد قام بنوع من التدخل هناك، إذ إن معنى تحريره الدقيق يبقى غامضاً، ولكن هناك شيئاً آخر وهو أنه من الخطأ التاريخي محاولة ربط هذا التحرير بمعنى التحرير السياسي، وهناك كلمة أكادية تترجم بالتحرير بمعنى الإغناء من الضرائب ومن المحتمل أن يكون هذا المعنى عندما ذكر أنه قرر تحرير الفضة والذهب والنحاس، والقصدير والشعير والصوف والنخالة والتبن، وهذا يظهر أن لهذه الكلمة معنى اقتصادياً أي: إنه أعفى التعامل بمثل هذه البضائع من الضرائب، وهناك معنى غامض آخر في إحدى نقوش إيلوشوما من الممكن أن يكون مناسباً هنا، فمتدماً ذكر شعب بابل يقول: لقد غسلت نحاسهم. ومن الممكن أن يكون معنى هذا القول أنه باع للبابليين نحاساً نقياً.

وهذا يدل أن هؤلاء الملوك الآشوريين القمءاء كانوا مهتمين بالتجارة نظراً لأن التجارة لم تجلب لهم النفوذ السياسي فحسب ولكن الازدهار الاقتصادي المتزايد، وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي في مشاريع الأبنية الطموحة داخل آشور، ولديها نقوش تعود إلى إيريشوم الأول حيث يصف كيف أنه قد زاد حجم وعظمة منطقة المعبد ومدّاً سوراً كان قد بدأ والده بينائه.

مستعمرات كابادوكيا التجارية

إن قلة المعلومات السياسية حول آشور القديمة تجعل تلك المعلومات التجارية المقتضية ذات أهمية، والحقيقة أننا نعرف الكثير عن التجارة في آشور ما بين عامي ٢٠٠٠ ق.م، وزمن شمسي أداد الأول أكثر مما نعرف عن السياسة، ولا تأتي معظم هذه المعلومات من آشور نفسها ولكن من مصدر واقع على مسافة مئات من الأميال إلى الشمال، وتتألف معظم أجزاء هذه الشواهد من بعض الألواح الفخارية التي وجدت في موقع يدعى كولتهب (اسم قديم لكينيسمتهم إلى الشمال من فيسرية في تركيا الآسيوية في المنطقة التي غالباً ما تسمى كابادوكيا، وهذه الألواح هي من محفوظات تعود إلى أجيال عديدة لإحدى المستعمرات التجارية الآشورية كانوا يعيشون هناك في بداية الألف الثاني، وكان هناك عشرون مستوطنة من هذا النوع في فيسرية الأناضول، وذلك كما نذكر بعض أسماء الأمكنة في تلك النصوص ولكن هناك مستوطنة أو مستوطنات عرفنا عن طريق الألواح التي وجدت في مواضعها، ولا نعلم كم من الزمن كان التجار الآشوريون يعملون في الأناضول، إذ إن أقدم التواريخ في السجلات الآشورية الموجودة في كابادوكيا لا تثبت أقدم الأزمنة التي عملت فيها المستعمرات التجارية.

ومن الممكن أن يكون هناك مستعمرات في كابادوكيا لم يكشف عنها بعد، قبل الواحدة في كانيش أو حتى في كانيش نفسها، ومن الممكن أن يكون هناك نشاطات تجارية أقدم تعود إلى إجراءات تجارية لا تحتاج إلى التوثيق على ألواح من الفخار، وطبقاً لرواية متأخرة يقال: إن سرجون أول حاكم للإمبراطورية

الأكلادية قد استُدعي إلى كبادوكيا لحماية التجار هنالك وذلك في أوائل القرن الرابع والعشرين قـم.

فإذا كانت هذه حقيقة ملموسة فإن تاريخ المستعمرات التجارية سوف يتأخر عدة قرون إلى الوراء، ولكن هناك إمكان أن تكون هذه القصة مختلفة لعكس الحالة في كبادوكيا في أوائل الألف الثاني.

يتألف موقع كولتهب وهو المكان الذي بُنيت فيه مدينة كانيش القديمة، من رابية كبيرة حيث كانت القصور واقعة مع وجود مساحة للمساكن في أسفل تلك الرابية، ومن منطقة المساكن هذه كانت المحفوظات الخاصة بالأعمال التجارية، وتبلغ كمية هذه المحفوظات ١٤٠٠٠ لوحة، مع أنه لم ينشر إلا القليل منها، وتغطي الصورة الأساسية لهذه الألواح الانطباع أن لأماكن الأعمال التجارية ممثلين في كبادوكيا (وربما كان هؤلاء هم أصحاب الأعمال أنفسهم) وكانوا ينظمون التجارة في كانيش وغيرها من المدن، وكان هناك في قلب هذه التجارة قوافل الحمير التي كانت تحمل ما تحمله السفن من القصدير والمنسوجات وتقلها من آشور إلى كبادوكيا.

من المستفيد من هذه المستعمرات التجارية الآشورية؟ إن المجموعة الأولى ينبغي أن يكون الحكام المحليون الذين ما كانوا ليسمحوا للمستوطنات أن تستمر في أعمالها، ولكن الحوافز الرئيسية التي جعلت المستوطنين يستمرون في العمل هي تلك الفوائد التي كانوا يؤمنونها للآشوريين أنفسهم، فالرحلة من آشور إلى كانينين أو بالكلوم الدراج، من قلعة شرجات في العراق إلى قرب فيسيرة في أواسط تركيا الآسيوية، لهمت رحلة سهلة حتى في هذه الأيام التي يتوفر فيها النقل بالسيارات، فالمسافة تبلغ نحو خمسمائة ميل على الأقل، ولكن أي طريق برية عملية تبلغ حوالي أكثر من سبعمائة ميل على الأقل، وحتى في هذه الأيام فإن بعض الطرق لهمت أكثر من طرق مملوءة بالحصى والتراب، ومن الواجب قطع جبال طوروس وهي سلسلة جبلية ضخمة حيث ليس هناك أمان بالمعنى الصحيح. وفي عام ٢٠٠٠ قـم كانت كل هذه العوامل المحيطة موجودة بدرجة أقوى. ويمتد

البعض أنه في الوقت الذي تبدأ هذه التواضل رحلاتها عبر هذه المنطقة فإنها تستطيع الاستمرار في العمل بقوة الاستمرار الذاتي خصوصاً أنه كان هناك نظام يريد مساعدتها بمراحله المتعددة التي نشأت حول تلك الأماكن، ومع ذلك فإن هناك علامات استفهام حول سبب بدء مثل هذه الأنظمة في المقام الأول.

لم تكن المستعمرات في كبادوكيا هي المستعمرات الآشورية التجارية الوحيدة المعروفة، فهناك شواهد على مقياس محدود على وجود تجار من آشور كانوا يعملون في مقاطعة كركوك قبل الفترة التي كتبنا عن وجود شواهد فيها من كبادوكيا، وكانت هذه النشاطات أقرب إلى مركز آشور ولكنها تدل وتصور مدى اهتمام آشور بالتجارة، فإذا كانت آشور في مركز الحضارة التي تبدأ من سومر فإن التجارة كانت مُجدية بالنسبة إليها، وذلك لأن آشور (شأنها شأن سومر نفسها) كانت بحاجة إلى مادتين من المواد الخام وهي الخشب والمعادن. لقد كان توسع آشور التجاري إلى الأناضول رغبةً بالحصول على المعادن، فقد كانت آشور بحاجة إلى النحاس وكانت الأناضول قادرة على تأمينه، ولكن لم يكن هنا حل كامل للمشكلة نظراً لأنه كان هناك مصادر للنحاس في الأناضول أقرب من كبادوكيا بكثير، ومع ذلك فلم يكن الآشوريون يستخرجون النحاس من مناجمه بأنفسهم، ومن الممكن أن أهالي الأناضول أنفسهم الذين كانوا يقومون بهذا العمل قد ركزوا على عمليات التعدين في كبادوكيا.

وكانت هناك مشكلة أخرى وهي من أين يمكن للآشوريين أن يحصلوا على القصدير الذي كانوا يتاجرون به فلم يكن هناك مصدر للقصدير في آشور أو بابل، وبالاقتدار إلى شواهد مرموقة علينا أن نخمن أن القصدير قد استورد إلى آشور من زاغروس أو غيرها ولكن ليس مصدر القصدير هو ما نجهله فحسب بل نحن نجهل أيضاً الأليات التي كان القصدير يصل بها إلى آشور، ومن الممكن وجود مستعمرات آشورية تجارية في إيران أو زاغروس تساعد على الحصول على القصدير ولكن ليس لنا من دليل على ذلك، وحتى كلمة أناككو التي نترجمها

بكلمة القصدير تقدم لنا مشكلة، فقد ثار الجدل فيما إذا كانت هذه الكلمة تعني القصدير أو الرصاص مع أن الرأي الآن يميل إلى الأولي أي: القصدير، وحتى ولو كان الأمر كذلك فلم يتأكد أبداً أن هذا الاصطلاح يعني القصدير النقي، إذ من الممكن أن يكون أحد خامات القصدير، ولكن الرأي السائد أثناء كتابة هذا الكتاب هو أن أناسكو مزيج يحتوي كميات متفاوتة من القصدير والزنبرغ وكان يستعمل لإنتاج البرونز من النحاس أو خامات النحاس وكان الزنبرغ والقصدير يختلطان مع النحاس لإنتاج البرونز.

وإلى جانب القصدير فقد كانت البضاعة الرئيسية التي تعامل بها الآشوريون هي المنسوجات، هذا وإن مصدر هذه المنسوجات النهائي يقدم لنا مشكلاته، إذ نحن نعلم أن أفضل نوع من المنسوجات كان يأتي من بابل، ولكن هل كانت هذه المنسوجات تصنع في ورشات عمل أم هل كانت من مصنوعات أعمال بيتية؟ ولكن هنالك مشكلات أخرى غير محلولة فمن كان مستهلك هذه المنتجات في الأناضول؟ وكيف كانت هذه البضائع توزع خلال الأناضول؟ وكيف كان نظام الحكم في الأناضول وكيف كانت علاقة التجار الآشوريين بحكام الأناضول المحليين؟ هذا وإن التهديد والتعدي ليس يبيد حول أي من هذه المشكلات أو غيرها من نفس الطبيعة ولكن نترك هذا لتعالجه إحدى (إطروحات نيل الدكتوراه من الطلأ).

هنالك بعض الأشياء التي نمرضاها حول التجارة الآشورية في الأناضول على الأقل بخطوطها العامة فنحن نعرف بشكل مكثف عن إجراءات النقل. فكانت البضائع تجمع في آشور -وربما- وفي حالة القصدير كانت تستورد من أقاصي الشرق، ومن بابل بالنسبة إلى المنسوجات، وبمد ذلك كانت ترسل إلى الأناضول على ظهور الحمير.

وفي الوقت الحاضر لا نعرف كم كانت القافلة تحتوي من الحمير؟ وتذكر النصوص أرقاماً تقرب من عشرين، ولكن هذه تمثل فقط الحيوانات التي تحمل بضائع تاجر واحد، فإذا حكمنا عن طريق الإجراءات المتبعة في كل

وقت وكل مكان في الشرق الأدنى فإنتنا نتوقع أن يكون هناك عدد من التجار مجتمعين معاً بشكل مواكب أو قوافل كبيرة تقدم المساعدة المتبادلة والحماية، وإن حدوث مثل هذا الأمر لا مجال فيه للشك لوجود بعض الوثائق التي تذكر وجود حمار واحد، وليس هناك من شخص يضع حمار واحد محمل بالبضائع النفيسة في طريق يبلغ طولها ٧٥٠ ميلاً تسير فوق جبال صعبة.

إن ما يحمله حمار واحد بمجموعه بما فيه المرح يبلغ مئة كيلو غرام، وكان القصدير يحمل في سلتين تتوازن إحداهما مع الأخرى في كل جانب مع وضع المنسوجات في الأعلى.

ولمع السلب والتهب في الطريق فكانت رزم القصدير تختم بختم من الفخار وكان فتحها يعد ذنباً يعاقب عليه، وكانت المنسوجات التي ترزم بشكل لفائف تختم بطريقة أو أخرى ولكن لا تعرف هذه الطريقة. وكانت عبارة عن بالات من القماش الصوفي مع أنه كان هناك ملابس مصنوعة تصلح لقياسات مختلفة.

ونذكر إحدى النصوص نوعاً من المنسوجات كاملاً مقاسه ١٢ ١/٢ قدماً ب ١٢ قدماً، وكان من النادر وجود أنوال لنسيج منسوجات بهذا المرض في تلك الفترة وهكذا كانت المنسوجات الكاملة مؤلفة من اتصال شقتي طبقتين كما كان الحال على الأقل حتى الخمسينات ١٩٥٠ بالنسبة للقماش المصنوع يدوياً في كردستان.

كانت قوافل الحمير المحملة بالقصدير والمنسوجات تتجه نحو الأناضول ومعها وثائق كانت محتوياتها تخص بموجب هذه الوثائق عند الوصول، وبالنسبة للطرق المختلفة المتواجدة لا يمكننا أن نحدد أيها منها بالتأكيد ولكن من المحتمل أن تكون الطريق الرئيسية تسير نحو نهر الخابور وبعدها إلى بلخ ومن ثم تجاه الأناضول عبر سهل البستان، وهذه من الممكن أن تكون رحلة خطيرة تقطع ٧٥٠ ميلاً وتستغرق نحو شهرين وتذكر النصوص موت عدة حمير على الطريق. وكانت البلدات على طول الطريق تسهل المسيرة وكان هناك طريق واحد في حوالي منتصف الطريق حيث كان من الممكن استئجار سائقي حمير جدد،

وكانت هناك إشاعات تشير أن الأمن في الطريق كان مخيباً للآمال، فقد وجدت هناك بعض الحالات حول بعض التجار الذين حُطفوا وطلب الخاطفون فدية، وأما الرحلة خلال الشتاء فقد كانت تسبب أخطاراً إضافية للقافلة من الطقس السيء ومن الذئاب فإذا نجا التاجر من الذئاب فكان أمامه دوماً جباة الضرائب، وذلك أن الضرائب التي تبلغ عشرة بالمئة من قيمة الحمولات، كان ينبغي دفعها على الطريق، بالإضافة إلى ضريبة إضافية تدفع عند الوصول إلى مكانيش، ومن المحتمل أن يلجأ التجار إلى عمليات التهريب وذلك للتخلص من تكاليف الجمارك، هناك بعض المقاطع في بعض النصوص تشير إلى هذه الأمور ويذكر فيها كلمة طريق المهربين، وتكون هذا التفسير ربما جعلنا نتوقف قليلاً، فلا يتوقع الإنسان أن يقوم بعمل نعهد لإنجاز عمل غير قانوني كالتهريب الذي تعاقب عليه السلطات أكثر من أن نقفه، ولهذا فإننا نجد أن طريق التهريب ما هي إلا اصطلاح بمعنى طريق قرعي غير مطروق.

إن الهيئة التي تنظم شؤون التجارة وشؤون المراكز التجارية الأخرى كانت تعرف بالكروم **Karum** وهذه الكلمة تعني: ميناء أو مرسى السفن.

وهناك مشكلة أساسية وهي فيما لو أن "تجار الذين يتألف منهم الكروم تعاونوا من الراسماليين أو من وسكلاء الدولة، فالنصوص تقترح الصفة الأولى، إذ عندما تصل البضائع إلى مكانيش كانت هذه البضائع تُسجل وتدفع عليها الضرائب في الكروم وبعد ذلك يسمح ببيعها، وكانت البضائع تباع بأثمان من الفضة أو (بشكل أقل) من الذهب، ولكن من الممكن أن تكون الذهبات بالإنحاس أو الصوف الذي كان يباع بيمه بالمعادن الثمينة.

وكانت الأرباح الصافية على القافلة وافرة، وكانت الأرباح تقارب مئة في المئة بالنسبة للقصدير، وربما أكثر من ذلك بالنسبة للمنسوجات، ولكن كان من الواجب دفع الضرائب من هذه الأرباح فضلاً عن مصروفات الرحلة، وكان التجار في الأناضول يبيعون الفضة إلى وسكلائهم في آشور (وفي بعض الأحيان يكون من هؤلاء الوسكلاء زوجة) وهناك عدة حالات كان التجار يأملون وسكلائهم أن

بصرفها نصف الأموال لشراء التصدير اللازم للرحلة القادمة ونصفها على المنسوجات وكان هذا عملاً مألوفاً.

وكان كبار التجار يقيمون في الأناضول عدة سنوات حيث يتزوجون زوجات من المنطقة حتى ولو كان لهم زوجات في آشور.

لدينا معلومات محددة قليلة حول نهاية المستعمرات في الأناضول أكثر من المعلومات حول بداية تلك المستعمرات، ولقد أظهرت الحفريات أربعة مستويات من الاحتلال في كانيش، ولكن وحتى الآن لم تظهر المستويات الأعرق عهداً (أو الأقدم) أي نصوص، إذ إن معظم الألواح كانت تأتي من الفترة الثالثة من الاحتلال، وقد انتهت هذه الفترة بحدوث كارثة وهي حدوث حرائق عامة.

ومن الممكن أن يكون المكان قد هوجم ونهب وبمرور الزمن بعد نحو ثلاثين إلى خمسين عاماً بقي المكان فيها في حالة خراب، ثم عاد الآشوريون التجار واستأنفوا احتلالهم للمكان وبدأت الوثائق تظهر مرة أخرى وكانت أقدم وثيقة قد كتبت أثناء حكم شمشي آداد (١٨١٢ ~ ١٧٨١) ق.م، ونضع الفترة التي لم يحدث فيها أي احتلال نهاية المجموعة الرئيسية الأقدم من الوثائق وعندها فيما بين ١٨٦٠ و ١٨٤٠ ق.م، وهكذا فهي تغطي حوالي ستين إلى ثمانين عاماً تشمل حكم أبريشوم الأول (الذي امتد أزمين عاماً بدءاً من عام ١٩٠٠) وهذه النتيجة التاريخية تتطابق مع الحقيقة التي مفادها أن أبريشوم كان أقدم حاكم آشوري مذكور في النصوص الكانيشية، ولقد لاحظنا سابقاً نشاطات هذا الملك التجارية في بابل ولذلك فإنه من المعقول أن نفترض أنه بالإضافة إلى ذلك قد قدم تأسيساً نشيطاً للتجارة مع مكابادوكيا.

ويقترح البعض أن يكون أبريشوم قد أسس بعض المستعمرات الآشورية في كانيش وأماكن أخرى كعمل رزين من أعمال السياسة، ولكن لا يبدو هذا الرأي مقبولاً فالبنية التحتية المشمولة في هذه التجارة من الصعب أن تنشأ فجأة بمجرد إصدار قرار سياسي إلا إنها لابد أن نمت ونشأت عن طريق توسع تدريجي في الاتصالات خلال مدة طويلة من الزمن.

الفصل الثالث

الفترة الفاصلة الحورية

من ظلال التبعية حتى الاستقلال

تعد العلاقات مع ككبادوكيا في التاريخ الآشوري مظهراً حضارياً نمتلك معظم التفاصيل الواضحة عنه بالنسبة لبداية الألف الثاني ق م ، ولكن حدثت أشياء أخرى قدر لها أن تكون ذات تأثيرات بالغة على آشور ، إذ ولدت قرنين بدأ الشعب السامي المعروف باسم العموريين بالتحرك خارجين من الصحراء العربية السورية والإقامة في الأراضي الخصبة حولها ، وكان ضغطهم هذا سبباً وعاملاً من عوامل انهيار أسرة أور الثالثة ، حيث بدأت مجموعات من العموريين بالاستقرار على طول نهر الفرات في بابل وشكلت أسراً محلية ، وربما كان هجوم إيريشوم وغزوه لبابل سبباً عن أرباك وتشويش الحركة التجارية هناك من قبل العموريين ، وأن إعلان والده ايلوشوما عن عزمه على إقامة وتأمين الحرية لشعب أكاد ربما يعكس تبريراً لتلك التدخلات.

مملكة شمشي آداد الأول

ومع أن آشور التي كانت تحجبها مدن مثل مارى الواقعة في أواسط الفرات لم تتأثر بنفس الدرجة التي تأثرت بها بابل من الموجات الأولى للضغط العموري ، إلا أن آشور لم تستطع أن تبقى معزولة بشكل غير محدود ، ففي أواسط منطقة الفرات الأوسط قام زعيم إحدى القبائل العمورية المدعو ايلوككبكي (وقد ذكر اسمه في قائمة ملوك آشور) بإنشاء مملكة صغيرة لنفسه ، وكان له ابن وهو شمشي آداد الذي قضى بعض الوقت في بابل ، إذ من المحتمل أنه قد أرسل إلى هناك ليكون تابعاً لملك آشور في ذلك الوقت ولمعالجة التهديدات ضد الأمن الآشوري ، ولكن شمشي آداد عاد من بابل معلوماً بالطموح.

وقد استولى في أول الأمر على إحدى القلاع الملعوة (ايكالاو) المشرفة على المنطقة إلى الغرب من دجلة، وبعد ذلك وبعد ثلاث سنوات نصبتة آشور ملكاً عليها، فبادر إلى توسيع سيطرته حتى منتصف منطقة الفرات الوسطى التي نشأ فيها، وهناك كانت المدينة والمملكة الرئيسية ماري التي نجح في ضمها إليه.

وهنا نجد لدينا بعض الصعوبات في الحصول على المعلومات اعتباراً من هذه النقطة ولدة جيل من الأجيال، ويأتي قسم قليل من هذه المصاعب من النقوش الرسمية التي تركها (شمسي آداد) وهي الكميات الكبيرة من المحفوظات التي وجدت في ماري.

وكان موقع ماري موقعاً استراتيجياً في منتصف الفرات وكان لها شبكات من العلاقات مع بابل وسورية وتعكس المحفوظات المحتوية عشرات الألوف من الوثائق هذا الشيء، وقد أقام شمسي آداد مع أنه كان يعد آشور عاصمته الرسمية وكان يجبي الأنوات والخراج منها، أقام في (شويات نليل) الواقعة إلى الشمال الغربي حيث كان قريباً من انتقارات السياسية في سورية، ولأجل السيطرة على منطقة الدجلة الأوسط والفرات الأوسط فقد نصب ابنه الأكبر كملك تابع في (ايكالاتو) والابن الأصغر (ياسماخ آداد) في ماري، وتقدم المراسلات التي وجدت في ماري والتي جرت بين ياسماخ آداد ووالده وأخيه وبعض الأشخاص الآخرين، تفاصيل حول الحوادث في ذلك الزمن، وهناك مجموعة صغيرة من النصوص تعود إلى نفس الفترة وجدت في موقع (شمشرا) قرب رانبا في كردستان العراقية، تظهر أن مملكة شمسي آداد قد امتدت حتى زاغروس شرقاً.

وحتى هذا الزمن ليس لدينا أي شواهد تشير إلى أن المدن الثلاث الرئيسية في آشور ونيوى وأربيل كانت متحدة في مملكة واحدة، ولكن هذا الوضع قد تغير بمجيء شمسي آداد وأصبحت هذه المدن جزءاً من مملكة واحدة، إذ نجد أن الملك كان يجمع بناء أحد المعابد في نيوى ويسجل انتصاراته على جميع المدن المحصنة في أرض أربيل، وقد سيطر أيضاً على منطقة (أرانجا) (كركوك الحديثة) بحيث أصبحت جميع مناطق آشور قاطبة تحت حكمه مملكة واحدة، وقد امتدت

المنطقة التي كان يسيطر عليها شمسي أداد وأولاده من الفرات ومن نهر (أضاييم) إلى مشارف هضبة الأناضول عبارة عن ثلاثمائة ميل من كل جهة، وقد امتدت سيطرته دبلوماسياً إلى أبعد من ذلك فقد لمس التجار الآشوريون في مستعمرة كبادوكيا نشاطاً متجديداً، وقد ادعى شمسي أداد أنه وضع أنصابه الحجرية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ومن الواضح أن الحكام المموريين المعاصرين عدوا شمسي أداد القوة العظمى.

كيف نجح شمسي أداد في جعل آشور أبرز وأعظم مملكة في عصره؟

هناك عاملان ينبغي أن ننظر إليهما بالحسبان وهما كفاءته الإدارية ومهارته السياسية، وإن مراسلاته الواصفة تظهر أن شمسي أداد كان يعطي عنايةً ماهرة بالنسبة لهذه الأشياء ولجميع الأشياء حوله صغيرها وكبيرها التي لها علاقة بتسيير شؤون مملكته بكفاءة (ويمكن أن ينطبق هذا القول عن معاصر شمسي أداد الناجح وهو (حمورابي) في بابل فقد أنشأ شبكة من الموظفين الأكفاء.

فهو يقول: «إنني عيّنتُ حكامي في كل مكان» وتحت الحكام كانت هناك سلسلة من الإداريين وناقلي الأخبار وموظفي الإحصاء الخ..

وقد نجح شمسي أداد بالتحالف إما عن طريق المعاهدات أو بواسطة المصاهرة مع أمراء حاكمين آخرين ولاسيما في سورية، ولكن كان جزء من نجاح شمسي أداد دون شك استخدامه القوة العسكرية.

ويموازة إدعائه أنه قد عين الحكام في كل مكان، فإنه قد وضع الحاميات العسكرية في كل مكان أيضاً، ولدعم الحاميات الدائمة أرسلت الفرق العسكرية في حملات خاصة، وقد اشتملت هذه الحملات في إحدى الحالات على ستين ألفاً، وأما فتون الحصار التي بلغ الآشوريون الشاؤ الأعظم فيها منذ الألف الأول ق.م، فقد وصلت درجة عالية من الكفاءة بما فيها من استعمال آلات الحصار.

ولكن امتدادات مملكة شمسي أداد قد نقصت وتقهقرت بعد موته بالسرعة التي وصلتها في حياته، وتذكر قائمة الملوك الآشوريين أن ابنه (شمسي راکان)

قد حكم مدة أربعين عاماً، ولكن حكمه كان معسوراً بأشور وفي المنطقة المحيطة بأشور ونيوى وأرييل وأرانجا (كركوك).

وهناك شك حول حكمه المدعى الأخيرة، أما ممتلكات آشور الأوسع بمعاذلة الفرات الأوسط وشمال شرقي سورية وحتى مسكن والده المفضل في (شويات اينليل) ككل هذه المواقع قد سلبت من سيطرته.

ويعد ذلك التور الذي سلع في فترة شمسي أداد وأولاده نجد أنفسنا ننقل إلى أقاليم مظلمة من التاريخ، لأنه وفي القرون الثلاثة التالية فإن النقوش ومحفوفات الملوك الآشوريين أصبحت قليلة ونادرة وأحياناً انقطعت، مع أن قائمة الملوك الآشوريين تدل على تتابع غير منقطع للملوك الآشوريين، فقد أصبحت سلطة ملك آشور لا تتجاوز مدينته ولم تتجاوز منطقة شمال نيوى وأرييل.

المهاجرون الحوريون

عندما ركزنا على أعمال شمسي أداد الباهرة لم نعط اهتماماً كبيراً بالنسبة للحالة المرفقة في المنطقة الواقعة تحت حكمه ما عدا ذكر المموريين، والحقيقة كانت هناك حركات عرقية جارية وقد قدر لها أن تكون ذات نتائج بالغة بالنسبة لآشور، وإن أهم مجموعة في هذا الصدد هم الشعب المدعو الحوريون، ولقد تكلم هؤلاء لغة مختلفة عن سكان السومريين والأككاديين بحيث إن أسماء الحوريين الشخصية مميزة وتؤلف علامات واضحة تدل على الأشخاص من أصل حوري، وهذه الشواهد تشير إلى وجود الحوريين في جنوب ما بين النهرين منذ فترة (أكاد) وفي حوالي نهاية تلك الفترة حيث نشأت دول صغيرة قصيرة العمر في منطقة الخابور يحكمها حكام يحملون أسماء حورية، وسرعان ما وجدت عدة أسماء حورية في فترة الأسرة الثالثة في أور في المنطقة شمال نهر دجلة.

وهناك دلالات تشير بأن هؤلاء الحوريين قد أتوا من الشمال إلى منطقة ما بين النهرين، وربما من مرتفعات أرمينيا، ويناقش بعض مناقضي هذا الرأي بقولهم إن الحوريين كانوا هم سكان آشور الأصليين قد دُفِّموا وأخرجوا على أيدي

المساميين المهاجرين إلى سفوح التلال في الألف الثالث قم، ولكن هذه النظرية كانت مؤسسة على تحاليل غامضة لأسماء الأمكنة القديمة التي تعد حورية.

أصبح الحوريون واسمي الانتشار في شمال منطقة ما بين النهرين في زمن شمسي أداد ومع مناطق إلى الغرب من (طور عابدين) التي حكمها أمراء الحوريين، وكان هناك عنصر قوي من عناصر الحوريين في زاغروس أيضاً، وقد تزوج أحد أحفاد شمسي أداد سيدة أو أميرة من إحدى القبائل القوية هناك التي كان اسمها يدل أنها حورية، وفي سورية أصبح الحوريون عنصراً قوياً في الألاخ وهي مدينة واقعة على نهر العاصي معروفة من كمية من الألواح الفخارية التي وجدت هناك.

ويظهر أن حركتين عرقيتين كانتا تتحركان في الوقت نفسه، الحوريون الذين أتوا إلى منطقة ما بين النهرين وسورية من الشمال الشرقي، في نفس الوقت الذي كان العموريون يتحركون آتئين من الصحراء السورية مع بعض التجاوزات التي تظهر أن الفرات قد شكل حداً فاصلاً بينهم، وفي منطقة أواسط الفرات كان العموريون ذوي السيادة ولكن إذا اتجهنا شمالاً نجد الحوريين، قد أصبحوا العنصر المهم، وهناك تطورت في منطقة الخابور العليا السلطة الحورية، بينما إذا اتجهنا جنوباً كان العموريون ذوي نفوذ مرموق على بابل، أما في آشور ففي أثناء منتصف الألف الثاني فقد كان الحوريون هم المتفوقون ثقافياً وسياسياً إلى حد ما.

لم يكن الحوريون هم الشعب الوحيد الذين انطلقوا كقوة سياسية وثقافية جديدة خلال الألف الثاني، ففي الأناضول المجاورة لأراضي الحوريين كان هناك الحيثيون وهم مجموعة من الشعوب الذين يتكلمون اللغات الهندو أوروبية، ولقد دخلوا الأناضول من الشمال فيما وراء البحر الأسود في وقت ما يعتمد عن بداية الألف الثاني، وقد اسم هؤلاء مملكة في منطقة نهر (هاليس) (كوزول إيرماك) وانتشروا بالتدريج في نفوذهم جنوباً حتى الفرات وشمال سورية وكليكميا، وهذا سبب احتكاكهم بالمناطق التي يسيطر عليها الحوريون ثقافياً وسياسياً، وبذلك نشأت منافسات وحزازات ثقافية متبادلة ما بين الحيثيين والحوريين.

مملكة ميتاني

في منتصف القرن السابع عشر أصبح الحوريون منظمين تنظيمياً كافياً بحيث استطاعوا مهاجمة مملكة الحثيين إلى الشمال الغربي من مملكتهم، وهناك نقش يهود إلى أحد ملوك الحثيين يسجل وجود هجوم خطير على مملكته من قبل شعب يدعى الحوريون (الهائي جالبات) وسوف تقابل هذه الأسماء فيما بعد.

وهناك نص آخر حول الأنشطة الحربية في تلك الفترة يذكر أسماء أربعة ملوك من ملوك شعب الحوريين، وهذا يظهر أنهم كانوا لا يزالون اتحاداً وليس مملكة موحدة، وبعد عام (١٥٥٠) بقليل ظهرت مملكة مؤسمة على قواعد حورية تدعى: ميتاني إلى الشرق من نهر الفرات، وقد وجدت دويلات أخرى مشابهة في سورية وكليكميا وشمال ميتاني، وكانت ميتاني أقوى الممالك الحورية وقد ناضت وأحياناً حاربت كلاً من الحثيين والمصريين وهما القوتان الرئيسيتان في منتصف الألف الثاني ق.م.

وفي حوالي عام (١٦٧٢) اصطدم أحد ملوك ميتاني مع تحتمس الثالث ملك مصر الذي ادعى أنه قد سيطر على سورية واخترق بجيشه الحدود حتى نهر الفرات، وقد كان هذا الردع الميتاني ما رُحِبَ به الدويلات الأخرى في الشرق الأدنى، وأرسلت آشور بالإضافة إلى بابل والحثيين هدايا وتهنئة لتحتمس عدها المصريون لزيادة نفوذهم وهيبتهم عبارة عن جزية.

لدينا تفاصيل قليلة حول ظهور ميتاني ولا يمكن معرفة ذلك بالضبط إلا بعد اكتشاف المحفوظات الميتانية الرثيمية، ولا نعلم إذا كان هناك محفوظات لدى الميتانيين إذ أشك في وجودها، فقد وجدت بضعة رسائل من ميتاني بشكل الواح من الفخار منقوشة بالخط المسماري في تل العمارنة في مصر، وهناك دلالات على وجود مراسلات بين ميتاني والحدود المجاورة، ولقد مكثت الفجوة في الشواهد بشكل جهد مجرد للتخمين...

وهناك إحدى القرصيات، التي رُفِضت، مع أنها ظلت موثوقة لعدة سنوات، وهي تصف ميتاني بأنها عبارة عن تكافل من الأجناس.

وطبقاً لهذه الفرضية فإن دولة ميتاني ظهرت عندما تركت الأرسطراطية الآرية (الهندو إيرانية) التي كانت تمتلك الخيول والعربات، وذهبت وهي من الهجرات الآرية الرئيسية من جنوب شرقي آسيا إلى الهند في أوائل الألف الثاني ق.م، وقد فرضت نفسها على المجموعات الحورية.

ولكن أحد العلماء الروس ذي البصيرة النيرة نقض هذه النظرية نهائياً، وقد أشار هذا العالم أن الأساس الرئيسي لهذه النظرية هو وجود بعض الرقم الهندو أوروبية خمس مرات في بعض النصوص التي تعد بعشرات الألف، ووجود اصطلاحين أو ثلاثة تتعلق بتمرينات الخيول، ووجود أربعة أسماء آلهة هندو أوروبية بشكل حوري، ونحو عشرين من الأسماء الشخصية من اصول غير معروفة التي تظهر بشكل سطحي كما لو أنها كانت هندو إيرانية.

إن الأهمية الرئيسية بالنسبة للتاريخ الآشوري الذي يصف مملكة ميتاني الحورية هي أنها حالما توسعت بدأت بالتحرك شرقاً إلى أراضي ما نفهم عادة بأنها أراضي آشور التي حولوها إلى أراضي تابعة لهم، ولكن قسماً من آشور كان ما يزال مستقلاً في النصف الثاني من القرن السادس عشر، نظراً لأنه وبعد عام (١٥٥٠) - إذا كنا نستطيع الوثوق بأي تاريخ - فإن أحد ملوك آشور الصغار الأهمية استطاع عقد معاهدة حدودية مع بابل، وهناك دلالة أخرى تدل على استمرار استقلال آشور، وهي الهدية التي أرسلتها آشور إلى مصر بعد الصدام الذي حدث بين مصر وميتاني عام (١٤٧٢) وظهر أنه بعد هذا التاريخ بزمان قصير استطاع الملك الميتاني زواستر ضم آشور إلى حكمه.

ضم آشور

لقد سُجِّل أن زواستر نهب من آشور باباً مرسماً بالفضة والذهب زين به قصوره في (وشوشكاني) وكان هذا قد حدث أثناء غارة خاطفة، ولكن هناك شواهد تدل على وجود ميتاني في آشور فترة طويلة، إذ أصبح ملوك آشور الآن تابعين لميتاني ولم يكن حكمهم إلا بالاسم فعصب، وتذكر النصوص الشرعية التي وجدت في

آشور ابتداءً من القرن الخامس عشر وجود موطنين بأسماء حورية، وترك موظفان أنصافاً تدل أن أسلافهم قد خدموا ملك (هاتي جالبات) وهو اسم آخر لميتاني، ويذكر الملك الآشوري (آشورا بالبيت) في عام (١٢٦٠) أن ملك (هاتي جالبات) كان أحد أسلافه قبل عدة أجيال، ولقد امتدت سيطرة ميتاني عبر بلاد آشور حتى (زاغروس) وإلى الجنوب الشرقي لتشمل منطقة كركوك.

وتحت سيادة ميتاني أصبحت آشور ذات وضع ثانوي حيث إنه ولادة حكم ستة ملوك حتى عام (١٤٢٠) لم يلاحظ وجود أي نقوش ملكية أبداً، وقد وجدت هذه الشواهد عن أحوال آشور في تلك الفترة من محفوظات وجدت في بعض البلدات في منطقة كركوك، ومعظمها من موقع يدعى (نوزي) وهذه الوثائق تعطينا إدراكاً ممتازاً بالنسبة للحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة (نوزي) ويظهر أن نفوذ الثقافة الحورية كان قوياً جداً، وليس هناك من شيء يوحي أن منطقة نوزي التي كانت هامشية سياسياً وثقافياً بالنسبة لآشور قد أصبحت ذات أهمية عظيمة أكثر من ذي قبل، وأن التأكيد الظاهر على هذه المنطقة في ذلك الوقت ما هو إلا مجرد حادث سببته الاكتشافات الأثرية.

وهناك شيء واحد تظهره لنا وثائق (نوزي) حول آشور بصورة عامة أنه وأثناء الحكم والسيطرة الميتانية، لم تكن آشور مملكة واحدة حتى وعندما كانت تابعة لميتاني، إذ إن منطقة (نوزي) المؤسسة على أرانجا (كركوك) كانت تعامل بالتأكيد كمملكة ثانوية لها ملكها الضعيف الخاص بها وهي منفصلة عن آشور إدارياً، وهناك ثلاثة ملوك من (أرانجا) معروفون بأسمائهم، وكان هناك حضور ميتاني قوي هناك، وقد وجد كثير من الأشخاص هناك يحملون أسماء (هيتجالباتية) أي: (ميتانية) وكان بعضهم مقيماً هناك ويمسكون إعاشات غذائية، والآخرين مستقرون بصورة مؤقتة كموظفين أو مراسلين، وأن التوثيق بالعربات الحربية الهيتجالباتية يبرهن على وجود وحدات عسكرية ميتانية، وكانت مراكز آشور وأربيل ونيوى مناطق إدارية منفصلة، مع أن الشواهد على ذلك لم تظهر بعد.

استقلال آشور

عند نهاية القرن الخامس عشر ظهرت دلالات عن بداية انتماش آشور، فقد بدأ إعادة بناء أسوار آشور، نظراً لأن وجود أسوار في أي عاصمة قديمة في الشرق الأدنى كان دلالة على استقلالها، لاسيما وأنه قد عقدت معاهدة حدودية بين آشور وبابل، ونحو عام ١٤٠٠ ق.م أظهر أحد ملوك آشور أنه رجل الموقف عندما ترامل مع ملك مصر واستحق هدية مقدارها عشرون مثقالاً من الذهب، تلك الحقيقة التي ذكرها خليفته الثاني آشور أباليت الأول (١٢٦٥ - ١٢٢٠).

ويخبرنا أحد ملوك ميتاني عن الظروف ولكن ليس في السنة ذاتها التي تخلصت بها سورية من السيطرة الميتانية، وثاني هذه المعلومات من معاهدة (مؤلفة من نسختين عقدت بين ميتاني والحثيين، ومع هذا الوضع وجدت مملكة حورية ثانية بجانب ميتاني تعرف باسم حوري مع وجود المنافسة بين حاكمي المملكتين الأقرباء. وعندما ظهر الاحتكاك الأوسع بين ميتاني والحثيين سمح الموقف الموالي للحثيين في حوري أن يهاجم هؤلاء ميتاني، وتبع ذلك حدوث أزمة في ميتاني وفي آشور ومملكة أخرى، وقد انتهز هذه الفرصة (الشي) (ربما في طور عابدين) ليستولي على أراضي ميتاني، ولم يذكر اسم الملك الآشوري ذي العلاقة ولكن التواريخ تشير أنه والد (آشور أباليت) المدعو (ايريبا أداد) ١٢٩٢ - ١٢٦٦.

وعندما كتب آشور أباليت رسالة إلى ملك مصر بعد عام ١٢٦٥ فقد كان قد تحرر من آخر مظهر من مظاهر تابييته للسيطرة الميتانية، وشمر بأنه قادر على التكلم معه كائند للبدّ وخاطبه باسم أخي، ولم يقبل استقلال آشور الجديد من قبل الجميع، فقد شكك ملك بابل إلى ملك مصر ضد الآشوريين عندما ادعى أن هؤلاء من أتباعه، فقد قال في الرسالة إلى ملك مصر:

«لماذا أتى هؤلاء الآشوريون الذين هم أتباعي إلى بلادك؟ فإذا كنت تحبني لا تدعهم يحصلون على ما يريدون بل أرجعهم فارغي اليده».

ولكن إهداء ملك بابل بأن الآشوريين أتباعه لم يكن سوى انعكاس لبدائية طموح لا طاقة له به، وهو أن يعيد السيطرة على جيرانه الشماليين نظراً لأن حكم الميثانيين الآشوريين قد انتهى.

لقد بدأت آشور تزيد من أهميتها الدولية أثناء حكم (آشور أباليت) فنحن نعلم أنه كان لديه روابط أسرية مع بابل، وكان قادتها راغبين في التدخل في قضايا وراثته المرش هناك، وهناك نص يدل ويسجل المواجهة بين بابل وآشور يخبرنا مايلي:

هر زمن آشور أباليت ملك آشور هجرت جنود كاليبث ضد كازاهار داشن ملك كاردونيش (بابل) وهو ابن السيدة (موبالتهات شيرا) وهي ابنة آشور أباليت وقتلوه.. وقد ذهب آشور أباليت إلى كاردونيش لينتقم لحفيده ولتصهيب كوريجالزو الأصغر ملكاً.

الروابط مع مصر

وكما ذكرنا آنفاً كان آشور أباليت يتراسل مع ملك مصر ولدينا رسالتان من رسائله وإحداهما تستحق أن ننقلها للقارئ كاملة وهي:

((إلى ملك مصر، هكذا يقول ملك آشور، أتمنى أن تكون بصحة جيدة، وكذلك أهلك وبلادك وعرباتك الحربية وجنودك لقد أرسلت مبعوثي إليك ليراك ويرى بلادك، لقد بدأت بالاتصال بك اليوم نظراً لأنه وحتى هذا الزمن لم يتصل أحد من أجدادي بكم، ولقد أرسلت لك عربة حربية جميلة وجوهرة من اللازورد الحقيقي، لا تتردد رسولتي الذي أرسلته لرؤيتك هو سوف يراك ويمود، دعه يطلع على أحوالك وبلادك ويعنها دعه يمود)).

نحن نرى أن الملك يؤكد أن المبعوث لا ينبغي أن يبقى في مصر بل يعمود إلى آشور فوراً بعد أن يطلع على مصر والملك المصري، ومن الواضح أن آشور أباليت لم يفكر أن يصبح تابعاً لمصر بل كان ينوي أن يستعيد من هذه الروابط مع مصر ما هو من مصلحة آشور..

إن الهدايا التي أرسلها آشور أباليت تستحق التعليق وهي تدعى **Sulmanu** وهذا معناه هدايا للمبادرة بصنع علاقات ودية مع توقع شيء مقابل ذلك، وهذا هو **Sulmanu** السولمانو. وهي مقدمة لعلاقات تجارية فضلاً عن علاقات سياسية، وهذا ينطبق على تقاليد آشور بالنسبة للتجارة العالمية المتمثلة بالعلاقات القديمة مع الأناضول الوسطى.

لقد اهتمت الصلات المصرية المرتقبة، وهذا يظهر من الرسالة الثانية التي وجدت في المحفوظات المصرية من آشور أباليت، وهي تشير إلى أن الرسل من مصر إلى آشور قد قوبلوا بالحفاوة البالغة في البلاط الآشوري، وهكذا بدأت التجارة، أو كانت على وشك أن تبدأ نظراً لأن آشور أباليت قد أرسل هدايا أخرى وطلب كمية مناسبة من الذهب مقابل ذلك لأجل زخرفة القصر الذي كان يبنيه، ولقد أمر على طلب الذهب وأكد أن الكمية التي أرسلها لم تكن أقل من الكمية التي أرسلت إلى بعض الملوك القدامى فحسب بل إنها كانت غير كافية لتغطية المصاريف للحفاظ على العلاقات المصرية، وهذه الإشارة الواضحة الصريحة لمظاهر الريح والخصارة من الواضح أنها سوف تثير العناصر التجارية في هذه المفاوضات.

من الملكية إلى الإمبراطورية

إن آشور أباليت هو الذي تمود إليه بداية الإمبراطورية الآشورية، إلا أن آشور نفسها هي التي مارست النقص والإبطال، ولكن هذه لم تقدم أي كبح دائم لعملية قيامها بتوسعها في الشرق الأدنى، وكان للدول الأخرى طريقتها بالتوسع ولكن لم يكن هناك أي دولة تستطيع أن تباري آشور في طلب السيادة لمدة قرون على أراضي فيما وراء حدودها الطبيعية.

لم يعطنا آشور أباليت نفسه أي تفاصيل عن حملاته العسكرية، ولكننا نعلم عن مثل هذه الحملات من بعض التلميحات من قبيل ذريته، وهذه التلميحات تدل على أنه قد يادر بالهجوم شمالاً، وهذا كان طبيعياً زمن ملك نشيط في آشور

التي قد تحررت حديثاً من الحكم الأجنبي، وكانت إحدى مشكلات آشور المناطق الجبلية فيما وراء نينوى وأربيل إلى الشمال والشرق، حيث كان الرجال الجيليون يقومون بغارات على سهول آشور، وكانت هذه المناطق مهمة لكونها مصادر للحصول على الخامات المعدنية والخشب والحجارة نصف الكريمة، وكانت تحتوي على مناطق مهمة لتربية الخيول، وحالما بدأ الملوك الآشوريون في كتابة النقوش التي تعطي أوصافاً مفصلة لحملاتهم أصبحت النشاطات العسكرية في الجبال الشمالية والشرقية موضوعاً كثير الحديث، ولمسوء الحظ فإن المناطق ذات العلاقة، مثل المناطق الجبلية في العراق وسورية وتركيا وإيران، كانت لا تزال حساسة، وهذا يفرض إعادة إمكان عمل مسح لهذه المناطق مما ترك شكوكاً لا يأمن بها حول تحديد الأمكنة المذكورة في النقوش الآشورية.

ولقد قال الحفيد الأكبر لأشور أبايت III إنه كان حريصاً على تأمين الأمن والسلامة لنفسه في أي مناطق بعيدة حتى حدود الجبال، وقد عزز لنفسه النباح ضد القوى القاطنة في الأراضي الواسعة التي يسكنها (السباريان) ميلاد تدعى (موسري). وإن كلمة السباريان هي كلمة جالبة للمصطلكات لها جذور مختلفة في فترات متعددة، إن عنصرها الدائم أنها تدل دائماً على شحوب تسكن في شمال المثلث (وهذه من الممكن أن تعني كلمة تعود إلى عصر ما قبل السومريين تعني السابريين).

وهذا الاستعمال يعني أن كلمة أرض عند السابريان في ذلك الوقت تشير إلى مكان يقع إلى الشمال من الموصل، وهناك اختلاف حول المكان الدقيق (المصري) ولكن هاتين الكلمتين ربما تدلان على أن آشور أبايت اندفع إلى الشمال الغربي للسيطرة على (طور عابدين) وهضبتها، ونحن نسمع بعد ذلك الشيء الكثير عن هذه المنطقة التي تعرف طبقاً للمصادر الآشورية باسم كاشياري.

وعندما قدمنا النصف الثاني للقرن الرابع عشر وقلنا: إنه يؤلف بداية عصر جديد بالنسبة لآشور، كانت هذه المقدمة وسيلة حديثة لفرز التاريخ وتقسيمه إلى شرائح من الممكن التعامل معها، ولقد تعامل الآشوريون وملوكهم مع هذه

الحقيقة بنفس الطريقة وهي حقيقة تعكسها الألقاب الملكية، ومع أننا كنا نتكلم عن الملوك الآشوريين ابتداء من زمن الحكام الوطنيين في الألف الثالث، وجدنا أن حاكماً واحداً لأشور قد اتخذ لقب ملك خلال هذه النقوش الرسمية قبل القرن الرابع عشر، ويحكم تحت هذا سبب من الممكن أن ندعوه لاهوتي أو ديني. إذ إنه من وجهة الشخص الآشوري المتدين فقد كان الإله آشور هو الملك، أما الحاكم فهو ممثله من البشر.

أما الأبنية الملكية والنقوش السكرمية فقد كانت أصلاً وثائق دينية يتعهد بها أن تحل أعمال الحاكم التي تلقت انتباه الإله، وهكذا كان من المناسب أن نقول: إنه وفي مثل هذه الوثائق كان الملك يشير لنفسه بأسماء مثل الحاكم، أو النائب، أو رئيس العمال أو الخدم، أو القاضي الأعلى، ولقد ظهرت بدعة في النقوش الرسمية المتأخرة (لأريك دن إيلي) (١٢١٩ - ١٢٠٨) الذي تجاسر وقدم لنفسه لقب الملك القوي، ملك آشور، وهذا تغيير يوحي بقرار حازم لتقديم اصطلاحات طنانة، فمن جهة حقاً لقد لقب (أريك دن إيلي) من قبل جده آشور أباليت الذي دعا نفسه ملك آشور، الملك العظيم وذلك في مراسلاته مع ملك عصر وسمى نفسه ملك آشور وذلك في ختمه، ولم يكن نفس هذه الألقاب لتستعمل في النقوش الرسمية المقصود بها اطلاع الآلهة.

ولقد تجاوز (حدد نيراري) وهو ابن (أريك دن إيلي) والده بدعوة نفسه ملك الكون.

لم تكن المناطق الشمالية فقط هي التي تأثرت بتوسع الآشوريين في بدايته، فلقد رأينا أن قتل أحد ملوك بابل وهو حفيد (آشور أباليت) قد أدى بالملك الآشوري للتدخل في شؤون وراثة العرش البابلي، ولقد استمر التوتر الناتج عن ذلك بعد موت آشور أباليت ويوصف خليفته أناليل ناراري الأول (١٢٢٩ - ١٢٢٠) من قبل حفيدة بأنه الرجل الذي ذبح ملوك الكاسيت، وهذا يدل على بابل التي كانت منذ عام ١٦٠٠ تحت حكم الأسرة الكاسيتية من زاغروس، وتذكر إحدى التواريخ معركة آشورية بابلية في مكان على بعد عشرين ميلاً جنوب غرب أربيل،

وقد بدا حكما أن ملك بابل قد غزا آشور في محاولة لتأكيد سيادته على آشور التي ادّعى بها قبل نصف قرن خلال مراسلاته مع ملك مصر، ولكن أضيف وصف آخر منح لأنليل ناريري الأول وهو:

«الشخص الذي وسّع الحدود والتخوم» وذلك يشير إلى محاولة قام بها لتوسيع أو على الأقل لدعم هذا التوسع تحت حكم آشور أبايته.

ولقد وسّع الملك الآشوري التالي وهو (أريك دن إيلي) (١٢١٩ - ١٢٠٨)، ومطبّقاً لما ذكر ابنه، وسّع الحدود الآشورية وتتفق إحدى التواريخ الآشورية ولكن بتفاصيل تُظهر أن انشغله (أريك دن إيلي) العسكرية لم تكن مجرد توسع، بل حرياً للحصول على بقاء الوطن، ويذكر هذا التاريخ حادثة طرد الأعداء من منطقة تبعد بضعة أميال إلى الشمال من نينوي، وهذا يدل على أنه حتى وسط البلاد الآشورية كانت مهددة من قبل غزاة من سفوح جبال طوروس، وقد تقلب (أريك دن إيلي) على هذه التهديدات وانقطع شمالاً إلى طوروس الشرقية حيث سكن الشعب المنتشر بكثافة المدعو شعب (القرطيين) وبعد ذلك اندفع باتجاه شمال غربي للاستيلاء على سهل ككادموخ وهو العمق الواقع غربي نهر دجلة والذي تحيط به هضبة (طور عابدين).

الفصل الرابع

توسّع آشور

ندخل فترة أغنى بكثير بالنسبة للنقوش التاريخية، والملك المقصود هو (حدد نيراري) الأول (١٢٠٧ - ١٢٧٥) وقد كنا نحسبنا الفضل لأشور أباييت باتخاذ الخطوات الأولى التي كانت سوف تؤدي إلى نشوء وارتقاء شأن الإمبراطورية الآشورية، ولقد كانت منجزات (حدد نيراري) كافية لجعل بعض المؤرخين يضمونه في دور مؤسس الإمبراطورية، وهذه النقطة تدعو للجدل ولكن من المؤكد أن حدد نيراري كان شخصية رئيسية بالنسبة للتوسع الآشوري.

حدد نيراري الأول

لقد وصف حدد نيراري نفسه بقاتل الجماعات المتوحشة من قبائل الككاشيات والكوتيان واللولومونيان والسويريان، وكانت كلمة الككاشيات تعني عادة البابليين في هذا الوقت (من المحتمل هنا بالإشارة إلى الحدود الجنوبية الشرقية لأشور) وكان الآخرون هم الشعوب الجبلية في زاغروس وطوروس الشرقية ابتداءً من جنوب كردستان إلى شمال غرب آشور، وأما في المناطق الأخرى فقد حدد حدد نيراري فتوحاته بمصطلحات أرضية مثلاً من بلدة (لوبيدي) وأرض رابيكو إلى ايلوهات، وكانت لوبيدي قرب كركوك وهي قلعة تشير إلى الحدود في الغرب.

وأما ايلوهات فلم يتحدد موقعها، وقد ذكر بعضهم أنها واقعة إلى الشمال من ديار بكر، ولكن يظهر أنها كانت إلى الجنوب من ذلك الموقع، وتقع نيار بكر إلى الشمال من مضية طور عابدين، بينما هناك ثلاث بلدات سماها حدد نيراري كانت بالتأكيد إلى الجنوب من طور عابدين، وهذا يوحي أن حدد نيراري كان يعامل طور عابدين كحدود يسيطر عليها، ونجد الآن أن الجانب الجنوبي من مضية طور عابدين يرتفع فوق السهل، وهناك قلة بارزة واقعة فوق تلة (وتدعى الآن ماردين) وهي تحرم أحد الممرات، وابتقاء للأمان فإن أي شعب يحتل السهل

إلى الجنوب من طور عابدين سوف يحاول الاستيلاء على ماردين، وهكذا من الممكن أن تكون نقطة الحدود (أيلوهات) التي ذكرها حدد نيراري، هي ماردين بالذات.

ولقد اشتملت فتوحات حدد نيراري جنوب طور عابدين عدة مدن ميثانية بينها المدينة الميثانية العاصمة وهي واشوكاني (أوشوكاني) وهنا بدأت العلاقات بالتوتر ما بين ميثاني وآشور مع بقية مملكة ميثاني التي يشار إليها الآن باسم هانيجالبات أو (هانيجالبات) التي ادعى الآشوريون أنها خاضعة لهم، وعندما أظهر ملك هانيجالبات المداوة لآشور، عمد (حدد نيراري) إلى اعتقاله ثم جلبه إلى مدينة آشور حيث أقسم بأن يكون تابعاً، وأجبر على إرسال جزية سنوية، ولكن هذه التبعة ضعفت واستغرق توقف هانيجالبات عن المقاومة وقتاً طويلاً، ولكن الملك الذي تلاه أعلن عصيانه وطلب المساعدة العسكرية من الجيش وهي القوة الرئيسية في المنطقة، إلا أن الجيشيين بقوا معابدين في هذا الطرف وبذلك سمحوا لحدد نيراري بالتغلب على قوى هانيجالبات وضم بلاده إلى آشور، ولقد تشجع حدد نيراري بما لحسه من حياد الحثيين فبدأ بإقامة علاقات سياسية مع ملك الحثيين القوي وتكلم عن الأخوة بينهما.

ولكن الملك الحثي لم يكن متائلاً بالمظلة الآشورية فعامل حدد نيراري بازدراء فكتب له يقول:

((لماذا تود أن أكتب لك حول الأخوة؟ فهل أنت وأنا خلقنا من نفس الأم؟)).

وبعد أن أصبحت هانيجالبات تحت قبضته أصبح حدد نيراري الآن مسيطراً على المنطقة بأجمعها حتى المنطف الكبير للفرات، وهو من الحدود الطبيعية الرئيسية، وإلى الغرب والشمال من هذه المنطقة كانت تقع الإمبراطورية الحثية، وهكذا فقد أصبحت المنطقة الغربية والشمالية الواقعة بين دجلة والفرات تحت السيطرة الآشورية حتى المنطقة، حيث يقرب هذان النهران العظيمان من بعضهما في الشمال، وقد ساعد التهران على جعل هذه المنطقة منيعة ولكنهما أعطيا هذه المنطقة أهمية أخرى، إذ نظراً لأن هذين النهرين يحددان الطرق التجارية الرئيسية

في الشرق الأدنى القديم، لهذا أصبحت آشور الآن تمتلك السيطرة على هذه الطرق، مع أننا ينبغي أن نفترض أن أجزاء هذه الطرق التي تسير من غرب الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط كانت تحت سيطرة أيام صديقة، وخوفاً من أن يحدث العكس بالنسبة لهذه المناطق فقد كان هذا سبباً رئيسياً للتوسع خلال منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وأما في الجنوب وإلى الشرق من نهر دجلة فقد كان هناك ثلاثة حدود محتملة ما بين آشور وبابل ابتداء من الشمال إلى الجنوب، وكانت هذه الحدود الثلاثة منحصرة ما بين الروافد الثلاثة وهي الزاب الأدنى والدهم وديالا، ولقد شهدت هذه الحدود تصادمات عديدة خلال التاريخ الآشوري البابلي.

وقد عكس الخمد الذي اتخذته هذه الحدود الحالات النسبية الراهنة للمملكتين، إذ إنه وبعد المصادمات الحدودية استطاع حدد نيراري أن يُعطي اتفاقاً مع إحدى مناطق الحدود في خط يتبع نهر ديبالا من الزاغروس وتلالها حتى نهر دجلة، وقد ظهرت قصائد بطولية وهي إحدى الأعمال الأدبية الآشورية الأولى التي للاحتفاء بالنصر الآشوري.

ولكن بابل أيضاً قد أحرزت نصراً ظلاً وقتاً طويلاً، إذ إنه ومنذ هذا الزمن أصبح هناك تزايد مرموق لنفوذ الثقافة البابلية في آشور فقد أصبح أنليل الذي كان يتمتع بالسيادة في بابل تلك السيادة التي كانت تنتمي إلى الإله آشور في دولة آشور، هذه السيادة للإله أنليل أصبحت واضحة وبارزة في آشور، ولكن كلاً من حدد نيراري وابنه شلمنصر الأول أطلقا على أنفسمهما لقباً رئيسياً وهو حاكم الإله أنليل.

وهذا وإن صكتبة أول قصيدة آشورية بطولية ذكرت أعلاه ما هي إلا علامة أخرى لوجود النفوذ البابلي في آشور، وأيضاً استعمال اللهجة البابلية (وليس الآشورية) عند صكتبة النقوش الملكية الآشورية وهذه اللهجة البابلية قد ازداد عددها ابتداءً من زمن شلمنصر الأول.

شلمناصر الأول

يعود شلمناصر الأول (١٢٧٤ - ١٢٤٥) ق م وهو ابن حدد نيراري إلى فترة قدر لها أن تلعب دوراً مرموقاً في الشؤون الآشورية خلال القرون الخمسة التالية، فتعفن تقابل في نقوشه بكلمة يورواتري الذي تغير إلى يورواتري، فهي أوائل الألف وكانت يورواتري تدل على مملكة قوية متمركزة على بحيرة (هان) شرقي تركيا، وكانت هذه قلادة أن تتحدى الإمبراطورية الآشورية نفسها، ولكن وفي أثناء حكم شلمناصر كانت هذه المملكة تتألف من اتحاد شعوب واقعة في جبال أرمينيا.

ويذكر شلمناصر شامتي أراضي جبلية تؤلف اسم يورواتري، ومع أن هذه لم تصبح مملكة واحدة إلا أنها كانت امتداداً واسعاً من السكان المستعدين نظراً لأن شلمناصر يتكلم عن تقريه إحدى وخمسين مدينة من مندم، حيث يشير المصطلح الآخر إلى أي مركز سكني ابتداءً من القرية حتى المدينة الرئيسية..

وطبقاً لأفضل الترجمات الحديثة يقول شلمناصر: إنه قد هاجم شعب يورواتري لأنهم تمردوا. والترجمة تدل أن شلمناصر كان يظن أن هذا الشعب من أتباعه الخاضعين له، ولكن الفعل يستعمل غالباً للدلالة على معنى محايد عن أولئك الذين يعبرون الحدود، ويبدو أنه من المحتمل أن هذا هو المعنى الصحيح للكلمة، فإن بعض شعب يورواتري كانوا يحاولون الاندفاع جنوباً إلى حيث كان شلمناصر يدعي بأنها أرض آشورية، وهكذا تقدم شلمناصر لمهاجمتهم وعندهم حفاظاً على الأمن القومي.

ويخبرنا شلمناصر أنه قد مجل بعض شلمباب يورواتري جنوداً في خدمته، وهذا يعني: وجهاً جديداً في السياسة الآشورية، إذ إنه ابتداءً من هذا الزمن أصبحت تتقل الشعوب المغلوبة على مقيلس أصبح واسعاً حقاً، وهذا العمل يتطلب بعض التفسير، فهناك تفسير مألوف وهو أن الهدف الرئيسي للآشوريين هو إسكان الشعوب المغلوبة ذات الميول التمردية حيث لا يستطيعون القيام بأي إزعاج لاسيما إذا سكنوا بين ظهر أي مجموعة عرقية غريبة.

ومن الممكن أن يكون هذا سبباً وجيهاً لهذه السياسة، ولكن من الصعب أن يكون سبباً وتفسيراً كاملاً، فلو كان الأمن العسكري هو الاعتبار الرئيسي فإن الآشوريين الذين لم يكونوا شعباً متأنقاً، فإن باستطاعتهم إحراز هذه القاية عن طريق القتل الجماعي، ولذلك فإنه من الممكن أن يكون الحافز لهذه العملية من الإبعاد والتجهير الجماعي هو حافز إقتصادي.

وبعد التوسع في داخل هانيجالبات (وهي أساس ميثاتي القديمة) فقد كسبت آشور أراضي جديدة واسعة لا تمتلك صناعات زراعية مزدهرة فعسب، بل بلدات ومدين ناجحة وهذه الأخيرة قد وجد فيها صناعات مزدهرة متعددة من أعمال معدنية، ونشر الخشب، وخرابة بالمخرطة، والبناء، وصناعة الجواهر وهلم جراً، وقد ألف أصحاب الحرف هؤلاء مجموعة من المختصين يمكن استخدامها لمصلحة آشور.

هذا وإن القوة البشرية الإضافية التي أصبحت متوفرة حالما استولت آشور على مناطق أخرى إلى الشمال، سمحت بالاستثمار الواسع للأراضي الآشورية الزراعية المنتجة، وإن تنفيذ مثل هذه الإجراءات اقتضى حدوث حركات وتنقلات على مقياس واسع للسكان، ويذكر شلمناصر نفسه عن تجهير (١٤.٤٠٠) من الشعب من هانيجالبات، ومن الممكن أن نضيف أنه ذكر قضية إحداث العمى بالنسبة لهؤلاء المهجرين، ولكننا نظن أن العمى كان لمين واحدة فقط، وإلا فإن هؤلاء العميان سوف يصبحون عبئاً اقتصادياً أكثر منهم مصادر قوة نافعة.

ولم يذكر شلمناصر ما فعله بأولئك الأسرى، ولكن هناك بعض الوثائق الإدارية التي صدرت في زمن شلمناصر أو خلفائه أعطت فكرة عما حدث لهؤلاء من أسرى الحرب من المناطق الأخرى، وهذه النصوص تذكر وجود حصص من الإعاشة من الحبوب والصوف، وهذا الأخير كان لتزويد العمال بمادة خام لصنع ملابسهم.

وهناك نص يذكر حصص الإعاشة من القصر (وهذا يعني: رئاسة الإدارة) وهو يمين شخصية المستلمين، وكان هناك (٧٢٠) أسيراً من أراضي شويرو

مقسمين في أربع مجموعات، كل مجموعة تحت إشراف مشرف آشوري مع وجود رئيس مسؤول عن الجميع، وكان هناك (٩٩) أسيراً من أراضي نينوى و (١٧٤) أسيراً من كادموخ تحت إشراف موظفين آشوريين، وكانت هذه الأراضي في المناطق الشمالية.

وكانت كادموخ في المنطقة ما بين الدجلة وطور عابدين، وكانت شويرو داخل أو شمال طور عابدين، كانت نينوى تقع إلى الشمال من نهر دجلة وإلى الغرب من بحيرة (هان).

ومع أننا لا نعلم الأعمال التي كان هؤلاء يكلفون بعملها، إلا أننا من الممكن أن نستنتج ذلك، ففي النص يذكر وجود (عاشة) (على مقياس أكثر كرمًا) لبعض الآشوريين الذين يعملون كبنايين، وإن شمول البنائين الآشوريين يعني: إنهم كانوا مهندسين مماريين يشرفون على أعمال البناء بينما كان يعمل الأجانب كعمال بناء، وينبغي أن نلاحظ أن مجموع العمال الأجانب بالإضافة إلى سبعة موظفين آشوريين مسؤولين عنهم فإن المجموع النهائي يبلغ الألف.

وإذا أننا للتاريخ السياسي نجد أنه وخلال حكم شلمنصر كان هناك استئناف لأعمال الشعب في هانجالبات، فقد ثارت تلك المنطقة بقيادة ملكها التابع لآشور، وهكذا انقضت شلمنصر على تلك المنطقة طبقاً للأسلوب الذي اتبعه والده، ولكن ظهر عامل جديد الآن في هذه القضية والوضع وهو أننا نسمع الآن عن شعب يدعى (أخلامو) قد دعموا وساعدوا الهانجالباتيين، وهؤلاء الأخلامو كانوا حلفاء للأراميين وهم موجة جديدة من الساميين أتوا من الصحراء خلال الألف الثاني، وقد قرر لهم أن يقوموا بصدمات وتأثيرات كبيرة في الشرق الأدنى.

وفي هذه المناسبة استلم المتمردون الهانجالبات مساعدات من الحثيين وكانت هذه المساعدات لا تشمل المساعدات العسكرية ولكنها اشتملت على عقوبات اقتصادية ضد الآشوريين، ففي إحدى المعاهدات مع إحدى الدول الخاضعة وهي دولة أمورو في سورية، يقول الملك الحثي:

«لا ينبغي لأي تاجر من تجارك أن يذهب إلى بلاد آشور، ولا ينبغي أن تسمعوا لأي تاجر منهم أن يدخل بلادكم».

وكان الحثيون لا يزالون هم القوة العاتية الرئيسية، ولكن الأهمية المتنامية لآشور قد اعترف بها الآن، وعدا عن الاحتكاك فإن سكاناً من شلمناصر وظهفته (توكولتي نينورتا) قد قاما بمحادثات دبلوماسية مع الملك الحثي وذلك كما تدل بعض القطع من رسائلهم، ولم يعد الملك الحثي يهزأ بنظيره الآشوري كما حدث في زمن آشور أبلات، ولكنه كان يطلق عليه اسم الأخ المساوي له.

إن التطورات التي حدثت في زمن شلمناصر تقدم لنا الفرصة المناسبة للمس طبيعة الملكية الآشورية، ومنذ البداية كنا نتكلم عن الحكام الآشوريين كمملوك، ولكن الأشخاص المشار إليهم كانوا غالباً ما يستعملون ألقاباً أخرى، وكانوا يظنون أنفسهم تقريباً ملوكاً، فقد كان الملك الحقيقي للبلاد هو الإله آشور.

ومن وجهة دينية كان الحاكم البشري هو نائب الملك الإلهي، ومع ذلك وبسبب ذلك كانت قوته تعد أكثر من قوة بشرية نظراً لأنه كان يمثل نائباً عن الإله، ونحن نلاحظ هذا الوعي والشعور بأن الملك هو ممثل الإله وبصورة خاصة لدى شلمناصر، فإن توسعه ودخوله المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية قد أدت به أن يفكر أنه هو الراعي الإلهي الذي رفعت الآلهة فوق البشر المتحضرين، ولقد كان يجبر الآخرين أن يدعوه راعي المجتمع البشري والمستوطنات البشرية، والراعي الصادق، وكان هذا اللقب من ألقابه الفريدة التي استعملها الكثير من خلفائه.

وعلى المستوى الإنساني فإن أنشطة شلمناصر في الحدود الشمالية يبدو أنها كانت تضارع اهتماماً جديداً بالمدينة الشمالية العظيمة نينوى، فالنصوص من زمن شلمناصر تذكر عن إعادة بناء أحد المعابد هناك بالإضافة إلى معبد يخص آلهة تدعى: آلهة نينوى (أي: عشتار التي يحترمها أهالي نينوى) وقد وجدت هذه النصوص في داخل (العاصمة آشور نفسها).

هذا وقد وجدت أنواع من الألواح المختصة بشؤون العمل في تل (الرماح) على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الغرب من نينوى، ويعود تاريخها إلى عهد متأخر من حكم شلمنصر أوائل عهد خلفه، وهذا يشهد على وجود تجارة مزدهرة في القطاع الشمالي من آشور بما فيها تجارة التصدير مع بلاد ناپيري، والأناضول.

وقد سمعنا فيما بعد انه لا شك ولحمية هذه التجارة فإن شلمنصر قد وضع حاميتين في مدينتين على حدود (ناپيري) ولكن هاتين الحاميتين قد احتلتهما جيوش الآراميين فيما بعد، ومع أن نينوى لم تصبح العاصمة الرسمية لآشور حتى الألف الأول قـم إلا أن أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بدأت تتفوق على آشور حالما بدأت فترة توسع الدولة الآشورية شمالاً وغرباً، وإن اهتمام شلمنصر بنينوى ينعكس هذا الوضع.

توكولتي نينورتا الأول

لقد استمرت عملية توسع آشور المتحركة تحت حكم توكولتي نينورتا الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨) وهو ابن شلمنصر، وكان هذا من الفاتحين الذين يشبههم البعض بنمرود، وأنه كان نسخة عن نمرود، وهو الذي تصفه التوراة في سفر التكوين (٨/١٠) بكونه الصياد القوي، أمام الإله، وهناك حالات مشتركة بين أعمال توكولتي نينورتا الباهرة وأعمال والده وجدده، ولا عجب في ذلك ما دام أن المشكلات التي كانت آشور مضطرة لمعالجتها لم تتغير.. ولكن (توكولتي نينورتا) هاق أجداده ليس في النسبة للمسافة فحسب، بل بالنسبة لاستثمار المناطق التي كانت تدور في فلك آشور.

هذا ولقد أصبح اختراق آشور واضحاً للعيان.. ولقد أصبح توكولتي نينورتا صريحاً بالنسبة للأراضي التي غزنها جيوشه خلال المنطقة الواسعة في الجبال الشمالية التي دعاها أرض القوطيين، وتظهر المعلومات التي أوردها أن لديه معرفة أوفى من معرفة أسلافه بالنسبة لتنظيم الشعب في تلك المنطقة، فلهذا سُمي

المملكة الرئيسية وحدها باسم (أكوميني أو أكوماني) وفيما بعد أصبح اسمها كوماني) واستطاع أن يعرف اسم ملكها.

ولقد عرف أن البنية الاجتماعية في تلك المملكة كانت اتحاداً مفصلاً تحت حكم الأمراء، ولكنها كانت متقدمة اجتماعياً نظراً لأنه كان فيها مدن مسورة، وكانت جيوشها حسنة التنظيم، وهذه الحقيقة أدت إلى إقتراف سكان الجبال خطأ تكتيكياً، إذ بدلاً من الاعتماد على حرب العصابات في أرضهم الجبلية الصعبة، الأمر الذي كان سوف يقدم لهم فوائد للتفوق على الجيوش الفاتية، فقد أشرعوا قوامهم في معركة محددة، وفي مثل هذه الأمور لم يكونوا أكفاء للقوى الآشورية المدربة، وهكذا أصبح نوكلوتي نينوترا سيداً لأراضي القوط الواسعة، وقد أسر أمراء أكوميني وتقلهم إلى آشور وأخذ منهم عهداً بالولاء، وبعدها سمح لهم بالعودة إلى بلادهم كإتباع.

وهنا نرى المظهر الاقتصادي للفتوحات الآشورية، وذلك لأن أولئك الأمراء الأتباع المطلوبين كانوا خاضعين لنظام التجنيد وجباية الضرائب الذي في هذه الحالة يعني أن عليهم أن يؤمنوا العمال لقطع الأخشاب وإرسالها إلى آشور، وهكذا بدأ نوكلوتي نينوترا في استثمار غلات طوروس الشرقية خدمة لمشاريعه العمرانية في آشور، وكان على الأمراء تقديم جزية ثقيلة سنوياً لآشور، وكانت الزيارات المنتظمة من هذا النوع تؤمن القضاء التي من خلالها يؤثر النفوذ الثقافي الآشوري على شعب أكوميني، ونجد أيضاً بعض الموظفين من أكوميني يعملون عمالاً في آشور في ذلك الوقت، مقابل استلام الإعاشة من آشور.

ولقد عمل نوكلوتي نينوترا على جمع أخبار فتوحاته بالوصف الجغرافي لحدوده، التي كانت عبارة عن نصف دائرة من الجبال والأراضي الجبلية ابتداءً من الزباب الأدنى حتى الفرات، وتعتمد التفسير الدقيقة لهذا الوصف على إثبات شخصية الأماكن المذكورة التي لم تكن خالية من الاتصالات، ولكن إحدى التفسير الممكنة لحدوده موجودة في الخارطة في الصفحة المقابلة.

ويعد أن أصبح الشمال هاجئاً اتجه توكونلي نينوترا الآن إلى جلوته الجنوبية وهي بابل، وكانت المصادمات الحدودية الظاهرة السائدة في العلاقات الآشورية البابلية، ولكن ما حدث الآن كان مسألة أشد خطورة تطورت إلى غزوة ناجحة لبابل، ولقد أنشبت قصيدة بطولية للاحتفال بهذا النصر وطلباً لهذه القصيدة التي تعبر عن وجهة النظر الآشورية، فإن الملك البابلي (كاشتيلاش) هو الذي انتهك حرية السلام وذلك بالإغارة على آشور.

ولكن محب السلام (توكونلي نينوترا) عمل على حل الخصام بصبر عن طريق الوسائل الدبلوماسية حتى أجبرته غطرسة الملك البابلي ولم تترك له خياراً سوى إعلان الحرب، ولقد تبع ذلك غزو ونهب وسلب لبابل ومعبداتها العظيم، قد عُزل ملك بابل وأصبحت بابل معكومة لمدة سبع سنوات من خلال حكام آشوريين.

وكان لهذه الأحداث أبعاد دينية، فلم تكن لبابل بلاداً بريرية يمكن غزوها مثل المناطق الواقعة فيما وراء آشور الشمالية، بل كانت مصدراً ومركزاً حضارياً وكانت العاصمة لبابل مزاراً دينياً ذا مرتبة عالية للقداسة، وإذا سلبت بابل في العالم القديم كان مثل سلب الفاتيكان أو القدس في هذه الأيام.

وكان للقصيدة البطولية وظيفة تقديم تبرئة لآشور من المتهجم ضد الدين والتقوى، فضلاً عن تفضية الشعور بالفخر لدى الآشوريين بالنصر، فقد عمل توكونلي نينوترا ما قصدت القوى الإلهية منه أن يعمل، وتروي القصيدة كيف أن آلهة بابل بالإضافة إلى الحارس الإلهي مردوك في مقدمتهم قد أشاروا في أول الأمر عن عدم رضاهم عن أعمال ملك بابل كاشتيلاش، وذلك برفض أي إشارات مشجعة لمقاومته توكونلي نينوترا، ولهذا فقد هجرته هذه الآلهة كلياً، وانسحبت من تلك المدن التي كانت تخصهم، وقد تمثل هجر مردوخ لمدينته بابل بأن أخذ ملك آشور تمثال الإله مردوخ ونقله إلى آشور حيث ظل هناك نحو قرن من الزمان على الرغم من استعادة بابل لاستقلالها.

ويشكل تهكمي فإن استيلاء ملك آشور على بابل كان له تأثير طويل الأمد على آشور أكثر من تأثيره على بابل نفسها ، إذ إنه عن طريق هذا الانتصار والاحتكاك الثقلي الواسع فإن آشور أصبحت مفتوحة لتأثير النفوذ البابلي الديني والسياسي ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأسرى الذين أخذوا إلى آشور ومن بينهم ملك بابل كان لهم وقع وتأثير مرموق على آشور ، إذ إنه وخلال سبع سنوات حدث عصيان في بابل مما سبب حدوث صدمة بالنسبة لملك آشور.

يذكر ملك آشور في نقشين كتبيا في نهاية حكمه أنه وفي بداية حكمه جلب إلى آشور (٢٨٨٠٠) أسير حتى من منطقة فيما وراء نهر الفرات (أي: من شمال سورية) وهذا القول محير وذلك لأنه لم يذكر أي خبر من هذا القبيل في أي نقوش من السنوات الأولى ، فنحن نعلم من كثير من الرسائل أن ملك آشور وفي بداية حكمه كان يحاول أن يبدأ علاقات سياسية حسنة مع الحثيين ، فهل من المقبول أن يكون ملك آشور قد ألغى نقوشه الماضية للحفاظ على حساسية الحثيين ، لكن هذا يبدو غير محتمل الوقوع.

إن أي هجوم عام يقوم به ملك آشور على الأراضي الحثية سوف يُسبب إلى العلاقات. وبغض النظر عن كون ملك آشور قد اختار أن يسجل هذه الحقيقة أو لا ، وعلى كل حال فإن والده شلمنصر في نقوشه يشير إلى ذبح الجيوش الحثية ، وكانت هذه النقوش موضوعة في آشور بحيث إن المراسلات التي قام بها ملك آشور قلما تسبب الفتور بين الدولتين ، ويبدو أن ادعاء ملك آشور بالانتصار على الحثيين لم يكن سوى نوع من المبالغة المؤسسة على غارة بسيطة ، وقد قدم هذا الانتصار على الحثيين في نقوشه لتلميح اسمه وصورته عندما سادت الأمور معه بعد التمرد الناجح الذي حدث في بابل ، وهكذا أصبحت كرامته في الميزان فأصبح من الواجب اختراع انتصار ضد قوة عظمى ليقابل تأثيرات حظه الماثر.

وخلال القرون بدل الملوك الآشوريون عواصمهم ومن بينهم توكلتي نينوترا ، ولم يوضح الملوك الذين قاموا بالتبديل أسبابهم ، ولكن هناك عاملين بارزين يبدو أنهما عملا في ذلك السبيل في درجات متفاوتة.

والأول: كان استراتيجياً، فالعاصمة القديمة ربما كانت لا تصلح بأن تكون مركزاً للدولة في الحالة الراهنة، ولكن هناك علماً ثانياً : وهو التوتر الحاصل بين المواطنين والحكومة ، ففي المدن القديمة كان المواطنون يتمتعون بحقوق تقليدية بما فيه الإغناء من بعض أشكال الضرائب فضلاً عن الحقوق المتوارثة على الأرض، فقد كان من الممكن أن تطفئ المشاريع العمرانية في العاصمة على حقوق المواطنين تلك، أو ربما كانت احتياجات الدولة الحالية تقنع الملك أن يخفف من الامتيازات الضرائبية للمواطنين، وأن أياً من هذه العوامل سوف يولد الاحتكاك.

وهكذا ولتخفيف مثل هذه الاحتكاكات كان الملك يجد أنه من المرغوب فيه نقل عاصمته، وهذا ما فعله ملك آشور توكونوتي نينورتا، فقد بنى في أواخر مدة حكمه عاصمة جديدة هي كار توكونوتي نينورتا على الضفة المقابلة لنهر دجلة لأشور، وذلك لكي تستخدم هذه المدينة كمركز لحكومته ابتداء من زمن حملته على بابل حتى نهاية حكمه.

فلقد كانت التوترات خلال دولة آشور هي العامل الرئيسي لبناء العاصمة الجديدة، وقد سبب هذا التوتر إنهاء حكم توكونوتي نينورتا وإنهاء حياته أيضاً، وخلال سبع سنوات من قلب الآشوريين على بابل حدث عصيان هناك سبب إرجاع ملك بابل الشرعي إلى عرشه الموروث من أجداده، وإرجاع استقلال بابل عن آشور، فقد عملت التقاليد الدينية القديمة في المشرق الأدنى على زعزعة حكم توكونوتي نينورتا، فقد كان أي عصيان ناجح تهديداً لحكم الملك مستديماً موافقة الإله على حكم الملك، وكان هذا العصيان خطراً عندما يحدث في بابل نظراً لما تمتعت به بابل وأنها من هبة وكرامة.

وهكذا حدث بالنسبة لملك آشور، إذ إنه وطبقاً لبعض التواريخ لقد تبع استيقاظ بابل لنيل الاستقلال حدوث مؤامرة في القصر في كار توكونوتي نينورتا، وتقول هذه النسخة التاريخية:

((لقد عمد ابن توكونلي نينوترا وهو آشور ناصر بعل ونبلأ آشور إلى القيام بعصيان ضد الوالد الذي مدّ يد الشر على بابل، وأنزلوه عن عرشه وسجنوه في بناء في كارتوكونلي نينوترا، وقتلوه بواسطة أحد الأمهات)).

لقد سبب قتل الملك مع تورط أمير من الأمراء في الجريمة بعض التشويش واللبلة في قضية وراثة العرش، وقد انعكست هذه اللبلة على مصادرنا التاريخية، فالتقاتل قد ربح العرش مؤقتاً ولكن ومع أنه فعل هذا فإن ذلك لم يتم طويلاً، لأن الوريث الشرعي المعترف به كان ابناً آخر من أبناء توكونلي نينوترا وهو (آشور نادين أبلي) وإن المدة القصيرة التي حكم بها هذا الابن وثلاثة من خلفائه، فقد حكم الأربعة مدة ثمانية وعشرين عاماً فقط، تشير إلى وجود فترة من عدم الاستقرار نتجة لذلك التوتر الداخلي الذي انعكس من خلال تلك المأامرة ضد الملك توكونلي نينوترا.

صمت مرحلة الاضطراب

لقد أحب الملوك الآشوريون تسجيل أعمالهم ومآثرهم ليس لاطلاع البشر عليها بل للتأكد أنهم قد حصلوا على التأييد من الآلهة.

وهكذا فإن حدوث فترة تخلو من النقوش الملكية من المحتمل أن تكون فترة افتقر فيها ملك آشور إلى وجود منجزات كبيرة أشاء حكمه، ونحن الآن ندخل في مثل هذه الفترة، فقد أصبحت النقوش قليلة تعكس العجز الذي ضرب آشور، فنحن لا نعرف شيئاً مهماً عن حكم آشور نادين أبلي سوى أن نهر دجلة قد تغير مجراه، فقد عاد إلى مجراه القديم بفضل الأدعية الملكية للآلهة مع مساعدة المهندسين الآشوريين، ولم يحسن هذا أمراً سهلاً، فإن انتقال نهر يعني الحسم بالموت على أي مدينة تعتمد على النهر في مواسماتها وأساليب الري فيها، وحتى حدوث تغيير طفيف في مجرى النهر ربما أدى إلى نتائج خطيرة لاسيما بالنسبة لوسائل الدفاع عن المدينة، إما عن طريق تقويض أسس الأسوار والتسبب في

سقوطها، أو عن طريق ترك أجزاء صغيرة من السور كانت تحميها مياه النهر معرضة للانهيار.

والحقيقة أن طوفان المياه كان من الأسباب الأساسية لسقوط آشور نهائياً عندما كانت آخر عاصمة فيها وهي نينوى تحت الحصار عام ٦١٢ ق.م.

وكانت هناك عدة مشكلات تواجه آشور في هذه الفترة المظلمة عدا عن انتقال النهر، فقد حدثت حركات لبعض الشعوب على مقياس واسع بحراً وبراً في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط مما سبب انهيار الامبراطورية الحثية، وحدثت محاولات استيعابية على طول الشواطئ الشرقية، ولقد كان لهذه الحوادث صدى وأثار تالية على التجارة وطرقها، قد أثرت على آشور بشكل منعكس، بينما أثرت الشعوب المهاجرة تأثيراً مباشراً على ممتلكات آشور الغربية والشمالية، وأصبحت بابل حسب بعض المراسلات بين حكام الملكتين، في حالة ووضوح سياسي مكثف من التدخل في شؤون آشور، وانعكس هذا في قضية وراثة العرش الآشوري، فقد كان الملك الرابع من الملوك الصفار الذين تلو توكلتي نينورتا واسمه (نينورتا - ايبيل - ايسكور) بعيداً جداً عن الأسرة الحاكمة بحيث إنه عزا حقه في الوراثة إلى ملك عاش قبل قرن.

وهكذا أصبح هناك بعض التدخل في قضية وراثة العرش، وقد أصبحت خلفية هذا الوضع ظاهرة عندما نعلم أن (نينورتا - ايبيل - ايسكور) حصل على السلطة من إحدى قواعد بابل بعد اصطدام آشوري بابلي، وقد حصل هذا الأمير على السلطة بعد دعم وموافقة بابل.

ولكن وبمرور الزمن فقد خدم هذا التدخل مصالح آشور، إذ أعطى هذا التقارب قاعدة لتجديد الاستقرار الداخلي بحيث إن ابن الملك الجديد وهو آشور - دان الأول (١١٧٩ - ١١٢٤ ق.م) كان حكمه أطول حكم في تاريخ آشور، إذ إن ندرة وجود النقوش توحى أن آشور كانت على طريق التوحيد بهدوء، دون حدوث أي مقامرات سياسية وعسكرية.

وقد ذكر عن تصادم حدودي بين آشور وبابل ولكن هذا لم يكن أكثر من حادث عارض موضعي ولم يكن يعني أي اعتداء من قبل إحدى المملكتين.

والحقيقة أنه ونحو منتصف القرن العشرين لم تكن آشور ولا بابل هي التي سيطرت على الحوادث في منطقة ما بين النهرين، بل وجدت قوة ثالثة وهي عيلام في جنوب غرب إيران (خوزستان) فكانت هذه المنطقة ابتداء من الألف الثالث حتى يومنا هذا ذات تورطات قليلة من حين لآخر مع الثقافة والتاريخ في منطقة ما بين النهرين، وقد انعكست هذه الروابط الثقافية في التوراة التي تقول: إن عيلام كان أخوا آشور (سفر الخروج ١٠ - ٢٢). مع أنه بالنسبة للغة كانت لغة عيلام مختلفة عن لغة بابل وآشور.

وفي أوائل حكم آشور - دان عندما حدثت بعض الاضطرابات في بابل حاولت عيلام التوسع إلى جنوب ما بين النهرين، فقد غزا أحد حكام عيلام بابل في القرن الثالث عشر، وتصادم هناك مع توكلوتي - نينورتا ولكن التوسع العيلامي في القرن الثاني عشر كان قضية طويلة الأمد، فقد هاجم العيلاميون المنطقة المحاذية لنهر دجلة - حيث كان هناك طرق تجارية مهمة ووصلوا إلى بابل نفسها عام ١١٦٠ ق.م، وهكذا انتهت سلالة الملوك الكاشيين القديمة وظل قسم كبير من منطقة شمال شرق بابل تحت الحكم العيلامي نحو ثلاثين عاماً حتى أصبح حكم بابل عبئاً على موارد العيلاميين، ولقد أثر هذا على آشور هامشياً عندما امتدت سيطرة الميلايين شمالاً تجاه الزاب الأدنى في منطقة حدودية وكانت معرضة للخصومات ما بين بابل وآشور، ونتج عن ذلك تأكيد أهمية آشور استراتيجياً واقتصادياً في المنطقة إلى الجنوب الشرقي من الزاب الأدنى.

في منطقة الشرق الأدنى القديمة كانت الفرصة الرئيسية لظهور تأثير الرأي العام الشعبي عند موت أحد الملوك، إذ إنه كانت تحدث اضطرابات عند موت أحد الملوك لاسيما إذا كان حكمه طويلاً، تصل إلى حد التمرد.

وكان الأمراء المتنافسون يضمون أنفسهم على رأس الفئات المتنافسة، وقد حدث هذا عند موت آشور - دان، عندما اختصم ولداه الذي كانت بابل تؤيد أحدهما، فقد حكم أحدهما وطرد وأما الثاني فمن المحتمل أنه قتل.

هذا وقد عادت الحالة السوية الاعتيادية إلى آشور عند حكم آشور - ريمش - ابشي الأول (١١٢٣ - ١١١٦) ق م ولكن الحالة الطبيعية الاقتصادية لم تُعقد أبداً، ويمكن أن نستنتج ذلك من نصوص ترجع إلى هذه الفترة تذكر وتسجل وصول بعض الأغنام والمواشي إلى البلاط الملكي من بعض الموظفين المختلفين، وإعطاء الترتيبات المفضلة بالنسبة لتوزيع هذه المواشي في العاصمة، وأما الإنتاج الزراعي والأعمال الرتيبة لمصلحة الإدارة الآشورية فقد استمرت ولم تقاطعها سوى بعض المصادمات في الخارج أو النزاعات للحصول على المصلحة في الداخل.

الفصل الخامس

الإمبراطورية الآشورية الوسطى

لقد وصلنا الآن إلى واحد من أبرز الشخصيات في التاريخ الآشوري وهو تملات - بلاسر الأول (١١١٥ - ١٠٧٧) ق م وهذا يضعنا وجهاً لوجه أمام مشكلة متواترة، فقد بدا أن الفترات التي كانت آشور فيها دولة هتية نشيطة وكان ملوكها شخصيات مرموقة، هذه الفترات كانت تتعاقب في أوجه كانت الشخصيات الرئيسية تدوى وتذوب في خفايا النسيان، وهكذا يجابهنا السؤال: هل رفع الملوك الأقوياء شأن آشور وقوتها إلى درجة الازدهار عن طريق قدرتها الموروثة الداخلية؟ أم أن تلك الظروف المواتية العالمية التي مرت بها الدولة الآشورية قد أثرت في ملوكها، وأثرت على تجسيد الدولة المنظور بحيث أكسبتها هالة من التصميم والقوة؟ وأظن أن الحقيقة تقع فيما بين هذين الرأيين المتطرفين.

إذ لا يستطيع أي ملك مهما كانت قوته أن يرفع آشور إلى ما كانت عليه من قوة وازدهار ضمن ظروف معاكسة دلياً وأحوال قاسية، ولكن عندما ظهرت ظروف دولية مواتية لأشور فإن أي ملك حازم قادر يستطيع تحقيق الفوائد الكاملة من هذه الظروف.

ففي الجزء الأعظم من القرن الثاني عشر كانت الظروف غير مواتية لتقدم آشور، فلقد ظهر العامل الميلاي ولكن الحركة المنصرية التي حدثت حول الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط والتي كشفت عن خرافة مقوطة طروادة بعد أن جرفت وطردت الإمبراطورية الحيثية من الأناضول، وجلبت بعض الشعوب الجديدة التي تتمثل في أفضلها المعروفة وهم الفلسطينيون الذين في سورية وفلسطين وهددوا حتى مصر.

ولا شك أن الموجات الطاغية الناتجة عن هذه الحركات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذا العنوان لنقضي ممرتها بالتعاصيل) ينبغي أن تكون قد وصلت إلى

منطقة الفرات وعطلت التجارة على طول ذلك النهر وبذلك قد عطلت النمذج التجارية في آشور نفسها.

تجدد آشور

بدأت المسائل بالتحسن في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر عندما ظهر بعض الملوك المرموقين مرة ثانية في آشور وبابل، وتبدل النقوش المعتمدة إلى آشور - ريثن - إيشي أنه كان في وضع يستطيع فيه أن يقوم بزحف على الجبال الواقعة إلى شرق وشمال آشور خارج أراضي آشور الأصلية، ولكنها واقعة ضمن السيطرة الآشورية، وقد ساعد الازدهار المتزايد على تنفيذ بعض مشاريع إعادة البناء مثلاً إصلاح الأبنية المتضررة بسبب حدوث زلزال في أوائل القرن.

ويظهر تفللات بلاسر الأول ابن ووريث آشور - ريثن - إيشي، ظهرت لنا علائم واضحة على انبعاث آشور الذي أصبح ممكناً عند حدوث التجديدات في الظروف العامة، ولكن وبسبب شخصية الملك نفسه، فقد ظهرت استراتيجيات واضحة عن طريقها استطاع تفللات بلاسر أن يمالج بنجاح المشكلات المواجهة لآشور، وقد سؤلت كل خطوة من خطواته إقدامه على معالجة الخطوة التالية.

ولكن لدينا الآن الصدى الأخير، وهو حوادث تفللات بلاسر والحركات التي قامت بها الشعوب في شواطئ البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. ويخبرنا تفللات بلاسر أنه وفي بداية حكمه إلى شعب يبلغ تعدادهم عشرين ألفاً يدعى شعب الموشكي الذين احتلوا الأراضي الواقعة إلى شمال غرب طور عابدين لمدة خمسين عاماً اتوا واحتلوا أرض (ككادموغ) المجاورة لأور من الجهة الشمالية الغربية والتي كانت تعد مقاطعة آشورية، وقد ترك أسلاف الموشكي بعض الشك أنهم أحد الشعوب التي قامت بالهجرات العامة في آسيا الغربية في أواخر الألف الثاني ق.م.

الحرب الوثائقية

ليس لدينا أي دلالة عن أي عمل آشوري ضد شعب الموشكي ما داموا ساكنين فيما وراء (طور عابدين) إذ كانت أعمال تغلات بلاسر تقتصر بالدفاع عن أمن آشور ولم تكن أعمالاً عدائية نظراً لأن التدخلات الآشورية إنما بدأت عند غزوهم كادموخ، والحقيقة أن هذه الغزوة اعتبرت تهديداً مباشراً لآشور وذلك لأن تغلات بلاسر قام بهجوم سريع ممالكهم، وقد سجل أنه لم ينتظر حتى يؤمن مؤخرة الجيش أي: إنه رأى الوضع بشكل ينفي فيه العمل السريع الذي لا يسمح بالتأخير بالنسبة للإجراءات العادية التكتيكية.

ولقد نجحت هذه المهجمة التلقائية الأولى، فقد وقع ستة آلاف من الموشكي في الأسر وبعد ذلك استقروا في الأراضي التي غزوها واعتبروا كأتباع لآشور، وفضلاً عن مساعدة هؤلاء في الإنتاج الزراعي، فقد كانت لهم فوائد عسكرية لتغلات بلاسر وذلك لأنهم قدموا له (١٢٠) عربة حربية وقطيعاً من الخيول وبعض الملاحين من الموظفين الأكفاء.

إن نجاح العملية ضد شعب الموشكي شجعت تغلات بلاسر على اتخاذ خطوات أخرى في بيان الحرب، فقد عبر بعض أهالي كادموخ الموالين للغزاة إلى الضفة الشمالية من نهر الفرات لكي يتعدوا الآشوريين من قلعة هناك، فقد طارد تغلات بلاسر هؤلاء المتمردين ثم بدأ في خصام مع شعب يدعى باننجو (من الواضح أنهم كانوا يتكلمون اللغة الحورية، مما يظهر من أسماء ملوكهم) وكان هؤلاء منتشرين إلى الشمال من نهر دجلة، ويظهر أن اسم باننجو لم يكن اسماً اصطلاحياً عرقياً بل كلمة (حورية) تعني: شعب جبلي.

وبعد مناقشات طفيفة حدثت في جوار نهر دجلة قاد تغلات بلاسر جيشاً واتجه إلى حيث كان شعب الباننجو في الداخل، ومع أنه كان يشير إلى حرق المدن والاستيلاء على الغنائم، إلا أن قلعة التفاصيل حول أسماء المدن يجعل من الواضح أن هذه الغزوة لم تكن سوى غزوة استطلاعية.

وقد كان لغزوة وعمل تغلات بلاسر القوي الحازم ضد شعب الموشكي في كادموخ آثاره على المناطق المجاورة الواقعة إلى الغرب حيث كان هناك مجموعات أخرى من الشعوب، وقد وصف أحدهم الشعوب بكونه المماكر غير الراضين من الحثيين، وربما كان ذلك يعني المجموعات المنظمة التي انتقلت باتجاه جنوب شرقي بعد تفسخ الامبراطورية الحثية.

وهناك أيضاً ذكر لشعب (كاسكا) الذين كانوا يعيشون بمحاذاة البحر الأسود في فترة سابقة، وربما رحب مثل هؤلاء بالفرصة التي تجعلهم يقبلون أعضاء ضمن قوة وطنية راسخة ولهذا فقد خضع هؤلاء عند قدوم تغلات بلاسر الذي قبلهم اتباعاً له وهكذا بدأ تكوين ذلك التمازج المرقى الفريد الواسع في آشور.

تغلات - بلاسر في الأناضول

لقد تابع تغلات بلاسر غزواته الاستطلاعية فيما وراء كادموخ بقيادة جيشه الرثيسي المدعوم بالمربات البحرية عبر نهر دجلة ثم شمالاً إلى داخل أرض (بانجو) وحيث كانت الجبال غير صالحة لسمير المربات يخبرنا تغلات بلاسر أن جنوده كانوا يحركون المربات بالقوة البدنية فقط وذلك لأن ذلك كان ضرورة في بعض الأحيان، ولكن كان هناك طرقاً يمكن أن تمر بها المربات بسهولة فوق جزء كبير من تلك المنطقة، ولقد حاول شعب (بانجو) إيقاف جيش تغلات بلاسر عن طريق بعض المناوشات في الجبال ولكنهم فشلوا واستمر الجيش الآشوري في تخريب ونهب عدد من الأراضي في (بانجو).

وقد عدد أسماء تلك الأماكن مما يدل أنه كان على معرفة بالمنطقة، ويبرهن تعدده لأراضي مختلفة أنه لم يكن هناك أي مملكة قد نشأت هناك.

من الواضح أن حملات تغلات بلاسر قد قادته إلى شمال نهر دجلة وإلى الأناضول الشرقية ولكن لا يعلم بالضبط إلى أين وصل، ومع ذلك فإن لدينا وسيلتين من المعلومات حول هذه القضية، إحداها وصوله إلى مدينة (ماليد) (تعرف اليوم باسم ملاطية) وقد سجل فتحه لهذه المدينة.

وهناك إثبات آخر يقدمه نقش تركه تغلات بلاسر على إحدى الصخور في منطقة (ملازكرد) إلى الشمال الغربي من بحيرة (فان) وقد كان نص النقش كما يلي:

«تغلات بلاسر، الملك القوي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أرمكان العالم قاهر بلاد (نايري) ابتداءً من أرض (تومي) إلى أرض (دايننو) وقاهر أرض حيجا حتى البحر العظيم».

من الواجب أن يقدم لنا هذا النص حدود حملات هذا الملك، فهو يمدد خمس مناطق جغرافية ولنبوء الحظ لا يمكن تعريف أي واحدة بشكل حازم لا بتلحق إليه الشك، وحتى وبالنسبة لتغلات نفسه كانت (نايري) اسماً غامضاً فقد كانت الأرض المرافقة للملوك الستين (لنايري) الذين واجههم وطاردهم خلال إحدى حملاته، وكانت (تومي) ودايننو تعني شيئاً مبروفاً لديه، فقد كان يثبت مناطق تدخل داخل ذلك الاسم العام وهو (نايري) ولكن وعلى الرغم مما كتب عن تلك البلدان إلا أنه ليس هناك من شيء أكيد.

وكل ما يستطيع أن يقوله المرء: هو أن (نايري) كانت واقعة إلى الغرب من بحيرة (فان) وجنوب (طور عابدين) مع وجود قليل من التأكد حول الحدود الغربية والشمالية وأن (تومي) و(دايننو) كانتا النهايتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بالتوالي بالنسبة (لنايري) والبحر العظيم، ولكن يعتمد الفهم الخاص لهذه الأمور على ماذا يعني البحر العظيم؟ ومن المعتاد أن يعني: البحر الأبيض المتوسط، ولكن هناك اسم آخر لهذا البحر وهو البحر الأعلى مع أو دون إضافة كلمة (إلى الغرب).

وتظهر بعض الملاحظات بالنسبة للحقيقة التي مفادها أن البحر الأعلى (دون إضافة كلمة (إلى الغرب) من الممكن أحياناً أن يدل على بحيرة (فان) وليس من المستحيل أن للبحر العظيم صفتين مزدوجتين وهما البحر الأعلى وفي نقوش تغلات بلاسر تعني بحيرة فان.

هذا وإن التفسيرات الوحيدة غير هذه، هي إما أن نفهم البحر العظيم هنا بمعنى العام وهو البحر الأبيض المتوسط الذي لا يمكن أن يطابق الوضع جغرافياً أبداً أو أن نعتبره البحر الأسود، وهذا التفسير يناسب اختراقات تفلّات بلاسر، مع أن بعض العلماء يقولون ذلك بالمعنى المذكور هنا.

ومهما كانت جغرافية توسعات تفلّات بلاسر إلى الشمال، فمن الواضح أن الباعث الرئيسي لهذه التوسعات كان اقتصادياً، فهو يسجل الفنائم بشكل أوانٍ نحاسية وبرونزية وكذلك مجموعات الخيول والمواشي التي تُعدّ بالأثوف وقطعان الثيران والحمير، ولقد ذكرت الاهتمامات الاقتصادية لتفلّات بلاسر في نقوشه فهو يقول:

((لقد جعلت جميع أراضي آشور مجهزة بالمحاريث بحيث تزيد مخزونات القمح فوق التي كانت في زمن أسلاخ، ولقد ربيت قطعان الخيول والمواشي والأغنام)). وكان واضحاً أيضاً بالنسبة لسياسته الرامية لزيادة مساحة أراضي آشور وطبقة المال فيها وذلك بواسطة تهجير الشعوب المهزومة، وكذلك فقد طرد الذراع العربي وزاد في عدد المربيات الحربية بشكل لم يمهّد به أحد من قبل.

تهدد الآراميين

لم تكن أعمال تفلّات بلاسر البطولية معددة بحملاته إلى الشمال، فقد امتدت نشاطاته إلى جميع الجهات حوله ولاسيما على ضفاف الفرات وهي التي يقول عنها:

لقد عبرت نهر الفرات ثمان وعشرين مرة في اقتفاء آثار الآراميين، ولقد عرف نهر الفرات وهو الشريان الرئيسي للمواصلات وشهد حركات القبائل الرحل التي كانت تتدخل بالسكان المستقرين أو بالإدارة المركزية، وفي زمن تفلّات بلاسر الأول ازداد هذا التهديد بنسب هائلة وذلك عند ظهور أولئك الآراميين الرحل من الصحراء.

فقد كانت أموالهم من الداخل من منطقة جبل بشري، وهي المنطقة الواقعة ما بين الفرات والموقع الذي أصبح فيما بعد مدينة القواضل تدمر، ولم يكن مسبب تهديد الآراميين وهجومهم إلى منطقة الفرات الذي بدأ في هذا الزمن مبروفاً أو واضحاً، ولكن مع غياب أي شواهد ملموسة يمكننا أن نخمن فقد كان جبل بشري مشجراً، إلا أنه كان عارياً من الأشجار بشكل أكيد قبل العصر المسيحي، وإنه لتخمين معقول أن إزالة الأحراج كانت مسببة عن السكان الأصليين في تلك الفترة وهم الآراميون في الألف الثاني ق.م، إذ إن إزالة الأحراج ستكون سبباً في إفراغ وتوقف ما يدعي بالأمطار العاصفة المسببة لخصب التربة، والتي راحت بالتناوب مع فترات من القحط تسبب تآكل التربة وحدث فترة من الجفاف، وعند حدوث هذا فإن هذه العملية سوف تجعل المنطقة عاجزة عن إعالة سكانها السابقين مما يستغرق مضي نحو سنتين أو ثلاث سنوات عجاف لبدء عمليات الهجرة العامة من المنطقة.

وطبقاً لتفلات بلاسر فقد عمد الآراميون إلى عبور نهر الفرات ودخول ما يدعى الأراضي الآشورية الدائمة، والاستقرار بمهاداة الطول الكامل للنهر ابتداءً من منطقة الحدود البابلية حتى (كار شميش) (كرشمش).

ولكن تفلات بلاسر طردهم بعد أن نقل جنوده عبر الفرات على طوافات مصنوعة من جلود الماعز، ربما كانت من نوع الطوافات المعروفة في هذه الأيام وتدعى: كيكليك **Kelek**.

لقد سجل تفلات بلاسر أن أذى الآراميين كان مستحقلاً بحيث إنه كان مجبراً على ملاحقتهم ثمانية وعشرين مرة: مرتان في كل سنة وليس من المؤكد كيف ينبغي أن نفهم الجملة الأخيرة، فهل كان ((مرتان في كل سنة)) بحيث كان زمن الحملات أربعة عشر عاماً؟ أم أن إظهار القوة مرة واحدة تكفي بشكل طبيعي ما عدا سنة واحدة حين كانت الحالة في غاية السوء بحيث إن تفلات بلاسر كان مجبراً أن يقوم بحملة ثانية؟

والنتيجة هي تأييد وجهة النظر التي مقادها أن تغلات بلاسر مكان يعني موتين
كل سنة وأنه وبعد أربعة عشر عاماً ، قام الأموريون بمغادرة الأراضي الآشورية.

وبالواقع وقبل نهاية حكمه الذي دام ثمانية وثلاثين عاماً استطاع تغلات
بلاسر الاختراق حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ليس بطريق سورية الشمالية
خلال أراضي الحثيين فحسب ، بل أيضاً من خلال تدمير وهذا يعني أنه كان
يزحف خلال قلب الأراضي الآرامية.

فهل ظل الآراميون وحتى نهاية عهد تغلات بلاسر يؤلفون تهديداً كافياً على
مجازاة الفرار مما يلزم القيام بحملة سنوية تأديبية؟ وكان هذا العمل بمنتهى
الغباء تكتيكياً علماً بأن تغلات بلاسر كان رجلاً عسكرياً ولم يكن أحمق.

وعندما وصل تغلات بلاسر إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط أظهر فجأة أن
لديه شعوراً إنسانياً ، فقد أراد أن يقوم برحلة قصيرة في أحد القوارب ، وعندما
كان في القارب فإنه ربما حاول تجريب التحريون وهو ربح يستعمل لصيد الحيتان ،
وقد قال في هذه المناسبة :

«لقد ركبت السفن في مدينة أرواد الواقعة في أراضي أسورو وقمت برحلة
ناجحة دامت ثلاث ساعات من أرواد حتى سامورو ، وقد قتلت في البحر نهيرو وهو
حصان البحر».

ولقد ذكر الملك هذه المغامرة بفخر واعتزاز فقد سجل هذه المغفرة في زينة
مدخل قصره ، وقد قال :

«لقد صنعت من البازولث صورة لما يسمونه نهيرو وهو حصان البحر الذي قتلته
بواسطة الرمح في بحر (أمورو) وذلك بأمر الآلهة المعظم أسيادي».

هذا وإن تحديد حصان البحر هذا قد سبب صروف كميها من الخبر حين
سجلت الآراء المختلفة حول كون هذا المخلوق دولفيناً أم حوتاً.

من الواضح أنه كان لتغلات بلاسر اهتمام بالحيوانات القريبة وكانت هذه
ظاهرة اتصف بها كثير من الملوك الآشوريين الذين كانوا يرحبون بامتلاكهم

الحيوانات الغريبة مثل السمكيات والتماسيح التي وردت إليهم كحجزة ، أو من الحيوانات هذه أنشأ تفللات بلاسر حديقة حيوان من الحيوانات التي حصلوا عليها من الصحراء السورية ، وكان هناك عدد من الحيوانات البرية حول آشور القديمة ، وكانت هذه الحيوانات أكثر عدداً مما هي عليه الآن ، وكان فيها أنواع كثيرة من الحيوانات اللبونة.

وتشير النصوص إلى صيد النخبة والضباع ، والأسود والتمور والفهود ، والفزلان والماعز البري ، وشكل هذه الأنواع لا تزال موجودة في منطقة ما بين النهرين قبل قرن من الزمن ، مع أن القطط الكبيرة الحجم قد اختفت ، وهناك حيوانات لبونة مثل البهزون (الثور الأمريكي) والجاموس المائي (وقد كان هذا في الأصل برياً ثم أعيد تقديمه كحيوان أهلي بعد أن انقرض من البراري) أما الخنازير البرية (التي لا تزال موجودة بأعداد واهرة) وعدة أنواع من الفزلان (التي اعتبر بعضها منقرضاً) وأما الباقي فهو معرض للخطر من الصيادين العرب الذين يصطادونها في الصحراء بواسطة استخدام مركبات ذات أربعة دواليب ومعهم أسلحة أوتوماتيكية.

وكان هناك الأغنام البرية والوشق والفهد الصياد وحمر الوحش أو (الأخدر) التي ما تزال موجودة في سورية بشكل وافر في الجزيرة في القرن التاسع عشر ق.م ، ولكنها انقرضت منذ عام ١٩٢٧ .

وهناك نوع من الحيوانات أرسله التجار إلى تفللات بلاسر من الخارج ، والتي حاول تربيته بشكل قطمان وهو الجمل ذو السنامين وقد ذكر هذا الجمل ابن الملك ضمن نصوص المسلة المكمورة ، وربما جلب هذا الحيوان من المنطقة فيما وراء زاغروس نظراً لأن الاسم الذي عُرف به وهو (أوردو) مشتق من الكلمة الهندية الأوروبية التي تعني: الجمل ذو السنامين.

ويذكر تفللات بلاسر حيواناً آخر يدعى يورهيشي كان قد أرسل إليه كنوع من الجزية ، ويعتقد بعض العلماء أن هذا الحيوان هو الباك (ثور التبت) ولكن الحقيقة أن الباك موجود في أراضيه ويئته (وهي جبال التبت العالية) فلا يمكن أن يكون موجوداً في آشور سواء عن طريق الجزية أو عن طريق التجارة ، والحقيقة أن

كلمة بورهيشي موجودة إلى جانب كلمة أوربو المكتوبة على المسلة المكسورة، ومن الممكن أن يكون هذا الاسم قد اخترعه الآشوريون عندما قابلوا الجمل لأول مرة، نظراً لأن الكلمة ربما تعني (ذو المجزة) وهذا يشير إلى النعام.

وهناك حيوانات من ذات الأربع قوائم وجدت قرب منطقة ما بين النهرين في الأزمنة القديمة وهي تشمل حيوانين مسهبين جداً وهما الثور البري وهو حيوان بري كان ارتفاع العجل من هذا النوع ستة أقدام حتى منطقة الكتف، وكان هناك نوع من الفيلة، وقد كان الملوك الآشوريون مولعين بصيد الأسود والفيلة فما سبب انقراض هذين النوعين مع أنهما كانا ما يزالان موجودين بعد قرنين من عهد تفلات بلاسر؟

وهناك نوع آخر من الحيوانات المرموقة القديمة وهو النعام الذي وجده الملوك الآشوريون وصادوه وأتلفوه في الصحراء السورية مع أن هذا النوع نجا وكان ما يزال يشاهد هناك في القرن العشرين الميلادي.

أما الأسود فقد كانت شائعة الوجود وخطرة بالنسبة للحيوانات الأليفة وللشعر في الأرياف المكشوفة، ويذكر الملوك الآشوريون المجازر التي حدث فيها قتل نحو ثمانمائة أسد مرة واحدة، ويبدو أن هذه الضحايا كانت تصطاد وبمدها يطلق سراخها وتوضع في حدائق مخصصة، إلا أن الرسوم تعطينا بعض الدلالات التي تشير إلى الانتشار الواسع للأسود.

وفي قصة الطوفان يقترح على الإله إنليل استخدام الأسود للفتك بالبشر بدلا من الطوفان وهذه طريقة أفضل، وهذا يدل أن الأسود كانت تعد تهديداً حقيقياً لحياة الإنسان، ويأتي تقرير من ماري يعود إلى الألف الثاني ق.م، أن أسداً قد أمسك به على سطح أحد المنازل، وكان من الواضح أن الأسود كانت تستطيع الدخول مباشرة إلى داخل القرية.

كان تفلات بلاسر الأول رجلاً ذا همة عالية ونشاط مستمر واهتمامات واسعة، وفي أثناء حكمه حصلنا على مجموعة من القوانين الآشورية التي تم تنظيمها في مجمل القوانين الآشورية، وربما كان ذلك بناءً على أوامر هذا الملك،

وكانت إحدى تلك القوانين تعالج مشكلات ملكية الأراضي وغيرها كان يعالج مشكلات تختص بالنماء.

مراكز الحدود البابلية

نتقل من تفلات بلاسر المهتم بالحيوانات والمشرع القانوني إلى تفلات بلاسر مؤسس الاستراتيجية العسكرية، وذلك لكي نطلع على مواقفه بالنسبة لقضية الحدود، وهي القضية الحساسة سياسياً في الجبهة الجنوبية مع بلاد بابل، وقد حدثت هنا المصادمات الحدودية المعتادة التي استجاب لها تفلات بلاسر أخيراً ودفع بقواته إلى ما وراء الحدود للاستيلاء على المدن الشمالية بما فيها العاصمة بابل، ولكنه لم يقدّم أي محاولة لتصيب نفسه ملكاً على بابل، وبدلاً من هذه الحملة لم تكن سوى غارة تأديبية للضغط على بابل لقبول حدود تمر أبعد جنوباً.

ومن جهة أخرى كان التماس مع بابل نتائج تزايد نفوذ الثقافة البابلية والنفوذ البابلي في آشور، وكانت إحدى مظاهر هذا النفوذ ابتداء إبدال أسماء الأشهر البابلية لتعمل محل الأسماء الآشورية.

ولقد شهد حكم تفلات بلاسر أيضاً نمواً متزايداً لأهمية نهوى السياسية، وهذا كان ضرورياً لأجل السيطرة على الشمال، وقد اعترف بهذه المدينة أنها المدينة الثانية والعاصمة الثانية لدولة آشور، وقد كانت مشهدة للأعمال العمرانية المرموقة وذلك بما فيه إعادة بناء سورها.

لا تكفي الظروف الدولية لوحدها لتفسير الحماس والنشاط الآشوري في زمن تفلات بلاسر إذ إن حكمه يعطي مثلاً جيداً لأهمية المقبرة الشخصية والنشاط عند هذا الحاكم، وقد مرّ على عرش آشور ههنا بعد ملوك اتخذوا لهم اسم تفلات بلاسر، وهذا ما يدل على شخصية تفلات بلاسر العظيمة الدائمة التي نبشروا بالنجاح، ولكن لم يعمد أي حاكم فيما بعد إلى اتخاذ أسماء أبناء هذا الملك الذين خلفوه رغماً عن الاسم الشهير لابن الثاني وهو آشور - بيل - كالا وهذا

الاسم يعني: الإله آشور هو سيد الجميع وهذا الاسم يعكس أمانتي الأب أكثر من إنجازات الابن.

الهجرات الأرامية

بعد انتهاء حكم تفلّات بلاسر حدث انعطاف سريع يصاحبه التزايد الدائم لأهمية الأراميين، الذين ناضل هذا الملك ضدهم بشكل مثابر وناجح، ويعتمد البحث حول كيفية تركيب التفاصيل حول الطريقة التي استطاع بها الأراميون قلب الموازين ضد آشور على كيفية فهمنا لأحد الأنساب المعروف باسم المسلة المكسورة، ونظراً لأن المسلة مكسورة فنحن لا نستطيع معرفة اسم الملك الذي كتب تلك النقوش، ولكن غالباً ما ينسب الآن إلى ابن تفلّات بلاسر وهو الخليفة الثاني لوالده واسمه آشور - بيل - كالا.

وتمتلك هذه النصوص بعض المظاهر القديمة، فهي تتكلم بضمير الغائب وأحياناً بضمير المتكلم وتبدو أن المقاطع المكتوبة بضمير الغائب وكأنها لا تتحدث عن آشور بيل كالا بل عن أحد أسلافه، وباعتبارات التقوى فقط أن هذا السلف من المحتمل أن يكون والد آشور - بيل كالا وهو تفلّات بلاسر وعندما نجد أن هذا النص يذكر شلون الصيد، وجمع الحيوانات، وهذا يتفق مع ما يذكره تفلّات بلاسر عن نفسه، عند ذلك تبدو المسألة وكأنه ليس فيها مجال للشك، ولكن وبينما تذكر نقوش تفلّات بلاسر عن أحوال مقلدة الأراميين عبر الفرات (وهذه المسألة مذكورة من المسلة المكسورة) فإن المسلة المكسورة تضيف بعض المراجع التي تعود إلى الشهر التالي حول مهاجمة إحدى القواهل الأرامية في أماكن مختلفة، وتقع بعض هذه الأماكن بعيداً عن نهر الفرات في مواقع داخلية في أراضي آشور مثلاً في طور عابدين بمحاذاة نهر دجلة قرب حرّان وبمحاذاة نهر الخابور، وليس هناك ما يدل فيما إذا كانت القواهل الأرامية تحتوي على التجار والوحدات المقاتلة، أو أنها عبارة عن مجموعات تحاول أن تجد لنفسها مكاناً ناوي إليه.

ولكن من الواضح أن هذه القوافل كانت واسعة الانتشار، وبمنفس الوقت لم تكن هذه القوافل قوية، ولم تكن تعمل بشكل متناسق نظراً لأن الملك الآشوري كان قادراً على مطاردة كل مجموعة بسرعة، وفي الوقت نفسه مطاردة قافلتين أو ثلاث وحتى أربع في الوقت نفسه، وفي نفس الشهر، ويمتدح من ككل ما ذكر أنه رغم محاولات تغلات بلالسر الفاجعة لضبط محاولات الآراميين ومكبتها عند عبور الفرات من جبل البشري، فإن مجموعات صغيرة كانت تنجو من هذه الشبكات وتتجح في النفاذ إلى بلاد آشور، وهذا ما سبب عدم قدرة خلفاء تغلات بلالسر على عدم التأثير بالضغط الآرامية.

تولى آشور - بيل - كالا - العرش (من ١٠٧٤ - ١٠٥٧) بعد أحد أخوته الذي حكم مدة سنتين، وتتحدث تواريقه بطلاقة عن الأعمال السريعة ضد المناطق الشمالية الجبلية، وقد ادعى عن حصوله على نجاحات عسكرية.

ولكن الأمر الواضح هو أنه مع ذكر الغنائم التي غنمها الآشوريون إلا أنه لم يذكر كلمة واحدة عن الجزية، وأنها جلبت إلى آشور من قبل الأتباع المغلوبين، وكان بوسع الجيوش الآشورية أن تعيث خراباً ولكن دون هدف ثابت، وذلك لأنه، وفي أثناء حكم آشور - بيل - كالا، لم تعد آشور قادرة على تجسيد انتصاراتها العسكرية في ترهبات إدارية مهمة أكثر من القبول الرسمي بالسيادة الآشورية، وهكذا يذكر آشور - بيل - كالا حملات له ضد الآراميين، ولكن كانت مضامين تماييره تدل أن الآراميين لم يمودوا ذلك الشعب الذي يمكن طرده من الفرات بمحض الإرادة، إذ إن قول هذا الملك: إنه كان ينهب الآراميين باستمرار يدل أن المشكلة الآرامية قد استعصفت.

الاتفاق الآشوري البابلي

في الحقيقة إن الآراميين قد تحولوا إلى تهديد خطير بالنسبة إلى ككل منطقة ما بين النهرين، بلاد بابل وبلاد آشور على السواء، وكانت النتيجة الحتمية أن

تتعد آشور مع بابل لدرة الخطر المشترك وللدفاع المشترك، ويوصف هذا الموقف في إحدى الحوليات:

((في زمن آشور بيل - كالا ملك آشور ومردوك - شايك - زيزي ملك كاردونيش (بابل) عقد في هذا المكان اتفاق ودي بينهما))، وهذا مما قوى مركز الآشوريين، ولكنه لم يكن منعزلاً من الضغط الآرامي، وعند موت ملك بابل أصبح آشور - بيل - كالا ملك آشور في وضع اضطرره للتدخل في شؤون قضية الوراثة البابلية، وطبقاً للحولية التي ذكرت آنفاً فقد عين آداد - ابلا - أدينا ابن اسجيل - شادوني ابن شخص مجهول ملكاً عليهم، هذا وإن كلمة شخص مجهول تدل أن أسرة الملك الجديد لم تكن من أصل ملكي بابلي قديم، ونستطيع أن نحصل على صورة واضحة لما كان يحدث عندما نجد أن هناك حولية أخرى تدعو آداد - ابلا - أدينا رجلاً آرامياً مختصياً (مع وضع اسم مختلف لوالده لإضافة علائم الشك حول أصوله).

ويبدو أن آشور بيل كالا كان الآن يملك الطريق الدبلوماسية في معالجة التهديدات الآرامية وذلك بقبول أمير آرامي بارز تابعاً وحليفاً له، وقد استخلص أقصى قدر من المنفعة من الموقف وذلك بالزواج من ابنة آداد - ابلا - أدينا.

وتقول الحولية: لقد تزوج آشور - بيل - كالا ملك آشور ابنة آداد - ابلا - أدينا ملك كاردونيش وحملها معه مع مهرها الثمين، ولقد كانت نتيجة هذه الحوادث أن وضعت آشور في مركز قوى بالنسبة إلى بابل في الوقت نفسه، وبكسب ولاء الزعيم الآرامي الرئيسي فقد أزال خطر التهديدات الآرامية مؤقتاً.

وفي الوجه الآخر للعملة وجد أن آشور قد أظهرت نفسها أنها غير قادرة في تلك الظروف أن تتابع سياسة مستقلة، وفي الوقت نفسه أن الحلف الذي استطاعت آشور من طريق التدخل في شؤون وراثة العرش في بابل ترك آشور معرضة للتدخل بابل في شؤون آشور الداخلية الخاصة، ولقد حدث هذا بالضبط وبمرور الزمن فقد أزيح ابن آشور - بيل - كالا عن العرش بعد مرور أقل من عام على يد عمه شمسي - آداد الرابع وهو ابن آخر من أبناء تغلات - بلاسر الذي وكما عرفنا من

قائمة الملوك الآشوريين استولى على العرش من قاعدة بابلية وذلك بدعم ومواظقة البابليين.

وفي القرن التالي الذي تم فيه حكم ستة من ثمل شمسي أداد الرابع هُزن مرفقتا بالتاريخ الآشوري كانت سطحية نظراً لعدم وجود نقوش ملكية وهذه دلالة واضحة على ضعف الدولة الآشورية، وهناك نص يمود إلى حوالي عام ٩٧٠ يحمل هذه الحقائق، وهذا النص يمجّد أحد الحكام المحليين لكونه شيد الأبنية وحفر الأقبية ونهر الخابور، وذلك أنه وعند زمن آشور البقوية كانت مثل هذه الأعمال من صلاحيات الملك، وإن قيام حاكم محلي بمثل هذه الأعمال يدل أن السلطة المركزية في تلك الفترة كانت ضعيفة جداً، إن لم تكن معدومة.

تظهر الشواهد من بابل البلبلة الجديدة التي سببتها الهجرات الآرامية المستمرة في ذلك الزمن، وفي تلك المدينة (أي: بابل) كان يقام مهرجان سنوي ديني يدعى (الأكيتو) الذي كان يلقى عندهما تكون الظروف السياسية غير مواتية بحيث يستحيل القيام بالمسيرات، وتذكر الحموليات التي تسجل هذا الخرق للعادة المذكورة في عامي ٧٧١ و ٧٧٠ حين ألقى المهرجان نظراً لأن الآراميين المعادين قد هددوا ضواحي مدينة بابل مباشرة.

الممالك الآرامية

بعد أن استقر الآراميون شكلوا لأنفسهم ممالك بشكل تدريجي وكان أقدم هذه الممالك في سورية، وإن إحدى هذه الممالك الآرامية وهي مملكة (صوبا). (سوبايت حسب النقوش المسمارية) قد تعرضت إلى الهجوم من قبل الملك شاول اضمرائيلي قبل عام (١٠٠٠) ق م بقليل. (وبعد ١) قليل توسعت المملكة الإسرائيلية الجديدة تحت حكم داود وسليمان لتشمل المنطقة حتى الفرات، وإن عدم وجود

^{١١١} قد أطلق المؤلف على المعلومات من التوراة وليس هناك أي نقش آشوري يؤيد هذا الكلام الذي يجره مختلفاً - المرحان.

مواجهة آشورية والقدرة على تنفيذ هذا التوسع على الحدود هو سبب آخر يظهر عجز وعدم قدرة آشور من ذلك الزمن).

لماذا أدى الوضع الآرامي إلى ضعف دول منطقة ما بين النهرين بحيث سمحت لإسرائيل بالتوسع شمالاً حتى الفرات

إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على المدى الذي وصلت إليه تلك المجموعات من البدو الرحل من الآراميين في استيطانهم وإنشائهم ممالك مستقرة، إذ إنه عند حدوث اتحاد بين العشائر القبلية فليس هناك أي سلطة مركزية، وهذا ما أشارت إليه النصوص التوراتية، ومن مثل هذه الحالات فإن كل فريق يفعل ما يريد وهو يعني ما يفعله حقاً في نظره، وعلى العموم فليس هناك أي حاكم منفرد يستطيع قبول أي معاهدة وينفذها في جميع أرجاء المنطقة.

وليس هناك من أحد يستطيع تأمين حركات التجار وللتأكد من أن قوافلهم سوف لا تتعرض للنهب أو تهديدات أي عشيرة يمكن للقوافل أن تدخل أراضيها وتمر بها.

وكذلك ليس هناك من أحد يستطيع أن يتكلم عن العلاقات السياسية بالنسبة للمنطقة بأجمعها، ففي سورية أصبح الآراميون على طريق الاستقرار في ممالك مستقرة حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، بينما وفي منطقة ما بين النهرين فكانوا ما يزالون في طريق الهجرات والاستقرار خلال جيلين.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر أصبحت الجماعات الآرامية المستقرة تولى ممالك منظمة في منطقة ما بين النهرين كما كان الحال في سورية، ولقد استتادت آشور من هذا الوضع، وابتداء من حكم آشور دان الثاني (٩٣٤ - ٩١٢) بدأت النقوش الآشورية بالتسكاثرة معلنة استئناف الازدهار الآشوري من جديد.

الفصل السادس

نشوء الامبراطورية الآشورية الجديدة

في حولياته يكتب (أشور دان) وكأنه يخاطب القارئ الحديث عندما يسجل أنشطته وأعماله العسكرية الخاصة ، فهو ينظر إلى الماضي إلى الاضطرابات التي مرت بأشور خلال القرن السابق الذي لا نملك عنه سوى قليل من المعلومات ، ويخبرنا أنه مكثت إحدى الضموب الخوية على أمرها تقترف أعمالاً تخريبية وجرائم قتل منذ زمن شلمنصر الثاني (١٠٢٠ - ١٠١٩ ق.م).

وقد قام الآراميون الذين بدأ بتدمير وإحراق مدنهم بالاستيلاء على الأراضي الآشورية في زمن آشور رابي الثاني (١٠١٢ - ٩٧٢) وهو يتكلم عن أهالي آشور الكادحين الذين غادروا مدنهم وبيوتهم بسبب الفقر والحاجة والجوع والمجاعات وغادروها إلى بلاد أخرى ، وهو يؤكد لنا أنه قد أرجع هؤلاء إلى مدنهم وبيوتهم وأعاد استقرارهم فأصبحوا يعيشون بسلام.

الأمن العسكري والتطور الاقتصادي

تشير التعليقات التي أعدها آشور دان أنه وخلال القرن السابق لعام ٩٢٤ مكثت الإدارة المركزية في دولة آشور قد أصابها الانهيار التام مع حدوث انهيار اقتصادي ، ونتيجة لذلك فإن أنشطة آشور دان الاقتصادية قد اتجهت إلى تطوير الاقتصاد بشكل لا يقل عن تطوير الأنشطة العسكرية والأمن العسكري ، ولم يتم بأي محاولة لتناقض المآثر العسكرية التي قام بها تغلات بلاسر ، ولكنه اكتفى بتأسيس سيطرة سليمة لأشور داخل حدودها الطبيعية ابتداء من الجانب الأقرب من (طور عابدين) حتى الهضاب الواقعة فيما وراء أربيل ، وأما سياسته بالنسبة إلى إعادة إسكان الضموب في آشور فقد تطرقنا إليها في الفقرة السابقة ، ولكي يعالج الانهيار الذي ذكر سابقاً في الإدارة لتركزية أنشأ بعض الوظائف الحكومية في المقاطعات ، ولدعم الاقتصاد بشكل مباشر تبارى مع منجزات

تفلات بلاسر الأول في تأمين المحارث في جميع أنحاء البلاد، وذلك لزيادة إنتاج القمح في كل مكان بكميات أكبر من السابقة، ولقد ساعدت كل هذه الأمور على تأمين قاعدة متينة لتطوير وتوسع أفضل بشرط أن يستطيع الحكام الذين نلوا الاستفادة من هذه الإصلاحات.

ولقد ثبت أنهم استفادوا فقد خلف آشور دان أربعة ملوك أكفاء من أسرته المباشرة، وخلال قرن من اعتلائه العرش أصبحت آشور قوة عالمية يحسب حسابها، وهؤلاء الحكام الأربعة وبصورة خاصة الثالث منهم رووا منجزاتهم بالتفصيل، ولا يتسع هذا المقام لسرد أكثر من خلاصة موجزة لأعمالهم الرئيسية أثناء حكمهم.

ولقد قام ابن آشور دان وهو حدد نيراري الثاني (٩١١ - ٨٩١) بحملة لإعادة وتوكيد السيطرة الآشورية في المنطقة الشمالية الغربية، فقد زحف نحو الجبال الشمالية فيما وراء (طور عابدين) ومع أنه قد اتخذت إجراءات عسكرية عنيفة ضد المعارضين، إلا أن إجراءاته لم تكن تأديبية وضارية على شكل طائش، فإن غرضه كان إنشاء أحوال مستقرة بحيث يحصل على الاستفادة التامة المنتجة من الموارد التي تسبب أكثر الفوائد بالنسبة لآشور.

وهو يقول عند تسجيل نتيجة حملته ضد شموب الشمال في (كوماني): لقد أسكنت بقية عساكرهم الذين هربوا أمام أسلحتي الحربية ولصكهم رجموا، لقد أسكنتهم في مساكن آمنة.

ظل الآراميون المشكلة المزمنة، ففي أسفل طور عابدين استقر بعضهم بشكل واسع فيما بين الخابور والقوس الغربي لنهر الفرات، وبصورة خاصة منطقة منابع الخابور حيث حلوت مجموعة متحدة من الآراميين الذين وصلوا بعد مضي حكم تفلات بلاسر الأول، وحاول هؤلاء تأكيد استقلالهم ولقد احتاج حدد نيراري حوالي ست حملات سنوية لإخضاعهم، وأخيراً نجح في ذلك بعد تجويع الحاكم الأعلى في عاصمته المحصنة نصيبين.

وبعد أن زحف بمحاذاة الخابور استطاع الحصول على الخضوع النهائي الرسمي للسلطة الكاملة للمدن التي كان يسيطر عليها الآراميون، وفي أثناء ذلك استلم حدد نيراري الهدايا التي تمير عن كامل خضوعه كضلع من قبل حاكم آرامي من منطقة بعيدة آرامية، وهي منطقة بيت عابدين وهي واقعة على منطقة تقوس الفرات.

وفي المنطقة الجنوبية الغربية عمدت بابل وفي أثناء فترة ضعف آشور إلى الاستيلاء على أراضي واقعة إلى الجنوب من الزاب الأدنى، ولهذا بدأ حدد نيراري بالعمل، ولكن ومع أنه أعطى لنفسه لقب فائع بلاد كاردونهاش بأجمعها، إلا أن نشاطاته هناك لم تكن أكثر من مناوشة حدودية لدفع الحدود الآشورية جنوباً حتى نهر (ضيهام) أو دبالا ولقد ختمت اتفاقية الحدود بتحالف مصاهرة وزواج.

واستمر توكلتي - نينورتا في العمل لاستعادة سيطرته على المناطق الجبلية الشمالية والشرقية وفي الجنوب دفع الحدود مع بابل حتى موقع مكان بغداد الآن، وهكذا اكتسبت المستوطنات الآرامية بتقديم الجزية علامة على قبولهم التبعية الآشورية، إلى جانب تمردات عرضية كانت تتطلب بعض الأعمال العسكرية، وكانت إحدى القبائل الآرامية المزعجة في ذلك الزمن وهي قبيلة (ايتوى) وكانت تمتلك بعض الصفات القتالية قد حصلت على احترام الآشوريين، وفيما بعد (عندما أصبحت قضية ولائهم مؤمنة) شحكوا ما يدعى بالفصائل الصدامية التي تعمل على تطويع الشعوب المزعجة المتمردة.

وإن نوع الجزية التي كان بعض الآراميين يدفعونها تشير إلى ثرواتهم وطبيعة نشاطاتهم التجارية، فضلاً عن الذهب والفضة كانت مثل هذه الجزية تحتوي على البرونز والقصدير والمزج^(٩٧) وهذا ما يظهر وجود علاقات تجارية مع بلاد العرب (التي كانت تتمير المصدر الأقرب للمزج) وكذلك يذكر الجمل ذو السنام الواحد (مما يشير أيضاً إلى العلاقات مع الصحراء الغربية) وكذلك العاج والفروشات

(٩٧) المزج: مائع يسيل من شجرة فيحمد وهو طيب الرائحة مَرَّ الطعم - للترجمان.

المرصمة بالعاج (من كليشيا) والمواشي والأغنام والحمير والبط والحيوب، ولكن لم يكن هناك أي ذكر للخيول التي كانت ضمن الجزية الأرمنية، إذاً من المحتمل أنهم كانوا يستعملون الحمير والأجمال وسائل للنقل في ذلك العهد، هذا وقد استلم (توكولتي نينوترا) الخيول بالألوف بشكل جزية من المناطق الشمالية وبذلك بدأ استخدام الفرسان على مقياس واسع في الجيش الآشوري.

آشور ناصر بل الثاني

الاستراتيجي الإمبراطوري في آشور

يبدأ حكم آشور ناصر بل الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) به نصل إلى إحدى نقاط الذروة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت مجالاته متعددة، الأمر الذي يعكس منجزاته كمؤسس فعلي للإمبراطورية الآشورية الجديدة.

لقد بدأ آشور ناصر بل في إظهار قواه إزاء ذلك القوس من الجبال الممتد من شرق أربيل حتى شمال غرب نينوى أي: شمال كردستان، وقد وصل إلى كادموخ وهو السهل الواقع إلى الغرب من نهر دجلة، وإلى شمال غرب نينوى وذلك عندما واجهته الاضطرابات في مكان آخر، فقد كانت الدولة الخاضعة اسمياً لآشور وهي (بيت عابدين) الواقعة على منعطف نهر الفرات نحو كركميش، تحاول تأكيد استقلالها وكسب الدعم الأوسع، فقد أحرزت نجاحاً دبلوماسياً، والحقيقة أن المدينة الرئيسية في تلك المنطقة حيث يلتقي الخابور بالفرات، قد قامت بقتل حاكمها الموالي لآشور وكان هذا رجلاً يظهر من اسمه أنه لم يكن من أصل آشوري (لم يكن الآشوريون عنصريين).

ولقد ولّت هذه المدينة أحد أبناء بيت عابدين ملكاً عليها، هذا وقد كان رد آشور ناصر بل على هذا الوضع قوياً، فزحف بجيشه جنوباً حتى أسفل نهر الخابور، وقد استلم في طريقه خضوع المدن الموالية الواقعة على ضفاف النهر، ثم

استولوا على معقل المتمردين وسحقوا كل معارضة بقوى ونشاط وأعاد المدينة مرة أخرى تحت الحكم الآشوري.

ولقد ثبت أن ثروة المدينة المتعددة كانت ثروة لا بأس بها مما جعل آشور ناصر بعل يلاحظ أن الفنائم الضخمة والوافرة كانت كالكواكب في السماء لا يمكن عدّها، فقد كانت تشمل بالإضافة إلى أصناف الجزية المذكورة آنفاً: العريات الحربية والخيول، وكانت هذه أول مرة يشار بها إلى الخيول في المناطق الخاضعة للآراميين، إذ من الواضح أن الجماعات الآرامية في منطقة ما بين النهرين لم يعودوا بدوّاً رجلاً شبه مستقرين ويشغلون بالتجارة، بل قد وصلوا إلى طريق إنشاء ممالك متطورة مستقرة ذات ذراع عسكري منظم يتطلبه ذلك الوضع.

تعتبر كادموخ التي وصلها آشور ناصر بعل عندما اتجه إلى منطقة الخابور المفتاح الموصل إلى هضبة طور عابدين كاشياري والمناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة، وهنا بدأ الملك بوجه اهتمامه لتلك المنطقة، فقد ادعى عدد من الملوك الآشوريين الأقدمين أنهم قد استولوا على (كاشياري) ولكن التضاريس الأرضية في تلك المنطقة جعل منها منطقة صعبة المنال، ولم تكن سيطرة الآشوريين هناك إلا سيطرة مؤقتة.

وعندما ثمر أحد الحكام المواليين وهاجم الموقع العسكري الآشوري، بدأ آشور ناصر بعل عملياته مباشرة وتحرك ضد المذهب ولم يتورع عن القتل والنهب والحرق وسمل العيون والتمثيل بالضعحايا، وكان أن أعلنت الممالك الصغيرة في المنطقة ولائها وخضوعها فوراً.

وبعد إظهار جبروته ضد المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة المروية باسم (نياري) قام آشور ناصر بعل بترميم مدينة قديمة واقعة على نهر دجلة (توشتمان) لتكون حامية عسكرية ضد كاشياري ونياري في وقت واحد، ولكن لم تكن هذه المدينة مجرد حامية عسكرية بل كانت قاعدة رئيحية ومستودعاً للتخزين. وكان سكانها من الآشوريين الذين يحصلون على الحبوب والوزن

الأخرى من المناطق المجاورة وبحيث تستطيع في حالة تعرضها للهجوم الصمود مدة غير محدودة.

وهكذا فقد أنشأ آشور ناصر بعل خطاً دفاعياً قوياً على طول حدوده الشمالية والغربية، وبعدها عمل على تحصين هذا الخط بجعله حلقة أمنية آمنة، أما في الشرق فقد زحف إلى جنوب كردستان وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من كركوك، وقد استطاع بعض الملوك الآشوريين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الاحتفاظ مؤقتاً بهذه المنطقة التي لم تكن تحت حكم آشوري حازم وكامل مدة نحو ألف عام، ولكن تمثل عمليات آشور ناصر بعل بداية العمل ضد أحد المتمردين، ولكن ذكره بعد ذلك لاسمحوا لم يرها أي إنسان في حياته والتي لم يصل إليها أي ملك من أسلافه.

شكل هذه التمريرات توضح أن هذه العمليات لم تكن سوى توسع عسكري سافر، فقد كانت بعض الشعوب التي واجهها غريبة عن الآشوريين، فقد قبل إن بعضهم كانوا يصنفون شعورهم كالكثماء (أو يزينون أنفسهم) ولقد زادت عمليات إخضاع هذه المنطقة وسلسلة الدفاع الآشورية على طول زاغروس ابتداءً من منابع نهر ديال (وهي منطقة الحدود مع بابل) حتى منابع نهر الزاب الأدنى.

ولقد استخدم آشور ناصر بعل في غزواته أربيل ونيشوى قواعد لعملياته الحربية، مع أن عاصمة آشور كانت واقعة في أقصى الجنوب، وأصبحت الإمبراطورية بحاجة إلى إنشاء عاصمة شمالية، فقد أدرك آشور ناصر بعل أهمية المدن من نوع (توشتمان) (وهي واحدة من عدة مدن مثالية) في كونها حاميات عسكرية وقواعد تخزين ومراكز إدارية، حيث من الممكن للملك اتخاذاً نقاط انطلاق دون وجود تلك الوثائق التي تساعد على التورط بالمشكلات التي تسببها وجود المراكز الدينية أو المدن التجارية، ولذلك فقد بنى الملك مدينة تجارية وهي (كالك) (التي يُعثر الآن ثلة بمرود) في موقع المدينة القديمة التي كان قد أسسها شلمنصر الأول بالتي، وقد تحولت إلى خرائب، وقد كان لهذا الموقع أهمية استراتيجية ليس لكونه واقفاً إلى الشمال بل لكونه واقفاً في الزاوية التي يتصل

بها نهر الزاب الأعلى بنهر دجلة، ولقد زوّد الملك عاصمته الجديدة بالمياه عن طريق قناة منّت من الزاب الأعلى، وبني فيها أبنية رائعة مع أنظمة للصرف الصحي وزرع فيها الحدائق، وأسكن فيها شعباً من مختلف أرجاء الإمبراطورية وجعلها مدينة عالمية حقاً، وأخيراً دشنتها بإقامة وليمة دامت أسبوعاً كاملاً وقد سُجِّلَ هذا العمل في نقش كامل ذكر فيه حتى قائمة المناجولات.

وهنا نمود إلى استراتيجية آشور ناصر بعل العسكرية فقد كان عليه القيام بإجراءات لاحقة في الغرب، وبعد أن زحف آشور ناصر بعل إلى الغرب عبر نهر دجلة ابتداء من (كالك) حتى وصل إلى الخابور، ثم اتجه جنوباً أخيراً مستلماً الجزية حتى وصل الفرات، وهناك زحف بمحاذاة النهر حتى حدود بابل، وقد استولى على إحدى البلدات الحدودية البابلية، وهذا يمثل ما ندعوه اليوم ممراً للوصول إلى شفير الهاوية فلم ينتج عن ذلك نشوب حرب ضد بابل بل تطور إلى نتائج دعائية فكان آشور ناصر بعل يمرقها تماماً، وهنا نخبرنا:

«لقد وصلت حالات الخوف من سلطتي حتى أرض (كاردونياش) (بابل) ولقد عمّ الفرع من جيشي وأسعنتي بلاد السكندانيين (جنوب بابل)».

وبعد أن قضى على معالوة عسبان مصلح في المنطقة الحدودية بسرعة، ولم يعد أمام آشور ناصر بعل أي شيء يخشاه في تلك المنطقة فقد تم له تحييد كل معارضة بابلية محتملة.

البحر الأبيض المتوسط

بعد اكتمال الحلقة الأمنية المؤلفة من بلاد بابل وزاغروس وطوروس الشرقية (وطور عابدين) والخابور هذا السور الذي كان يحيط بأشور، فقد تقدم آشور ناصر بعل الآن لتنفيذ المرحلة الثانية من استراتيجيته.

والحقيقة أنه لم يحدث أن استطاع أي حاكم آشوري أن يسيطر على الطريق المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام تغلات - بلاسر الأول قبل نحو قرنين ولهذا فقد عمد (آشور ناصر بعل) إلى الاندفاع ابتداء من أعالي الفرات من زاوية

الخابير ككاسحاً كل مقومة في طريقه، مع قيامه بصيد النعام والثيران البرية في طريقه، وهذه كانت ما تزال منتشرة في الصحراء السورية في ذلك الزمن، وقد انتهت هذه العمليات بالقيام ببعض الحملات ضد الدولة الآرامية في (بيت عابدين) على قوس الفرات، وتطلبت عملية تهدئة تلك المنطقة بشكل فعال القيام ببعض حملات وتأسيس مدينتين جديدتين وهما (مرقا آشور ناصر بعل) و(معيد آشور) وذلك للتحكم بمعايد الفرات فأصبحت بيت عابدين رسمياً ولاية آشورية أثناء أوائل حكم خلفته.

بعد أن أمن مخرجته، أصبح آشور ناصر بعل مستعداً للانطلاق نحو البحر الأبيض المتوسط بعد أن عبر الفرات عن طريق الأطواف في منطقة صكرمين، ولقد أمنت له عملية سحق المعارضة خضوع جميع ملوك شمال سورية الذين تقاطروا لتقديم الولاء، وكعلاوة من علامات الضمان فقد أخذ بعض الرهائن (ربما من أبناء الملوك) وحفظ هؤلاء الأبناء معه خوفاً من حالات الغدر في طريقه عبر نهر العاصي إلى جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، حيث استلم الجزية من المناطق الواقعة جنوباً حتى مدينة صور.

لقد أصبح آشور ناصر بعل الآن مُسيطرًا سيطرة تامة على جميع المنطقة ابتداءً من جنوب لبنان حتى جنوب صكرديستان، مع سلطة غير ثابتة على اتساع لا بأس به من منطقة طوروس، ولقد توجهت حملات تالية تهدف إلى توطين سلطة أكثر من كسب أراضي جديدة وذلك باستثناء استيلائه على مدينة (أمد) (ديار بكر) التي كانت وما تزال المفتاح المؤدي إلى منطقة واسعة ابتداءً من سفوح الجبال في طوروس الشرقية.

لقد تلعب ابن آشور ناصر بعل وخليفته وهو شلمناصر الثالث (558 - 524) سياسة والده ومنذها مع أنه قد عمد إلى بعض التطويرات والتحسينات الجديدة، ولكن تواريخه ليست موثوقة ولذلك فسوف نتأقن المصطلحات بشكل جغرافي.

مدخل على حق الألفام في نصوص العهد القديم

أولاً في الغرب: لقد تابع شلمناصر الثالث خطة والده في تأمين سيطرته على المنطقة الفينيقيّة الساحليّة، ونرى على الأبواب البيونزيّة التي أقامها صورة جلب جزية صور عن طريق القوارب، ولكنه عندما حاول التقدّم إلى مناطق في أقصى الجنوب من داخل سورية صادف مقلومة في حرقر (عام ٨٥٢) من قبل تحالف مؤلف من الملوك السوريّين والفلسطينيّين بما فيهم (حداد ايزير) الدمشقي وأهاب الإسرائيلي، وكلاهما مذكوران في التوراة، ولقد جلب أهاب قوة من الفرسان، وهنا فجأة يدخل عالم التاريخ في النصوص التوراتيّة ولذا:

ووداعاً أيها العقل المسالم الهادئ!.

ووداعاً أيها الفكر المطمئن!.

إذ إن نزعة الموالاة والمحابة التوراتيّة الدنيّة ترفع رأسها المتوحش، وفي الحالة الحاضرة وبالنسبة للملك الإسرائيلي صاحب العلاقة هناك ميل أن تطرق السياسة الاستراتيجيّة الآشوريّة بسهل من الأسئلة المخرجة التي تتعامل هل ملك آشور أم إسرائيل هو الذي كسب المعركة؟ وأن الشاهد الوحيد المباشر الذي نمتلكه حول المواجهة هو حسب تسجيلات شلمناصر نفسه فهو يدعي أنه قد هزم الائتلاف، ولكن وحتى لو سكت شلمناصر مناهياً في أقواله وإدعاءاته النجاح وأن معركة حرقر قد سببت نكسة (وذلك كما يعتقد بعض الباحثين) للاستراتيجيّة الآشوريّة بما يخص سورية وفلسطين، فإن ذلك لم يكن سوى أمر مؤقت، إذ إنه وبعد اثني عشر عاماً قامت الإمبراطوريّة الآشوريّة بالسيطرة على فلسطين وأصبح خليفة أهاب الإسرائيلي المفتصب وهو جيحو تابمأ موالهاً لأشور، ونراء وهو ينحني بإجلال واحترام أمام شلمناصر وذلك على نصب تذكاري آشوري.

فيما وراء جبال أمانوس وطوروس

ومن وجهة استراتيجيّة فإن أهم منجزات شلمناصر كانت توسيع السيطرة الآشوريّة باتجاه الشمال الغربي فيما وراء أمانوس حتى كليكيّا وتجاه أواسط

الأناضول، وكانت أهمية هذا الحدث هي أن كليشيا كانت المصدر الرئيسي للحديد بالنسبة للشرق الأدنى، وكانت مهمة أيضاً بالتجارة البحرية مع قبرص وبلاد اليونان بحيث نرى أن الروابط الآشورية الاقتصادية المهمة قد توسعت وتضخمت، وفي الجنوب كان على شلمنصر القيام بغزوة صغيرة لبابل وذلك بقصد تأمين استمرار الوضع على الحدود، ولكن المشكلة التي واجهها كانت جنوب بابل حيث كانت القبائل الكلدانية قد استقرت، وهذه دلالة على ما يحدث في المستقبل.

أما في الشمال الشرقي فقد كان هناك تطورات أخرى ذات أهمية استراتيجية على المدى الطويل، فقد تآلمت شعوب طوروس الشرقية وشكلت ما سوف يصبح مملكة قوية وهي مملكة (أورارتو) على بحيرة (فان) ولقد برهنت هذه المملكة ولدة تزيد عن قرن أنها منافس قوي لآشور، فقد توسعت غرباً عبر الأناضول حتى سورية الشمالية، وتنافست مع آشور بالنسبة للسيطرة على الطرق التجارية والمناطق الرئيسية لإنتاج المعادن وتربية الخيول، وهكذا أصبحت حملات الآشوريين التي كانت موجهة ضد بعض الإمارات الصغيرة في منطقة (نياري) (ومصباحا) أصبحت هذه الحملات تلاقى وتواجه من قبل معارضة قوية من دولة أورارتو وجيشها الذي كان مستعداً إلى سلاسل من القلاع.

فيما وراء زاغروس.. الميديون والفرس

ظهرت عناصر جديدة في أقصى الشرق، فقد عبر شلمنصر زاغروس من حيث كان آشور ناصربل قد خيم في منطقة جنوب كردستان، وقد حدثت أول مواجهة له مع الميديين والفرس على الجانب الشرقي، ولقد كانت هذه الشعوب المتحدة من القبائل الإيرانية قد هاجرت إلى إيران من الشمال في حوالي نهاية الألف الثاني، وكان الفرس الذين استقروا فيما بعد في جنوب غرب إيران لا يزالون في الشمال الغربي.

أما الميديون الذين سوف يقيمون عاصمتهم في إكباتانا (هوارث الحالية) وسوف يشقون أنفسهم كتلاميذ ناجحين في فن الحرب الآشوري بحيث إنهم سوف يقومون بعملية حصار ناجحة للمدن الآشورية المنظمة ، هؤلاء الميديون كانوا في زمن شلمناصر عبارة عن مجرد شعب عميل من البدو الرحل الذين يُشار إليهم باسم الميديين الواسعي الانتشار ، وذوي الفائدة لآشور ، والذين يتوسطون الطريق التي كانت تجلب اللازورد إلى منطقة ما بين النهرين من أفغانستان.

الحرب الأهلية

لقد دام حكم شلمناصر الثالث ووالده معاً مدة ستين عاماً ، وكانت تتسم سياسة رشيدة واحدة يمارسها حاكمان يملكان عقليين راجعين.

ولكن وعندما سُنحت فرصة صغيرة للتعبير عن الرأي العام كان هذا الوضع سبباً لظهور المسخط وعدم الرضا ، ولا غرابة أنه على الرغم من استمرار التوسعات الإمبراطورية فقد كتب على نهاية حكم شلمناصر أن يومه بحدوث الاضطرابات والتمردات ، إذ إنه وفي الإمبراطورية نهاية عهد شلمناصر وقبل موته بعدة سنوات حدث هناك نزاع قوي يرأسه ولدان من أولاد شلمناصر ، ويذكر الحلف الناجح لشلمناصر وهو شمسي أداد الخامس أن سبعة وعشرين مدينة قد تمردت ، وكان هذا التمرد يشمل المدن الآشورية الرئيسية وهي نينوى وأربيل وآشور وأرابخا.

وكانت مدينة (كالكخا) هي الاستثناء الوحيد إذ إن من الواضح أن (كالكخا) ظلت تحت سيطرة شلمناصر وشمسي أداد الخامس ، فقد كان بُعد النظر الذي أبداه آشور ناصر بعل وشلمناصر عند تخطيط وتنظيم عاصمتها الجديدة (كالكخ) قد أثبت الآن أن الحاكم الذي يحتفظ بهذه المدينة سوف يسيطر على الإمبراطورية بأكملها.

وبعد استعادة السلام في آشور كانت نشاطات شمسي أداد الخامس متركزة بالحدود الشمالية الشرقية وبيابل التي غزاها شمسي أداد وأزاح فيها عن العرش ملكين متعاقبين (٨١٢ - ٨١٢ ق.م) وليس لدينا أدلة قاطعة عن هذا التطور

الأخير، وهناك تطور آخر وهو أن شمسي أداد قد استلم مساعدة بابلية لتأمين مملكته (وقد استتج هذا من الرخم الفخارية التي تشير إلى المعاهدة المعقودة بينه وبين الملك البابلي).

وإن المحاولات التالية من قبل بابل للاستمرار وإذلال آشور بالتدخل في شملونها قد أدت لقيام شمسي أداد بإجراء أعمال مضادة عنيفة، وإن الخراب الذي أحدثه شمسي أداد في مدن شمال بابل قد سبب تمزقاً ساعد على تصاعد ونمو النفوذ الكلداني.

الأم الملكية التي أصبحت أسطورة

يقدم لنا شمسي أداد حلقة تؤدي إلى أسطورة كلاسيكية، إذ إن زوجته وتدعى (شمورامات) وهي التي ذكرت في الأساطير اليونانية ابتداءً من هيرودوتس فصاعداً، ووجدت في الأساطير وحكايات المصور الوسطى باسم سميراميس، ولقد ذكر ديونوروس المؤرخ الصقلي الذي كتب عن تاريخ اليونان في القرن الأول ق.م بأنه خصص عدة صفحات من القصص الخيالية حول هذه السيدة، التي كانت تجسداً للمرأة الخارقة الفاتكة الجمال، المحبة للتصنع وذات القدرة العسكرية والقوة الجنسية والمهارة الإدارية والطموح، وقد أدت هذه الصفة الأخيرة بها عندما أصبحت أرملة الملك أن تبني بابل وعدة مدن أخرى في منطقة ما بين النهرين وما وراءها.

بينما تقول الأساطير الأرمنية: إنها قد بنت مدينة عظيمة تُطل على بحيرة (هان) شرقي تركيا، والحقيقة أن هذه العاصمة قد بناها ملك أوزارتو المعاصر لهذه الملكة.

إن ذرة من الحقيقة وراء كل هذه المعلومات تشير أن سميرامات كانت امرأة متسلطة، وأنها كانت امرأة بارزة مرموقة في عهد ابنها حدد نيراري الثاني (٨٠٩ - ٧٨٢) ويتصورها بعض الباحثين كوصية على العرش، مع أنه ليس لدينا أي دليل مقنع على هذا سواء كانت وصية على العرش أم لم تكن، ولكن عظمتها

الاستثنائية قد شهد عليها وجود نصب تذكاري حجري، فقد وجد بين اللقيات في العاصمة الآشورية القديمة صفحُن من الأعمدة الحجرية منقوش عليها تذكُّار أشخاص مختلفين، وفي الصف الأول ذكرت أسماء موظفين كبار، بينما في الصف الثاني كُتب أسماء ملوك ما عدا ثلاثة أسماء، ومن الاستثناءات الثلاثة كان واحد باسم الملكة (سيدة القصر آشور بأنيبال) وواحد باسم سيدة (من المحتمل أن تكون سيدة من سيدات القصر مع أن الاسم واللقب مفقودان) سنحاريب، والثالث باسم سميراميس، ويقول النص:

مسلة شمورامات

ملككة (حرفيا سيدة قصر) شمسي أداد

ملك الجميع - ملك آشور

ككنة شلمناصر

ملك الأقطار الأربعة

وإن وجود مسلة شمورامات (سميراميس) في الصف المخصص للملوك وأنها هي لوحدها من السيدات الثلاث الموجودة هناك كانت توصف بأنها أم ملك، هذا يوحي أنها كانت تتمتع بوضع خاص في أثناء حكم (حدد نيراري) ويمكننا أيضاً أن نلاحظ أن حاكم (كالخ) عندما كُرس تمثالين إلهين أضاف نقشاً تكريمياً يربط بين عبارة:

«تكريماً لحياة حدد نيراري ملك أراضي آشور سيده» أضاف عبارة «تكريماً لحياة شيمورامات سيدة القصر - سيدته» وهذا يشير مرة ثانية إلى الوضع الاستثنائي لشمورامات.

أورارتو - الملكة المنافسة

كان لدى حدد نيراري الثالث مشكلات أخرى أكثر من وجود أم متسلطة، ولكي نفهم ما كان يجري في الإمبراطورية الآشورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م علينا أن ننظر لما كان يحدث في الشمال، فهنا يدعى الآن تركيا

الشرقية (سابقاً أرمينيا) وكان هناك مملكة أورارتو التي كان يحدها ثلاث بحيرات وهي بحيرة (فان) وبحيرة (أورميا) وهي (زيرية) في أذربيجان (شمال غرب إيران) وبحيرة سيفان في أرمينيا السوفيتية (سابقاً) (جنوب روسيا) ولقد تطورت هذه المملكة في القرن التاسع من اتحاد شعوب موجودة في داخل وفيما وراء طوروس، وغزاها الآشوريون خلال عدة قرون، ومع أن هناك نقشاً من اسم أورارتو موجوداً ضمن النقوش الآشورية يرجع إلى القرن الثالث عشر، إلا أنه يشك أنه كان لا يعني أكثر من جزء هامشي صغير لما أصبح يدعى فيما بعد مملكة أورارتو.

وعلى كل حال كانت أورارتو المنافس الرئيسي لآشور، هي من صنع الدولة الآشورية نفسها، فإن الغزوات الآشورية الدائمة لجبال طوروس وما وراءها والقبض على أمرائها وأخذهم كأسرى وكرهائن، وتشغيل أهاليها بالسخرة، والشباب لخدمة الجيش الآشوري، ووجود مسؤولي الإدارة الآشورية وكتبهم لمراقبة وتسجيل حملات الخشب والمعادن والخيول القادمة إلى آشور، كل هذه عرفت شعب أورارتو على قسم كبير من ثقافة وبنية آشور التحتية، وإن هذا الرابط قد انعكس في أن أول النقوش الأورارتية الباقية كانت مكتوبة باللغة الآشورية،

ومعظمها مكتوبة بالخط المسماري المبني على اللغة الآشورية.

يمكننا أن نرجع البداية الحقيقية لأورارتو كمملكة مرموقة إلى زمن شلمنصر الثالث، فلم يصف شلمنصر غزواته لأورارتو فحسب بل لقد صورها في لوحات مجسمة من البرونز كمنى بها بوابات إحدى المدن التي بناها قريبة من كالاخ، فنحن نرى خلال تلك الصور قدم جنود المشاة من الأورارتيين فوق الجبال المنحدرة، ونرى المسؤولين الآشوريين من الخيالة والرماة الآشوريين أثناء العمل، ونرى حادثة إحراق (ارزاشكن) أول عاصمة لأورارتو، ولم تكن أرزاشكن في منطقة بحيرة (فان) ولكن على بعد منها إلى الغرب أو الشمال الغربي، ولقد بنى ملك أورارتو (ساردوري) عاصمة جديدة له تدعى (تورشيا) وذلك طلباً للأمان من

خطر الحملات الآشورية ، وكانت هذه العاصمة الجديدة في موقع عالٍ يسهل الدفاع عن كل الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحيرة فان.

لقد قدمت الاضطرابات الداخلية التي حدثت في أثناء حكم شلمناصر الثالث فرصة لأورارتو للتوسع ، فقد عبر الآشوريون تحت قيادة شلمناصر جبال زاغروس واتجهوا إلى إيران ، وربما سكان ذلك بحثاً عن الخيول ، وقد قابلوا إلى الجنوب من بحيرة أوروميا شعباً يدعى (المانى) فضلاً عن الإيرانيين (الذين لم يتخذوا مكان إقامتهم النهائية بعد في الجنوب) وقابل شعب ميديا أيضاً.

وهنا نتوسع (أورارتو) جنوباً الآن إلى داخل الأراضي الجبلية الواقعة بين (توروشيا) وأشور ، وشرقاً وجنوب شرقاً إلى داخل بلاد أذربيجان الخصبة حتى بحيرة أوروميا ، وعندما حاولت أورارتو مواصلة التوسع جنوباً من بحيرة أوروميا بدأت المناهضات للاستيلاء على أرض مانيا ، الأمر الذي لم يتقرر إلا بعد أن استولت آشور على جميع بلاد أذربيجان عام ٧١٤ ق.م ، غير أن الاضطرابات الآشورية الداخلية زمن شلمناصر الثالث قد أخضعت سيطرة آشور على المنطقة الشمالية الغربية وبذلك مكنت أورارتو من التوسع حتى الفرات الأعلى ، وكانت هذه منطقة ذات أهمية قصوى بالنسبة لآشور نظراً لأن النهر كان هو الطريق الطبيعية الموصلة إلى بلاد الأناضول من سورية ومنطقة ما بين النهرين.

وعندما هجمت أورارتو على إحدى المحميات الآشورية المهمة هناك وهي دولة (ميليد) ذبّ القلق بين أتباع آشور الآخرين من الداخلين في فلك آشور في شمال وجنوب سورية ، وقد انعكس هذا في الامتناع عن تقديم الجزية في زمن حكم الملك شمعسي أداد الخامس.

كانت أهمية سورية الاقتصادية بالنسبة لآشور متعددة الجوانب ، فقد كانت سورية مصدراً للقوة العاملة الماهرة ، كما أنها قدمت الخشب من جبال أمانوس ولبنان ، وكانت تحترف على الطرق الآشورية إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت سورية هي خط التزويد الأساسي بالمدان والخيول من الأناضول وآسيا الصغرى ، هذا وقد وصل (حيد نيراري) الثالث إلى حل بالنسبة لهذا المشكل

الاستراتيجي وذلك بالقيام بحملات في جنوب سورية التي كانت أسهل مثلاً من سورية الشمالية بسبب التضاريس الطبيعية، ولكن الحقيقة أن ذلك كان بسبب أن هذه الحملات لا تشمل أورارتو مباشرة.

وقد بدأ الحملة بالهجوم على (أرياد) إلى الشمال الغربي من حلب، ولكنه ركز فيما بعد على استعادة سيطرته على سورية الجنوبية، واستلام الجزية من المناطق حتى جنوبي صور وصيدا وإسرائيل (وقد ذكر اسم ملكها بالتحديد وهو يوشع) وكان هدفه الرئيسي من غزو جنوب سورية الاستيلاء على مدينة دمشق الغنية التي ادعى حدد نيراري أنه استلم نحو ثلاثين طنناً من النحاس أو البرونز، وضعف تلك الكمية من الحديد، وأما من لبنان فقد حمل نحو مئة شجرة أرز من التي احتاجها لأجل بناء قصوره ومعابده.

لقد ألمحنا إلى الدور الذي لعبته سورية كمصدر من مصادر الحصول على القوى البشرية، ولقد أدرك حدد نيراري الحاجة لتطوير أراضيه، وفي إحدى النصوص يضيف إلى قصة غزوته لجنوب سورية بعض التفاصيل حول مشروع إعادة الاستيطان في منطقة الخابور العليا الخصبة، ومن المقول أن نستج أن الشعب الذي وصل إلى هذه المستوطنات الجديدة قد أتى من جنوب سورية.

وجواباً على تهديدات آشور لسورية حاول ملك دمشق تنظيم اتحاد يضم جميع الدول ابتداءً من (ميليد) وكلهكيا حتى دمشق مع أنه وجدت بعض الجزر التي كانت تدعى بالولاء لآشور مثل حماة التي بقيت كذلك.

وقد كان الوضع النهائي أن وجدت دولة قوية وهي دولة (أورارتو) التي كانت مسيطرة على المنطقة بأجمعها غريباً ابتداءً من جنوب بحيرة (أروميا) حتى (ميليد) مع بعض الدول ابتداءً من ميليد جنوباً حتى كركميش التي كانت تخضع للنفوذ الأورارتي كلياً، وإلى أقاصي الجنوب حيث كان هناك اتحاد متضامن نسبياً تحت قيادة دمشق التي كانت غير موالية لآشور، كل هذه الأمور أثرت تأثيراً سلبياً على تزويد آشور بالأشياء الضرورية مثل الخيول والمعادن والأخشاب فضلاً عن الكماليات مثل اللازورد من أفغانستان، والذي كان يعمل

إلى آشور عن طريق يسيبر خلال شمال إيران، ومثل التوابل من جنوب بلاد المرب والتي كانت تصل إلى آشور من خلال فلسطين وسورية.

ولو كانت آشور تحت حكم رجل استراتيجي قادر لاستطاعت حل هذه المشكلات، ويوجد سهولها الفنية نبات الذرة الممتدة على طول نهر دجلة العظيم، ويوجد طرق المواصلات السهلة عبر المنطقة بأكملها، فقد كانت آشور ذات موقع جغرافي يؤهلها لتكون دولة محاربة أكثر من حالة أورارتو الجبلية التي كان من الصعب صوغها بشكل دولة موحدة، بينما كانت التضاريس الطبيعية لأورارتو تجعل من المستحيل هزيمة هذه الدولة بشكل، ولكن عملت بعض الظروف على التأكيد أن باستطاعة آشور السيطرة على تلك المناطق الخاضعة لتفوذ (أورارتو) والتي كانت ذات أهمية استراتيجية لأشور، ولكن وفي ذلك الوقت بالذات لم تكن الظروف مناسبة في آشور، وكذلك فقد كان المشكل في سورية ليس مستتباً على الحل.

أما محاولات دمشق لإنشاء تحالف سوري شامل فقد كانت ناجحة إلى حد ما وبشكل مؤقت، هذا وقد ذكرت قضية مقاومة حماة، وتوضيح الثورة أن بريكام الثاني ملك إسرائيل لم يكن يرحب بالاتحاد الذي اقترحه دمشق، ولكنه استفاد من انهماك دمشق في تلك الشؤون فأصبح حليفاً لأشور عندما قامت بحملة ضد دمشق عام ٧٧٢، وكانت آشور تفضل وجود إسرائيل قوية ولكن لا تولف تهديداً لأشور في منطقة الفرات السورية، على تحالف الدول الآرامية بقيادة دمشق والذي كان يهدد مصالح آشور حقاً.

الملوك الضعفاء والولاة المقاتلون في القوة

ومع ذلك ولمدة حكم ثلاثة ملوك ومضي نحو أربعين عاماً بعد حدد نيراري الثالث لم تظهر آشور أي مبادرة ظاهرة، ولا يعني هذا أن آشور قد لانت فجأة، إذ إن قوائم التواريخ السنوية تذكر حدوث حملات سنه ضد مملكة أورارتو في مدة ثماني سنوات، وأربع حملات ضد سورية فيما بين عام ٧٧٢ وعام ٧٥٤، ولكن

تدل المؤشرات أن هذه الحملات كانت إما حملات دفاعية قام بها الحكام المحليون أو غارات محدودة أو مصاعمات حدودية، إلا أنه لم تكن هناك محاولات كبيرة للتوسع الآشوري. وقد كان أحد عوامل هذه الظاهرة هو الوضع الداخلي، حيث حدث تغير في السلطة وانتقال تلك السلطة من الحكومة المركزية إلى الولاة المحليين، وهذا كان تطوراً تدريجياً بدأ بالحدوث منذ زمن شلمنصر الثالث.

هذا، وإن تأكيد ذلك الملك ووالده على وجود سيطرة آشورية حازمة على مناطق مثل منطقة الفرات الوسطى والعليا، ومناطق شمال طور عابدين كل ذلك كان يقتضي وجود إدارة محلية ذات سلطات بالغة القوة لحماية أمن تلك المناطق الحدودية النائية.

ولقد لاقت تلك الاستراتيجية لحماية آشور داخل حدود الفرات وشمال دجلة نجاحاً ياهراً، فقد سمحت بالعمل السريع ضد أي قلاقل محلية، واستطاع الحكام في جواد قوي (أورارتو) التطرك بسرعة ضد أي حركات مهددة، ولكن يظهر أنه كان هناك وجه آخر لهذا التطور، فالحكام في هذا الوضع كانوا قادرين في غياب ملك قوي قادر على اكتساب مقياس واسع من الاستقلال، وإن أصبح هناك أسر محلية حاكمة، ولقد أظهرت هذا الأمر بعض النقوش التي كانت تخص ثلاثة حكام مختلفين من هذه الفترة كانت تسجل مفاخرهم التي تشمل بعض أوجه النجاح العسكري وتأسيس بعض المدن، وكانت هذه الشؤون منحصرة بالنقوش الملكية.

وفي إحدى الحالات نجد أحد الحكام الذي كان يحكم منطقة بمعاذاة الفرات الأوسط، كان هذا الحاكم يورخ أعماله بعدد سنوات حكمه ووجوده في السلطة دون ذكر وجود أي ملك، وهذا يدل أنه كان حاكماً مستقلاً فعلاً، ومن الممكن أن نضيف أن هذا الحاكم فعل الكثير لخير الإنسانية أكثر من عديد من الملوك، فقد قدم تربية النحل لشميه، والتي كانت أنجازاً يفخر به وهو يكتب هنا مايلي:

أنا شاماش - ديش - يويسور حاكم سوهو وماري (على الضفاف الأوسط)
أقول: إن النحل الذي يجمع العسل الذي لم يره أحد من أجدادي ولم يطلبه إلى هذه
البلاد، لقد جلبته من جبال حبيبا (تركيا الشرقية) وبدأت استثماره في بلدة
جباري ابني (وهي إحدى المدن التي اسمها) وإن أهالي تلك البلدة يجمعون العسل
والشمع، وإنني أفهم كيف يذيبون العسل والشمع ويقههما أصحاب البساتين أيضاً
ويمكنكم سؤالي أي شخص في المستقبل من الشيوخ القعاء في البلاد فهما إذا
كان صحيحاً أن شاماش - ريشن - يوشور حاكم سوهو هو الذي قدم النحل إلى
هذه البلاد.

إنه لأمر مهم أن يقول شاماش - ريشن - يوشور: إنه حصل على النحل من
الشمال، لأنه من المعلوم أن الحثيين كانوا يربون النحل في خلايا في الألف الثاني
ق. م.

وبوجود حكومة مركزية ضعيفة مع وجود مشاكل اقتصادية ناتجة عن
التدخلات في تأمين البضائع التي كانت أشور معتادة على الحصول عليها من
سورية ومن الشمال، بوجود هذه المشكلات بدأت التوترات تمشد، وفي أثناء
حكم آخر ملك في هذه الفترة وهو آشور نيراري (٧٥٣ - ٧٤٥) حصلت أورارتو على
مكاسب سياسية وربما عسكرية في شمال سورية، وقد ادعى معاصره الأورارهي
(ساردوري) الأول أنه قد استولى على أرض (أشور نيراري) ملك آشور، ولم يذكر
أي تفاصيل سوى أنه ذكر اسم مكان يوحى بأنه من أراض آشورية قرب
كركميش، ولم يكن آشور نيراري في مركز يسمح له أن يقوم بجواب
عسكري.

وتسجل قائمة حوادث السنين الخمسة من السنين الثمانية التي حكمها بأنه
لم تحدث أي حملة عسكرية، ويظهر أنه قد صمم على حماية مركز آشور في
سورية الشمالية بشكل دبلوماسي، ولدينا نص من نصوص معاهدة مفادها إشراك
دولة سورية شمالية لدعم آشور ضد أورارتو، وكانت لهذه الميادرة تأثيرات قليلة،
وهكذا استمرت أورارتو بالتقدم في سورية الشمالية.

وفي النهاية: انفجرت التوقرات خلال آشور عبر تمرد داخل العاصمة (كالك) ونُصب حاكم كالك ملكاً وكان مُنصبياً، ولكنه كان يحمل دعاء ملكية، وكان اسمه (بول) كما هو مسجل في كل من التوراة ويمض النقوش المسمارية، ولكنه اتخذ اسم (تنلات بلامير) لقباً ملكياً كما أنه كان دلالة على نوع السياسة التوسعية التي كان ينوي اتخاذها والسير بموجبها وذلك اقتضاه لخطى صاحب الأول لهذا اللقب.

الفصل السابع

عنوان الإمبراطورية

الإصلاح الإداري

لقد قدّم حكم تفلّات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٧٧) قرناً من التوسّعات العظمى في آشور الإمبراطورية، ولقد تبع ذلك التغير الدرامي في الأوضاع الدولية التنظيم الإداري الذي أعطى الملك السيطرة المباشرة والسريعة على جميع موارد الإمبراطورية.

وبالنسبة للتنظيمات الإدارية القديمة للمناطق، انتقلت بعض أنظمة الولاية التي كان يُنفّذها بعض المائلات النبيلة إلى ما يشبه نظام الملكية الوراثي، وأصبح الوالي حاكماً شبه مستقل، ولكن هذه الأنظمة قد تحطمت وظهر بدلاً منها بُنية من الموظفين الذين كان يُعينهم الملك وأصبحوا مسؤولين أمامه في العاصمة، ولقد نظمت في الإمبراطورية أنظمة للمواصلات السريعة وشبكة من مراحل البريد التي اقتبسها الفرس فيما بعد وادّعوا أنهم هم الذين اخترعوا هذا النظام الذي انتشر عبر الإمبراطورية.

وقد طُلب من موظفي الولايات إرسال تقارير بانتظام إلى العاصمة وبالسّريّة المطلوبة، وكان للملك بعض المفتشين المتقلين وذلك لفحص أعمال موظفي الولاية حتى أعلى المراتب وبالنسبة للدول الخاضعة لآشور والتي تقع فيما وراء الولايات المحكومة بشكل مباشر فقد عين تفلّات بلاسر ممثلين عنه لضمان المصالح الآشورية في البلاط ولإسهما في الشؤون التجارية والسماسة الأجنبية.

أما المائلات الحاكمة المحلية، فما داموا يدفعون الجزية المفروضة عليهم، وما داموا يقبلون تعليمات الممثل الإمبراطوري بالنسبة للشؤون العامة، فقد تركوا أحراراً ومستقلين ولديهم الثقة بدعم القوى الإمبراطورية لهم ضد أي ثورة داخلية أو هجوم خارجي، وليس من الصعب أن نجد أمثلة على أوضاع من هذا النوع، إذ إن

لدينا نقشاً آرامياً يمثل أحد الأتباع المخلصين وهو ملك (سالمال) التي تقع على بعد حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال من حطب، ويذكر هذا الملك كيف أعاد تفللات بلاسر والد هذا الملك إلى الحكم بعد أن حصل تمرد ضده، وكيف أن الملك الآشوري قد قضى على المعارضة، وفي التوراة نرى كيف أن (أحاز) ملك يهوذا وعندما هدد انتلاف معمار، التجأ (أحاز) هذا إلى ملك آشور تفللات بلاسر.

ولقد أنشئ نظام للتجسس في آشور، ومن هذا الزمن نسمع عن جواسيس من (أوراريتا) كان الآشوريون يخفون لهم رواتبهم، ولقد سمعنا عن تقاريرهم في بعض الحالات، ومن المقول أن نفترض أن هذا الإجراء لم يكن معصوماً بأورارتو، وفي أثناء هجوم سنحاريب على أورشليم عام ٧٠١ ق م كان الموظفون الآشوريون يعرفون بالطبع (إذا جاز لنا أن نصنف القصص التوراتية) كميات وافرة من المعلومات عن التطورات الداخلية في مملكة يهوذا.

لقد بدا من الواضح معرفة أعمال تفللات بلاسر بصفة عامة، إذ من الصعب الوصول إلى ما فعله بصورة خاصة، وذلك لأن حولياته قد حفظت بشكل سيئ، وإن إعادة ترتيب مفصلة لتاريخ وجغرافية حملاته ما تزال تقدم عدة ساعات سميدة من الأبحاث بالنسبة لدارسي الخط المسماري، أما نقوش تفللات بلاسر فقد تعرضت إلى الأذى من عدة نواح، فقد كتب حولياته بالخط النافر على جدران قصره، وقد عمد أحد خلقائه إلى نزع تلك الألواح المجسمة واستعملها لتزيين قصره الجديد الذي كان بينه، وقد أساء ترثيها وأتلفها عند القيام بهذا العمل...

وبعد ذلك وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حاول أحد الحفارين الوصول إلى الألواح فتسبب في زهادة الإسماء، وذلك لأنه قص بعض الأجزاء المنقوشة للتخفيف من وزنها وتسهيل نقلها.

«آء أيها الفن، حكم من الجرائم تقترف باسمك!». وقد حاول عضو بعثة الحفريات هذا أن يتجنب ضياع المعلومات وذلك بنسخ النص على أوراق، ولكن الأوراق تعرضت للفرق واختفى قسم منها بين دهاليز المتحف البريطاني، وفوق ذلك فإن الذين توصلوا إلى القصص الأصلية وقطع الورق نشروها بشكل سيئ، وإن

أحد العوامل الكامنة وراء هذا الخلل التهاثي هو أن تفلّات بلاسر كان واقعاً ضد غالبية التواريخ التوراتية كما يظهر في كتاب الملوك، وهكذا فقد أصبح الاهتمام الرئيسي لبعض الباحثين لا ينتمي إلى تاريخ الشرق الأدنى في مظاهره العريضة بل كان مهمهم تثبيت وتأكيد الأقوال التوراتية حول التاريخ الإسرائيلي.

السياسة تجاه الدول التابعة

لقد وسع تفلّات بلاسر الإمبراطورية الآشورية، وقد اعتبر آشور ناصر بعل وشلمنصر الثالث منطقة نهر الفرات حداً من حدود آشور العظمى تعبيراً عن حكم المناطق بشكل مباشر، وإلى الغرب كان هناك دويلات خاضعة وموالية مرتبطة بأشور بالمعاهدات أو بالتهديدات العسكرية.

ولكنها كانت بالحقيقة مستقلة رسمياً، ولكن تفلّات بلاسر بدل كل هذه المفاهيم، ففي أثناء حكمه أصبحت بعض الولايات التابعة سابقاً فيما وراء الفرات ولايات محكومة بشكل مباشر، وقد تابع خلفاء هذا الملك توسيع هذا الوضع.

فهل كان هذا العمل نتيجة لاتباع سياسة واستراتيجية جديدة أم لم يكن سوى نتيجة اتباع سياسة سابقة؟

ولكن الشواهد تشير إلى تصويب الرأي الأخير، فقد قدمت التوراة تفاصيل حول ضم مملكة إسرائيل إلى الحكم الآشوري، ومن الواضح أن تفلّات بلاسر حاول جهده لتكميب تعاون إسرائيل كدولة تابعة، ولكن وبعد أن فشلت هذه المحاولات عمل أحد خلفاء هذا الملك إلى غزو إسرائيل واحتلالها. وكذلك في مملكة يهوذا نرى أن أحاز ملكها قد استجبد بتفلّات بلاسر طالباً العون، ولم يكن ليفعل هذا لو كان يدري أن هذا سوف يؤدي إلى ضم مملكته لآشور (وهذا لم يتم بالنتيجة) وهنا نرى أحد حكام الولايات في شمال سورية التابعين لآشور يعدد بوضوح العلاقات الوثيقة ما بين أبيه وبينه من جهة وبين تفلّات بلاسر الثالث من جهة أخرى.

لقد أمسك أبي بحاشية سيده ملك آشور العظيم وعنفذ عاش هو وعاشت (عدي) (اسم الملكة) لقد سار أبي إلى جانب دواليب عرية سيده تغلات ملك آشور ورافقه في حملات امتدت من الشرق إلى الغرب، ولقد مات والدي تحت قدمي سيده تغلات بلاسر ملك آشور، وقد بككت عليه جميع معسكرات سيده، وقد أقام له سيده تمثالاً على حافة الطريق، وحمل أبي قداماً من دمشق، ونظراً ثولائي وولاء والدي فقد عينني سيدي تغلات بلاسر ملكاً).

ومن الواضح أنه لم يكن لهذا الملك أي سبب يدعوهُ أن يفكر أنه ما دام تابلاً وموالياً لأشور فإن مملكته سوف تضم إلى آشور.

لقد كانت مشكلة آشور العظمى عند تولي تغلات بلاسر الحكم هي (أورارتو) وقد كانت السيطرة على الطرق التجارية السورية ضرورية لتأمين ورود الأخشاب والمعادن والخبول، ولقد كانت مملكة أورارتو مصممة على السيطرة على سورية الشمالية، وبوجود هاتين القوتين في الميدان (مع وجود قوة ثالثة وهي مصر التي كانت أقل قوة ولكنها استمدت بعض قواها في هذا الوقت بحيث لا يجوز إغفالها) ولهذا فقد ثبت أن معظم الدول الناجمة غير جديدة بالثقة في الأوقات العرجة، وذلك من وجهة النظر الآشورية، ولهذا فقد اضطرت آشور وحفظاً لأمن الطرق التي كانت تعتمد عليها أن تقدم وتتخذ حكماً مباشراً للولايات، وأن تضعف المجال المحلي للتمردات عليها وذلك عن طريق تهجير الفئات المتفردة.

وهنا وبغض النظر عن ميادئ تغلات بلاسر التوسعية، وبسبب حالة سجلاته السيئة، فإننا نلاحظ أن التفاصيل قد بقيت موضوعاً للبحث بالنسبة لعدد نقاط، وفي الاستعراض التالي سوف نذكر التفاصيل التي اقترحها الباحث الإسرائيلي حاييم تدمور.

التوسع خلال حكم تغلات بلاسر الثالث

ذكرنا سابقاً موضوع الخصومات الحدودية المستوطنة التي وقعت بين آشور وبابل، والتي طال ذكرها، ولم نقصد كسر التقاليد أثناء حكم تغلات بلاسر

عندما نبدأ بتأكيد الحقوق الآشورية بالحدود المتنازع عليها مع بابل في الجهة الجنوبية الشرقية، وبهذه المناسبة استطاع تغلات بلاسر نظراً لضعف بابل المسبب عن الاضطرابات الداخلية أن يثبت الحدود في أقصى الخطوط الجنوبية على طول نهر ديالاً من زاغروس إلى نهر دجلة، ولقد حدث أيضاً عدة اختراقات آشورية إلى الجنوب، حيث كان هناك بعض القبائل وهم الكلدانيون الذين ذكروا آنفاً والذين سوف نقابلهم كخصوم مقاومين لأشور فيما بعد، وكان هؤلاء الكلدانيون يمزقون ويوقعون الفوضى في بابل، وبعد ذلك التقت تغلات بلاسر إلى الاهتمام بمشاكلته الرئيسية وهي شمال سورية.

وهنا نجد أن مملكة أورارتو قد قامت بتقدم ذي أهمية حديثاً، فقد أخضعت عدة دول على الخط إلى الغرب من نهر الفرات وهي ميليد وكوموخ وكركميش وأصبحت هذه الدول تابعة لأورارتو، هذا وقد انضمت (أرياد) إلى الجنوب الغربي من كركميش وهي التي كانت تسيطر على مشارف المناطق في أقصى الجنوب، تلك المشارف التي كانت ذات أهمية بالنسبة للطرق الآشورية إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت ترتبط بمعاهدة اسمية مع آشور، وقد انضمت هذه المملكة إلى الائتلاف ضد آشور.

وفي عام ٧٤٢ ق.م قام تغلات بلاسر بهاجمة (أرياد) التي كانت تحتلها الجيوش الأورارتية. وتشمل قائمة (ليمو) (وهي وثيقة تقدم قائمة تقريبية للحوادث ذات الأهمية بالنسبة للأغراض التاريخية) مايلي وذلك بالنسبة لحوادث عام ٧٢٢ ق.م:

((في (أرياد) حصل انكسار لقوات أورارتو)) ولحسن استغرق حصارها مدة سنتين حتى استولى الآشوريون على تلك المدينة، وقد تسبب هذا في خضوع عدة مدن لحكم آشور عن طريق دفع الجزية، بينما كان تغلات بلاسر يقوي مواقفه في شمال سورية، وكان هذا في عام ٧٤٠ الذي أصبح يسجل عام فتح أرياد وجعلها قاعدة للعمليات الرامية إلى هزيمة الدول الخارجة عن الطاعة.

وهنا التفت تغلات بلالسر لمعالجة دولة خاضعة لأورارتو وهي بلاد (أولويو) في منطقة (دوموك زاخو) الواقعة إلى الشمال من نينوى. والتي كانت متاخمة لأراضي آشور والتي لا يجوز تركها مريحة تحت أياد أجنبية، وهي تمثل تهديدات أورارتو لأشور، وهكذا استولى تغلات بلالسر على هذه المنطقة التي كانت مزدهرة، كما ذكر أن تسعاً وعشرين مدينة قد أصبحت تحت الحكم الآشوري المباشر، وقد هاجر إليها بعض السكان المنقولين من المناطق المغلوبة، ونظن أنهم كانوا من شمال سورية، ولقد جلبت لغلات بلالسر تلك التشاغلات التي بدأها من قاعدة (أرياد) عام ٧٤٠ جلبت له الجزية التي تدل على القبول النهائي للحكم الآشوري، وذلك من عدد من الدول التي تم قهرها حتى حدود فلسطين.

وفي هذه النقطة نرى أن تسجيلات واسعة كانت متاحة بحيث كانت إعادة بناء عدة أماكن ممكنة، ولا تزال الاختلافات الأكاديمية لدرجة قطع الأعناق مستمرة حول تفاصيل تافهة، مثل الاختلاف على التاريخ المضبوط حول دفع الجزية من قبل (مناحيم) في إسرائيل، والتي سجلتها التوراة، ومع ذلك فيبدو أن بعض الدول البعيدة في جنوب سورية وفلسطين قد استسكنت عن دفع الجزية، وبهذا أظهرت أنها لم تكن موالية لأشور، ولهذا فقد قام تغلات بلالسر عام ٧٢٨ بمعرض لقواء العسكرية في جنوب سورية وكان هذا سبباً في دفع مناحيم الإسرائيلي الجزية لأشور، وفي سفر الملوك يذكر أن بول (وهو تغلات بلالسر ملك آشور تقدم ضد الأراضي ولهذا فقد قدم مناحيم إلى بول ألف مثقال من الفضة، وتعهد أن يبقى معه لكي يثبت بقاء المنطقة تحت حكمه).

وإن ما ورد في التوراة عن الحوادث التي سبقت الحوادث التي ذكرناها، يذكر أن مناحيم قد استولى على العرش في إسرائيل في أواخر حكم عزريا ملك يهوذا، ومن الممتع أن نعلم أن تغلات بلالسر قد قابل شخصاً اسمه (عزر ياهو) وهو شخصية بارزة في التحالف السوري وكان يحظى بدعم سوري حتى حماة، ولقد اعتبر البعض أن (عزر ياهو) هو ملك يهوذا نظراً لأن عزر ياهو قد التحق به أو حتى ألف تحالفاً سورياً يشمل الدول المناهضة للدول الخاضعة لأشور، ولكن ومع أن

هذا كلن معتمداً بالنسبة للتواريخ التوراتية، إلا أن هذا الخبر ليس له أي صلة بإعادة إنشاء تفلّات بلاسر لاستراتيجيته الجديدة.

وابتداءً من عام ٧٢٧ حتى عام ٧٢٥ ق م كان تفلّات بلاسر مشغولاً بتنفيذ إجراءات ضد أورارتو في أقاصي المناطق الشرقية حتى أراضي الميديين الواقعة إلى الشرق من زاغروس في شمال غرب إيران.

هذا ولقد أعطى انسحاب الجيش الآشوري الرئيسي من سورية انطباعاً مضللاً عن مقدرة الآشوريين على الاحتفاظ بقوتهم ومركزهم، فلقد شكلت اتحادات ضد آشور لاسيما ما بين دمشق والديارات في فلسطين، مع أن (أحاز) كان خارج هذه التحالفات (ربما كان ذلك بناءً على نصيحة النبي اشعيا) وهكذا دعا هذا الملك راعيه وملكه تفلّات بلاسر لتأييده، ولقد أخذ تفلّات بلاسر تلك الاضطرابات بسهولة وحول دمشق وبعض أجزاء إسرائيل إلى ولايات، مع أنه ترك الجزء الأوسط من إسرائيل تحت حكم ملك وطني وهو (هوشيا) الذي عينه بدلاً من المتمرّد (بيصاخ) وذلك بدلاً من أن يجعل جميع المناطق المهزومة تحت حكم آشوري مباشرة، فقد كان تفلّات بلاسر حريصاً على محاولة الاحتفاظ بولاء الممالك الخاضعة كلما كان ذلك ممكناً.

الراع مع الكلدانيين

لقد ظهرت بعض المشكلات أمام تفلّات بلاسر في منطقة جديدة، فقد ذكرنا سابقاً عن الكلدانيين الذين كانوا يمزقون بابل وقد كان هؤلاء شعباً قبلياً ولديهم بعض أوجه الشبه بالأراميين، فقد دخلوا إلى جنوب بابل حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، وأنشأوا أول مستوطناتهم في مناطق المستنقعات في اقاصي جنوب بابل وهي المستنقعات العراقية الشهيرة، وبعد ذلك بدؤوا بالتحرك إلى أعالي نهر الفرات ومحاولة السيطرة على بعض المدن القديمة.

وفي عام (٧٢٤) قام أحد الزعماء الكلدانيين البارزين من قبيلة (أموكاني) باحتلال بابل وكان اسمه (نوكين - زير) بالاستيلاء على العرش، ولهذا فقد انقسمت بابل في ولائها، وبالنسبة للشعب الكلداني فإن جاره من الشمالي كان يمثل النظام القديم المستقر القائم ضد الكلدانيين المخربين، وعندما استجاب تفلّات بلاسر للوضع بإرسال القوة العسكرية فإن كثيراً من السكان المدنيين في بابل وحتى بعض السكان غير الموالين للكلدانيين مثل شعب باكودو قد رحبوا بهذا العمل، وقد ذكر باكودو في كتيب (أرميا وزكريا)، ولدينا بعض المراسلات الحقيقية التي تعود إلى تلك الحملة التي تمت بها بعض القواد إلى الملك، وتذكر إحدى هذه الرسائل قضية المحادثات التي جرت على أبواب بابل ما بين الموظفين الآشوريين والشعب في الداخل، فقد كان الآشوريون يودون التفاهم مع العامة مباشرة متجاوزين المحكام المتمردين، وذلك بنفس الطريقة التي تمت بها المقاتلة بين القائد الآشوري (ريشاتي) مع اليهود أثناء حصار اورشليم عام ٧٠١ ق.م وهذه الحادثة قد ذكرت في التوراة، ولكن الموقف الكلداني كان قوياً بحيث إن غلبة الآشوريين لبابل قد تمت خلال ثلاث سنوات، ولقد كان النجاح الآشوري مدنيًا للدبلوماسية أكثر منه للقوة العسكرية، وبين المراسلات الملكية التي تعود إلى هذه الفترة هناك عدة رسائل تظهر أن تفلّات بلاسر كان على ارتباط مع عدد من قواد وزعماء كلدانيين مختلفين، بما فيهم المدعو (باردوك - أيل - أيدينا) من قبيلة (بيت باهين) وهو نفس (بيروراك - بالادان) المذكور كأحد المفاوضين

مع (حزقيها ملك يهوذا في فترة تالية) وإن رد الفعل الذي أظهره أشعيا إزاء تلك المفلووضات يظهر أنه لم يكن يثق ببيرووداك - بالآدان، إذ إن أشعيا كان له أسبابه الخاصة، فقد كان بيرووداك جاسوساً مزدوج الفزعات، إذ إن الرسائل الآشورية الموجودة الآن تظهر أنه وفي زمن المتمرّد (أوكين - زير) كان ميرووداك يقبض أموالاً بالسر من تفلّات بلاسر لطمّن رفقائه من الكلدانيين في الظهر.

ولقد عرفت تكتيكات الآشوريين في احتلال بابل بالتفصيل، فقد توجهت الهجمة من ولاية (أرابخا) (كر كوك) فقد تحرك الجيش الآشوري جنوباً أسفل الضفة الشرقية لنهر دجلة ليدخل بابل بعد عبور النهر في مكان ما قرب بغداد، وقد كانت بعض القبائل الموالية تحرس الطرق بينما كان الجيش الآشوري يتحرك غرباً ليصل إلى المدن البابلية الشمالية التي كان الكلدانيون المتمردون يحتلونها، وهكذا سقطت بابل وهرب (أوكين - زير) جنوباً ليلتقي بمأسمته القبلية في المستنقعات الجنوبية، ولكن جيشاً آشورياً لحق به وتابمه إلى هناك بعد أن ضربوا أراضيه وأراضي حلفائه من القبائل، مع أن الزعماء المواليين لآشور مثل بيرووداك - بالآدان نجت أراضيههم ولم تخرب وعندما استقرت الأمور بعد ثلاث سنوات أصبحت بابل تحت الحكم الإداري الآشوري، وبالتالي فقد أمسك تفلّات بلاسر بيد الإله (مردوخ) أي أنه (أخرج معه تمثال الإله) في احتفال جرى في بابل وبذلك فقد كان مغلولاً بشكل رسمي بامتلاك بابل وتعيينه ملكاً عليها، تلك الوظيفة التي لم يحصل عليها أي ملك آشوري منذ أكثر من أربعة قرون..

وهذا اعترف الصكينة رسمياً باحتفال باهر لتفلّات بلاسر ممثلاً للآلهة والملك الشرعي لبابل وذلك بإشراكه في وجبة ووليمة سرية خاصة بالأسرار المقدسة والمقامة تكريماً للآلهة، وقد حدث هذا في عام ٧٢٩ ق.م، ولقد تويج تفلّات بلاسر بعد عامين بعد أن ترك آشور تحكم إمبراطورية ممتدة من الخليج الفارسي إلى حدود مصر وتتوسع شمالاً خلال شمال سورية إلى كليكيا والأناضول.

ولقد اكتسبت الحملات الآشورية تحت قيادة تفلّات بلاسر السيطرة على الساحل الفلسطيني جنوباً حتى قطاع غزة، وكان هذا يظهر تهديداً لمصر وأيضاً

لقد تدخل الآشوريون بالتجولة المصرية، فقد فرضوا حظراً على تصدير الأخشاب من لبنان إلى مصر، وكانت هذه العوامل حافزة لمصر لتنظيم حركات ضد الآشوريين في فلسطين وجنوب سورية في السنوات التالية، وقد كانت النتيجة الأكثر دراماتيكية معاصرة وسبي السامرة من قبل الآشوريين وكانت السامرة هي عاصمة ما تبقى من إسرائيل وهي التي ذكرتها النورا.

اعتلاء سرجون العرش

لقد ادعى سرجون الثاني أنه ابن ثقات بلامر وقد استولى على العرش بعد قيام اضطرابات في العاصمة القديمة آشور ضد سلطة شلمنصر الخامس الذي حكم وقتاً قصيراً من (٧٢٧ - ٧٢٢) وقد قام شلمنصر الخامس هذا بمحاولة لفرض أعمال السخرة على المجتمع بعكس كل من سبقه. فقد كان لسلطة ملوك آشور حدوداً، واعترافاً بالدعم الذي لقيه سرجون عند استلامه السلطة فقد أعلن سرجون الإغناء من بعض الضرائب وبعض الالتزامات ليس لشعب آشور فحسب بل أيضاً لجميع معابر بلاد آشور، وهكذا فقد فرض أعباء ضخمة على الأموال الإمبراطورية.

لم يكن أمراً غير متوقع أن قيام الاضطرابات في بلاد آشور قد أيقظت كعصدي لما حدث في بعض الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، وسرعان ما واجه سرجون بعض الإزعاجات في بابل.

ولقد قابلنا في وقت مضى عيلام الواقعة في جنوب غربي إيران، وفي أواخر القرن التاسع بدأنا نسمع عن قيام الملاميين مع الكلدانيين وقيادتهم بمصادمات مع دولة آشور، وقد كان قرب أراضي عيلام من مناطق الكلدانيين في بابل الجنوبية قد وحّد اهتمام الشعبين، وفي بداية حكم سرجون أمن بيروراك - بالادان حلفاً رسمياً مع عيلام وبمساعدة هذا الشعب استطاع الإستيلاء على بابل عام ٧٢١ ق.م، وقد ادعى حقه في ملك بابل بكونه متحدرًا من أحد الجدود الذي عين نفسه ملكاً في أول ذلك القرن، وكما حدث في عصيان أوكنزور فقد تحرك

الجيش الآشوري إلى الجنوب إلى بابل إلى الشرق من نهر دجلة، ولكن في هذه المرة حال دون تقدمهم حلفاء (بيروراك) - بالادان وهم يؤلفون الجيش العيلامي في (الدير) ومع أن سرجون ادعى سحق جيش (هميانيجاش) ملك عيلام ولكن الحقيقة أن أي عمل ضد (بيروراك - بالادان) قد صد لمدة عقد من الزمان.

ولقد منع سرجون من تكريس موارد أكثر وذلك بسبب المشكلات التي ظهرت في أمكنة أخرى، ومن هذه الأماكن كانت سورية حيث حاولت عدة مرات إنشاء تحالف آخر ضد آشور وذلك بالتحالف مع أرياد والسامرة، ولكن استنطاع سرجون القضاء على هذا التحالف بسهولة وسقطت حماة لتصبح تحت حكم آشور المباشر، وتلمح التوراة لبعض العمليات التي قام بها سرجون في المنطقة الساحلية في جنوب فلسطين، مع أنه ينبغي أن يقال إنه مهما كانت هذه الحركات الدرامية القادمة من العاصمة أورشليم، إلا أن هذه الحركات كانت ذات تأثير بسيط على القوة الإمبراطورية الآشورية.

المشكلة الأورارتية الحل النهائي

وكما كان الحال مع تغلات بلاسر، فقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت سرجون في الشمال، فقد كانت أورارتو لا تزال المنافس لطرق التجارة خلال كلبيكيا والأناضول، والآن لقد مدت أورارتو نفوذها فوق المنطقة إلى الجنوب من بحيرة (أوروميا) الواقعة في شمال غرب إيران (أذربيجان) وكانت هذه المنطقة ذات أهمية لأشور لتزويدها بالخيرول والطرق القادمة من الشرق الأقصى، ولقد كانت الرسائل المرسلة من الحكام المحليين إلى الملك في هذا الزمن مملوءة بالإشارات إلى بعض التصادمات مع (أورارتو) وعن محاولات أورارتو للاندفاع جنوباً في زاغروس، وتشير بعض هذه الرسائل إلى استخدام جواسيس من أورارتو في نظم الاستخبارات الآشوري الرائع.

ولهذا قرر سرجون القيام بغارة على (أورارتو) بصمها وكانت عملية محفوفة بالأخطار نظراً لصمودية التضاريس الطبيعية، ولقد توجت الاستعدادات الحدودية

مع أورارتو يشقوا حملة منظمة في صيف عام ٧١٤ والتي أصبح لدينا معلومات مفصلة عنها وذلك من تقرير كتيبه سرجون بشكل رسالة إلى إله البلاد آشور، وبعد أن ترك سرجون قاعدته (كالاخ) تقدم شرق الصور الزاب العلوي والسفلي وهكذا إلى زاغروس، وبممكننا اعتبار سرجون إما شاعراً مجيداً أو أنه كان هناك أحد الكتاب في بطاقته ممن يملكون مقبرة شمرية، وذلك لأن التقرير كان يمسك في شعره صدى حياً للرهبه التي تجاوب بها مع النظر الجليل الرهيب:

في الجبال العالية حيث تنمو الأشجار من كل صنف متضافرة الأغصان.

في أواسط الفوضى الجبلية حيث تظهر ممراتها حوضاً مربعاً.

حيث تمتد الظلال وحكاتها غابة من أشجار الأرز.

وحيث لا يرى من يدوس تلك الدروب أي شمع من أشعة الشمس.

ومن الممكن أن ينحني الشاعر دهشة أمام الجبال، ولكن كان سرجون متأكد من وجود مهندسين عسكريين في جيشه قادرين على جعل الممرات قابلة للاستعمال.

"لقد زودت مهندسي بمحاول من نحاس وراحو يكسرون ويحطمون صخور الجبال الوعرة كما لو أنها من حجر كلبي وذلك ساعدني على العبور".
ومع أن النص يذكر النحاس إلا أنه يعني خليطه وهو البرونز.

وبعد أن عبر المنطقة إلى الشرق من زاغروس توجه سرجون نحو بلاد الماناي، وقد وصل الآن إلى جنوب بحيرة (أوروميا) وقد كان شعب الماناي الممككين في وضع لا يحسدون عليه لأنهم أصبحوا حاجزاً عازلاً بين جارين جبارين، وقد عانوا أكثر من مرة عندما تتغير الساطة في أي منطقة من هذه المناطق لاسيما عندما يقبلون نظام الحكم في المنطقة المغنية، وهكذا فقد خضع حاكم الماناي فوراً لسرجون مع أن جاره قد وضع مصيره مع (روما) ملك أورارتو.

أما الوصول إلى أورارتو إلى القرب من بحيرة أوروميا فقد وقفت أملعه ومنعته عدة حصون تشكل خطاً واحداً ، ولذلك فقد أخذ سرجون جيشه إلى أعلى الجانب الشرقي من البحيرة وذلك لكي يلتف حول مراكز الدفاع الرئيسية المناهضة لأشور وفي الوقت الذي بدأ فيه الفلاس مع جيش أورارتو الرئيسي الذي كان يدافع عن معر جبلي إلى الجنوب من ابريز ، فقد أصبح سرجون منفصلاً عن قادته في الوطن مسافة نحو ثلاثمائة ميل وهذا يشمل جميع منطقة الزاغروس ، وكانت هذه المسافة عبارة عن تضاريس طبيعية صعبة ، وهكذا أصبح جنود سرجون على وشك التمرد وقد قال معلقاً على ذلك :

«إن جنود آشور المتمبين الذين قد قطعوا مسافة طويلة قد أصبحوا مرهقين جداً وبطيئين في حركاتهم ، فهم قد عبروا وأعادوا عبور الجبال الشديدة الانحدار وقد لاقوا المشقة العظيمة عند الصعود والنزول ، ولقد أصبحت أرواحهم المنعوية منخفضة وتميل إلى التمرد ولا أستطيع أن أخلصهم من هذا الضجر وليس لدي الماء لأطفئ عطشهم ولا أستطيع نصب أي معسكر أو أن أقيم خلوفاً دفاعية».

لقد أدرك سرجون في تلك اللحظة عدم قدرته على الاعتماد على انضباط جيشه ، فقد عمد إلى قيادة هجوم بالمریات الحربية وجنود الخيالة وهو يذكر رئيس الخيالة بالاسم وعندها اندحر العدو عندها قام بقية الجيش الآشوري الذين تشجعوا بانتصار الخيالة وانتصار خطة سرجون الممتازة ، قام هؤلاء بالانقضاض على التحالف الأوراري وحطموا خطوطهم الحربية وأوقفوا فيهم الذعر ، ولهذا فقد قاد القائد الأورارتي جيشه في انسحاب منظم من المعركة ولكن بقية التحالف الذي أصبح بدون قيادة منتظمة هربوا في فوضى عارمة فوق الجبال حيث هلك عدد منهم في البراري ، وكان انسكسار الجيش الأورارتي صدمة للمعوية الأورارنية ، واستطاع سرجون أن يلتف حول النهاية الجنوبية لبحيرة أوروميا غرباً إلى زاغروس مرة ثانية وبعد ذلك توغل دون مقاومة في أراضي أورارنيا ، عندها هرب الملك (روسا) من عاصمته ثوروشيا (وربما حكان هذا الهروب غير ضروري وكان من السهل الدفاع عن منطقته ولا يمكن سرجون مستعداً لحصار طويل

الأمد) وي بعدها النجا الملك (روسا) إلى الجبال وهناك وطبقاً لما قاله سرجون مات (روسا) من الحزن مع أن نصاً متأخراً (وريما كان أقل موثوقية) يذكر أن سرجون قال إن الملك روسا قد انتحر.

لم يزل الخط الذي تبعه آشور في حملته يحتوي على كثير من النقاشات، ويظن البعض أنه سار رأساً حول بحيرة (فان) ويقول آخرون إنه توجه راجعاً إلى آشور بواسطة عدة طرق ممكنة إلى الجنوب من بحيرة (فان) هذا وإن ما هو أكيد نظراً لأن سرجون يخبرنا ذلك بصراحة (أو بالحري يخبر الإله آشور) أنه وقبل مغادرتهم بادر الآشوريون إلى نهب أورارتو حيثما ذهبوا وكانوا ينهبون ويحرقون المدن والمعاقل الزراعية ويتلفون الحدائق ويفتحون وينهبون مخازن الحبوب ويحطمون السدود بحيث أن سالت مياه الألفية هدراً إلى المستنقعات بينما تركوا المراعي عارية، وقد قطعوا الأشجار سواءً كانت أشجار الحدائق أو الأشجار المزروعة حول القصور أم أشجار غابات عادية وأحرقوها جميعها.

وفي أثناء عودته إلى آشور ترك سرجون جيشه الرئيسي وقاد فصلاً مؤلفاً من حوالي ألف جندي من الخيالة فوق طرق صعبة متجهاً إلى إحدى المدن وهي (موزازير) وهي جزء من أورارتو في عمق الجبال وتقع إلى الشمال الغربي من روانديز التي قد أهملت إعلان الخضوع التام لآشور وسرجون نظراً لبعدها عن آشور، وكانت موزازير المعقل الرئيسي لإله أورارتو وهو (هالنيا) حيث كان يتوج ملك أورارتو عادة، ولقد كانت قدامسة موزازير وارتباطاتها الملكية قد جعلتها كتنزاً وطنياً، وقد عمد سرجون إلى تعداد الفنائم التي حصل عليها من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والمفروشات المرصعة بالذهب والفضة والأواني الذهبية والفضية من جميع الأنواع والأسلحة الاحتفالية، المؤلفة من المعادن الثمينة والأواني البرونزية ابتداءً من الأواني الصغيرة حتى القدور الضخمة والتماثيل والزخارف، وهناك بعض التسميات التي لا نفهمها وقد وجد الكتبة الآشوريون الذين سجلوا هذه الأسماء بعض هذه الأسماء غريبة ويقولون: إنه من الصعب كتابة هذه

الأسماء، ولقد تم ضم موزاير رسمياً إلى آشور ولكن موقعها كان بعيداً جداً
فكان من الصعب الاحتفاظ بها **■** رحيل سرجون.

ولم يكن تجلوب سرجون مع مشكلة أورارتو منحصرأً بالناحية العسكرية
فحسب، بل استعمل الدبلوماسية لكسب لحلفاء، إذ إن لدينا رسالة تقدم بعض
التفاصيل عن بعض المفاوضات الودية مع مميتا ملك (موشكي) فقد كان (مميتا)
يسيطر على الطريق التجاري الغربي الذي هدم لدولته ثروة عظيمة (وقد كان
مميتا هذا هو ميداس ذو اللعنة الذهبية في الأساطير اليونانية) ولا شك أنه وحفظاً
لمصالحه التجارية فقد أقام علاقات ودية مع أورارتو وسورية الشمالية، أما في
شمال سورية فقد حاولت كركميش تأمين الدعم الفعلي لمميتا في إنجاز تحالف
ضد آشور، وهكذا فقد تفاوض سرجون مع مميتا لكي يتجنب تلك التهديدات
للمصالح الآشورية وقد اقترنت مبادراته الدبلوماسية مع استمراضات للقوة
العسكرية التي يمتلكها في شمال سورية وما وراءها.

سرجون في بلاد بابل

بعد أن حطم سرجون مقاومة أورارتو استطاع الآن أن يتجه إلى تلك المشكلة
المتأصلة وهي مشكلة (بابل)، وكانت عملياته العسكرية هناك والتي بدأت في
عام ٧١٠ ق م ودامت حتى عام ٧٠٧، ولقد قلد سرجون تكتيكات تفلأت بلاسر،
الأولى وذلك بالتحرك جنوباً على الضفة الشرقية لنهر دجلة وبذلك كسب
السيطرة على طول المنطقة الممتدة حتى كركميش، وبذلك فقد دق [سيفاً ما
بين ميروداخ - بالادان وبين حلفائه المحتملين من الملاميين، وبعد ذلك توجه إلى
بابل الأصلية، وقد ادعى بيروداك - بالادان في النقوش أنه قد حمى مصالح المدن
النبابية القديمة، ولكن هناك جزءاً لا بأس به من سكان تلك المدن كانوا
يشكون في مصداقية هذه الأقوال، وقد سمعنا فيما بعد عن إطلاق سراح بعض
الأسرى من عاصمة بيروداك - بالادان لقاء إعادة بعض الأراضي المصادرة وعن
إخماد حركات النهب والسلب ضد التجار والقوافل التجارية، ولهذا فقد كان

هناك فئة قوية ضمن المدن البابلية الشمالية مستعدة لقبول التدخلات الآشورية، وقد فتحت بعض هذه المدن ومن بينها العاصمة أوبابها ورحبت بمرجون الذي اعترف به رسمياً حاكماً شرعياً لبابل وذلك بالاشتراك في الطقوس المقدسة.

وفي أثناء ذلك فقد هرب يبروداك - بالأدان من بابل وبعد أن حلول الوقوف في الجنوب هرب إلى منطقة قبائله في المستنقعات الجنوبية، وقد أصبح محاصراً في عاصمته القبلية في المستنقعات الجنوبية فقد اشترى دعم مرجون بدفعه كمية كبيرة من المال عام ٧٠٧ ق م وبذلك تركوه دون أن يُمس ليسيطر على أراضيه القبلية ولكننا سوف نقابله فيما بعد.

لقد اقتربت نهاية مرجون الآن، وربما قريباً تحطم أورارتو، ففي القرن الثامن ق م أنت موجة جديدة من الهنود الأوروبيين السريمي الحركة وهم (السيميريون) وسكانت هذه الموجة مندفعة نحو الأناضول من الشمال إلى أسفل الجانب الشرقي من البحر الأسود، وحتى وقبل هجوم مرجون على أورارتو كان هؤلاء السيميريون قد أنزلوا التفريجات الخطرة في ولايات أورارتو الشمالية. ولقد كان إخلاء السكان الذي حصل نتيجة لتخريب مرجون لأورارتو، ترك أورارتو عاجزة عن صد الغزاة وهكذا فقد انفجر السيميريون وانتشروا عبر هضبة الأناضول. وتشير بعض الشواهد لعلم الآثار لحدوث غارة على آشور نفسها، فلقد هدد هؤلاء بالتأكيد مصالح آشور في شمال سورية ولذلك فقد وجه مرجون جيشه ضد السيميريين في تلك المنطقة وفي إحدى التقاسير لبعض الشواهد الفاضلة فقد مات مرجون في إحدى المعارك، والحقيقة أنه قد رحل من مسرح الأحداث في عام ٧٠٥ ق م وفي نفس الوقت تحرك السيميريون باتجاه القسم الداخلي من أسمر الصفرى.

بناء قلعة مرجون

كان مرجون أحد الملوك الآشوريين الذي انتقل إلى عاصمة إدارية جديدة، مع أنه لم يخبرنا لماذا فعل ذلك، ولكننا نستطيع التخمين في العالم القديم كان سكان المدن الكبيرة ولاسيما العواصم يحملون ويمرعة على امتيازات خاصة

لأنفسهم، وكان الملك مجبراً على الاعتماد على موظفيه في العاصمة وكان يحافظهم بإعنائهم من الضرائب وأعمال السخرة ويمنعهم بعض الأراضي، وحسب النظام الإقطاعي كانت مثل هذه الامتيازات تستمر إلى الخلف وتصبح متوارثة، وبالإضافة إلى نفوذ كهنة المعبود التي كان لها نفوذها وأمكنتها في مقوس الدولة، لذلك فقد ظهرت مجموعة محصنة منهم، وكانت هذه المجموعة قادرة على مواجهة الملك نفسه.

ولقد ظلت (كالكاخ) العاصمة الإدارية والمسكينة لمدة تقرب من قرن ونصف وهو وقت سكاقت لظهور مجموعة قادرة على مقاومة الملك نفسه، والحقيقة أن الحاكم سرجون الذي أعلن أن (تفلات بلاسر الثالث كوالده قد نول السلطة من موقع والي (كالكاخ) وقد كان سرجون نفسه يعلم من تجربته الشخصية الخطر المحدق بالسلطة الملكية من جراء المصالح التي اكتسبتها المدن القديمة، وذلك لأن اعتلاءه العرش قد حدث بعد ثمرد ضد الملك الذي سبقه من قبل شعب آشور الذين كان ينبغي دعمهم، فرد جميلهم بتثيبت امتيازاتهم التقليدية، وهذا هو أحد العوامل التي دعت لإنشاء عاصمة جديدة، وهي دور شاروكين (أي: قلعة سرجون) وهي واقعة على بعد حوالي ١٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من نينوى والتي تتمثل اليوم بموقع (خورسا باد).

وأما العامل الثاني فقد كان عاملاً استراتيجياً فقد كانت سفوح جبال طوروس تبدأ على بعد حوالي ثلاثين ميلاً إلى الشمال من نينوى، وفيهم وراء تلك التلال تقع مملكة (أورارتو) وهي القوة الوحيدة التي كانت تهدد آشور الآن، وفي أي وقت كان بمقدور جيش أورارتو أن يزحف من أحد الممرات ويصل إلى سهول نينوى (وقد ظل هذا الخطر حتى أنهى سرجون هذا التهديد عام ٧١٤).

وكان الموقع الذي اختير لبناء العاصمة الجديدة (دور شاروكين) يقف كحصار ما بين نينوى وأقرب ممر يخترق الجبال. ولقد ثبتت أهمية هذا الموقع عندما استعمل كقاعدة رئيسية من قبل الجيش العراقي في زمن التمرد الكردي في نفس الجبال الشمالية حوالي عام ١٩٧٠ م.

سنحاريب

لقد اعتلى خليفة سرجون وهو ابنه سنحاريب ٧٠٤ - ٦٨١ المرش كباداري متمرس وجندي، فقد عَلمَ علم اليقين مشاكل الحدود الشمالية حيث إنه كان قائداً عسكرياً هناك، وإن معرفته بالوضع الجديد الذي لم تكن أورارتو فيه في وضع لا تستطیع به إيذاء المصالح الآشورية فحسب، بل كانت بحاجة إلى الحماية الآشورية في الشمال، وهذا ما أدّى بمنحاريب إلى إقامة علاقات ودية مع أورارتو.

نينوى العاصمة العالمية

لقد كان أول عمل قام به سنحاريب، وكان العمل الذي ظل قائماً، هو انتقال جديد إلى عاصمة جديدة، فقد كانت مدينة سرجون الجديدة وهي دور شاروكين قد بُنيت لحراسة المركز الشعبي وهو نينوى، وقد استمرت هذه العاصمة مستخدمة كقاعدة لهذا الغرض، ولكن، كانت نينوى نفسها هي التي شُيّدت وظهرت بشكل واضح لا مثيل له، فقد اختيرت كمعاصمة، وقد بقيت كحقيقة حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، وقد بقيت في ذاكرة التاريخ إلى الأبد.

ولقد بنى سنحاريب سوراً ضخماً حول المدينة طوله حوالي ثمانية أميال، وقد احتوى على ١٥ بوابة رئيسية، ولقد ذكر أحد المؤلفين الكلاسيكيين وهو ديودورس الصقلي رواية حول أسوار نينوى يقول فيها:

((إن هذه الأسوار كانت عريضة جداً بحيث تتسع لثلاث عربات حربية لتسير جنباً إلى جنب فوق تلك الأسوار)).

ولكن وفي القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الناس يسخرون من هذا الكلام، ولكن بقايا الأسوار في هذه الأيام تُظهر وجود مسافة واسعة كافية لتسير فيها سيارتان كبيرتان جنباً إلى جنب، وفي داخل تلك الأسوار شق سنحاريب شوارع جديدة، وساحات عريضة، ومدد مجاري المياه وبنى حواجز حجرية عريضة

لحماية قصره الجديد، وحول القصر أنشأ حديقة ضخمة تشبه جبل أمانوس حيث وُزعت كل أنواع النباتات وأشجار الفاكهة كالتي تنمو في أرض الكلدان.

وفيما وراء هذه الحديقة أنشئت البساتين، وفي وقت لاحق عمل سنحاريب إضافات جديدة فقد جلب جميع النباتات الموجودة في سورية وكذلك نبات المرّ التي نمت وترعرعت بشكل أفضل مما هي عليه في موطنها الأصلي، وقد زرع جميع أنواع الكروم الجبلية، وقد كانت كل هذه المشاريع بحاجة إلى كميات كبيرة من المياه لاسيما في أشهر الصيف الحارة في نينوى. ومع أن نهر دجلة كان يجوب أسفل نينوى إلا أن ضفافه كانت منخفضة جداً، فلم يمكن من الممكن استخدامها للري خلال الصيف، ولكن كان هناك مصدر آخر للمياه وهو نهر خوسر، وهو يرفد نهر دجلة عند نينوى وهو أصح للري ولكن كان لنهر خوسر نقیصة واحدة وهي عدم انتظام جريانه الذي ينقص إلى أقصى حدّ في الوقت الذي تكون الحاجة ماسة إليه.

وقد عالج سنحاريب هذه النقیصة عن طريق أعمال المهندسين، وذلك بتحويل عدة جداول جبلية كانت على بعد حوالي ثلاثين ميلاً، واستعمل مياهها لتزنية نهر خوسر، ومن الممكن اليوم ملاحظة بقايا بعض هذه الأعمال، فإن أحد مصادر المياه القادمة إلى نينوى في مكان يدعى (عن طريق الخطأ) (بافيان) وقد وُجدت عنده نقوش ولوحات جدارية نافرة موجودة على صخرة عالية تصلح لتكون مكاناً للرحلات الممتعة، وإن وجود اللوحات الجدارية يوحي أنها كانت بقعة كان سنحاريب نفسه يتمتع بزيارتها لتجنب حرارة الصيف في نينوى. وتشمل بعض بقايا أعمال سنحاريب الهندسية وهي قناة طولها أكثر من ٢٠٠ ياردة وعشرين ياردة عرضاً، وتحتوي حوالي نصف مليون طن من الصخور، وقد بُنيت لحمل المياه إلى بعض الوديان.

هذا وقد اعتمد سنحاريب مشاريع مملكة لتحسين الموارد المائية في أربيل وهي المدينة المهمة الثانية، وشمال آشور كما حُسن موارد المياه في كالك فقد تمهدها آشور ناصر بل عند بنائه لها لأول مرة.

القلل كلدانية جديدة

لقد احتل العمل في نينوى الجزء الأكبر من حكم سنحاريب، ولكن وفي أثناء ذلك كان هناك بعض الاضطرابات السياسية في بابل، فقد كان هناك إحدى المشكلات حول بابل فهل ينبغي أن تمنح بابل قدراً وافراً من الاستقلال مع وجود ملكها الموالي لأشور؟ أم هل ينبغي ضمها كلياً وحكمها حكماً مباشراً من قبل ملك آشور؟ إلا أنه كان هناك مستشارون يعملون إلى بابل، ومستشارون غير متعاطفين مع بابل في البلاط الآشوري وفي أحوال مختلفة أظهر ملوك آشور تعاضفاً مع هذه الفئة أو تلك، فقد كان والد سنحاريب وهو سرجون وابنه اسرحدون كلاهما متعاطفين مع الميل للتعامل برفق مع بابل مع كثير من الاعتبار بميول بابل الوطنية.

ومن الممكن أن يكون لدى سنحاريب ميلاً في البداية لاتباع سياسة والده، فقد مضت سنتان قبل أن يقوم بالاحتفالات الدينية لتتصبيه ملكاً على بابل رسمياً، ولكن وفي هذا الوقت بدأت بعض العوامل تعمل على أن يقوم سنحاريب بأقصى أعمال العنف الممكنة ضد بابل، ففي عام ٧٠٢ قام العدو القديم ببيروداك - بالادان بتطعيم بعض القبائل الكلدانية مع بعض القبائل الآرامية مع اكتساب تأكيدات بالدعم من الميلايين، وهكذا فقد أوقع بابل في مصاف المصيان، لذلك فقد تبع ذلك شيء من الفوضى فقد اعتلى عرش بابل أحد الولاة الذي كان العوية بيد سنحاريب لمدة شهر واحد عندما أطاح به ببيروداك - بالادن، ويمكن رد سنحاريب كان سريعاً ونشطاً فقد جيشه جنوباً وحاصر واحتل مدينة (كوناة) وهي قاعدة ببيروداك - بالادان.

وقد كان ببيروداك هذا رجلاً سياسياً أكثر من عسكرياً، فقد هرب جنوباً تاركاً سنحاريب على طريق احتلاله لبابل ودخولها، ولقد أرسلت فصيلة من الجيش الآشوري للتفتيش عن المتمردين جنوباً (ولكن بدون نتيجة) وقد طلب من تلك الفصيلة أن تزيل تحصينات كل المناطق الآرامية والكلدانية، وتخرّب هذه

المناطق التي تضم فعلاً جميع بابل الجنوبية من نيبور إلى الخليج الفارسي ، ويقول
سنحاريب مايلي:

في أثناء حملتي لقد حاصرت وهزمت وحملت الفنائم من... مجموع ٢٢ بلدة
ذات أسوار منيعه ، وقابعة لقبيلة بيت داخوري ومعها ٢٥٠ قرية مجاورة وكذلك من
ثماني مدن مسورة قوية من قبيلة بيت سالي ، ومعها ١٢٠ قرية محيطة بها و ٣٩ بلدة
مسورة قوية من قبيلة بيت (راموخاني) ، مع ٢٥٠ قرية مجاورة ، وكذلك ثماني
بلدات قوية مسورة من قبيلة بيت - ياقين بالإضافة إلى مئة قرية محيطة بها ، ويبلغ
مجموعها جميعها ٨٨ بلدة قوية مسورة ، في منطقة كلدية بالإضافة إلى ٨٢٠ قرية
مجاورة ، ولقد سمحت لمصاصكري أن يستهلكوا الحبوب والتمور في حدائق النخيل
ويأخذوا محاصيلها في السهل ، ولقد مزقت وأتلفت مدنهم وأحرقتها وحولتها إلى
روابي منسية.

وبعد أن تلقت كلديا هذا الدرس القاسي ثرست تحت حكم الموظفين
الآشوريين يساعدهم أحد النبلاء البابليين وهو بيل - ابني الذي رُبي حسب قول
سنحاريب في البلاط الآشوري وقد عُيّن كملك الموبة على بلاد بابل.

حصار أورشليم

لقد واجه آشور الآن في عام (٧٠٤) قم تمرداً في مكان آخر ، فقد التحق
حزقيا ملك يهوذا الذي سكان يدعوه ميروداك - بالادان المذكور في التوراة بكونه
قد أرسل سفارة له ، فقد التحق حزقيا هذا بتمرد قامت به المدن الساحلية تدعمها
مصر ، وهكذا فقد دخل جيش سنحاريب إلى فلسطين وعالج المدن الساحلية
وطرد المصريين وتغلب على دولة يهوذا ، ووضع عاصمة (حزقيا) وهي أورشليم تحت
الحصار.

وتوافق نقوش سنحاريب على هذا ، وإن رواية سنحاريب حول هذه المسألة قد
نُقلت وتكررت في كتب المهد القديم وتواريخه ، ولكن نورد لمسامح أي شخص
لم يسمح بهذه الأخبار مايلي:

دويالنسبة لحزقيا ملك يهوذا الذي لم يخضع لنير حكمي فقد حاصرت واستوليت على ٤٦ من بلداته القوية المسورة، ومعها عدد لا يُحصى من الفري المحيطة بها، وذلك باحضار السلالم لرفع المنجنيقات القاصفة إلى الأسوار وكذلك عن طريق هجومات المشاة وحفر الأنفاق، وشق الثغرات وأدوات الحصار، ولقد حاصرت الملك في اورشليم وكانه ملأ في قمصه.

وهكذا فقد دفع حزقيا الجزية علامة على خضوعه، وفتحت أبواب اورشليم بأعجوبة كما يقول النص التوراتي، وذلك نظراً لأن عودة الجيش الأشوري إلى منطقة ما بين النهرين قد أصبحت أمراً ملعاً ضرورياً وذلك لتتقهر الوضع بالنسبة لبابل، حيث حدث عند انسحاب الجيش الأشوري أن استأنف (بيروداك - بالادان) حياكة دسائمه، وقد ثبت أن بيل - ابني غير قادر على الاحتفاظ بحكومة فمالة، وقد عُزل هذا في عام ٧٠٠ واستبدل بأشور نادين - شم وهو أحد أبناء سنجاريب الصفار.

وهكذا قام الجيش الأشوري بحملة تآديبية في الأراضي السكندانية وهرب (بيروداك - بالادان) إلى عيلام ولم يذكر عنه شيء بعد ذلك.

ففي أول ظهور له على مسرح الأحداث قبل أكثر من ثلاثين عاماً كان هذا الرجل زعيماً محترماً لقبيلة كبيرة، وهكذا أصبح الآن في الخمسين من العمر وزهما أكبر وهكذا فمن المحتمل أن يكون قد مات ميتة طبعية.

ولكن بقي هناك بعض التجمعات المعادية لأشور في بابل وعيلام، وقد تنظمت هذه التجمعات الآن وحاولت التوسع بدعم من عيلام.

الحرب مع عيلام

لقد أظهر الكلدانيون أنهم أحد العوامل المعقدة والمُعقّبة لأشور ومصالحها ومصالح مدن بابل الشمالية خلال العقود الأربعة الماضية، ويدعم ومساعدة عيلام وتقديماً الملاذ من إجراءات التأديب الآشورية، لهذا فقد أصبح الكلدانيون في وضع يصعب السيطرة عليه، ولهذا فقد قرر سنحاريب معالجة المشكلة وذلك بضرب عيلام بشكل مباشر، ففي عام ٦٩٤ ق م قام بهجوم بحري عبر الخليج العربي، وكانت هذه العملية تعد عملية ضخمة في مصطلح اللوجستية وهي من نقل الجيوش وتزويدها بالذخيرة والسلاح، فقد كان لديه سفن بُنيت في نينوى فأبحرت إلى أسفل دجلة بقيادة بحارة فينيقيين، ونقلت الجيوش إلى البر بواسطة عجلات أوصلتهم إلى قناة تصب في نهر الفرات.

وبعد ذلك أبحر الجيش إلى الخليج، وهناك تم إنزال الجنود ونقلهم إلى شواطئ عيلام، حيث رغم المقاومة أمن الآشوريون رأس جسر ومن هناك استولوا على عدد من المدن العيلامية ونهبوها مع أنهم لم يتقدموا نحو العاصمة (سوزا).

ولقد أجابت عيلام بتكتيك أتى مفاجئاً بالنسبة لسنحاريب إذ بدلاً من الدفاع عن الجنوب قامت عيلام بغزوة عبر نهر دجلة إلى شمال بابل، وبواسطة عامل المفاجأة هذا قطع العيلاميون المواصلات الآشورية واعتقلوا الابن الذي نصبه سنحاريب ملكاً على بابل، ونصبوا ملكاً مطلقاً لهم على بابل، ويظهر حكماء لو أن نظام الاستخبارات الآشوري كان أقل فاعلية بالنسبة لعيلام وقواها مما كان عليه بالنسبة لأورارتو، ولكن لم تكن قوى العيلاميين الفازية نداً للقوة الآشورية وهكذا فقد انسحب العيلاميون بعد اشتباك بسيط مع جيش سنحاريب الراجع من القتال.

ولكي يمنع إعادة حدوث تدخل العيلاميين عمد سنحاريب في عام ٦٩٢ إلى مهاجمة عيلام خلال ولاية (الدير) التي قام العيلاميون منها بغزوة ضد بابل

الشمالية ، وهنا قام شخص آخر من المدعين بحقه في المرض البابلي بعصيان وطلب مساعدة الميلايين والتعالف معهم.

وبالنتيجة فقد واجه سنعاريب حلفاً مؤلفاً من الميلايين والكلدانيين ومزيدهم في عام ٦٩١ قـم على نهر دجلة في مكان ما شمال بابل ، ولكن تذكر بعض التواريخ البابلية أن سنعاريب قد أجبر على التراجع مع أنه ادعى أنه انتصر، ويذكر هذا التاريخ البابلي أن أحد الباحثين الذي ناقش هذه القضية قد وصف قصة سنعاريب عن المعركة أنها كذب ضخيم وغير عادي، وربما كان في هذا القول شيء من المبالغة، فلم يكن المشهد الذي وقعت فيه المعركة جنوبي ديانا الذي اعترف بها بأنها أحد حدود آشور الجنوبية الشرقية ، وأن الجيش الميلامي المتجه شمالاً قد واجه الجيش الآشوري هناك، وهذا يعني أن عيلام كانت تهدد بفزوها لآشور.

وقد كان نجاح جيش سنعاريب في تلك المعركة الدامية قد دق التحالف الميلامي في الصميم وبشدة لدرجة أنه مع أنهم كانوا يقفون على الحدود إلا أنهم لم يستطعوا المرور ، ومن وجهة نظر سنعاريب، إنه مع وجود الجيش الآشوري تحت التهديد الواضح ، فإن هذه كانت معركة انتصر بها سنعاريب حقاً ، ولكن وحدات جيشه قد عانت ومُنيت بخسائر فادحة بحيث ترك الجيش الآشوري في وضع لم يستطع أن يتحرك إلى بابل بشكل فعال، وقد كانت ضرورة الرجوع إلى القاعدة من وجهة نظر البابليين معناها التقهقر أو الانسحاب.

فلب بابل

الحقيقة أن الجيش الآشوري لم يواجه أي نكسة فعلية نظراً لأنه وبحلول عام (٦٩٠) كان هذا الجيش قد رجع إلى بابل التي كانت في حالة يرثى لها ، وهناك وثيقة رسمية نشرت بشكل ترجمة فحسب وهي تقول:

(ساد في البلاد عدا الحصار المجاعة والجوع والحاجة وكان ثمن اثنين (كا) من الشعير بشيكل واحد من الفضة (حوالي جنيه استرليني واحد) وهو ثمن *Pint*

باينث^(١) حسب الأسعار الحديثة ، وقد كانت بوابات المدينة مغلقة ولم يستطع أي شخص الخروج وقد ملأت جثث الرجال التي لم تجد أحداً يلقاها ساحات بابل. وبعد خمسة عشر شهراً سقطت بابل على يد جيش سنجاريب وقد هرب الملك البابلي الذي كان محتفظاً بالمرش من بابل ولصكن أضي عليه القبض بسرعة وقتل.

وقد أعطى سنجاريب للقاتل ما قيمته وزن المقتصب المقتول من الفضة. وبالنسبة لبابل نفسها فإن موقف سنجاريب بالنسبة لتلك المدينة المقدسة دينياً وثقافياً قد تغير في مدة عقد ونصف، وتخلص من المعارضة.

وكذلك فإن فقدان سنجاريب لولده - شكل هذا - هو المدينة بعنف فقد أعطى سنجاريب الإذن لجنوده بالنهب والسلب فقد نهبوا المعابد وحملوا معهم التماثيل الإلهية ودعروا البيوت والمعابد وأسوار المدينة، وحفروا الأتنية حولها بقصد تهديمها حتى الأساسات.

وبالنسبة لبقية حياة سنجاريب وهي مدة ثماني سنوات أخرى لم يكن هناك من ملك رسمي لبابل مع أنه وبحكم الواقع كان سنجاريب هو الملك وهكذا سجل في قائمة ملوك بابل.

إن نهب سنجاريب لبابل كان مفهوماً ولكن لم يكن فكرة حسنة ، إذ إن لدينا بعض الدلائل التي تشير إلى وجود فترات مناصرة لأشور وفترات مضادة لها في بابل ، في الوقت الذي كان لدى آشور جماعات يعترفون بالثقافة البابلية باحترام، فضلاً عن وجود من يرغب في رؤيتها مهدمة ومدمرة.

ولهذا ، فإن خطوة سنجاريب قد أدت إلى استقطاب تلك المشاعر داخل آشور ، وكان هناك عصابات حتى ضمن العائلة المالكة الآشورية.

(١) باينث Pinf مقياس للسوق يسوي ٩ على ٨ غارون، والغالون = ٤.٥ لتر (الترجم).

وقد مات سنحاريب في بابل عام (٦٨١) مقتولاً حسب أقوال التوراة على يد اثنين من أبنائه ، وأحدهما يدعى: أرا-موليس الذي يتحول اسمه في النص التوراتي إلى أدراملك.

الفصل الثامن

بداية الثورة ثم السقوط والافتقار

ورثة العرش الملكي

لم يكن الابن الذي ورث سنعاريب أحد قاتلي الوالد، بل كان هو أسرحئون (٦٨٠-٦٦٩) ق.م وإن الظروف التي أحاطت بارتقائه المرش تصور عدداً من مظاهر المجتمع الآشوري، فقد كان ابناً حُدد له سنعاريب وراثته وذلك كما أخبرنا في نقوشه، وليس من الحكمة أن يكون هذا ادعاءً كاذباً.

مادام أن وارث العرش يعيش في قصر منفصل خاص بحيث كانت النوايا المعروفة حول الوراثة معروفة للجميع.

وليكن معلوماً لدى القارئ أن وراثة العرش كانت بالتسمية، فالولد البكر ليس من الضروري أن يصبح ملكاً.

ولكن وحتى الملك الحاكم لم يملك الصلاحيات المطلقة حول قضية الوراثة ما دام أن قضية تسمية ولي العهد ينبغي أن تصادق عليها الآلهة (وهذا يعني في الواقع قرار الكهنة وقبولها).

وبعد أداء القسم من قبل المائتة الملكية وممثلي الشعب
وهنا يذكر لنا نقش أسرحئون شيئاً عن هذه الإجراءات المُتبعة:
"سر ولا تراجع.

فنحن سائرون إلى جانبك.

وسوف نذبح أعدائك."

وهذه رسالة لتعلمين جيش أسرحدون لشرعية قضيته:

ولكن مع أنني كنت الأخ الأصغر لأخوتي الكبار ومع ذلك ويأمر الإله آشور-وسن-وشمش-ويمل-ونابو-وعشتار أرييل، حين والدي الذي أنجبني قد رقاني ورفع قيمتي بين إخوتي قتلًا:

((هذا هو ابني الذي سيرثني)) وعندما طالب الحصول على رأي الإله شمس والإله أباد (وهما من آلهة الوحي) قال له: نعم وبهزم.

فائزين: ((إنه هو ورثك)).

ولقد أظهر والدي الاحترام اللائق لكلمتيهما المهيبتين.

ويمدها جمع شعب آشور صغيرهم وكبيرهم، وكذلك إخوتي ذرية بيت والدي وقد جعل الجميع يقسمون بكلام مهيب أن يحموا حقي في الوراثة، وذلك أمام الإله آشور وسن وشمش ونابو وهم آلهة آشور، والآلهة الذين يسكنون في السماء والأرض.

وفي شهر سعيد وفي يوم سعيد وطلباً لأوامرهم (أي أوامر الآلهة) دخلت القصر الذي يوحى بالرهبة حيث يوجد روح وعطر اللصكية.

ولكن لم تجر الأمور كما كان ينبغي منحاريب فقد اضطر أسرحدون أن يناضل لأجل وراثة المرش.

وعندما حدث اغتيال منحاريب كان قائد الجيش أسرحدون متمركزاً في مكان ما في القرب، وربما ظن البعض أن عملية الاغتيال قد تم توقيتها في غياب ولي العهد.

ولكن أسرحدون قد أبقى جيشه في تمام الحيطة والاستعداد لخوض المعركة فقد استطاع أن يتحرك باتجاه آشور بالسرعة الفائقة دون التوقف لإجراء الترتيبات والتفتيشات والتزود بالمواد، وكان تأخره الوحيد هو الطلب من الآلهة أن تمنحه وحياً.

وجاء هذا الوحي في وقته كما يلي:

”سر ولا تتراجع“

فتنحن نسيير إلى جانبك

وصوف نذبح أعدائك

وكانت هذه الرسالة لتجعل جيشه واثقاً بقضيته ولينذر الشكوك بين أفراد
عساكر مناهسيه.

ولقد واجهته عساكر قتلة الملك في منطقة الخابور الأعلى وقد حدثت
اشتباكات حادة.

كانت الروح المعنوية لدى قتلة الملك، وعساكرهم الذين تورطوا في حرب أهلية
ضد شخص يعلمون علم اليقين أنه ولي العهد الذي وافقت الآلهة على تنصيبه.

كانت أرواحهم المعنوية منخفضة وفي منتصف المعركة انتشرت صيحات
تقول: هذا هو ملكنا.

وهكذا انتقل عساكر قتلة الملك إلى أسرحدون وأظهر ممثلو الشعب الطاعة
فأصبح العرش عرشه بالتاكيد:

عطف المشينة الإلهية على بابل

كان أسرحدون ينتمي إلى الجماعة المتماطقة مع بابل في داخل آشور، وقد
كفّس جهود الناس بها وموارد مالية لإزالة الأضرار التي ألحقها والده ببابل، فقد
كانت هناك المشكلة الأساسية التي مفادها: إن الآلهة وضعت مدينة بابل تحت
اللعنة لمدة سبعين عاماً.

وكان من الواجب إزالة هذه اللعنة، وهذا النوع من الأوضاع هو تفسير لتغيير
الخطط الإلهية ووضع السكان في موقف ليتغنوا فيه دورهم الحقيقي.

فقد ضلّ السكان الموقف بقولهم:

ومع أنه في أوقات سابقة لقد حكموا باللعنة على بابل مدة سبعين عاماً، إلا
أن الإله الرحيم مردوخ وهو رئيس الآلهة في المدينة قد عدل من شدة هذا الحكم،
وذلك بنقل الحروف المسمارية لتصبح المدة ! عى عشرة سنة.

وهكذا ، فقد انتهى الحرمان بالنسبة إلى بابل في أول سنة من حكم
أسرحدون.

ولقد حدث أن أتلقت بابل قنوات المياه بحيث أصبحت مكاناً بكثرت فيه
القصب والأجمات ، ولهذا فقد عمد أسرحدون إلى تحويل المياه وقطع النباتات
البينة التي كانت تسيطر على المدينة ، وبعدها تقدم لإعادة بناء المدينة وأسوارها
ومعبد مردوخ العظيم وهو معبد الساجيلا.

ولقد وضع أسرحدون سلة فوق رأسه وكأنه أحد العمال ، ووضع قالباً من
النضار ، وقد أعاد السكان المواطنين الذين هربوا ، وأعاد لهم أراضيهم ، وأعاد
للمواطنين حقوقهم وامتيازاتهم وأعفاهم من الضرائب.

ولقد أعاد الملك عادة تقديم القرابين الدينية في معبد الساجيلا ، وأعاد
الاحترام لطبقات عديدة من خدمة المعبد مع حدوث نفس الإجراءات في المدن
الأخرى في بابل ، وأعيدت الامتيازات القديمة للمواطنين في تلك المدن ، لقد
ساعدت هذه السياسة الرامية إلى إعادة المظف على بابل.

خدمت هذه السياسة مصالح آشور ، ومع أن العكسانيين قد أظهروا بعض
الاضطرابات إلا أن أسرحدون وبعد أن قابل هذه الاضطرابات بحزم ، استطاع
استبعاد الزعماء المعادين ووضع آخرين من قبائلهم من الذين كانوا قادرين على
قبول التهمة لأشور.

سيطرة الميديين

لقد أولى أسرحدون اهتماماً متزايداً بالميديين ، وقد ساعد على دوام
استقرارهم ، وذلك بتقديم جماعات عسكرية لزعمائهم ضد أي حركات
تحررية.

وكان الميديون لا يزالون قبليين في أنظمتهم ، مع أنه كان لديهم بعض المدن ،
وكانوا منتشرين في إيران الشمالية ، وكانوا لذلك أهوية جداً ، وقد كانوا
يمثلون حلفاء مفيدتين بالنسبة لأسرحدون ضد عيلان ، وحصناً إضافياً على طول

الحدود ضد أورارتو، وضد شعوب جديدة، تعرف شعبين منهم باسم الميهيريين والاسكنديين (وكانوا متواجدين في شمال إيران فضلاً عن الأناضول) وكانوا مندفعين جنوباً خارج أروميا.

وقد انعكس اعتراف أسرجدون بالميديين وتعاظم أهميتهم السياسية في المعاهدات التي عقدت مع الأمراء الميديين الموالين لآشور، واحتوت هذه المعاهدات على تمهد هؤلاء الأمراء بدعم ترتيبات الملك بالنسبة لورثة العرش بعد موته.

وباختصار، كانت ترتيباته تقضي أنه نصب ولدين من أولاده خلفاء له على العرش وبمباركة الآلهة أي: عرش آشور، وعرش بابل وأعلن ذلك رسمياً خلال اجتماع حدث في نينوى عام (٦٧٢ ق. م).

وأعلن أن أحد ولديه وهو آشور بانيبال أصبح ولي العهد في آشور، والثاني شماش-شم- أوكين أعلن ولياً للعهد في بابل، وقد ألزم الولاة المحليين والأمراء القاطنين تحت أداء القسم أن يدعموا هذا الاتفاق الذي كانت شروطه كما يلي:

(عند موت أسرجدون ملك آشور فمسوف تصحبون ولي العهد آشور بانيبال ملكاً، ولسوف يمارس الملك المباداة عليكم وسوف تقومون بحمايته في الريف وفي المدن، ولسوف تحاربون حتى الموت من أجل حمايته، وإذا حدث ومات أسرجدون في حالة يكون ابنائه صغاراً فمسوف تساعدون آشور بانيبال على استلام ولاية العهد وعلى استلام مهام عمله كملك آشور، ولسوف تساعدون شماش-شم- أوكين أخاه النّد له وهو ولي عهد بابل إن أصبح ملكاً لبابل).

ومن الواضح أن أسرجدون كان يأمل أن يتجنب تكرار حدوث الحرب الأهلية التي هددت اعتلاجه على العرش، ولكننا سوف نرى أن خطته قد فشلت على المدى البعيد.

السلام الآشوري في الغرب

في الشمال الغربي كانت آشور تدفع أماكن سيطرتها بالتدريج إلى ما وراء سورية وكيليكيا إلى داخل آسيا الصغرى، ولطحن هذا التقدم واجه تحدياً أتى من قبل السيمريين والأمسكنيين (وهم الجومر والأشكينا في التوراة).

ولم تكن كيليكيا راضية عن هذه الأحوال، فقامت صيدا وهي إحدى المدن الفينيقية المرتبطة مع كيليكيا بمصالح بحرية مشتركة، والتي أسابت فهم القوة الآشورية بالتمرد على آشور.

ولقد نهبت صيدا وأصبحت أراضيها عبارة عن ولاية آشورية.

ولكن، كانت آشور لا تزال تفضل الحكم غير المباشر، إذا كان ذلك ممكناً، لأن ملك منطقة صور المجاورة قد بقي موالياً وخاضعاً لآشور، ولذلك فقد أدرك له الحكم وبعض المستوطنات البعيدة التي كانت تابعة لصيدا أو أضيفت هذه لمملكته.

وفضلاً عن صيدا فلم تظهر سورية أو فلسطين أي مقاومة أو اضطرابات لآشور.

وقد استطاع أمسردون أن يكلف مجموعة من الملوك الخاضعين له لتقديم مواد لازمة لإعادة بناء قصره.

وتشمل قوائم أسماء الملوك هذه ملوك حور ويهوذا أو حيدوم ومواب وغزة وعسقلان وإيكرن وبيلوس وعمون وأشدود، فضلاً عن أراضي منطقة تدعى (يدنانا) في منتصف البحر والتي ربما كانت قبرص التي أصبحت الآن جزءاً من الإمبراطورية الآشورية.

وسكان اسم ملك يهوذا (مناساً) وقد ذكر في التوراة أن مناساً قد أخذ إلى بابل على يد قواد جيش آشور، ولكن أطلق سراحه فيما بعد، ولم يؤلف كتاب أيام الأخبار المذكور في التوراة إلا بعد أن أصبحت بابل عاصمة إمبراطورية بدلاً عن نينوى، وذلك ربما حضر ذكر بابل بدلاً من نينوى.

ومن الممكن أن تكون هذه القصة أساساً لنذكر زيارة مناسا لأشور إطاعة لأمر أسرحدون وطلباً منه لإتمام عمليات بناء قصره.

والى الشرق والجنوب من الدول الواقعة في شرق الأردن (وهي عمون وموآب وصيدا ورفح) التي كانت خاضعة خضوعاً تاماً لمسيطرة الآشوريين تقع الصحراء بما فيها القبائل العربية، وكان لهذه القبائل أهميتها بالنسبة لأشور، وذلك لسببين وبصورة خاصة فقد كان العرب معيطرين على تجارة البخور والتوابل الآتية من جنوب بلاد العرب.

وكان العرب هم وحدهم القادرين على التفاوض مع قبائل صحراء سيناء فيما بين جنوب فلسطين ومصر، وكانت آشور على اتصال مع عرب الصحراء منذ حكم تغلات - بلاسر الثالث، وكانت توسع نفوذها بالتدريج إلى داخل الصحراء. وقد تابع أسرحدون هذه السياسة، بل زاد من سيطرة آشور عن طريق التدخل فيما بين الأخصام المتنافسين للحصول على السيادة القبلية وذلك لدعم المشرع الراغب في قبول السيادة الآشورية.

غزو مصر

ويعد أن أصبحت فلسطين تحت السيطرة الآشورية، ويعد أن أصبح عرب الصحراء تحت قيادة زعماء موالين لأشور، قام أسرحدون بتنفيذ توسيع كبير للإمبراطورية، فلقد كانت هناك علاقات تجارية بين آشور ومصر منذ عهد قديم، ومنذ حكم (تغلات بلاسر الثالث) عندما وطدت سيطرتها على السواحل الفلسطينية حتى غزة، ولقد كان هناك خطوط حدودية مع مصر مع أنها تمر ضمن حاجز عريض وهو الصحراء.

وكان أحد العوامل في هذا الصدد ربما ظهور أسرة عدوانية جديدة في مصر من أصول مصرية جنوبية، كانت هذه الأسرة تحاول زيادة نفوذها بين المدن الساحلية في فلسطين وقد تجسدت هذه السهاسة بحدوث تمرد في صور التي

كانت مواتية وثابتة أمينة (أسرحدون) لقد بدأ الهجوم على مصر عام (٦٧٥ ق م) ولقد صادف هذا الهجوم عدة صعوبات ونكسات.

وهناك نقش يروي حادثة الهجوم النهائي الناجح عام (٦٧١ ق م) ولكنه يقدم فكرة عن المشكلات، ويقول الملك: إنه قد وصل إلى راييحو وهي على جانب وادي مصر (العريش الآن) حيث لا يوجد أي نهر ولذلك فقد اضطر أن يحصل على الماء لمساعده من بئر بواسطة الجبال والسلاسل.

وقد استخدم الجمال في مواصلاته والتي قدمها له حلفاءه من ملوك العرب، ووجد أن المسيرة صعبة لاسيما وأنها كانت واقعة خلال الكتبان الرملية مدة خمسة عشر يوماً، ومنطقة تحتوي على أفاع ذات رؤوس مزدوجة وهي مميتة، وقد استغرق معهم المسير شهراً كاملاً لقطع تلك المسافة فيما لو كانت الأرقام دقيقة. وعلق الملك بقوله: إن الإله مردوخ قد خفّ لمساعدته وحفظ حياة جنوده وهذه دلالة على مروره بأيام صعبة عندما بدأ يفكر أن جيشه لا يستطيع التقدم.

وعندما وصل إلى أرض مصر هزم جيش فرعون (تارفا) وبعدها حاصر واستولى على (ممفيس) العاصمة التي تبعد حوالي عشرين ميلاً جنوب القاهرة (اليوم) وبعد هذا النجاح تقدم أمراء مصر السفلى للاعتراف بسيادة (أسرحدون) الذي عين موظفين آشوريين في الإمارات المحلية، وأعلن (أسرحدون) نفسه ملكاً على مصر السفلى والمليا والحبشة، ولكن هذا كان إدعاءً فارغاً، إذ ما كان الجيش الآشوري يفسد أرض مصر حتى تقدم الفرعون (تارفا) وأعاد احتلال (ممفيس).

هذا وقد عاد (أسرحدون) في عام (٦٦٩ ق م) بحملة جديدة على مصر ولكنه مات وهو في الطريق إليها.

آشور بانيال

لقد نجحت خطة (أسرحدون) بالنسبة لوراثة المرش بحيث بقي آشور بانيال في نينوى (وشماش - شم - أوكين) في بابل، ولم يكن مكان إكمال الملكتين مشكلتهما، وقد تضاعفت الثورات الناتجة فعملت على جر آشور إلى حرب أهلية.

إن معرفتنا عن حكم آشور بانيال منقطعة، فمع أنه قد ترك نقوشاً كثيرة، إلا أن الطريقة التي رُتب بها كتابه هذه النقوش بحيث كان يحدد الحملات في منطقة معينة مع أنها كانت قد حدثت في أوقات مختلفة، كل هذا ترك الفوضى في تسلسل الحوادث، وهناك بعض الباحثين الذين يعيدون ترتيب هذه الحوادث بطرق مختلفة وبالتفصيل.

كانت مشكلة أسرحدون المأجلة هي عدم إكمالها لفتح مصر، ففي عام (٦٦٧ ق.م) استطاع إرسال جيش آشوري قوي إلى هناك واحتلت ممفيس مرة ثانية، ولقد عمد بعض الأمراء الشماليين بقيادة (نخو) أمير (سايس) على سحب اعترافهم وولائهم لآشور والانضمام إلى (تارفا) ولكن استطاع الجيش الآشوري أن يقتل قائد الفتنة.

ولكن في بلاد كمصر كان الأمراء المصريون ضروريين للقيام بالإدارة الصعبة للبلاد، ولذلك فقد عمل (نخو) بشكل رحيم، فأخذوه إلى نينوى وأثقلوه بالهدايا والرعاية وبمدها - بعد أن أقسم يمين الولاء لآشور سمح له بالعودة إلى مصر، وقد أمر الإداريون الآشوريون في مصر أن يقدموا (لنخو) الدعم العسكري الضروري، وعين ولده الذي كان يحمل اسماً آشورياً في مركز إداري رفيع المقام.

استمرت المبالاة المصرية الجنوبية في محاولاتها للحكم في مصر العليا، فقام خليفة (تارفا) بحصار الحامية الآشورية في ممفيس عام (٦٦٤ ق.م) وقد جلب بعض سعاة البريد هذا الخبر إلى نينوى، حيث سارع أسرحدون إلى دخول مصر ثانية على رأس جيشه عام (٦٦٣ ق.م) فطرد المحاصرين من ممفيس ثم طاردوهم حتى

العاصمة القديمة الجنوبية طيبة التي استولى عليها الآشوريون ونهبوها ، وحملوا
مكنوزها وأهلها إلى آشور.

وتذكر التوراة قصة مدينة طيبة مع استخدام اسمها العبري (نوا-آمدن) في
سفر ناحوم (١٠-٨٢).

وهذا يدل على مدى اتساع آشور التي وصلت إلى النوبة في الجنوب الغربي،
وقد شهدت نفس تلك الفترة القصيرة توسع آشور في الشمال الغربي في آسيا
الصغرى، حيث حصلت غزوة سيمييرية وأجبرت بعض الحكام الوطنيين على
الالتجاء إلى حملة آشور، وكان من بين هؤلاء الحكام (جايجس) حاكم ليديا
في جنوب آسيا الصغرى والذي يخبرنا آشور بانيبال أن إله هذا الحاكم وجهه في
أحد أحلامه أن يطلب مساعدة عسكرية من آشور بانيبال ضد السيمييريين.

وتدل الحوادث أن طلبه قد بُني نظراً لأن (جايجس) تمكن من إلحاق هزيمة
في صفوف السيمييريين، وبعد ذلك أرسل بعض الفنائم التي احتوت على حاكمين
من الولاة إلى نينوى عام (٦٦٢) ق.م.

ولكنه كان شهر عسل قصير الأمد ، فقد واجهت آشور اضطرابات ضارية
في مصر، إذ إنه وقبل نصف قرن من الزمان عمد أحد القواد الآشوريين إلى تحنير
حكومة أورشليم بقوله:

((لا تثق بأي شخص مصري)).

إذ إن تعبيره كان أكثر دراماتيكية كقوله:

((الآن أنا أثبتت على عكاز من قصب مكسور -أي: على مصر- والتي إذا
توكأ رجل عليها فإنها سوف تدخل في كفة وتثبها ، وهكذا فرعون ملك مصر
بالنسبة إلى جميع من يثقون به)).

لكن الآشوريين أهملوا هذا الإنذار ، وبعد موت (نخو) الأمير الأعلى لمصر
الشمالية في عام (٦٦٢) ق.م فقد عينوا بدلاً عنه ابنه (بسامي نيكوس) الذي كان

المسؤول الآشوري الأعلى والذي كان شديد الولاء للآشوريين حتى كان يحمل اسماً آشورياً.

ولكن في بداية عام (٦٥٠ ق.م) بدأ (بسامي تيكوس) في تأكيد استقلاله المحلي، وذلك بطرد الحامية الآشورية التي تركت في مدن مصر، وكان لهذا العمل أصداء كثيرة، إذ يخبرنا (هيرودوتس) وهو المؤرخ اليوناني في القرن الخامس ق.م والذي ولد في غرب آسيا الصغرى:

إنه وفي زمن (بسامي تيكوس) كان القراصنة من آسيا الصغرى واليونان يثزلون إلى مصر، ولكن (بسامي تيكوس) هذا قد استطاع أن يستميلهم لخدمته، وإن هؤلاء القراصنة المزعومين ربما كانوا اتباع (جايجمس) حاكم ليديا، ولقد كان لمصر وأسية الصغرى الجنوبية مصالح تجارية مشتركة.

وأخيراً أصبح كل من (بسامي تيكوس) و(جايجمس) اتباعاً مخلصين لآشور، ولكن حالما سارع (بسامي تيكوس) بتخليص مصر من النفوذ الآشوري، فقد كان (جايجمس) مجبراً أن يختار ما بين مصر وآشور، فقد اختار أن يساعد مصر. ولذلك فقد لغته (آشور بانيبال) بصفته ناكراً للجميل، وأعلن أن دعم آشور له لن يستمر. وبذلك فقد أفسح المجال أمام السيميريين للقيام بهجوم جديد نحو عام (٦٥٢) ق.م عندما حصلت غزوة ضد مملكة جايجمس مما سبب هزيمة مملكة جايجمس وقتل ملكها.

وفي عام (٦٥١) ق.م استطاع (بسامي تيكوس) إجلاء الآشوريين من مصر، وهكذا وبنشوء الاضطرابات في أممكة أخرى لم تعد آشور قادرة على إبقاء الإمدادات الضرورية لجيشها للبقاء في مصر مع وجود خط طويل صعب من المواصلات إلى هناك.

إعادة عيلام

كانت المشكلات الرئيسية في الشرق حيث كان المركز الرئيسي للاضطرابات هو عيلام.

وهي المملكة التي عُمِّرت نحو ألف سنة في جنوب غرب إيران، في هذه المنطقة كان هناك في هذه الفترة عاملان هامين سببا الاضطرابات وعدم الاستقرار: أولهما: وجود عدد من أفراد العائلة الملكية الطامعين المتنافسين على السلطة.

والثاني: تعرض الملوك العيلاميين إلى الموت المفاجئ (وهذا يدل على وجود مرض وراثي في الأسرة الحاكمة، وربما لأن ملوك عيلام كانوا يتزوجون من أخواتهم) والحقيقة إن عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي يؤدي العلاقات التجارية، ومن الممكن أن ينتشر عبر الحدود.

ففي بداية حكم (أشور بانيبال) عمل الملك على نشر الاستقرار في عيلام، فقد ذكرت الإجراءات التي اتخذها لمساعدة ملك عيلام في أيام الشدة ويقول:

"عندما حَدَّثْتُ المجاعة في عيلام وازداد القصف وقلَّ الطعام أَصْرَتْ بارسال الذرة إليه للإبقاء على حياة شعبه، وقد أمسكت بيده (لدعمه) وقد أعدت له جميع الأشخاص الذين هربوا من بلادهم أثناء المجاعة والتجؤوا إلى آشور مدة حتى هطلت الأمطار في بلادهم، ونتج عن ذلك زيادة المحاصيل الزراعية، وهؤلاء الأشخاص الذين التجؤوا إلى آشور قد أعدتهم إليه."

ومع ذلك وعلى الرغم من مساعدات آشور بانيبال الكريمة عمد ملك عيلام (أورتاكس) إلى التجلوب مع بعض مبادرات الزعماء القبلية في بلاد بابل واستفاد من انشغال آشور في الحرب مع مصر فشنَّ هجوماً على بابل عام (٦٦٥ ق.م).

ولذلك فقد اضطر آشور بانيبال أن يرسل جيشاً إلى الجنوب ليصد (أورتاكس).

وهنا مما ساهم في إساءة العلاقات ما بين آشور بانيبال وأخيه، إذ اتضح للأخ (شاماش - شم - أوكين) أنه على الرغم من توليه مملكة بابل فقد كانت أمور الدفاع عن تلك البلاد منوطة (بآشور بانيبال).

وأما (أورتاكس) فقد كان شأنه شأن الملوك الميلايين الآخرين، فقد مات ميتة فجائية غير منتظرة، ولهذا فقد استولى على العرش أحد أبناء عمه الملكيين وهو: (تيومان) الذي عمل على تأمين مركزه وذلك بمحاولة قتل ابني الملكين السابقين، وقد عمد هؤلاء الأمراء الخمسة والثلاثون الآخرون من أفراد العائلة المالكة بصحبة بعض النبلاء إلى الفرار طلباً لحماية آشور بانيبال، الذي وفر لهم الحماية والملاجئ وذلك على الرغم من طلب (تيومان) القضاء عليهم.

وهنا نرى دلالات لطيفة متزايدة لأهمية البروتوكولات، إذ إن آشور بانيبال شعر بضرورة صياغة سبب لرفض طلب (تيومان) بالقضاء على أولئك الأمراء.

والآن نستطعم بمشكلة إعادة الترتيب التاريخي لنقوش آشور بانيبال التي لم تكن مرتبة ترتيباً تاريخياً كما لاحظنا، والتي توحي أن الحملة التي قُتل فيها (تيومان) حدثت بعد الفترة التي كان ينبغي فيها القضاء على منافسيه على عرش ميلايم.

ولكن السجلات الميلامية تدل على أن حكم (تيومان) قد دام حوالي عقد من الزمن مع سعيه للتوسع الدائم في إيران.

والحقيقة، إن السجلات الميلامية هي أكثر مصداقية وذلك يظهر من الشهور بالمرارة التي تسيطر على (آشور بانيبال) عندما يتكلم عن (تيومان) وهو الملك الميلامي الذي كان آشور بانيبال يكرهه كراهية مطلقة.

إن رد الفعل الذي أظهره آشور بانيبال ينبغي أن يكون قد حدث خلال فترة زمنية لا بأس بها، وليست عبارة عن أشهر قليلة من الاحتكاك مع (تيومان).

وأخيراً وفي أواخر صيف عام (٦٥٢ ق.م) تلقى آشور بانيبال، وكان مقيماً في أربيل، أخبار تبثت جيش (تيومان) ضد.

وهكذا عمد آشور بانيبال إلى الاستغاثة بالإلهة عشتار في أربيل وهي آلهة الحرب، وقد تقدمت جيوشه إلى داخل عيلام عن طريق يمتد خلال الدير، بينما تقهر (تيومآن) والتجأ إلى عاصمته (سوزا) ثم حاول الحرب ولكنه كان سيئ الحظ، وهنا ينسحر آشور بانيبال ما حدث:

لقد هرب (تيومآن) ملك عيلام حفاظاً على حياته واختبأ في إحدى الغابات، ولقد انكمسر عمود العربية -عريته الملكية- وانقلبت العربية عليه، وقد قال (تيومآن) لولده وهو في غاية اليأس:

((ارفع القوس)) سيُظن أنه يعني أحد أجزاء العربية المكسورة التي كان الملك محبوساً تحتها.

وقد حاول ابن (تيومآن) مساعدته ولكنه أمسك به وضربت عنقه. وقد أخذ رأس (تيومآن) إلى آشور بانيبال الذي نفث كراهيته بضرب الوجه الميت والبصق عليه.

ثم إنه احتفل بنصره بإقامة وجبة احتفالية رائعة مع زوجته، وهذه التوجة تظهر في اللوحة الفافرة حيث يظهر وجه (تيومآن) متدلياً من شجرة.

لقد بقيت عدة زُسر وعصابات قلبية مناوئة في بابل، وخلال طيلة هذه المدة كانت هناك دسائس دائمة بين هؤلاء الناس والعيلاميين والتي كانت تسبب عدم الاستقرار والرفض للإدارة الآشورية في بابل تحت إمرة (شاماس- شم- اوكين).

وإن وجود المساهم التي كانت تحت قيادة آشور بانيبال والمخصصة للعمل في بابل كانت سبباً في تعمير العلاقات الودية بين الأخوين.

ومع ذلك فقد بقيت العلاقات الودية بين الأخوين مستمرة حتى عام (٦٥٤ ق.م) وذلك لأنه طبقاً لأحد التواريخ عام (٦٥٥ ق.م) يقال: إن فرائش بعل قد عاد من آشور إلى بابل.

وأيضاً في السنة التالية أعيدت عربة بعل وجميع الأشياء اللازمة وقمم من الفنائم المأخوذة قبل خمسة وثلاثين عاماً عندما نهب سنجاريب بابل.

ولكن وتحت سلطة ملهين ضعيفين كالدعي كان آشور بانيبال قد نصبهما بالتوالي ملك ونائب الملك في عيلام، زانت المؤامرات والتسلل بين مختلف الفئات المتناحرة في عيلام وبابل.

وهكذا وفي عام (٦٥٢ ق.م) نشبت الحرب الأهلية، وعندما هاجم (شاماش، شم، أوكين) الذي كان يدعمه الجيش الميلاي الحامية الآشورية في (كوثاء).

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها (شاماش، شم، أوكين) لثيبر اضطرابات ضد آشور في بابل إلا أن بعض المواطنين في المدن الكبيرة قد استمروا في دعم آشور.

هذا وقد هزم الآشوريون جيش عيلام وأخرجوا القوى الكلدانية التي كانت موجودة في جنوب بابل والتي كانت تدعم (شاماش-شم- أوكين)، وبعد ذلك استسلموا زمام المبادرة وذلك بوضع (بورشييا) وبابل التي يحكمها (شاماش-شم- أوكين) تحت الحصار.

ولم يصل أي دعم (لشاماش-شم- أوكين) من عيلام حيث نشبت الحرب الأهلية بين مطالبين متنافسين على العرش.

وقد كان (شاماش-شم- أوكين) محصوراً في بابل ولكنه دافع عن تلك المدينة حتى أجبرته المجاعة على الاستسلام عام (٦٤٨ ق.م).

ولقد ساءت أحوال المدينة أخيراً بحيث إن المواطنين أكلوا لحوم أولادهم وبناتهم الموتى نظراً لشدة جوعهم.

ولقد مات (شاماش-شم- أوكين) بعد حدوث حريق في قصره، وربما مات منتعراً مع أن ذلك لم يثبت رسمياً.

وقد كان آشور بانيبال حريصاً أن تجري حفلة دفن مناسبة لأخيه وزوجته في قبر بعد أداء الطقوس المناسبة، ولكن وفي هذه الأثناء أممك بعدد من المتمردين الآخرين حيث قتلوا وقطعت أجسادهم لتكون طعاماً للكلاب والخنازير والنئاب، والطيور الجارحة وطيور السماء وأسماك البحر العميق.

وبعد أثناء حكم آشور بانيبال الطويل الأمد فقد حدثت اضطرابات قبلية من الجنوب في بابل التي كان يحكمها ملك ضعيف يدعى (كاندالاتو) ولم يكن هذا أكثر من واجهة تمثل الحكم المباشر لآشور هناك.

وأما في عيلام فقد أصاب تيومان بعض النجاح في إحلال الاستقرار، ولكن بعد تحديه الأخرق لآشور وموته بعد ذلك حصل نزاع أهلي بين مدعين متنافسين على السلطة وورثة العرش، الأمر الذي أنتج الفوضى في البلاد.

ولقد قام (آشور بانيبال) بمدة تدخلات بالنسبة لورثة العرش بين المدعين العيلاميين الذين كانوا يطلبون حمايته لصالحهم، ولقد كانت الأمور معقدة بسبب الفروق الاجتماعية ما بين آشور وعيلام.

فبينما كان الحال في آشور أن ينتقل الحكم الملكي من الأب إلى الابن، إلا أنه بالنسبة لعيلام كانت الوراثة تتم من حيث الأم بحيث كان أحوال الملك باستماعتهم المطالبة بوراثة العرش دون ابنائه.

وهكذا فإن أي وريث شرعي للعرش طبقاً للمبادئ العيلامية من الممكن عدّه مفقوداً للسلطة عند الآشوريين.

بهذا كان الرجل هو الورث الواضح والمنظور من وجهة نظر (آشور بانيبال) ربما كان له أحوال لهم الحق بالادعاء بالوراثة من وجهة النظر العيلامية.

هذا ولم تحدث أي حركات لإعاقبة الاستقرار الكامل حتى زمن آشور بانيبال، ولم يكن من المحتمل أن يحدث ذلك نظراً لأن مملكة عيلام الهرمة لم تكن تعاني من انقساماتها الداخلية فحسب، بل أيضاً من التوترات الناتجة عن اندفاع شعوب جديدة من الشمال كانت تحاول الاستيطان وهم الفرس.

وكان الوضع في عيلام يتمثل بتهديدات مستمرة لبابل، ولم تكن الفوضى في عيلام سبباً في تعطيل التجارة مع المناطق في الشرق فحسب، بل أيضاً عملت حالة الفوضى في عيلام لجعلها قاعدة مرموقة بعيدة عن السيطرة الآشورية للقبائل الكلدانية التي كانت تفيي الاستقلال في بابل.

لقد أجبرت هذه الحالة عيلام آشور باتييال على اتخاذ خطوة خطيرة تؤدي إلى تخريب البلاد بكاملها ، وهذا استغرق القيام بهملتين ، والمحتمل أن يكون تاريخ الأولى قبل منتصف عام (٦٤٠ ق.م) ، فقد زحف الجيش الآشوري خلال عيلام مخرباً مدنها الرئيسية واستولى على العاصمة ونهبها وهي (سوزا) ولم يظهر جنود آشور باتييال أي احترام للمعابد التي بُنيت ولا للآلهة أو أموات العبادة التي أخرجت من أمكنتها ونقلت إلى آشور ، وحتى الفيور الملكية قد بُنيت وذلك لكي يهاني الملوك العيلاميون الموتى بعد موتهم من الانتقام الآشوري الذي نجوا منه وهم أحياء . وقد كان آشور باتييال واضحاً وصريحاً بالنسبة لتواياه فقد قال : لقد هدمت وانتلفت قبور ملوكهم القدامى والحديثين الذين لم يحترموا إله آشور أو عشتار أسيادي ..

ولقد عرضتهم للشمس ونقلت عظامهم إلى آشور ولقد أوقعت القلق في أشباحهم وحرمتهم من تقديم المأكولات وجريان المياه من أمامهم .
ولقد أخذ عدد كبير من الموظفين الكبار وعائلاتهم أسرى إلى آشور وضمّت الوحدات العسكرية العيلامية إلى الجيش الآشوري
وتخبرنا التوراة أن بعض الأشخاص المبعدين من عيلام ومن (سوزا) نقلوا إلى شمال فلسطين .

ولهذا فإن دماء عيلامية تجري في عروق الشجرة وهم أهالي السامرة في شمال فلسطين .

ولقد أصبح كثير من المناطق ، بعد أن أخذ سكانها وحيواناتها كضائماً إلى آشور ، خراباً ياباً : لقد جعلت حقولهم خالية من أصوات البشر ومن خطوات الماشية والأغنام ، ومن الأصوات السعيدة في مساكن الحصابين ، وبدلاً منها جعلت حمراً الوحش والفزلان وجميع أنواع الحيوانات البرية .

ولكن ظهر أن (آشور باتييال) قد انحرف كثيراً عن المهاسة التي اتبعها في بداية حكمه وهي محاولته لتهدئة عيلام عن طريق المساعدات الاقتصادية ، فقد

كان تخريبه لعملام عملاً أسوأ من الأعمال الوحشية ، فقد كان من أسوأ التدابير في الحكم.

إذ لم تكن الحيوانات البرية التي نكسرها آشور بانيبال والتي أصبحت تترصد للدخول إلى تلك القفار التي تركها وراءه ، إلا أن القبائل الفارسية التي كانت تضغط للدخول إلى المناطق المحيطة بأراضي مملكة عملام المهيبة ، وكان من عوامل فخرها أن تكمل احتلال تلك المنطقة.

وفي ذلك الوقت كان الفرس لا يزالون أتباعاً للميديين وبناءً على الضغط الآشوري أصبحوا مملكة رئيسية في شمال إيران.

وبعد قرن من الزمان أصبحوا يحكمون ابتداءً من القاعدة التي نجحوا في اقتطاعها من حكم عملام حتى كامل المنطقة وأكثر من ذلك المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية الآشورية.

لقد أصبحت نقوش آشور بانيبال التاريخية قليلة وذلك بعد قيامه بحل المشكلة العملامية وإن ندرة النقوش الملكية ، عندما لا تكون بسبب خلل في الاكتشافات الأثرية (بل بالعكس حدث هناك حفريات واهرة في الأبنية المرافقة لعهد آشور بانيبال) إنما هو عادة يدل على اضطرابات في عهد الحاكم المذكور أيضاً.

ولدينا نقوشه في اللوحة النقشية البارزة التي تظهر أي نوع من الحكم كان هذا الرجل وأي نوع من الرجال كان.

إلا أنه وبالحكم عليه من هذه الأعمال من الممكن عدّه أنه قد أصبح طاغية لا يحركه إلا الظمأ إلى الانتقام الشخصي دون النظر إلى الاعتبارات السياسية الرصينة.

هذا وإن إحدى الحوادث الأخيرة التي سجلها كانت معاملته لملك عربي ، فقد كان العرب قد ساعدوا أخاه (شاماش-شم-اوكين) عند تمردّه في بابل ، وقد

نصب آشور بانينبال أحد الأمراء الذين بقوا على قيد الحياة من الذين أظهروا خضوعهم ملكاً على العرب.

وفي النهاية: انضم هذا الملك إلى الأنباط وهم العرب الذين كانوا يسيطرون على الطرق التجارية الواقعة غرب بلاد العرب، وكان انضمامه إليهم مضاداً لرغبات آشور بانينبال.

ولهذا فقد انطلق آشور بانينبال مخترباً الصحراء جاعلاً دمشق قاعدة له، وانقض على القبائل التي واجهها ونهبها ودمر آبارهم حتى اضطر العرب إلى خلع ملكهم، وأمسك به آشور بانينبال ونقله معه إلى نينوى حيث أذله بأن ربطه من عنقه إلى حجر الكلاب وجعله كلب حراسة عند بوابة المدينة.

لقد كان الملوك الآشوريون الأوائل قساة -نعم- وبلا رحمة، إذ عندما وجد أي عسيان كانوا يقيمونه. وحيث توجد معارضة كانوا يحبطونها، ولكن آشور بانينبال فقط وحده قد وضع التبرير لأعماله في نقوشه الظاهرة.

فهو من جلد وجوه أعداء مهتين، وهو الذي نبش قبور الذين لم يستطع معاقبتهم وهم أحياء.

وهو الذي أبى على حياة الملوك الأسرى لكي يذلهم وهم أحياء، وليس من حق المارخ أن يقوم باللوم، لكنه ينبغي أن يسجل الأحداث.

ولكن وجود الأذى كقوة دافعة وراء آشور بانينبال ما هو إلا أحد الحقائق التاريخية، وأن سلوكه كان نوعاً من السلوك الذي يعطي للحرب اسماً بشعاً.

لقد كان من عيوب آشور بانينبال أنه لم يكن رجلاً استراتيجياً عظيماً ولا سياسياً ولا جندياً، فقد كان فحياً خالياً من الاستبصار السياسي بقدر ما كان حقوداً في مجال النعمة.

ولسوء حظه أنه استدعي لاستلام مهام الملك في الوقت الذي كان لديه ميول للدراسة، ومع ذلك فتحن مديون له بشيء فقد حن الملوك الآشوريون الأوائل يجمعون بعض النصوص القديمة بقصد إنشاء مكتبة، ولكن بالنسبة لآشور

بانيبال قد أصبحت هذه الرغبة قرأماً وهو يعطينا الانطباع بأنه كان نوعاً من الرجال الذين يلذ لهم معالجة لوح طيني جيد.

وربما كانت دوافعه ما هي إلا تقدير أسطوري للحكمة القديمة أكثر من حبه للأدب إكراماً للأدب.

إذا إنه حينما كان يسمع بوجود نص قديم كان يطلب إرسال النصوص، أو يحصل على نسخ منها وذلك لأجل مكتبته في نينوى، وهذه النصوص التي بقيت مخبأة في الأرض حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي والتي بقيت منذ اكتشافها مخبأة في المتحف البريطاني، المصدر الرئيسي الوحيد لمعرفتنا الثقافية البابلية والآشورية القديمة.

لقد كان استعمال كلمة مدرسية (أكثر من كلمة (بحثية) متعمداً، إلا لم يكن هناك أي دليل أن (آشور بانيبال) كان مهتماً بالبحوث.

إذ إن ما كان مهتماً به بالنسبة للنصوص القديمة كان علاقة هذه النصوص باللاهوت والدين والأدعية والصلوات والطقوس ومعاني الضال الحسن، والتعاويد اللازمة لطراد الأرواح الشريرة وتجنّبها.

هذه هي الأمور التي كانت تشغل بال (آشور بانيبال) وكانت المؤسسة الدينية بما لها من المصالح في هذه المنطقة كانت تشجعه لأنه كان يعتمد دوماً على نوع الوحي الذي يريده في أي من المواقف الحرجة، وذلك حسبما كان كثير من نقوشه تروي بالتفصيل.

إن جميع ما علينا الإشارة إليه بالنسبة لما كان يحدث في العقد الأخير من حكمه ما هي إلا بعض الوثائق الاقتصادية التي ليس فيها معلومات كثيرة، فهناك بالحقيقة بعض المعلومات الدينية المتعلقة بآشور بانيبال، وما يذكره عن كونه معاملاً بالمناعب والتي يمكن أن نفهمها فإنها تمكس تدهوراً في شؤون آشور بانيبال الشخصية.

ولكن ليس من الضروري أن تكون تلك التنبؤات دليلاً على نهائية حكمه ،
لكنها تُعد مؤلفات رسمية تدعو إلى نوع من الأدب يدعى (أنشيد التوبة) أكثر
منها تعابير عن تنبؤ آشور بانيبال شخصياً بمصيره التالي ، إذ لم يكن آشور
بانيبال رجل سياسة عظيم ، وليس من المحتمل أن يكون قد تنبأ بالجلطة والزوال
الذي سوف يصيب إمبراطوريته بعد حين.

سقوط الإمبراطورية الآشورية

خلال أربعين عاماً من الفطائع التي قام بها جيش آشور بانيبال في عيلام انتهت
الإمبراطورية الآشورية.

والحقيقة أنه ليس هناك حقائق ملموسة وتتابع مفصل للحوادث التي أنتجت
هذا الحدث ، وكل ما لدينا ما هو إلا بضعة مؤشرات مبشرة ، مثلاً ذكريات
سيدة عجوز ، أو أسماء الملوك أو تاريخ بعض الوثائق الاقتصادية أو بعض نصوص
متأثرة لنح ملكية الأراضي ، وبعض التلميحات لبعض التواريخ ، أو بضع قطع من
الفضار منقوشة ، أو قطع من النقوش وبعض الأبنية أو بعض النقائيد المعفوظة
ضمن السجلات اليونانية بعد بضعة قرون.

وهو أن السيدة العجوز المشار إليها هي والدة نابونيداس وهو أحد ملوك الأسرة
البابلية (الكلدانبة الجديدة) التي حكمت منطقة ما بين النهرين والغرب بعد
سقوط آشور ، إذ هناك نصب تذكاري نصب عند موتها يجعلها تقول على لسانها:
إنها قد عاشت ابتداءً من السنة العشرين لحكم آشور بانيبال ملك آشور (كان
تاريخ مولدها عام ٦٤٩ ق.م) حتى السنة الثانية والأربعين من حكم آشور بانيبال ،
والسنة الثالثة والأربعين لحكم آشور-ايتلو-أيلي ابنه ، والسنة الحادية والعشرين
لحكم نابوبلاسر ، والسنة الثالثة والأربعين لحكم نبوشاويرير ، والسنة الثانية
لحكم أميل-مردوف ، والسنة الرابعة لحكم هيري جلنيسار طوال خمسة وتسعين
عاماً.

وحتى استلم ابنها العرش عام (٥٥٥) ق.م إن هذا يثبت تاريخ وفاة آشور بانيبال
عام (٦٢٧) ق.م وهو واحدة من الحقائق الأكيدة للتاريخ النهائي للإمبراطورية
الآشورية، والحقائق الأخرى المتعلقة بهذه الفترة من الممكن إيجازها بما يلي:

١- بعد وفاة شماس - شم - أوكين أصبحت بابل تحت حكم رئيس صوري
يعرف باسم كاند لاتو.

٢- لقد خلف آشور بانيبال ابنه آشور - ايتللي - ايلي الذي بدأ حكمه قبل
عدة سنوات من وفاة آشور بانيبال

٣- لقد حدثت اضطرابات واسعة خلال الإمبراطورية، ففي فلسطين كانت
هناك الأنشطة الإصلاحية التي قام بها الملك يوشع ملك يهوذا عام (٦٢٩) ق.م
وكانت تشمل بند رموز العبادة المرافقة للآشوريين وربما امتلعت عناصر من
الشمور المناهض لآشور، بينما كان هجومه على الأراضي المجاورة دون التدخل
الآشوري تعكس وجود الصعوبات التي واجهت آشور بالنسبة للنظام وذلك الوقت
الذي يعود تاريخه ربما إلى عام (٦٢١ ق.م) وما كان يعرف عن حركات الشعوب
القبلية الشمالية والتي كانت تهديداً لفلسطين، وقد حدثت تمردات أخرى بما
فيها تمرد قائد عسكري يدعى سن - شم - ليشير الذي كان يعمل على اعتلاء
العرش.

٤- تم قبول ولد آخر من أبناء آشور بانيبال وهو شن - شا - ايشكون ملكاً
لآشور خلال معظم الفترة التي تلت وفاة والده حتى عام (٦١٢ ق.م).

٥- أعلن أحد الأمراء الكلدانيين وهو نابويلاستر ملكاً على بابل عام (٦٢٦)
ق.م ولكنه لم ينجح بشكل كامل وبسرعة للسيطرة على كل بابل.

٦- لقد سقطت نينوى عام (٦١٢ ق.م) تزودنا هذه المعلومات بمادة تاريخية تشبه
أحجية الصور المجزأة والتي -ونظراً لكثرة عدد القطع المفقودة- يمكن جمعها
مما بطرق مختلفة، وإن إعادة ترتيب المحاولات لتتاسب المعطيات الأكيدة، دون
القيام بافتراضات، ليس لدينا براهين إيجابية لها.

ولقد حدثت اضطرابات (كما حدث في يهوذا) في أواخر نهاية حياة آشور بانيبال، ولقد باشر آشور - ايتلو- ايلي الحكم إما كفي يريخ والده الممن والمتهك القوى أو نظراً لطموحه الشخصي، وذلك حوالي عام (٦٢٠ ق.م).

وعند وفاة آشور بانيبال عام (٦٢٧ ق.م) اندلعت التمردات الحقيقية، فقد كان هناك نزاع للحصول على السلطة المركزية أولاً: في بابل أزيح بنتيجته (كاند لانو) ملك بابل عن العرش (إذ كان الأنا ٩٩ الثانية لآشور بانيبال) وقد كان آشور -ايتلو- ايلي يحاول الاستيلاء على بابل من خلال مساعدة أحد القواد المواليين له. وبعد ذلك عين سن شم ليشير ملكاً موالياً.

وفي نفس العام (٦٢٧) ق.م حصل ابن آخر من أبناء آشور بانيبال وهو سن - شار - ايشكين، ومن الممكن أن يكون توأم آشور -ايتلو- ايلي ، قد حصل على دعم إحدى الحاميات الآشورية في بابل ، وقام بانقلاب نجح مؤقتاً، إذ استولى بعده على بابل وادعى حقه بالملك.

ولذلك فقد تحرك أحد الأمراء الكلدانيين وهو نابو بولاسر خليفة بيزوداك - بالادان في طموحه أو ربما بنسبته (مع أنه ليس لدينا إثبات على ذلك) وكان هذا قد أعلن نفسه ملكاً على أراضي المستعمرات الجنوبية التابعة للقبائل، وتحرك شمالاً لطرده سن -شار- ايشكين ولكي يؤكد ادعاءه بحقه في ملك بابل، ولكن كان لا يزال هناك قوى آشورية منتشرة في بابل، واستمر سن -شار- ايشكين بالسيطرة على بعض المدن البابلية ولاسيما (نيبور) وإيديمن حتى (٦٢٠ ق.م) وحتى بعد ذلك.

ليس لدينا أي معرفة لما كان يجري لآشور -ايتلو- ايلي أو حتى عن موته، ولكن نعلم أنه لم تكن له أي سيطرة فعلية على بابل حتى عام (٦٢٧) ق.م ومن الواضح أنه وفي عام (٦٢٢) ق.م وبالتأكيد ومن الممكن أن يكون ذلك في أوائل (٦٢٦) ق.م فقد أعلن سن -شار- ايشكين نفسه ملكاً على آشور بدلاً من أخيه، وفي أثناء ذلك عهد نابوبولاسر رغم الانتكاسات - إلى مد سلطته على جميع بابل، وكان أيضاً قد اتخذ الإجراءات لاكتساب بعض الحلفاء في الخلق، وبعد

احتلاله عرش بابل، أعاد إلى (مووشه) الآلهة الفيلامية التي نهبها الآشوريون سابقاً، وكانت هذه وسيلة لشراء النية الحسنة.

وفي عام (٦١٦) قم أصبح نابو بولاسر في وضع ساعده على اتخاذ موقف الهجوم ضد آشور، مع أن تحركاته ومبادراته لم تكن أكثر من بعض المحاولات لتعديل الحدود التي كانت مجال خلاف بين بابل وآشور وذلك لمصلحة بابل، وتذكر بعض المصادر أنه قد حدثت بعض الصدامات التي تدل أن آشور كانت تحصل على دعم كل من مصر والمانيين في شمال غرب إيران.

وفي السنة التالية تحرك نابو بولاسر شمالاً نحو نهر دجلة ووصل العاصمة القديمة آشور، ولكن تقدمه كان قبل الأوان وقد أجبر على الانسحاب إلى تكريب، حيث وضع هو نفسه تحت الحصار، وهكذا برهن الآشوريون أنهم لا يزالون قادرين على اتخاذ موقف الهجوم، ولكنهم أجبروا على التراجع الذي يظن أنه كان نتيجة لسماعهم خبر هجوم سريع من قبل الميديين، والذي حدث فيما بعد في نفس السنة في جنوب شرق آشور، ومن هناك وفي عام (٦١٢) قم تحرك الميديون ووصلوا إلى قلب آشور واحتلوا كلا تاربي (وهي شريف خان الحديثة) وهي قلعة على بعد نحو خمسة أميال إلى شمال شرقي نينوى التي سيطرت على مواصلات العاصمة مع الشمال والغرب.

وكذلك كان الحال مع العاصمة القديمة آشور وتذكر إحدى التواريخ أن جيش نابو بولاسر وصل بعد سقوط آشور، ولكنه لم يشترك في هذا السقوط. ومن الممكن أن يكون ذلك صحيحاً، ولكن من المحتمل أن يكون هذا قد ذكر لتبرئة نابو بولاسر من اللوم والاستهجان الديني لتهب تلك المدينة التي كانت مركزاً دينياً محترماً.

ولقد عقد نابو بولاسر والميديون الذين كانوا يعملون بشكل مستقل معاهدة تحالف رسمية عند اجتماعهم في آشور.

وكانت آشور لا تزال تملك بعض الحلفاء، وفي عام (٦١٣) قم قامت الشعوب القبلية الساكنة على طول الفرات الذين طالما قاموا باضطرابات في الماضي ضد

آشور ، نرى الآن تلك الشعوب تتمرد ضد نابويلاسر ، ولقد كان هذا التصرد القبلي طبقاً للتحالف مع آشور ، وذلك لأنه وبينما كان نابويلاسر يحاصر إحدى المدن المتمردة وصل جيش آشوري وأجبره على رفع الحصار والانسحاب إلى بابل.

وهنا تبرز أمامنا بعض المشكلات: إذ كيف استطاع الآشوريون جمع جيش على الفرات ذي قوة كافية لإجبار نابويلاسر على التهاجر عندما كان الآشوريون في السنة السابقة في ضيق عظيم بحيث استطاع الميديون الاستيلاء على مدن في طريق الدولة.

فربما كان هناك شيء يعمل على كبح جماح الميديين (وهذا افتراض تخميني دون وجود أي شهادة تثبته) أو أن الميديين كانوا مجبرين على الانسحاب لمواجهة تهديد آخر ، ومن المحتمل أن يكون هذا التهديد أتياً من (الأسكنديين) الذين أتوا من الأناضول ومن شمال غربي إيران خلف الميميريين ، وكانت لهم علاقات ودية مع الآشوريين منذ عهد اسرحدون ، وهناك روايات تفيد أن الميديين قد تفرقوا تحت ضغط الأسكنديين بشكل كبير ، وربما كان هذا التهديد سبباً في الانسحاب المؤقت للميديين من آشور عام (٦١٢ ق م).

ولا نذكر السجلات البابلية في تلك الفترة شيئاً عن الأسكنديين ولكنها تذكر شعباً يدعى (الأومان ماندا).

ربما كان هذا الاسم يدل على بعض التجمعات القبلية التي كان الأسكنديون جزءاً منها وتسمكن في الشمال.

وتذكر الروايات اليونانية أن الأسكنديين قد تحالفوا مع الميديين ، ومن الممكن أن يكون نابويلاسر عضواً في هذا التحالف نظراً لأنه وفي عام (٦١٢) التقى (بالأمان ماندا) والميديين وشاركهم في حصار نينوى. ولقد سقطت المدينة خلال ثلاثة أشهر. وهذا أمر مستغرب ، إذ إن هذه الفترة قصيرة ، نظراً لأن مدينة بابل قاومت الجيش الآشوري الماهر في فنون الحصار لمدة تزيد عن سنة ، وتتفق الروايات اليونانية مع التوراة في وصف حالة السرور والغبطة عندما سقطت نينوى مع ما كان فيها من وسائل الدفاع الضخمة.

ولكن هذا السقوط أصبح حتمياً بعد حدوث الطوفان، ولم يكن هذا الطوفان ناتجاً عن نهر دجلة بل عن رافد له يدعى (خوسر) فقد كان طوفان خوسر الذي كان يجري في وسط المدينة سبباً في إتلاف قسم كبير من مساكنها الدفاعية، مما ساعد دخول الحاصرين وقد نهبت المدينة وسلبت ومات سن-شار-أيسكين أثناء ذلك الدمار.

لم يفته أمر الآشوريين بعد، فقد هرب الناجون من الموت إلى حرّان حيث أعلن آشور-أباليت ملكاً، وكان هذا من العائلة المالكة.

وفي أثناء ذلك كان الميديون والأومان مانديون قد انصبخوا، ولقد سارع نابوولاسر الذي أصبح يتنافس مع حلفائه السابقين لنيل وراثة الإمبراطورية الآشورية المتداعية، سارع إلى تقوية مركزه في آشور فاحتل المنطقة الغربية حتى نقيتين، وفضى على جيوش المقاومة داخل آشور نقيتها.

وهذا وقر مدة سنتين لآشور أباليت لكي يعمد تنظيم قواته في حرّان التي طلب وهو فيها المساعدة من مصر.

ففي عام (٦١٠) قم عاد شعب (الأومان ماندا) إلى منطقة ما بين النهرين، وذلك لضمان المصالح البابلية هناك، عندها انسحب أباليت لميلقي بالحلفاء المصريين القادمين.

وبعد محاولة لاستعادة حرّان أقامت قوى التحالف الآشوري المصري قاعدة لها في كركميش.

وفي هذه الأثناء حدث هناك بعض التغيرات بالنسبة للملك مصر، فقد قرر الفرعون الجديد نخو الثاني (٦١٠-٥٩٥) قم تقديم الدعم المتزايد لآشور أباليت، وقاد الجيش المصري إلى سورية.

ويبدو أن الدبلوماسية السكندانية قد فعلت فعلها بنجاح في فلسطين فلم يكن نخو الثاني يجبر على إخلاء انتفاضة في غزة فحصب (أرميا ١٠-٤٧) بل إن حوشيا ملك يهوذا قام بمحاولة مميّنة بالنسبة له لضرب القوى المصرية بحدود عام (٦٠٨

قم(ملوك ٢٢: ٢٩) على الرغم من هذه المعوقات فقد أوصل نخو جيشه إلى القاعدة الآشورية المصرية الرئيسية في كركميش.

ولكن حدث الآن كارثة لمصر، إذا إنه وحتى هذا الوقت لم تكن أي الجيوش الكلدانية تبدي براعة عسكرية، وكانت نجاحتها تتوقف على الحرب الأهلية الآشورية، ويعد ذلك كانت تتوقف على الدعم الذي كان يأتيها من الميديين ومن (الأومان ماندا) ولكن حدث الآن أن استغلوا من خدمات أحد القواد ذوي القدرة المرموقة وهو (نهبوشا درميزر) وهو ابن نابويلاستر.

ففي عام (٦٠٥) قم سلم نابويلاستر صلاحياته في حكم بابل لابنه نهبوشا درميزر الذي قاد جيشه إلى أعالي الفرات للقيام بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي في كركميش.

وقد سجل (أرميا) الحادث كما يلي:

إن إله الجنود يود تقديم ضحية.

في البلاد الشمالية إلى جانب نهر الفرات.

أه أيتها البنت المصرية العذراء.

لقد سمعت الأمم بما لحق بك من عار.

ولقد امتلأت السماء بصراخك.

وذلك لأن المحارب قد اصطدم بمحارب.

وقد سقطا معاً.

ومع أن الأبيات الأخيرة تشير أن كلا الطرفين قد لاقيا مذبة ثقيلة الوطأة،

إلا أن الجيش المصري هو الذي واجه انكساراً مهنياً.

وهنا يصور أرميا الرعب والهلع أثناء هروب الناجين من الموت ورجوعهم إلى مصر.

لقد هزم محاربوهم

وهربوا بسرعة

ولم ينظروا إلى الوراء

لأن الرعب كان يحيط بهم من كل جانب (١٦: ٥٠)

ولم نسمع شيئاً بعد ذلك عن آشور أباليث أو عن أي واحد من الناجين من جهشه، وبعد اندحار الجيش المصري من آشور الأخير، انتهت الإمبراطورية الآشورية.

وبعد اندحار المصريين سقطت سورية وفلسطين بيد نبوشتا درمهرز. وبهذا نفس السنة ورث عن والده العرش فظهر ملك جديد في إمبراطورية جديدة، وأصبحت العاصمة العالمية هي بابل بدلاً من آشور.

الفصل التاسع

المجتمع الآشوري والعادات الآشورية

الآشوريون أمة وليس عرقاً

إن أي مجموعة بشرية ولكي تتميز كمجتمع مترابط عليها أن تمتلك سمات محددة تربط بين أفرادها بعضهم إلى بعض، وتميزهم عن جيرانهم.

وإن ما نفيه هو أن نكتشف ما الذي كان يميز الآشوريين ويفرزهم كشعب مختلف عن غيره في العالم القديم.

نحتاج إلى العناية عند إطلاق المصطلحات نظراً لأن لدينا صوراً عقلية لمجموعة تدعى الآشوريين.

وليس معنى هذا أن أحد أفراد هذه المجموعة سوف ينظر إلى الأشياء بنفس الطريقة، وسوف يعين هويته الشخصية باتخاذ اسم الآشوريين، والحقيقة أننا نعلم أنه وفي أحد الأوقات لم يكن هذا هو الحال بالضبط، وذلك نظراً لأن لاسم آشورايو الذي يترجم بكلمة آشوري كان يعني شيئاً أكثر تحديداً مما نفهمه من كلمة آشوري.

ففي القوانين التي كانت سائدة في العصر الآشوري الأوسط كان لهذا الاسم معنى طبقي يطلق فقط على الشعب من الطبقة الدنيا.

لقد أطلق بعض شعوب الشرق الأدنى القديمة تعريفاً واضحاً لما كانوا يمدونه أساساً لوحدتهم مما يميزهم عن جيرانهم.

ويمكن أن ننسى وجهات النظر حول مثل هذه الأمور دون أن تتوافق مع الحقائق التاريخية، إذ إن الإسرائيليين التوراتيين هم خير مثال عن وجود شعب ذي معتقدات ذات أسس تاريخية مشكوك في أمرها، وكانت تقاليدهم الراسخة تؤكد أن هناك عاملين قد وحدهم وميزهم عن الآخرين.

كانت قبائلهم حسب قولهم تتعذر جميعها من أب واحد (وهذا بالطبع غير صحيح) وقد دخلت هذه القبائل في ميثاق وعهد استثنائي مع إله محدد وهو (يَهُوَا) (وهذا أمر مشكوك فيه) فقد شعر الإسرائيليون بوعي قومي مؤسس على مفهوم الأصل المشترك من رجل واحد مع الانفصال عن السلالات والأصناف الأخرى غير الموجودة وتقاليدهم وعن أمتهم، وحماية قوانينهم ولكن الآشوريين تحرروا من هذا النوع من العنصرية.

فلم يعلن أي إله آشوري أبداً ككون سلالة أي شخص معين ما هي إلا ذريته الخاصة فحسب، ولم يعد أي مشروع آشوري أبداً إلى من تشريع ضد الشعوب الأجنبية الأخرى كما فعل الإسرائيليون، فنقول التوراة: (لا ينبغي أن يتبادلوا الزواج مع الأجانب، ولا تزوجوا أبناءكم لأبنائهم ولا تسمعوهم أن يتزوج بناتهم من أولادكم).

لقد كانت معتقدات الإسرائيليون مرتبطة بالطبقة القبلية لإسرائيل، وقد صنعت آشور كما نعرفهم في الأزمنة التاريخية، كي لا يكونوا قبليين أصلاً.

ولم تلعب قضية الانحدار من أب واحد أي دور في قضية توحيد الآشوريين.

ولم يكن هنالك حسب علمنا أي تقليد لوجود أي عهد أو معاهدة بين الآشوريين وآلهتهم مع أن الإله آشور قد لعب دوراً بالنسبة للوعي الذاتي للآشوريين لدرجة تسمح أن نسميه إلهاً قومياً، ولم يفكر الآشوريون أبداً بأنهم شعب مكتنف بذاته أو استثنائي.

إذ إنهم ومنذ البداية عدوا التجارة مع الشعوب الأخرى عنصراً أساسياً في الحياة، ولم يروا أي عواقب وخيمة ناتجة عن الاختلاط مع الشعوب الأخرى، كما فعل الإسرائيليون، وقد كانت سياستهم الأخيرة والتي اتبعوها بالنسبة إلى التهجير مرتبطة بهذه النقطة، وغالباً ما كنا نسميهم يقولون: إن الشعوب المهجرة كانت تستوطن وتعامل كالأشوريين بالضبط.

لقد خلقت سيامة التهجير التي ابتدعها الملوك الآشوريون شكلاً جديداً وفريداً من أشكال المجتمع، بل إن مزيج المجموعات الوطنية كانت الفروق العرقية فيه غير ذات بال.

فلقد تقلت مختلف الشعوب في الشرق الأدنى إلى آشور وبدؤوا بالعمل كعمال زراعيين أو حرفيين أو تجار أو جنود، وبمرور الزمن أصبحوا متوحدين في تلك الخلطة الكبيرة التي هي آشور، ولم تكن هذه الخلطة مجرد مصادفة أو منفعة. فقد كانت هناك أمس نظرية لها قد عُبر عنها باصطلاحات لاهوتية دينية. فقد كرم الآشوريون آلهتهم بأن حولهم سلطان الحكيم فوق جميع أرجاء العالم المعروف.

فقد دعا الملك توكلولي نينورتا الأول نفسه بأنه الشخص الذي نادى باسمه الإله آشور والآلهة العظمى بإخلاص وثقة، وأنه الشخص الذي سلمته الآلهة زمام أركان الأرض ليعلمكمها، وأنه الشخص الذي وثقت به الآلهة وأتمنته على أملاكها.

وهكذا فإن الآلهة قد خصصت جميع البلدان الأجنبية لملوك آشور. والآن دعونا نمود إلى الأسباب التي وحدث الآشوريين أنفسهم، إذ نحن نلاحظ أن اللغة هي من العوامل الموحدة الرئيسية.

وقد كان الآشوريون يعتقدون أن الشعوب القاطنة في الجبال حولهم كانوا يتكلمون بشكل مضطرب، وهكذا كانت النقوش الملكية تطلق على اللغات التي كانت تتكلم بها الشعوب الأخرى، وكانت تذكر أن بعض الفنائم لها أسماء من الصعب كتابتها.

ولكن لم تكن هذه القضية علامة كافية للاختلاف نظراً لأن الجيران الجنوبيين في بابل كانوا يتكلمون لهجة مختلفة ولكن بنفس اللغة.

وكان الدين هو القوة الموحدة الأعظم فعالية، فقد كانت جميع شعوب الشرق الأدنى تدعى لعدد من كبار الآلهة، مع أنه كان هناك بعض المناطق أو السهاقات الاجتماعية كان لإله معين أو مجموعة من الآلهة مركزاً فريداً فيها. وكان منها الإله آشور الذي كان من المعتقد أن يمتلك السياسة في بلاد معينة أصبحت تدعى فيما بعد بلاد آشور.

ومن هنا أتى الاسم آشور، وقد نشأ الاعتقاد أن سلطة آشور امتدت فوق العالم المتحضر، وكان من وظائف وواجبات الملك تأكيد وصيانة سيادة الإله آشور. وللهذه الأولى، ربما يبدو هذا وكأنه نوع من النزعة القومية والإمبريالية ذو شكل معين، وفيه الفكرة التجريدية للقومية الممثلة بالإله ولكن ليس الأمر بهذا الوضوح والصراحة.

فقد كانت تلك الفكرة مؤسسة على فكرة لاهوتية ودينية لآشور، وهي أن الإله كان لديه خطة بالنسبة للبلاد، وأنه قد انفصل عن أرضه وشعبه، فالقومية ليس لها أهمية دون وجود مجموعة بشرية، ولكن بالنسبة للتفكير في الشرق الأدنى يستطيع الإله أن يتواجد بشكل مستقل عن شعبه وحتى عن وطنه، وباستطاعته حتى هجر ومعاقبة شعبه، الأمر الذي ليس باستطاعة القومية المجردة عمله.

وقد كانت آشور تؤلف سلسلة من الوحدات الثانوية، فقد كان الفلاح العادي مرتبطاً بقطعة من الأرض إما بوضع اليد أو بالحق في حرثها وزراعتها، وكانت هذه القطعة من الأرض تخص قرية معينة وكانت القرية بدورها مرتبطة إما مباشرة أو عن طريق إحدى البلدات بإحدى المدن الرئيسية، مثلاً مدينة آشور أو نينوى أو أربيل أو أرابخا، وقد كان ارتباطها بالمدينة متمثلاً بالضرائب التي تدفعها، والأعياد الدورية الدينية التي لها الحق والواجب بالمساهمة فيها.

وبإمكان الاستئناف للسلطات في المدينة في حالة حدوث خصومات قضائية أو إدارية وفوق الجميع متمثلة بالحقيقة التي مفادها: إن المدينة هي الوجهة الزاخرة

بالأحداث التي تقبّح إليها جميع المنتوجات في البلاد ، ومراكز الإنتاج والتوزيع الذي يجري للبضائع المستوردة والمصنعة التي لا يمكن إنتاجها في القرية.

وقد كانت المدن الكبرى نفسها مرتبطة بعضها مع بعض من جهة العمل تحت إدارات مدنية متشابهة، ومن جهة أخرى بكونها جميعها خاضعة بشكل أو بآخر من أشكال التوجيه من قبل مركز مشترك للإدارة تحت إشراف الملك.

وهنا تنتهي الدورة في هذه النقطة ونجد عندها أن الملك هو المركز المشترك لجميع الآشوريين. وفوق ذلك فإن الملك يقدم الارتباط مع العالم الآخر لكونه الممثل البشري للإله آشور.

ومن جهة سياسية فقد كانت دولة آشور مستقرة مدة عدة قرون، فقد كان هناك عدد من الدساتيم والمكائد من حين لآخر في أعلى مستويات المجتمع لاستبدال الملك الموجود بشخص آخر من فروع العائلة المالكة، ولكن لم تحدث أي حوادث من التمرد الشعبي أو المحاولات لتغيير المؤسسات الاجتماعية، وكان الاستقرار السياسي انعكاساً ونتيجة للاستقرار والطبيعة التي يتميز بها المجتمع الآشوري غير المجزأ.

كان الآشوريون شعباً هجيناً وهم يعرفون ذلك، وكان النقاء العرقي ليس بذي قيمة بالنسبة إليهم، ومنذ أقدم الأزمنة كان لديهم تاريخ عنصري خليط، ومع أن أجدادهم لم يثأثروا بهذه الأمور منذ أواخر الألف الثاني والألف الأول، إلا أنهم كانوا جميعاً على تمام الوعي، وهذا مذكور مراراً في النقوش الملكية، أن شعباً من خارج آشور كانوا يتوافدون ويضافون إلى الأعداد الأصلية من البلاد ويمتزجون بها، إلا أنهم كانوا يمارون كاهل البلاد الأصلية.

وفي الفترة المعروفة بالفترة الآشورية الوسطى (وهي النصف الثاني من الألف الثاني ق م) كان هناك بضعة من الآشوريين بينها بعض الموظفين الكبار يحملون أسماء حورية، وكان الاختيار في الإمبراطورية الآشورية في القرن الأول لا ينحصر في خط النسب الذي أتى منه الشخص، بل في سلوك هذا الإنسان تجاه المجتمع الأكبر وولائه للإمبراطورية العالمية التي يحكمها الإله آشور.

وكان هناك إمكان وصول أحد الملوك المقيمين في بابل إلى أعلى درجات الإدارة في آشور ، ونظير لنا أسماء بعض الحكام الآشوريين في المناطق أنهم كانوا من أصل آرامي أو فينيقي أو يهودي.

ولم يكن الإنسان في آشور مجبراً أن يعبد الإله القومي آشور ، وذلك لأن مجموعة الآلهة المتواجدة حول آشور كانت مجموعة مرتبة تقبل الآلهة من أصول غير آشورية ، وهذا لا ينطبق على الإسرائيليين المتزمتين الذين لا يقبلون سوى الإله (يهوه) فقد كانت ثقة الإله آشور بنفسه وسيطرته لا تجيز أن يكون (إنها غيورا).

لقد رأينا الخطوط المختلفة في بنية آشور ما قبل التاريخ ، والأشهر فيها تلك المجموعات الثقافية التي وجدت في حسوة وخلف (ويشكل هامشي) في السامرة ، ولقد أتت فيما بعد بعض التأثيرات من الجنوب وهم شعب أيبدي في فترة ما قبل التاريخ ، والسومريون عند فجر التاريخ وكلاهما يتحدران من أصول عرقية تلك المساهمات البارزة في المظاهر الثقافية ، وهناك آثار لتلك المظاهر (تختلف عن السومرية) تبقى في أسماء الأمكنة ، وبعضها لا يمكن تفسيرها بأنها إما سومرية أو سامية ، فهي أوائل الفترة السومرية (وربما قبلها) بدأت الهجرات الجماعية للشعوب التي تكلمت اللغات السامية الآتين من الجنوب الشرقي والتي ظلت تشاهد الإمدادات التي تأتي لنجدتها حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية.

وفي الألف الثاني أتى إلى المنطقة تدفق قوي من الحوريين الذي ترك أثراً دائماً في الثقافة الآشورية ولكن لم تكن أقل تأكيداً في البنية العرقية أو الإثنية ، وهذا هو ما شكل الإطار.

ولقد تدفق إلى هذا الإطار أو البنية عدة عناصر عرقية دون انقطاع عن طريق ثلاث أقدية رئيسية من الهجرة ، وهي: السبي ، والزيجات المختلطة من قبل بعض الناس كالتجار الذين يقضون وقتاً طويلاً في الخارج ، وكانت هذه القناة هي التي لا نعرف عنها الكثير وكانت أقلها أهمية.

بمستطاعة الهجرة أحداث تغييرات كبيرة في بنية المجتمع ، فمنه نعلم أنه في منتصف الألف الثاني انقضى المهاجرون الحوريون على السكان القدماء في بعض

أجزاء دولة آشور ، بينما أحدث الآراميون الساميون الآتون من وراء نهر الفرات عدة تغييرات رئيسية في نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ، وإن المستوطنين من هذا النوع ربما ظلوا متقوقعين عدة أجيال ولكن ويمرور الزمن دخلوا هم أيضاً في عالم آشور المختلط، إذا إن المنطقة التي وجدت الإمبراطورية الآشورية فيها دعمها الأخير حيث وقفت للنهية كانت ما بين حرّان وكركميش، تلك المنطقة التي كانت في زمن ما حوريه وبعد ذلك أصبحت آرامية بشكل سائد ومهيمن.

وكانت هناك طبقات أخرى من المهاجرين تشتمل على شعوب تفرقت بسبب الاضطرابات في آسيا الصغرى نحو سنة (١٢٠٠ ق.م).

وكان هناك شعب من هؤلاء يدعى شعب الحوشكاوي القريب من القرنجيين الذين أتوا فيها بعد والذين سمح لهم بالقيام بعدة مصادمات مع دولة آشور بالاستقرار وقد عدّوا وكانهم آشوريين.

وعلى مقياس أقل ولكن لا يمكن إهماله لفترة طويلة كانت الهجرات التي وصلت إلى دولة آشور وسهولها والمؤلفة من عائلات متفرقة آتية من الجبال.

ونظراً لضالة أهميتها الفردية فليس من المحتمل أن نسمع عن حوادث فعلية بالنسبة لهذا الاستيطان المستعمل لدى شعوب كردستان وهم بين السكان في وثائق وجدت قرب كركوك في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ولكن وفي النهاية نجد أن اكبر المساهمين في تغيير حالات السكان وامتزاجهم كانت سياسة التهجير، وبالنسبة للعالم الحديث نجد أن هذه الكلمة تعني شؤوننا عاطفية ، ومن السهل أن تصبح الحقائق الأساسية حقائق ضئيلة الأهمية في مواضع تحبط أحاسيس الرحمة والشفقة.

ولقد نوقشت هذه القضية برمتها على يد **b.oded** في كتابه الهجرات الجماعية والمهاجرون في الإمبراطورية الآشورية الجديدة (١٩٧٨).

لقد ملأ الملوك الآشوريون تهجير الشعوب المهزومة في القرن الثالث عشر ق م
ولم يكن بها بقية ظاهرة رئيسية لسياسة الدولة ابتداء من القرن التاسع ق م حيث
كان عدد المهجرين يصل إلى ربع أو نصف مليون نسمة بالنسبة إلى ~~ال~~ من الملوك.
ولقد ساعد هذا على إنشاء مجتمع داخل الامبراطورية الآشورية وداخل آسيا
نفسها ، وكان هذا المجتمع خليطاً في عرقته ولغته ، فلم يكن للملوك الآشوريين
أي خلفية عرقية بالنسبة إلى مناصراتهم العسكرية وثوسعاتهم وتهجيراتهم ،
وأشركوا الدول المهزومة والخاضعة في الجيش الآشوري ، وقد أسكن آشور ناصر
بعل الشعوب من الأراضي المهزومة في عاصمته الجديدة (كالاخ) وكان سريعاً في
هذه المسألة فقد كتب يقول:

((كالا... لقد بنيتها من جديد ، وأسكنت فيها شعباً قد هزمتها بيدي من
البلاد التي حكمتها ، من سوهو ولاقي وسوقا عند نقاط عبور الفرات ، وزاموا
وبيت عديني وحاتي وقد أسكنتهم هناك)).

ولما لم تكن هذه الشعوب من أصول عرقية واحدة ولم يكن لها كانت تمثل
انتشاراً عريضاً من الجنسيات ، ولقد أسهمت مثل هذه الهجرات في حدوث خلفية
جديدة كلياً للمدن الآشورية التي كانت هدفاً لقيام أكبرية المهاجرين المعروفين.
وأصبحت المدن الآشورية عالمية ومتعددة اللغات ، حيث أصبح الشعب الآشوري
الحقيقي عبارة عن أقلية.

ونظراً لأن المهاجرين كانوا يتحركون بشكل مجموعات والوقت الذي نقل
فيه الآشوريون الشعوب الأجنبية عمداً بشكل مجموعات احتفظت بمصيبتها
العرقية ، فإن هذه المجموعات لم تتمثل بمرعة السكان الذين وضعوا فيما بين
ظهوراتهم ، ولقد عرف الملوك الآشوريون أن هناك عدداً من اللغات كانت مستعملة
داخل بعض منهم.

وبينما بذلت جميع المحاولات لإشباع المستوطنين الجدد بقبولهم كأفراد في
الإمبراطورية ، إلا أنه ليس هناك من سبب يدعونا لافتراض أن هذا الضغط
لاستعمال لغة معينة أو خدمة إله معين قد نجح في مبتدأه.

وهكذا نرى الملك سرجون الثاني يتكلم عن معاملته لمزيج من الشعوب المستوطنين بجانيه في عاصمته الجديدة دور شاروكين بما يلي:

(هناك شعوب من جهات الدنيا الأربع، ذوو لغات غريبة وكلام مختلف يسكنون في الجبال والسهول، لقد استوليت عليهم كفنائهم طبق كلمات آشور سيدي لقد جعلتهم ذوي غرض واحد، ونية واحدة وجعلتهم يسكنون في داخل المدينة (أي: داخل دور شاروكين) وجعلت مواطني آشور الماهرين في عمل كل الأعمال مراقبين ومشرفين لكي يعلموهم العادات وأن يخدموا الآلهة والملوك).

لم تكن ثقافة الإمبراطورية الآشورية الجديدة ثقافة آشورية محضة، ولم تكن حتى آشورية بابلية بل كانت ثقافة هجينة نغلة.

وقد كان أحد العوامل الرئيسية التي دخلت أشاء الألف الأول قبل الميلاد، مسببة عن دخول الآراميين، وهم بنو رحل أتوا من الصحراء السورية، فقد كان للفتهم الآرامية تأثير على اللغة الآشورية التي أخذت كثيراً من الكلمات والمصطلحات من اللغة الآرامية.

أما نظام الكتابة الآرامية الأبسط الذي كان يجري على قطع من الخزف أو الجلد والبايبروس، هذا النظام بدأ استعماله جنباً إلى جنب مع النظام المسماري على الخزف، وقد كان مقدرًا لهذا النظام أن يتفوق (ولكن لم يحدث ذلك، إلا بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية) وأصبحت الآرامية بالحقيقة لغة رسمية في آشور أثناء حكم تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) لأننا نشاهد على أحد أنصابه كتاباً يكتب بمواد مناسبة للخط الآرامي إلى جانب كتاب آخر يكتب بالخط المسماري وكان كلاهما يسجلان نسفاً متشابهة عن غنائم الحرب.

لم يكن الآراميون الشعب الوحيد الذي أثر على الثقافة الآشورية في الفترة الآشورية الجديدة، أو أننا نجد بين الكتبة أشخاصاً مصريين مذكورين إلى جانب الآشوريين والآراميين بشكل أنلس يستلمون الإعاشة، وبهذا أصبحوا على صلة رسمية بالبلاد، وإن فوائم الإعانة هذه تذكر أشخاصاً غريباء آخرين لم تذكر منهم ولا أعمالهم بل كان من المحتمل أن يكونوا ضباطاً عسكريين أو

تجاراً أو مبعوثين أجنب، أو ريعاً رهائن من الأمراء احتفظ بهم في البلاط الآشوري كضيافات أو كمفالات للسلوك الحسن للدولة التي أتوا منها.

وكان بين أولئك المجموعات من الموظفين الأجانب أشخاص إسرائيليون وفينيقيون وميونيون ومانيون (من شمال غرب إيران) وأناس من شمال سورية وآسيا الصغرى والأناضول.

لقد كان عند كبير من اللغات يتمثل في البلاط الآشوري، فقد جلب الأمراء الملوكيون من الدول التابعة إلى البلاط الآشوري بقصد تثقيفهم وتعليمهم ولحكي يقولوا بقالب الحكام الموالين في المستقبل، وليخدموا كرهائن لتأمين السلوك الحسن للدول الحاكمة والمالية لآشور.

وكان هناك أيضاً إداريون ذوو خبرة أجنبية ومعرفه باللغات الأجنبية فضلاً عن كونهم مترجمين وكتابة، ولدينا أمثلة من هذا النوع وجدت في نص يخبرنا كيفية وصول أحد السفراء إلى آشور من بلد بعيد يفترض أنه ليديا (مع أن ذلك لم يثبت نهائياً) في آسيا الصغرى.

ويتمثل الملك آشور بانبيال أنه هو المتكلم:

لقد وصل حدود بلادي

وعندما رآه شعب بلادي قالوا له:

من أنت أيها الغريب

ومن أي بلد لم تطأها

أي قدم على الطريق (إلى هنا)

ولقد جلبوه أمامي - إلى نينوى عاصمتي

وهي التي تحتوي لغات من الشرق والغرب

والتي نصبني الإله آشور متسلطاً عليها

ولكن لم يكن عندنا من أحد يتقن لغته

فقد سكّنت لغته غربية

ولم يستطيعوا فهم خطابه

ولقد جلب معه من حدود بلاد.

ولم يفهم ما قد جلبه معه ، ولكن من المظنون أنه سكّنت رسالة مكتوبة
باللغة الأكادية وذلك للتغلب على الحواجز اللغوية.

الطبقات الاجتماعية

إن معرفتنا عن التركيب الاجتماعي الآشوري هي معرفة متقطعة وغير سوية ،
إذ إنه وفي بعض الفترات ، لدينا معلومات تتصل بشكل مباشر بمظاهر الحياة
الاجتماعية.

بيّنا وبالنسبة للمظاهر الأخرى فإننا مجبرون أن نستنتج ما نستطيع فهمه من
الإيماءات الواردة من نصوص ربما كان فحواها مختلفاً عن الاهتمامات التي نحن
بصددنا ، بحيث إن التلميحات التي يمطونها غامضة ومحيرة.

وكما هو الحال بالنسبة للتقاطعات الأخرى فلقد مرّت المجتمعات الآشورية
بتغيرات بمرور الزمن ، وإن ما هو حقيقة بالنسبة لها في إحدى الفترات من الممكن
أن لا يكون هكذا في فترة أخرى ، وإن أحد الأزمنة التي لدينا أخبار صادقة عنها
(على الرغم من وجود عدة فجوات في التفاصيل) هو العصر الآشوري الأوسط حتى
نهاية الألف الثانية ق م ، وكان هذا الأمر نتيجة لمصادقة سميده أي : عند اكتشاف
الألواح المسمارية في آشور ، والتي تحمل نصوص القوانين الآشورية المتوسطة وهي
ذات ارتباط خاص ببعض نواحي المجتمع.

وبصورة خاصة هناك لوح متطاوّل يضم (٥٩) فقرة حسب التقسيم الحديث ،
وهو يهتم اهتماماً بالفاً بالمسائل التي لها علاقة بالنساء.

تذكر لنا القوانين أن المجتمع الآشوري كان مؤلفاً من فئتين متميزتين
اجتماعيتين وهما : فئة الأحرار ، وفئة غير الأحرار.

وكان الكلدانيون يطلقون على هاتين الفئتين اسمي عابلو (اميلو) للفئة الأولى، وأوردو (أردو) للفئة الثانية، وترجم عادة بالتوالي: الرجل الحر، والعبد، ولقد ظهرت تعقيدات في هذا المقام عند تقديم نوع ثالث وهو (الآشوريابو) والآشوري. ومن الواضح أن الآشوريابو كان رجلاً حراً، ونظراً لأن نصوص القوانين تحدد فرقاً ما بين معاملة الآشوريو والمابلو فإنه من الواجب أن يكون هناك نوع خاص من الرجل الحر.

وتدل القوانين أن الآشورية كانوا أقل شأناً من العابلو أي: إنه كان هناك تدرج في الأوضاع ما بين الرجال الأحرار.

وعندما تحصل رغبة للإشارة إلى رجال أحرار من درجة منخفضة عندها تستخدم كلمة آشوريو، ولكن بعض الباحثين قد فسروا هذا بشكل مختلف أي: بوجود تقسيم ثلاثي للطبقات الاجتماعية باعتبار أن (عابلو) تعني: الرجل الشريف النبيل.

ولكن نظراً لأن عابلو يبدو بأنها تستعمل للدلالة على مرتبة أعلى من الآشوريو، فإن ذلك يبدو قضية من الصعب الدفاع عنها.

وقد أصبح الوضع مختلفاً بحلول زمن الإمبراطورية الآشورية الجديدة في الألف الأول ق.م، وكان الوضع الأهم بالنسبة للرجال الأحرار يخص الموظفين المملوكين الذين كانوا يدينون بمراكزهم وسلطانهم للعطف المملوكي وليس للوراثة، مع أنه كان يحدث أحياناً أن يُعين شخص في وظيفة كان والده يشغلها سابقاً.

وأما في أسفل السلم الاجتماعي فإن التمييز ما بين الرجل الحر والعبد تلاشى، وذلك بسبب اختزال جميع مجتمعات الفلاحين والحفاظ بالمعبودية بمد أن خسر الفلاحون حقوقهم القديمة بالنسبة للأراضي.

الأساس الزراعي للحياة الآشورية

كانت آشور أصلاً بلداً مولفاً من قرى زراعية، وبلدات ريفية، مع وجود عدد قليل من المدن الرئيسية وهي: آشور، ونيوى، وأربيل، وريما أرانجا، وهؤلاء فقط اعتبروا المدن الحقيقية.

وأما المدينة الخامسة وهي: كالكنج فعلى الرغم من الثروة التي وصلتها والمنمكة في الأطلال الضخمة في نمرود، إلا أنها لم تكن ذات أهمية قومية سوى خلال قرنين من الزمن في الألف الثالث قبل الميلاد.

وكان هناك بين المدن المهمة التي كانت كثيراً ما تذكر والتي كانت ذات أهمية محلية هي: كالكيزي وكوريمل (لم نجد موقعها بعد) وشيباتيا.

وهناك عدد لا يمكن أن ندعوها بلدات ريفية نجدها في هذه الأيام بشكل رسكيات وروابي كبيرة، وبعضها تحدد موقعه، وبعضها لم يتحدد.

ولكن ليس هناك ما يشبه خليط المدن التي تواجدت اعتباراً من زمن السومريين فصاعداً في بابل جنوباً، وبمحاذاة نهر الفرات وديالا، وكانت الفروقات مرتبطة بالمناخ.

أما في بابل فقد كانت الأعمال الزراعية مستحيلة دون وجود الري، وهذا مع وجود مجاري المياه ومصادر المياه الضخمة يقتضي وجود تجمعات كبيرة من الناس داخل بنية اجتماعية موحدة، لكن هذا العامل كان أقل أهمية بالنسبة لآشور، حيث تتوفر الزراعة المدعومة بماء المطر في كل مكان تقريباً.

وهذا لا يعني أن الري لم يكن موجوداً في آشور بل لقد كان فعالاً موجوداً ولا يزال، ولكن كان مساعداً مفيداً أكثر منه ضرورة لا يستغنى عنها للزراعة هناك.

سوف نبحث في موضوع الحياة والبلدات والمدن في مكان آخر من هذا الكتاب.

أما في الوقت الحاضر فسوف نعالج قضية الأرض، وإن مسألة امتلاك الأرض في آشور هي قضية معقدة ولا تزال عصية على الفهم، لاسيما وأنه في حالة وجود مفهوم لا بأس به حول الوضع، لكن ليس من الممكن عمل أي استنتاجات تصلح لكل المناطق وكل الأزمنة، إذ إن المصدر الرئيسي لاستنتاجاتنا هو كتاب القوانين الذي يعود إلى أواخر الألف الثاني، وهذا يعالج بالإضافة إلى قضايا أخرى مسألة امتلاك الأرض.

وقد عرف من عدة وثائق ذات علاقة بمسألة بيع الأراضي، ويبدو أنه أصلاً وفي بلاد آشور وقبل أن تتطور الدولة لتصبح كينونة قومية كانت الأرض ملكاً لعائلات كبيرة، إذ إنه لا يزال هناك آثار لهذا النظام في الفترة الآشورية الوسطى، مع أنه وفي ذلك الوقت كانت العائلات الكبيرة قد تجمعت بعضها مع بعض لتصبح مجتمعاً قروياً أوسع، ولكن هذا التطور قد حدد حرية العمل لأية عائلة كبيرة إلى حد ما، فلقد قسمت أراضي كثيرة كانت يسيطر عليها المجتمع الفردي إلى أقسام تدعى: (الحصص) وهناك ما يدل على أن تلك الحصص قد أعيد توزيعها دورياً فيما بين العائلات الكبيرة وأصبح لبعض الأفراد حقوق مكتسبة عن طريق الشراء...

ولكن كيف استطاع بعض الأفراد من الخارج اكتساب مثل هذه الحقوق؟ إنها قضية معقدة، إذ نحن نعلم أنه بالنسبة لمنطقة كركوك في آشور وحوالي عام (٤٥٠ ق.م) (هذا هو تاريخ ما يعرف بوثائق (توزي)) لم تكن الأراضي ممكنة التحويل قانونياً من ملكية شخص إلى آخر خارج نطاق العائلة، ومع ذلك فقد كان هناك وسائل للاتفاف حول هذا الموضوع، وهذه المشكلة في القانون ذي العلاقة بالمعرف والعادات وليس بالقانون.

ومع أن نقل ملكية الأرض كان ممكناً ضمن إطار العائلة، إلا أن البيع لشخص آخر خارج نطاق العائلة من الممكن ترتيبه عن طريق تحويل تبني البائع للمشتري وإعطاء هذا الأخير قطعة من الأرض بشكل حصّة مورثة أي: عن طريق الإرث، وعلى كل حال فإن لدينا هنا بعض الأعمال التي لم تكن آشورية في

الأصل، نظراً لأن العامل العرقي الثقافي السائد حول مركزكوك نحو عام (١٤٥٠ ق.م) كان ذا أصل حوري يرجع إلى المهاجرين الذين تعود هجرتهم إلى قرنين أو ثلاثة قرون سابقة.

وأما في آشور وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى فكان من الممكن للأفراد شراء بعض الحقوق في الأرض دون القيام بعمل أي حيلة أو خديعة، وإن عملية بيع أراضي الأحرار هذه قد امتدت إلى الفترة الآشورية الجديدة في الألف الأول ق.م. ومن المحتمل ونظراً لأن معظم عمليات نقل الأرض حدثت في الأزمنة القديمة، فإن مالك الأرض عن طريق الوراثة لم يكن لديه أي نية لبيع هذه الأرض، ولكن حقوق الملكية هذه كان من الممكن رهنها كضمان للديون، والأغلب أن مثل الإجراءات سوف تكون مقدّمة لفقدان المالك الأصلي لحقوقه.

هذا ومن الممكن وجود الحاجة إلى إجراء قرض وذلك للتغلب على الصعوبات المادية للعائلة ابتداء من وقت البذار حتى وقت الحصاد، وإذا حدث حصاد سيئ في الموسم فإن ذلك سوف يجعل المدين غير قادر على الدفع، مما يؤدي إلى جبهه.

وهكذا فقد كان يحدث في الفترة الآشورية الوسطى أن يكون مقرضو الأموال الذين كانوا قد حصلوا على الثروة عن طريق التجارة هم المشترون البارزون لحقوق الملكية، وكان يوسع الشخص الذي اشترى الأرض من حيث المبدأ أن يختار قطعة الأرض شريطة ألا يؤدي ذلك إلى المساس بحقوق المجتمع ككل، أو حقوق العائلات الكبيرة.

وفي الأصل كان شراء قطعة من الأرض ينتج عنه أن يصبح المشتري عضواً في المجتمع القروي، وإن لا يلتزم بالامتيازات التابعة لحق الملكية فحسب، بل أيضاً أن يلتزم بواجبات المجتمع التي توجبها مثل هذه الحقوق، وفي مثل هذه الحالة فإن الأرض سوف لا تصبح بالنسبة للمجتمع بل بالعكس تبقى الأرض جزءاً من أرض المجتمع.

وهكذا فإن المجتمع قد يربح عضواً جديداً، ولكن وبالتدريج يعمد بعض الأشخاص الأغنياء مادياً وبعض العائلات التي نجحت في بناء ضيع متكاملة بعد

بيع قطع الأرض التي كانت أراضى للمجتمع وهذه الضيع لم تكن خاضعة لإعادة التوزيع.

وإلى النتيجة أصبح الفرد أو العائلة الصغيرة لا يتمتع الآن بحقوق ملكية الأرض بل أصبح بالفعل المالك الحقيقي لها.

ولكن ماذا حدث لتلك العائلات التي خسرت حقوق ملكيتها للأرض بسبب الديون أو حبس الرهن، وما دامت الحقوق في المجتمع مرتبطة بحق ملكية الأرض فإن هؤلاء الناس يفقدون مكانتهم وأوضاعهم، فقد كان المدين لا يقوم برهن أرضه وبيته فحصب بل أيضاً أولاده وبناته وفاء للرهن، وإن عجز عن الدفع فلا يخسر أملاكه فحصب بل إن أفراد عائلته الذين كفلوه يصبحون عبيداً، من الممكن بينهم.

وكان هناك إمكانيات أخرى فإن عضوية الفرد في المجتمع لم تجلب له الحق بأراضي المجتمع فحصب، بل تجلب له بعض الالتزامات لخدمة المجتمع، مثلاً رصف وفتح الطرق وأعمال الري أو الخدمة العسكرية، ولكن أصبحت الحقوق والواجبات الآن منفصلة بعضها عن بعض فالحقوق والامتيازات قد استولى عليها الأغنياء، في حين فرضت الواجبات على الفقراء، وحالما زادت الفروق بين معاملة مالكي الأراضي والفقراء الذين يملكون أرضاً أصبح مالكو الأراضي يعاملون الفقراء معاملة لا تشبه معاملة العبيد تماماً، بل كتابيين ملتزمين بتأدية بعض الخدمات للمجتمع التي كانت أصلاً مسؤولية أصحاب الأرض، وقد استطاع هؤلاء التابون أن يستمروا في الأرض التي كانوا هم بأنفسهم أو أجدادهم يملكون الحق فيها.

وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى كان مقرضو الأموال هم ذوي العلاقة بالنسبة لشراء الأراضي التي كان يملكها الفلاحون، وفي أثناء الفترة الآشورية المتوسطة كان من أشهر الناس في هذا المجال هم الموظفون في الإدارة الملكية، ومع أنه في هذا الوقت كانت معظم الأراضي قد ضاعت من مالكيها من الفلاحين الأصليين، إلا أن العملية لم تكتمل بعد، ففي أوائل القرن الثامن كان

لا يزال هناك بعض الأراضي التي لا يزال عليها أصحاب الأراضي الصغار نظراً لأن هذه الأراضي قد بيعت إلى موظفين كبار كانوا يبنون بعض الضيق.

ولقد حصلت انتقادات على مثل هذه الأوضاع في يهوذا، وقد قاد هذه الانتقادات النبي أشعيا (A-5) الذي قال:

((ويل لأولئك الذين يصلون بيتاً ببيت، أو يضيفون حقلاً إلى حقلاً)).

فقد قيل: إنه وفي بعض الحالات كان الموظفون العاملون في شراء الأراضي يعملون في الوقت نفسه بمصالحات رسمية في إنشاء ضيق ملكية، ولكن من الصعب إثبات هذه الأقوال..

الفلاحون الفقراء - الأثنيان والعبيد

وفي القرن الثامن لم يمد المواطنون الذين اشتغلوا حقلاً في الأرض من المواطنين الأحرار بل كانوا يعدّون جزءاً من الأرض التي يشتغلون فيها، وكان من الممكن أن يباعوا مع الأرض وينقلوا مع انتقال ملكية الأرض.

وهكذا نرى أنه وفي مرسوم ملكي نموذجي يُعطى أحد الموظفين المرضي عنهم إعفاءً من الضرائب بالنسبة للبساتين والحقول والأشخاص الذين قد حصل عليهم وجعلهم أملاكاً خاصة به شأنهم شأن الأرض.

ولكن هل يجوز لنا أن نعد هؤلاء الفلاحين عبيداً؟

علينا أن نفهم معنى العبودية، وما هو الدور الذي لعبته في حياة الآشوريين، فقد وجدت العبودية ولكن العبودية كمؤسسة لم تكن ذات أهمية اقتصادية مرموقة، ومن الممكن مناقشة هذه الملاحظة، ولهذا أصبح من الواجب أن نوضح ما نفيه بكلمة العبودية في السياق الحالي.

وتعود هذه الملاحظات للعبيد كأفراد وليس لأسرى الحرب ولا لتلك المجموعات القومية التي هُجرت بشكل جماعي، ولا لتلك المجموعات الزراعية التي كانت تطالب بالاستقلال عن مالك الأرض، فالعبيد بمفردهم كان شخصاً ليس له أي حقوق يملكها شخص آخر، ومن الممكن بيعه وشراؤه.

أما أسرى الحرب والمهجرون من جهة أخرى والذين من الممكن نقلهم من موطنهم الأصلي للقيام بعمل بعض الواجبات للدولة، فإنهم ظلوا أحراراً، وتظهر هذه المسألة بما لا يدعو مجالاً للشك، وتسميقات المفاوضات فيما بين الموظفين الآشوريين والضموب الواقعة تحت الخصار (كما هو الحال في بابل وآشور) وهناك كان المحاصرون يخبرون بصراحة أنه من الممكن تهجيرهم، ولكن لم يذكر أي شيء عن استعبادهم، وكان من الممكن أن يصبح أحفاد الأشخاص المهجرين مستعبدين بحيث لا يمكن تمييزهم سوى بالنسبة لأسمائهم عن المسكان الآشوريين الأصليين.

وقد كان الجزء الأكبر من الأعمال الزراعية يُنجز عن طريق الرجال الأحرار وليس عن طريق العبيد، وهؤلاء كانوا آشوريين أحراراً أو من المجتمعات المهجرة من الأحرار.

أما الفلاحون الآشوريون المساكين فقد كانوا في نفس الوضع كالجماعات من الأحرار المهجرين الأجانب، مع أنه كان من الممكن بيعهم مع الأرض ولا يمكن بيعهم كأفراد بعيداً عن الأرض، وبهذا الاعتبار لم يكونوا عبيداً مع أنهم أحياناً كان اسم العبد يطلق عليهم.

إن اسم العبد أو كما يترجم بكلمة (أردو أو أورادو) لم يكن وصمة عار، بل كان يعني: حالة متدنية لشخص تابع لشخص آخر ذي سلطة معتزلة بها، وكان الموظفون الكبار عندما يكتبون إلى الملك يشيرون إلى أنفسهم بكلمة (أوردو) ولكن هنا لم يكن أكثر من مجاملات تعني خدامكم المطيع، وبالتالي لم تكن تعني حالة حقيقية من العبودية كما تفهمها، وحتى الملك كان يدعو نفسه بالعبد بالنسبة لعلاقته مع الآلهة.

ومع ذلك كانت هذه اصطلاحات خاصة ليس لها علاقة بالعبودية الحقيقية التي فيها تصبح جميع الحقوق لأحد الأشخاص ملحقاً لشخص آخر، وقد وجد أن هذا الوضع قد شهدت عليه الوثائق القانونية حيث يوصف أحد الأشخاص بصفة عبد لشخص آخر، ولكن هناك مفارقات، إذ حتى في مثل هذه الأحوال هناك

كان الأشخاص الذين يوصفون كمبيد بملكون الأراضي التي يمكن لأحاديهم أن يربوها.

تثير العبودية شعوراً عميقاً في الأزمنة الحديثة لدرجة أنه من الصعب أن لا ننظر إليها إلا بشكل مختلف عما هي في مفهوم العالم القديم ، ولكن في منطقة الشرق الأوسط القديم كانت حقيقة حيادية من حقائق الحياة ، وهي بذلك تشبه الوظائف في الأوضاع الاقتصادية الفرية في الوقت الحاضر ، وهي التي تُملئ علينا موجبات انشغلتنا وتحدد استعمال الناس لأوقاتها طيلة حياتهم ، وهكذا وكما أن الضغط الاقتصادي يجبر الشخص المحترم في هذه الأيام على العمل في وظيفة يكرهها أو تجبره على البطالة ، وهكذا في الأزمنة القديمة كان هناك عدة عوامل تتحدد لتوصل شخصاً ما إلى حالة العبودية بسبب الديون.

وإن العبد الآشوري لا شك أنه يكره بعض النتائج التي تجلبها له حالة العبودية تماماً ، كما يكره رجل حر بعض النتائج (مثلاً الضرائب في بعض الأحوال والأشياء الممنوعة في أحوال أخرى) والتي قد جلبتها له حافته.

وليس هناك من سبب أن نقترح أن أي شخص سواء كان عبداً أو غير ذلك سوف يتحدى العبودية كمفهوم اجتماعي ، وذلك كما يتحدى معظم الناس في العالم الفري الوظائف باعتبارها أحد المفاهيم حتى ولو اعتبروا أن الوظيفة التي يمارسونها تحديداً (أو عدم وجودها) هو أمر مثير للإزعاج.

لم يكن أسرى الحرب مبيداً بمعنى الكلمة ، وقد يتحدث أحد الملوك أحياناً فيهم بقوله :

(لقد جعلتهم مثل شعب آشور).

فقد كانت أحوالهم عندما استقروا على الأرض تشبه أحوال الآشوريين الفقراء المساكين . بمعنى أنهم إذا بيعت الأرض فإنهم سوف يباعون معها ، ولكنهم لا يمكن بيعهم بصفة منفصلة عن الأرض.

ونحن نرى حالات مشابهة بالنسبة للجنود وذي الأصول الأجنبية.

ويذكر الملوك الآشوريون أحياناً أنهم قد أخذوا ضحايا من الشباب من الشعوب المهزومة، وضموهم إلى القوة العسكرية ولكن لم تستعمل كلمة عبيد للدلالة على مثل هؤلاء، بل على العكس من الواضح أن مثل هذه الوحدات العسكرية داخل القوى العسكرية الآشورية لم يكونوا أقل مرتبة من مرتبة الآشوريين أنفسهم.

كان العبيد بكل معنى الكلمة أناساً قد بيعوا وهاء لدين أو كانوا من نسل هؤلاء، وبطبيعة أوضاعهم فإنهم لا يجوز لهم تملك الأرض مع أنه يبدو أنه كان من الممكن أن يحرروا هذه الأرض بعد زمن نظراً لأنه - وكما لاحظنا - لدينا نصوص تذكر أملاك أولئك الأشخاص الذين وصفتوا في الوثائق الرسمية أنهم عبيد، وهو ذلك فليس لهؤلاء الأشخاص أي حق بالحماية ضد المعاملة السيئة أو ضد البيع كعبيد في الخارج، فقد كان كتاب القانون في الفترة الآشورية الوسطى يوضح ذلك بإسهاب.

إذاً كان هناك أي رجل آشوري أو امرأة آشورية ممن يعيشون في بيت شخص آخر رهن لدين فإن كان هؤلاء قد استعوزوا تمويضاً عن كامل هذا الدين، فإن باستطاعة الدائن أن يضربهم ويقتل شعورهم ويشد أذانهم ويثقبها.

ويقول أيضاً: (إن الرجل الآشوري ((والمرأة الآشورية)) الذي لم يستلم مئداد القيمة الكاملة للدين الذي بذمته يمكن أن يُباع ويدخل إلى بلد أجنبي).

وهكذا فني نهاية السلم الطبقي الأعلى هناك مواطنون حائزون على حقوق كاملة.

وفي النهاية الأخرى لهذا السلم هناك طبقات محرومة وهم عبيد بكل معنى الكلمة، من المحرومين من الحقوق، والمحرومين من امتلاك الأملاك والأراضي، ومن الممكن بهم عند رغبة سيدهم.

وبين هاتين الطبقتين المتطرفتين كان هناك أناس حافظون لسلطة الأسيد مع احتفاظهم ببعض الحقوق.

وهذه المجموعة المتوسطة تشمل الفلاحين الفقراء من أبناء الوطن أيضاً
الفلاحين الذين استوطنوا في بعض الأراضي في آشور وكانت أحوالهم مشابهة
لوضع المبيد بكونهم لا يستطيعون ترك العقار الذي استوطنوا فيه.

ومن جهة أخرى كان لهم بعض الحقوق الباقية نظراً لأنه لم يكن ممكناً
تجزئة المجتمعات والعائلات طبقاً لمزاج صاحب الأرض وهم يستطيعون الاحتفاظ
وتوريث أملاكهم بشكل منتظم.

لقد كان عدد الآشوريين الذين كانوا يباعون كعبيد يباعون مع بيع الأرض
قليلاً جداً، وفي إحدى الحالات ما يبلغ معدله أقل من واحد لكل عشرة فدادين،
ويقدر أنه -وفي هذه الأيام وفي العراق- يستطيع شخص واحد أن يقوم بزراعة حوالي
سبعة أو ثمانية فدادين أو أكثر عن طريق الزراعة الشاملة الانتشار وأن تكون
تلك المساحة خاصة به، وهي طريقة تعتمد استغلال مساحات واسعة من الأرض
بأقل جهد ممكن، أكثر منها عن طريق الزراعة التكتيفية التي تهدف إلى زيادة
إنتاجية الأرض عن طريق زيادة رأس المال والهد الماملة المخصصين لها، وتكون
الطريقة الأولى بدون مشكلة أي: استعمال الآليات (انظر كتاب الأراضي فيما وراء
بغداد (عام ١٩١٥)).

وهكذا ليس هناك من حاجة أن نقترح وجود قوة زراعية عاملة غير
الأشخاص المذكورين ضمن مبيعات الأراضي بأنهم ملتصقون بالأراضي المباعة.
ونحن على تمام العلم أن بعض أصحاب العقارات كانوا يمتلكون عدداً لا
بأس به من المبيد، ولكن معظم هؤلاء من المحتمل أن يكونوا قد خدموا في
الأسغال المنزلية.

ومن الممكن أن تكون هناك قوة عمل زراعية متوفرة في بعض المقارات،
ويكون هؤلاء بشكل أسرى الحرب الذين استولي عليهم بأعداد كبيرة وورعوا
في الأراضي الملكية وأراضي الممابد والحرف الكبيرة وعند الموظفين الملكيين.
ولقد ذكرنا سابقاً شيئاً عن الموظفين الذين كانوا يبتون لأنفسهم خيماً إذا
كان يحق للموظفين الملكيين امتلاك بعض الأراضي عن طريق الوراثة أو الشراء.

وكان هؤلاء يستطيعون استلام منح من الأراضي من المالك، وهذه ساعدت في حياتهم دخلاً اعتراضاً بما أدوه من خدمات.

وفي حالة أي موظف كبير المنزلة فإن الأراضي التي يهبها الملك له من الممكن أن تبلغ عدة آلاف من الفدادين؛ ومن الممكن أن يمتلكوا أراضي كبيرة بصفة شخصية.

إذ نحن نعرف أن بعض الموظفين المالكين الكبار، ولبسوا من أعلى مرتبة، وكان الواحد منهم يمتلك ما قيمته ألف فدان.

العائلات الفلاحية

لقد خالفنا الحظ، إذ نملك بعض الشواهد المفصلة حول تركيب العائلات الآشورية الفلاحية المصعوبة ببعض الوثائق العائدة إلى الألف الأول، وتدعى (ولكن ليس هذا بشكل دقيق ومضبوط) قائمة الإحصاء الآشوري، وتعطينا هذه الوثائق بعض التفاصيل عن المزارعين المرتبطين ببعض الضيع في مقاطعة حران، وهي تسمى الأشخاص ذوي العلاقة مع نيذه عن عائلاتهم وهنا نورد نموذجاً عن هذه الوثيقة:

آدار-حوري، فلاح

نشوح ديليني ابنه في سن المراهقة

امرأة واحدة- مجموع العائلة ثلاثة

ثلاثون وحدة من الأرض ١٥ منها محروثة

حد سقية واحدة

بقرة واحدة

وهذا مجمل العقار الزراعي باريوزا

في المقاطعة الإدارية حران.

وإن الفرض العقيق من هذه الوثائق يبقى مفتوحاً للمناقشة.

ولكن في حالة واحدة كانت هذه الوثائق عبارة عن نوع من التسجيلات التي كان من المحتمل استعمالها في وسائل جمع الضرائب.

أما بالنسبة لأغراضنا الخاصة فإن اهتمامنا كان بالتفاصيل التي تعطينا فكرة عن بُنية السكان، وهذه تظهر أن القروي الآشوري كان يتزوج امرأة واحدة (ولكن ليس بدون استثناءات) وتمطينا الإحصاءات ممداً وسطحياً لوجود ٢٠١،٤ من الأطفال لكل عائلة.

وحكما هو الحال فإن هذا يعني أن العائلات كانت صغيرة جداً لا تكفي للحفاظ على عدد السكان.

وعلى كل حال فإن المعدل الوسطي الحقيقي للأطفال ربما كان أكبر من المتوقع.

وهناك بعض الحالات تترك فيه البنت المتزوجة بيتها لتميش مع زوجها. وهناك بعض الأبناء المتزوجين الذين تركوا بيوتهم ليصبحوا بيوتاً جديدة خاصة بهم، هناك بعض الأبناء البالغين الذين تركوا بيوتهم للعاق بالخدمة العسكرية أو خدمات في الدولة.

وبعض الأبناء الذين يبقون في بيوتهم يدعون بالأبناء المراهقين والبناث باللواتي وصلن إلى سن الزواج.

ومع أن هذا لا يتطلب من الأشخاص ذوي العلاقة أن لا يكونوا في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إنه من المعقول أن نفترض أن السن الوسطي الذي كانت البنات يتزوجن به أو السن الذي يترك به الشباب بيوتهم كان حوالي السادسة عشرة.

ويمكننا الافتراض أيضاً أن المرأة الآشورية كانت قابلة لإنتاج الأطفال حتى عمر يزيد عن اثنتين وأربعين عاماً (أي: من سن ستة عشر حتى الأربعين) فإذا كان إنتاج الأطفال يتم بشكل منتظم خلال تلك الفترة فإنه في الوقت الذي تبلغ به

الأربعين من العمر فإن ثلث أولادها سوف يصبحون في السادسة عشرة أو فوق ذلك مع إمكان أن يكونوا قد غادروا منازلهم، فإذا طُلِّبَ بها العمر حتى أصبحت في السادسة والخمسين من العمر فإن معظم أولادها سيكونون قد تركوا المنزل.

هذا وإن المعدل الوسطي (٤، ٣، ١) طفل لكل عائلة كما هو مذكور أعلاه ليس من الضروري أن يمثل أكثر من نصف المعدل الوسطي للأطفال الباقيين على قيد الحياة، وهكذا فإن الأطفال الأحياء سوف يكون عددهم من طفلين إلى ثلاثة أطفال في كل عائلة، وهذا يكفي للحفاظ على عدد مناسب للسكان.

ولادة الأطفال وولائم

علينا أن نتذكر أن الأطفال الذين ظلوا على قيد الحياة وحتى سن المراهقة ربما كانوا يؤلفون نسبة صغيرة من المواليد، فقد كانت وفيات الأطفال سوطاً مسلطاً على أهالي أرض ما بين النهرين القديمة، وذلك من معرفتنا من النصوص السحرية التي يقصد منها الحماية ضد الشياطين الذين كانوا يهاجمون بني البشر بشراسة وهم على عتبة الحياة.

وتذكر النصوص عن طفل صغير مات قبل الأوان أو عن ابنة أنو (وهي شيطانة مؤنثة) التي كانت تمذب الأطفال، أو عن اعتقاد بسبب حدوث القشعريرة لدى الصانع وهو أن ابنة أنو تظل ماثرة خلف النعشاء اللواتي هن على وشك الولادة. وقد كانت العائلة المالكة فضلاً عن عامة الشعب تشمر بتلك الأيدي الباردة للموت التي تزحف على الأطفال وتسبب موتهم، وأن اسم أحد ملوك آشور المروفيين وهو سنحاريب (أوسن-هي-إيديبا) يعني: إن الإله من قد عوض عن الأخوة. وهذا الكلام يشهد أن بعض الأمراء الصغار قد ماتوا وذهبوا إلى القبر. وكانت العناية بالمرأة قبل الولادة قضية يتدخل فيها السحر، بما فيه الحجب والعقوس والتعاويذ.

ونجد مثلاً ذكراً بعض الحجارة التي تلبس حول الخصر لامرأة لا تلد بسهولة. ولدينا أيضاً نص يعالج المرأة التي تمرض أثناء الحمل:

أولاً: كان يتم خلط عدد من العقاقير من مصدر نباتي فوق نار، وبمدها تمزج هذه بالزيت والبيرة، وكانت تتقع بعض الأنسجة الصوفية وتوضع في فرج المرأة لتسد عنق الرحم، وكان من الواجب عمل هذا مرتين يومياً، وقد ذكر عن عملية الدهن بالزيت والتضميد بشكل إجراءات مكتملة.

وفي حالة عدم فائدة هذا العلاج كانت خدمات المعبرة تستدعى، حيث تزور المرأة دار الموتى.

ويقدم النص تعاويذ لمساعدة المرأة سيئة الحظ، وبعض هذه التعاويذ كما يلي:

"المرأة التي ولادتها صعبة، واقعة في كرب عظيم، فالطفل قد علق وهي التي خلقت هذا الطفل يحيط بها غبار الموت، فقد خَبِتَ عنها فهي لا تستطيع الرؤية، وشفتاها مطبقتان ولا تستطيع فتح شفتيها، وهي لا تضع أي حجاب، وهي لا تخجل."

لوهنا تتكلم المرأة:

((قف بجانبني يا مردوخ الرحيم، والآن هل أنا معاطة بالكرب العظيم، تقدم إلي، وأنزل ذلك المخلوق المستعصي، خليفة الآلهة، يأتي كمخلوق بشري، دعه ينزل، دعه يرى النور)).

وبعد ذلك تأتي تلاوة أقوال حول: ((خادمة الإله القمر، وهي زوجة الإله القمر تتمثل بشكل بقرة، ولادتها صعبة وعسيرة وظلت في كرب عظيم حتى نزلت من السماء ابنتا الإله (أنو) ليدهنوها بالزيت وماء آلام الولادة)).

وتنتهي التعميدة بالشكل التالي:

((وكما تيسرت ولادة خادمة الإله القمر، لذلك فلتيسر ولادة كل السيدات اللواتي هن على وشك الوضع)).

ولقد استعملت بعض العقاقير للمساعدة على الولادة، مثلاً لحاء بعض الأشجار التي كان على المرأة أن تلعقه.

وكانت المرأة تدلّك المنطقة فوق المدة بمرهم مؤلف من عدة مواد، أو التثليك بواسطة وتد متحرك مصنوع من خشب سعري فيمرّر فوق جسمها.

وكانت القابلات يَحْضُرْنَ الولادة، وكانت تلك القابلات تقدمن بعض الموانع العملية والمشورات الصّائِدة عن حكمة وتجربة، من خلال الحدود التي ترضها طبيعة الشبح السعري.

وكان الموت أثناء الولادة من الأخطار الحاضرة المتوقعة دوماً، وهناك إشارات كثيرة لهذا الأمر، وكان الخطر الذي تُشْكِلُهُ (لاماتشو الرهيبة) تسمية أخرى لابنة (آمو) على الأم جالساً بالنسبة للأم والطفل في عبارة يذكر فيها وهي: ((إنها تلامس أحشاء المرأة التي سوف تلد)).

وهناك اسم آخر يطلق على (لاماتشو) وهو: ((الواحدة التي تشمل النيران)).
وتلك إشارة إلى رفع حرارة المرأة الذي يحدث في حالات مميتة حقيقية بسبب حمى النفاس.

وحتى عندما يصل الطفل سالماً إلى هذا العالم ربما يظل هذا الطفل معرضاً للخطر إذا فشلت الأم في إرضاعه.

وكان الأغنياء من الرجال يعرضون عن ذلك بالاتجاه إلى مرضعة، ولكن بالنسبة للطفل من عائلة فقيرة فليس هناك إلا الموت.

وهناك نص يتكلم بدون رحمة عن جفاف حليب الأم مما يسبب وفاة الطفل.
وهبل وجود النفائات النووية المسؤولة عن الولادات المشوهة كان الأطفال يولّدون وفيهم شذوذاً مختلفة، ونحن نعلم هذا بصورة خاصة نظراً لأن مثل هذه الولادات كانت تعتبر نذير شوم، وكانت تنوّن حالاً.

ونجد مثلاً ذكر طفل ولد بقدم واحدة أو توائم سيامية وحالات الخُثّ وفي حالات ولادية طبيعية ولكنها استثنائية نجد ولادة أربعة توائم.

ويوضع الطفل الحديث الولادة في سلة تستخدم كمهد وحالما ينمو ترقدي أمه أو الممرضة مقلعاً خاصاً بالطفل لتحمله حولها، ويمكن أن نخيف أنه وبالنسبة

لأشور كما هو الحال في الشرق الأدنى قديماً وحديثاً وكانت ولادة الولد الذكر علامة خير وبركة، وكانت عادة نبذ المفل وتتركه ليموت هي المادة التي ذكرناها سابقاً كانت هذه النعمة من نصيب الإنث أكثر من الذكر.

الزواج

كان الرجل الآشوري يتزوج امرأة واحدة فقط، مع أن هذا كان يحدث لفترات مختلفة وبالنسبة لفئات اجتماعية مختلفة.

وفوق ذلك بقدر اهتماماتنا بالموضوع ولأسيما الرجال لم يكن زواج الواحدة يعني رقابة العلاقة الجنسية إذ إن هذا له علاقة بالوضع القانوني أكثر منه التحديد الجنسي.

ولم يكن هناك ما يمنع الرجل من الاقتران بزوجة ثانية أو خلية بالإضافة إلى السيدة التي اختارها كزوجة شرعية سوى حالته الصحية ومقدرته الجنسية.

ولكن كان هناك استثناءات حتى في هذه المسألة وذلك لأنها وابتداء من الفترة الآشورية القديمة (التي تبدأ من الألف الثاني) مقابل عقود الزواج يمنع فيها الرجل من الاقتران بزوجة ثانية مع أن له الحق باستخدام الماهرات.

وفي بعض الأحيان كان عقد الزواج يقضي أنه في حالة عدم إنجاب الأم لأي طفل عندها يمكن للزوج أن يقترن بأمة بقصد ذلك الفرض ويعتبر الأطفال في هذه الحالة أبناء الزوجة.

كانت العائلة أبوية بالنسبة لكل المظاهر القانونية والاجتماعية، وكانت حالات النسب والوراثة مختصة بالأب، وكان الابن الذكر في العائلة هو صاحب السلطة، وكان مدى السلطة الأبوية واسماً لدرجة أن الزوج يستطيع في بعض الظروف إعدام زوجته بينما يستطيع أبو الزوج (الحمو) الزواج من كنفته الأرملة، وكان هذا طبقاً للمبدأ الذي يقول: إن المرأة تظل تحت سلطة الذكر رئيس العائلة.

وبالنسبة للزواج فهي تخضع لسلطة حماتها (أي: والد زوجها) بدلاً من سلطة والدها.

كان للزواج بصفته عملاً شرعياً بعض المتطلبات، فبالنسبة للزواج العادي الطبيعي ينبغي كتابة وثائق خاصة، إما عند رفع الخيلة إلى مرتبة الزوجة وإما أنه يتطلب منها أن تلبس الحجاب رسمياً، ولا يمكن الاعتراف بالزواج من أرملة إلا بعد انقضاء سنتين على مهشمتها معاً.

إن العلاقة ما بين الزوج وزوجته كانت مختلفة فكما هو الحال في العالم الحاضر.

ففي إحدى الحالات نسمع عن الحب والعشق لا من الشبيخوخة، ومن جهة أخرى نسمع عن الخصام بين الزوج وزوجته الذي يؤدي في حالة تفاقمه إلى خروج الزوجة من المنزل.

وكما ذكرنا سابقاً، يمكن للرجل أن يرفع مقام خليلته إلى مقام الزوجة، وتذكر هواتين الفترة الآشورية الوسطى كيف كان يجري ذلك بالتفصيل. فإذا لبس الرجل الحجاب لخليلته فإنه يكلف خمسة أو ستة من جيرانه بالقدوم ولبسها الحجاب أمامهم، ويعلن أن هذه زوجتي وتصبح عند ذلك زوجته. إن الإشارة إلى الحجاب يظهر في سياق القانون الذي سبق هذا القانون الذي يحدد بالتفصيل أي النساء ينبغي أن يتحجبن والتي لا يجب أن يفعلن ذلك.

كان الحجاب من أشرف الأوضاع، فمن جهة ينبغي أن تلبسه المرأة المتزوجة علناً أمام الجمهور، بينما كانت الماهرات ممنوعات منعاً باتاً من الحجاب، فإذا اكتشفت أن إحدى الماهرات كانت تسيروهي محتجبة فإنها تمرض لعقوبات شديدة بما فيه خمسين جلدة بالعصا وحب القطران على رأسها.

كان المشكل الرسمي للزواج هو أن تترك المرأة المائلة التي ولدت ضمنها وتدخل بيت الزوج.

ومع ذلك يظن بعض الباحثين أنه وفي أثناء الفترة الآشورية الوسطى كان هناك إمكانيات أخرى نظراً لأن القوانين الآشورية تقدم شروطاً لبقاء الزوجة في بيت أبيها.

فالقانون السائد ينص أنه إن كانت المرأة تعيش في بيت والدها مع تردد الزوج لزيارتها من حين لآخر.

وبعدها يتم ذكر التمرير بالنسبة للعقوق في الأملاك التي وهبها الرجل لزوجته.

ومن الواضح وطبقاً لقوانين أخرى أنه إذا بقيت الزوجة في بيت والدها فإن ذلك يكون بشكّل مؤقت، وأن السلطة النهائية على المرأة نفسها وعلى الأموال والأموال التي أتت معها تكون بالتعديد في العائلة التي تزوجت منها وليس في عائلة أبيها.

لقد ظن بعض الناس أن الوضع هنا حين تبقى الزوجة في منزل والدها إنما هو حالة زواج البنات الصغار القاصرات، وقد كان هذا موجوداً بلا شك نظراً لأن القوانين الآشورية قد نصت على زواج الصبيان اعتباراً من سن العاشرة.

ويمكن للإنسان الاضطرار أنه وبالنسبة لزواج القاصرات كانت الزوجة القاصرة تستمر بالمعيش مع والدها حتى تصبح في سن تكتمل فيه قدرتها على تحمل الوضع الزوجي، وعندها تنهب إلى بيت زوجها.

ولكن حتى ولو حدث هذا أحياناً فلم يلدنا ما يشير أن الزواج من القاصرات كان الحالة الوحيدة التي تطرق إليها القانون.

وإن أبسط تفسير هو: إن القانون كان مؤسساً على التمييز ما بين مرحلتين مختلفتين في عملية الزواج.

ففي آشور كما هو الحال في المجتمعات الأخرى كانت الرسميات القانونية للزواج (وهو عمل عقد الزواج) يمكن أن تفصل خلال فترة زمنية عن فترة المقارنة القانونية.

إذ إن القانون الذي يميز للزوج زيارة زوجته في منزل والدها إنما يشير إلى وضع يجعل المرأة تتأخر في العودة إلى منزل زوجها مع أن عقد الزواج قد تم في منزل والدها، وهكذا فإن زواج القاصر ربما دلّ على حالة متفردة خاصة. ولا شبهة في هذا الوضع يمنع الزوجة في أي وقت مكان العودة إلى منزل زوجها بطريقة عادية.

كان هناك عدة هدايا ومدفوعات مختلفة متصلة بالزواج، ففي وقت الزواج كان الزوج يقدم المجوهرات للمروس، مع أن هذه الهدايا لا تصبح في ملكيتها الخاصة وإنما تبقى ملكاً لزوجها، وفي حالة وفاته فإنها تنتقل للورثة، وإذا لم يكن له ورثة فإن الزوجة تحتفظ بها.

وما دام هناك أولاد فإن الزوجة لا تعتبر وريثة للزوج، ومن الممكن أن يخصص شيئاً من أملاكه لتنفقها الزوجة في حالة وفاة الزوج وصيرورتها أرملة، مع أن هذه الأملاك جزء من أملاكه مادام على قيد الحياة.

ويُقدّم مبلغ آخر لوالد المروس ولكنه ينبغي إرجاع هذا المبلغ في حالة وفاة الزوجة دون مولود ذكر.

وينبج بعض الحقوقيين والمختصين بالعلوم الإنمائية على اعتبار هذا المبلغ مهراً، ولكن بالحقيقة أنه ليس كذلك، ومن الممكن أن تجلب الزوجة بعض الممتلكات مساهمة في عملية الزواج كنوع من المهر.

ونحن نجد أحد عقود الزواج في القرن السابع يحدّد المهر الذي خصصته إحدى الموظفات الكبيرات في القصر لابنتها.

فقد كان هذا المهر يشتمل على مجوهرات وملابس وأسرة وكراسي وعدة أوامر ومقاليات وأدوات منزلية، ولقد بقي هذا المهر ملكاً للزوجة، وبعد ذلك تحول إلى الأطفال وليس لورثة الزوج الذين من الممكن أن يحكموا إخوته.

ولكن مع أن الملكية بقيت مقولة للزوجة إلا أنه يبدو أنه لم يكن لها الحق بالتصرف به مادام زوجها على قيد الحياة.

من الواضح أن العائلة الآشورية كانت ذكورية في توجيهها ، فلقد كانت النساء تحت سلطة الرجال ، وطبقاً لقوانين المهد الآشوري المتوسط فقد كان للزوج الحق في إيقاع العقوبات البدنية على زوجته حتى التشويه الجسماني.

ولكن وصف مثل هذه الأعمال البربرية في القوانين إنما لا يتمثل معياراً دارجاً بل يشير إلى الحدود التي لا ينبغي للزوج تجاوزها ، فقد كان على الأقل ممنوعاً من قتل زوجته ما عدا في حالة الزنا الثابت ، وهناك حق من حقوق الزوج على زوجته وهو أنه يستطيع بيع الزوجة مع أنه هنا لم يكن شائعاً ، إذ ليس لدينا إلا وثيقة واحدة تذكر مثل هذا الموضوع.

يبدو أنه كان هناك بعض المراسيم التقليدية التي كانت تحدث ما بين زمن عقد الزواج وبين ليلة الزفاف.

وهناك قانونان يشيران إلى حسب الزوج الزيت على رأس عروسه ، ومع عدم وجود تفاصيل حول هذا الموضوع فإن هذه المادة إنما تنتمي إلى ممارسات المسح بالزيت التي كانت كثيرة الشيوع في الشرق الأدنى القديم ، ولطالما ذكرت في التوراة.

ولما كان القانونان المذكوران يتطرقان لذكر جلب الصريس أطباقاً من الطعام للوليمة ، فمن الواضح أنه كان هناك حفلة لعرس الزواج.

كانت القوانين الخاصة بالجنس صارمة بالنسبة للزوجات ، إذا يستطيع الرجل المتزوج أن يزرل عقوبة الموت بزوجته الزانية ما لم تنجح في إقناع زوجها أنها اغتصبت.

وكان للأرامل حرية أوسع ، وقد صور لنا أحد القوانين إحدى الأرامل التي تعيش مع رجل دون وجود عقد زواج ، وإذا استمر هذا الوضع مدة سنتين فإن الأرملة تصبح زوجة رسمية يحميها القانون على الرغم من عدم وجود عقد زواج.

ويمكن للرجل أن يطلق زوجته ، وفي بعض الأماكن وبعض الأوقات كان الطلاق يتم بأن يمزق الزوج حاشية ثوب المرأة أمام شهود رسميين.

وإن بابل ينكرون وجوب دفع أموال لقاء الطلاق، ولكن في آشور لم يكن يطلب من الرجل أن يقدم لزوجته السابقة أي تمويض مع أنها تحتفظ بالهدايا التي قدمها الزوج في زمن الزواج، وليس للزوجة أي حق بطلب الطلاق بناء على رغبتها، والحقيقة أنه وفي بعض الأماكن وبعض الأزمنة في منطقة ما بين النهرين إذا حدث وتجرأت على التعبير عن مثل هذه الرغبة فإنها تلزم على الخروج من بيت زوجها عارية ومفلسة.

لكن لم تكن المسائل دوماً وفي كل مكان إلى هذا الحد ضد الزوجة. وفي منطقة نوزي في آشور (وهي قرب كركوك) وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد نجد امرأة قد تم تبنيها كإبنة ثم تزوجها إلى أحد المبيد وكانت تقول: خلصوني من منوبيا (وهو زوجها) وقد منوني لأرتيا كزوجة.

وعلى العموم وفي آشور إذا حدث وأن غادر الزوج المنزل دون إعطاء الزوجة أي نفقة ودون وجود أولاد يملونها فإنه وبعد خمس سنوات يجوز لها أن تتزوج زوجاً آخر.

وفي الحالات العادية لا يستطيع الزوج الأول المطالبة بالزوجة إذا حدث وعاد. ولقد كان هنالك بعض الاستثناءات، وإذا لو كان غياب الزوج على الرغم من إرادته مثلاً وقوعه في الأسر، عندها يستطيع استعادة زوجته حتى بعد مضي خمس سنوات على غيابه شريطة أن يقدم للزوج الثاني زوجة بدلاً عن زوجته. ولكن إذا كان سبب غيابه خدمة الملك لا يجوز للزوجة أن تتزوج رجلاً غيره حتى ولو بعد مرور خمس سنوات.

ربما يجب المرء كيف تستطيع المرأة دون وجود معيل مدة خمس سنوات أن تُدبر نفسها.

أو من الممكن أن تعود لبيت أبيها أو لبيت أحد أخوة زوجها مع أن القانون لا ينكر شيئاً عن مثل هذه الأحوال.

ولكن ما يقوله القانون واضح جداً إذا يقول:

((إذا صادف أن ذهبت المرأة وعاشت مع رجل آخر قبل انقضاء خمس سنوات على غياب زوجها وأنجبت أطفالاً فلن لزوجها الحق لدى رجوعه ونظراً لأنها لم تنتظره طبقاً لمقد الزواج بل تزوجت فلن لزوجها الأول الحق أن يستمدها ويأخذ الأولاد.))

وبهذا يعطي القانون انطباعاً وهو أنه: مع أن الزوجة قد تمسكت بصرفها غير مناسب فإن الوضع سوف يكون مقبولاً دون إنزال أي عقوبة عليها. وهذا اعتراف أنه وبلا بعض الظروف تضطر المرأة إما أن تتخذ زوجاً آخر أو أن تموت جوعاً.

ومن الممتع أن الأطفال الذين ولدوا من خلال المرأة غير الشرعية، ومع أنهم أولاد غير شرعيين إلا أنهم يعتبرون ملوكية ذات قيمة ويمكن للزوج الأول أن يطالب بهم.

ومن الممتع أيضاً أن الآشوريين لم يقيموا أي اعتبار للمزنية بينما زاد اليهود والإسلام والمسيحيون من اعتبارها بشكل كبير.

الحياة الجنسية

نعلم القليل عن الجانب الجنسي في الحياة في أرض ما بين النهرين القديمة مع أن جزءاً قليلاً من شواهدنا إنما هي متصلة بصورة خاصة بأشور أكثر منها بابل.

يوصف الاتصال الجنسي في عدد من الأختام الأسطوانية والألواح الفخارية التي تظهر أن العملية الجنسية كانت تمارس بأوضاع مختلفة، فضلاً عن أن مواجهة الوجه للوجه يُعد الوضع الطبيعي في المجتمع الفري الحديث (مع أن ذلك غير معتبر في أجزاء أخرى من العالم) وهناك بعض الصور التي يظهر فيه الرجل وهو يجامع المرأة من الخلف.

ويُفسر بعض الباحثين في تاريخ آشور أن هذه الممارسة كانت من الشرع، ويضمرونها بأنها نوع من اللواط، ولكن وعلى الأقل فلن الشخص المستلم هو امرأة، ويشبه هذا الوضع ممارسة الاتصال بالقرع من الخلف.

ومن جهة أخرى فإننا نعلم بالتأكيد أن بعض الرجال من منطقة ما بين النهرين كانوا يمارسون الاتصال الشرجي مع المرأة من الخلف، ونحن نعلم ذلك من مجموعة من الرقعات تشير واحدة منها إلى وضع يستمر الرجل فيه القول لزوجته: «أهلي إلى الخلف».

ولا نعلم فيما إذا كان هذا العمل ما بين الرجل والمرأة هو شكل من أشكال منع الحمل، أم هو مجرد عمل نوع من التمييز وهذا ما علينا أن نحزرم. ولكن هناك إشارة واضحة إلى كاهنة ذات مرتبة عالية كانت تمارس الاتصال الجنسي من الشرج وذلك منعاً للحمل.

وهناك وضع آخر مذكور يصور الرجل مستلقياً على ظهره بينما المرأة فوقه من الأعلى، وعدا عن كون هذا تبادلاً للأبوار فإنه ربما كان تلميحاً لإحدى النصوص التي تذكر:

إن رجلاً عمورياً كان يقول لزوجته:

((أنت ستكوئين الرجل ولذلك دعيني أمثل دور المرأة)).

ومع ذلك فقد كان تبادل الأدوار مبروهاً في بابل وربما في آشور.

وفي بعض الأحيان كان بعض الناس يمارسون الجنس وهم وقوف، وهناك إشارات إلى اللعب بالجنس يشجع الرجل فيه زوجته أن تداعب قضيبه حينما تطلب المرأة من الرجل أن يداعب فرجها.

وإن نقبل ومداخلة اثنين مذكور في النصوص، وقد صور هذا الوضع الأخير.

وهكذا نجد ذكراً لبعض النساء وهن يمارسن المادة السرية وهن يتبادلن النظرات مع الرجل.

وكان لكل من الرجل والمرأة على السواء يلجؤون إلى دهن أعضائهم الجنسية بقصد تسهيل الجماع والإدخال.

وسكان منع الحمل ساري المفعول أيضاً أحياناً ، لأننا نجد خصوصاً تشير مثلاً إلى (الناديتو) وهن جماعة من خادمت الممابد ، يحافظن بطرق بارعة على عدم دخول المواد الغفوية إلى أرحلهن.

ولكن لا نعرف ما هي تلك الطرق البارعة في مثل هذه الحالة ، وفي حالات أخرى نجد بعض المعلومات الخاصة حول وجود سدادات توضع داخل الفرج لهذا الغرض ، وكانت الرقي والأعشاب تستخدم للغرض ذاته.

وعندما كانت نساء الناديتو وغيرهن من خادمت الممابد يمارسن الجنس بشكل فوضوي كانت محاولتهن لمنع الحمل تبوء بالفشل ، لأن هناك ذكر لولادة أطفال لهن فإذا ولد أطفال غير مرغوب بهم (ليس فقط بالنسبة لنساء الممابد) فإن هؤلاء الأطفال كانوا يلقون في الشارع ليموتوا أو لتأكلهم الكلاب.

ولكن كانت مثل هذه القصة تحدث ضمن التوابل الحسنة ، وقد ذكر عن شخص يختطف طفلاً من ضم أحد الكلاب في الشارع.

وأما الشذوذ الجنسي واللواط بين الرجال فقد ذكر عن وجوده في منطقة ما بين النهرين ابتداءً من الألف الثالث فصاعداً ، مع أن بعض اللوحات والأختام التي فسرت بأنها تصف القيام بهذا العمل إنما هي صور حالات من الاتصال الجنسي (وهو من الفرج وليس الشرج) مع امرأة من الخلف.

وهناك خصوصاً تشير إلى علاقات لواطية بما فيها اللواط بين رجل ورجل ، أو بين رجل وصبي.

وأما في بابل فيظهر أنه لم يكن هناك أي إدانة لهذا العمل.

وأما في آشور وفي الفترة الآشورية الوسطى كانت مثل هذه الأعمال وفي بعض الظروف تعامل بقسوة بالغة.

ومن الممكن أنه وفي هذا السياق كانت هناك فروق بين بابل وآشور في المواقف.

ففي آشور: كانت القوانين تنص أنه إذا وجد شخص يمارس اللواط مع شخص آخر فإنه أولاً: تمارس اللواط على هذا الشخص، ثم يتمرض هذا الشخص للإخصاء.

وليس من الواضح فيما إذا كان هذا القانون يعالج اللواط بالنسبة لجميع الحالات المكتشفة أم أن الإشارة كانت بالنسبة إلى الاغتصاب الجنسي اللواطى. وبالنظر إلى المبدأ القديم الذي يجعل العقوبة مناسبة للجُرم وأن الجاني كان يتمرض بنفسه إلى الاغتصاب الجنسي فإن الوضع الأخير مكان هو السائد.

كان الخصي ظاهرة مألوفة، ولكن وجود الرجل الذي تمريض للإخصاء كمعقوبة كان قهلاً الوقوع، إذ الممل الشائع كان إخصاء الصبيان، إذ إن عمل الخصمان الفعلي هو الخدمة في البلاط الملكي.

وقد أصبح كثير من الخصمان موظفين مسؤولين كبار، وقد استمر هذا الوضع في الإمبراطورية التركية والفارسية حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

ولكن لم يكن جميع رجال البلاط الآشوري خصياناً، وكانت هذه الحالة تؤكد تسمية بعض رجال البلاط بـ (شاحزقني) بمعنى (أبو لحية) وهذا يكون غير مخصص.

وتسمية أخرى باسم: (شاحزقش) وهو المخصص.

وكان هناك في آشور شأن البلدان الأخرى قسم صغير من الذكور الذين لم تتطور وظائفهم الجنسية، وأصبحوا خصياناً طبيعيين وكان هذا سبباً لوجود شكل من الدعارة الذكورية.

ولقد اعترف أهالي منطقة ما بين النهرين أن للجنس عنصره من الدين، فقد كان هناك دعاوة دينية (ذكورية، وأنثوية، وخنثوية) مرتبطة ببعض الماعبد التي كان يجري فيها بعض الممارسات الجنسية، وكانت تشمل اللواط في بابل.

وكانت الإشارة إلى النشاطات الجنسية في المعابد في آشور أقل منها في بابل،
ولكن هناك شواهد كافية عن وجودها في آشور، مع أن الداعرين المنكوره
كانوا من الخصيان، إلا أن هذا لم يكن هو الواقع دائماً.

فقد كانت (الداعرات) من النساء موجودات في منطقة ما بين النهرين
بشكل طبيعي عادي، وذلك لوجود عادة المسطق (ذكر عنها في حالة واحدة
فحسب) وهذا يتعارض مع كثير من الإشارات إلى بعض الزوجات اللواتي يتخذن
المشاق، وهذا قد كان ينتج الشر لجميع الأطراف إلا أنه كان ذا جاذبية خاصة.

فإذا استطاع الزوج أن يقبض على العاشقين بالجرم المشهود فإن له الحق (بعد
الاثباتات الواجبة والبراهين) أن يقتل الزوجة وعشيقتها، أو أن يقطع أنف زوجته
ويخصي العاشق، وكان ينبغي معاملة كلا الطرفين معاملة متماثلة، إذ إن ترك
الزوجة دون عقاب كان يعني إطلاق سراح العاشق أيضاً.

ويعتبر الزوج في خطر إذا اتخذت زوجته عاشقاً لأننا قد وجدنا إشارة إلى امرأة
قد شجعت عاشقها على قتل زوجها، وذلك لكي تستطيع الزواج من حبيبها.

ويذكر الاعتداء الجنسي على الأقارب، ويذكر السفاح، مثلاً اتصال الرجل
بأخته جنسياً، أو بابنة أخيه، أو ابنته، أو كخته، أو والدته وذلك بعد وفاة والده.

وربما لم يكن من العدل أن نعزو هذه الصفة الأخيرة للأشوريين لأن شواهدنا
على هذه البشاعة قد أتت من بلاد بابل وذلك من قوانين حمورابي في أوائل الألف
الثاني، ولقد اعترف بهذا العمل جريمة نكراء وكانت عقوبتها حرق الأم وابنها.

وكما كان الحال في المصور والاماسكن الأخرى كان بعض الناس يقومون في
الحب وكانت قلوبهم تتأكل إذا رفضوا.

ولدينا أمثلة على وقوع الحكاية الشديدة من هذه الأسباب، وفي بعض الأحيان
كان الرجل والمرأة يصلبان للالهة أو يلجآن إلى رهي مسخرة للحصول على حب
المحبوب.

كانت بعض الطقوس السحرية مضمونة، مثلاً أن بعضها يدعى أن الرجل إذا قام بإتمامها فإن المرأة سوف تنكلم معه عند مقابلته لها، وسوف تصبح شاقدة الإرادة فلا تستطيع المقاومة، ومن الحكمة للرجل أن يمارس الجنس معها.

فيذا حدثت الخصومات بين عاشقين كانت المرأة المحرومة تلجأ إلى رقى وتعاويذ، ولهذا كنا نجد بعض الوصفات بالنسبة للسيدة التي تصادف مثل هذه الأحوال، وتقول الوصفة:

((إنه ولوجود هذا السحر فإن المرأة سوف لا تقام وحيدة، بل إنها سوف تكون محبوبة)).

ولكن كان للرجال مشكلات أخرى في هذا السياق وبينها ظهور الشيب، والمجز الجنسي، والقذف السريع، وقد كان شيب الشعر يعالج بالسائل المستعمل للصباغ والتماويذ.

وكان هناك سلسلة من الطقوس ومستحضرات طبية مختلفة بما فيها المراهم والمنشطات كانت متوفرة لمعالجة المجز الجنسي، ولكن وبينما هناك إشارات إلى القذف المبكر إلا أنه لم تتوفر أي علاجات لهذه القضية، ومن المعتقد أنه قد تم قبول هذا الوضع بصفته شيئاً سوف يعالجه الزمن والممارسة.

التعليم

إن معرفتنا عن التعليم في بلاد ما بين النهرين القديمة متقطعة، فلقد علمنا عن تعليم الكتبة وذلك لسبب واضح وهو: إن الكتبة هم الذين كانوا يؤلفون النصوص، وكان هذا هو النوع من التعليم الذي يهتمهم.

وحتى في هذا الصدد فإن جميع شواهدنا المفصلة تأتي من بابل في أوائل الألف الثاني إذ إن الوضع في آشور في فترة متأخرة كان مختلفاً.

نعود المعلومات المفصلة بالنسبة للتعليم في الألف الأول إلى الأسرة الملكية، ويروي آشور بانيبال في القرن السابع كيف أنه درس حكمة نابو وأتقن فن النسخ تماماً، معرفة جميع الخبراء وتعلم فن الرمي بالقموس وركوب الخيل والمربيات

والإمساك بزمam الخيول وفي مكان آخر يفصل لنا كيف تعلم القراءة والكتابة بقوله:

((لقد قرأت نصوصاً معقدة، كانت النسخ السومرية غامضة والنسخ الأكادية من الصعب فهمها، ولقد بحثت في الكتابة المسمارية على الحجارة من فترة ما قبل الطوفان.)) ولكن لم يكن هذا أمراً شائعاً، فلقد كان تعلم القراءة والكتابة باللغة المسمارية محصوراً بالكتابة فحسب، وكذلك الإداريين.

مع أنه اعتباراً من أواخر القرن الثامن كانت اللغة الآرامية تسير بخطوات سريعة في آشور مع وجود الكتابة بالحروف الأبجدية المرتبطة بها، وكانت هذه الأبجدية أسهل من المسمارية، وأصبحت واسمة الاستعمال.

وأما بالنسبة لتدريب الكتابة فقد كان هناك مدارس، إذ نجد مثلاً مجموعة تدعى (كتبة كاليزي) (وهي بلدة في شرق آشور) وهنا يشير إلى طلابهم الذين كانوا يتعلمون مهنة النسخ، ولكن ليس لدينا أي شواهد لوجود مدارس لتعليم مجالات أخرى من المعرفة.

وكان نظام الوراثة سائداً في المجتمع الآشوري وكان الابن يتعلم مهنة الأب أو تجارته وذلك بمراقبته ومساعدته حالما يستطيع المشي، وكان يتقن هذه المهن بمرور الزمن وإن من الممكن التلمذ لدى أحد المهنيين وكان من الممكن العثور على عقود التلمذة بحيث تكون الواجبات ملقاة على الطرفين.

الملك والبلاد

أما الدولة كانت هذه الكلمة وبكل معنى الكلمة من الممكن أن توضع ضمن أهوال أي ملك آشوري جديد. فقد كانت كل مظاهر الحياة الدولية والسياسية والعسكرية والدينية مرتبطة بالملك وكانت سلطة الملك مطلقة نظرياً مع أنها وبصورة عملية كانت هذه السلطة محاطة خلال حدود صارمة بعمليات المحرمات (التابو) التي كانت تحيط بمركز الملك الرفيع المقام.

وإذا قارنا الأوضاع بوضع الملك الآشوري فإننا نجد أن ملوك إسرائيل ويهوذا المنحدرين من نسل داود إنما كانوا قدامين جداً ومفتصبين للسلطة، فقد كانت هناك سلسلة طويلة من الملوك تحتوي على ما يزيد عن تسعين ملكاً حفظت أسماؤهم لنا بشكل سلسلة مستمرة غير متقطعة.

وقد حكم هؤلاء في آشور قبل أكثر من ألف عام من الزمن الذي أسس فيه داود أسرته.

وكما ذكرنا سابقاً فمع أننا شائنا شأن الآشوريين أنفسهم، نعتبر الحكام الآشوريين ملوكاً، وحتى القرن الرابع عشر كان الحاكم الآشوري هبستاء شمسي أداد الأول الذي لم يطلق على نفسه ذلك اللقب الذي نترجمه باسم الملك وبدلاً من ذلك كان يطلق على نفسه اسماً معناه (وصكيل الإله آشور) مما يعكس مركزه كتمثيل للإله على الأرض.

ولكن الحاكم الآشوري لم يكن إلهاً بالمعنى الكامل بل كان هو ظل الإله، وقد وجدنا كتابة رسمية موجهة للملك تذكر هذا في كلمات متعددة مثلاً: ((إنه والد الملك سيدي كان صورة للإله بعل، وإن الملك سيدي هو صورة لبعل أيضاً)).

وكان الملوك أيضاً يسمون ((شمس الشعب الإلهية)).

ومن الممكن أن ندعو هؤلاء الحكام ملوكاً ككهنة نظراً لأنهم وفي داخل مدينة آشور اعتبروا وارثي السلطتين الدينية والمدنية، وعندما منحت دولة آشور المدنية سلطانها لتصبح ما ندعوه دولة آشور المدنية عندها امتدت سلطة حاكم آشور معها فوق المدن الأخرى القديمة مثل (أرابخا وأرييل ونيوى) وأراضهم.

ولكن وإلى النهاية وحتى بعد أن انتقلت العاصمة إلى مكان آخر حافظ ملوك آشور على علاقة وسيلة دينية خاصة بمدينة آشور.

ولقد عاش الملك في بناء يدعى أكاديان (أيكالو) وهو يعني حرقياً (البيت الكبير) ولما كان هذا البناء هو مكان إقامة الملك فإن هذا الاسم يدعى

بالقصر ، ولكن تستعمل نفس الكلمة للدلالة على الأبنية الإدارية وهي بعيدة عن العاصمة ، وقد كان يمثل أيضاً مقر الحكومة والدولة فقد كان القصر الملكي أكبر من مقر الملك بل كان هو مركز الحكومة والدولة الرئيسي.

وبهذه الصفة فقد كان لا يتسع للمقر السكني للملك فحسب بل وما يتهمه من أماكن وضع المون لاستضافة ضيوف الدولة من الطبّاحين والخبازين وصانعي البيرة ، وكذلك هيئة كبيرة من موظفي الدولة والإداريين المدنيين وضباط الجيش فضلاً عن السفراء الأجانب والأمراء القادمين من الدول الموالية والمحكومة الذين حفظوا في البلاد كرهائن ولكي يتعلموا في آشور المادات الآشورية.

وهناك أشخاص آخرون يعيشون ضمن القصر الملكي وهم الكتبة الذين يتقنون عدة لغات وفنون الكتابة ، وكذلك موظفو جمع الضرائب والمترجمون والأطباء والموسيقيون ورجال الدين والمعلمة وكذلك طبقات عديدة من الكهنة ورجال الدين.

وكان هناك أيضاً الخزانة الملكية بما فيها من الموظفين وكانت إعالة جميع هذه الفئات واجباً ثقيلاً تتم تلبية من الإمدادات التي يرسلها المسؤولون في المناطق ، وبعض الفترات كان هناك أسود ملحقه بالبلاط تطعم بوجبات منتظمة من الأغنام.

وفي داخل البلاط الملكي كان هناك عدة بلاطات ثانوية مثلاً بلاط والده الملكة ، أو ولي العهد مع ما يتبعها من الموظفين مع أنه في إحدى الأزمنة كان لولي العهد قصر مختص به يدعى: (دار ولاية العهد)).

وربما كان للحاكم المحلي قصر في العاصمة منفصل عن القصر الملكي. ولم تكن مقابلة الملك متوفرة لجميع الشعب في البلاط ، وذلك لأن هذا الشخص شبه الإله معرض لعدد كبير من المنوعات (تأبؤ) ولم يكن مسموحاً بمقابلته إلا لموظف واحد فقط ، وهو ناظر القصر الذي يحق له وحده الاتصال بالملك.

ولا يصح لولي العهد الاتصال بالملك إلا عندما تسمح المؤثرات الفلكية بذلك وتكون هذه المؤثرات الفلكية مناسبة.

ومع ذلك فقد كان هناك مناسبات يستطيع بها رجال البلاط الآخرون الاتصال بالملك مثلاً عندما يوصل أحد المراسلين للملك خبراً مفاده أن أحد رجال البلاط قد قبل هدية من شخص طالباً منه أن يكلم الملك بالنيابة عنه.

وقد كان هناك أي شخص يأتي من الخارج ويسمح له بمقابلة الملك يفعل ذلك وهو معصوب العينين، وهذا وإن إمكان الاقتراب من الملك ومقابلته عندما تكون الظروف مواتية وأن يبقى الملك منزلاً عندما تكون الظروف غير مواتية، هذا الوضع سبب زيادة نفوذ الخبراء الذين يفسرون الظروف الفلكية.

وقد كانت هناك مناسبات يظهر فيها جميع الموظفين الكبار أمام الملك لتأدية عروض الطاعة، وكان ذلك أمراً مختلفاً بالنسبة إلى الأشخاص المعنيين بالأمر لأنه كان من المنتظر أن يقدم هؤلاء هدايا ذات قيمة، وتتضح قيمة سلم هذه الهدايا من الموظفين الكبار إلى صاحب الجلالة وذلك من قيمة الذهب التي أرسلها أحد الحكام إلى ولي العهد بما قيمته رطل من الذهب، بما يعادل حسب أسعار أوائل الثمانينات من هذا القرن (١٩٨٠م) مقدار (٢٠٠٠) جنيه إسترليني.

ولقد ذكرت المتوعات التي كان يخضع لها الملك وذلك إما لتلبية متطلبات الطقوس الدينية أو كحماية للملك من أي حوادث تحدث في يوم من الأيام من حوادث سوء الطالع.

وكان بعضها يشمل الإهانات أو الإزعاجات وهكذا وفي مناسبات عديدة نجد أن على الملك الآشوري أن يقوم بالصيام مدة عدة أيام حتى ظهور القمر من جديد، أو أن يتمتع عن تناول الطعام الملبوخ أو أن يلبس ملابس إحدى المربيات، أو أن يبقى محبوساً في داخل القصر أو أن يلبس ثوباً أبيض لمدة عدة أيام، أو أن يجلس لمدة أسبوع في كوخ من القصب ويعامل كما أنه لو كان مريضاً.

وكانت العلائم الفلكية تستطيع توقيف جميع أعمال الدولة، مثلاً المعاهدات التي ينبغي تصديقها عن طريق أداء القسم أمام الآلهة يمكن لهذه الإجراءات أن

تتم ضمن أيام معينة ، وذلك لأن أداء القسم في أيام غير مواتية ربما يسبب نتائج وخيمة.

وإن أغرب تلك الممنوعات وأطرفها ذلك الذي كان يأمر في حالات تظهر فيها علائم خطيرة أن يتنازل الملك عن السلطة مؤقتاً ويسلم العرش إلى شخص بديل ، وأن يتزوج هذا البديل عروساً ويحكم مدة مائة يوم ويستعد لجميع الشرور التي كانت تهدد الملك ، وهكذا ينقذ الملك الدولة من إحدى الكوارث.

وفي نهاية الأيام المائة يعدم الملك البديل وعروسه ويدفنان باحتفال كبير ويمود الملك إلى عرشه بأمان.

وكان أحد الملوك الجدد ولاسيما (اسرحدون) كانت تتجابه الكوابيس والخرافات حول سوء الطالع ، وكان الخبراء في قضايا سوء الطالع يتلاعبون كالأطفال بالملك ، إذ نجد الملك مثلاً - قلقاً لأن حيواناً يدعى النمس قد جرى تحت عريته إذ إنه كان يعرف سوء الطالع الذي حدث عندما مد النمس يده بين رجله ، وهل هذا ينطبق على الوضع إذا كان هذا الرجل راكباً عريته؟ والحقيقة هذا ينطبق.

وفي حالة أخرى نرى الملك (اسرحدون) خائفاً جَزَعاً وذلك عند حدوث هُرَّة أرضية ولم يكن خائفاً من الحادث نفسه بل من الشرور التي كان يتنبأ بها الحادث.

فقد كان أحد الكهنة يقول له:

((إن الذي صنع الهزة الأرضية قد صنع أيضاً الطفوس المضادة للحيلولة دون وقوع الشر الذي تقدر به الهزة.))

وقد كان اسرحدون يميز عن قلقه ومخاوفه مما جعل من الضروري مواساته ولاسيما حول الخسوف والكسوف.

وإلا حالة أخرى حاول أن يكتشف من بعض الكتب ما كانت بعض نذر الشر من ولادة معينة تنذره. بينما يحاول أحد الكهنة أن لا يشجعه على اتباع فوضى الأشخاص الهواء المتدخلين في شؤون الغير.

وقد قال الصكاهن: ((إن ذلك الكتاب كان صعب الفهم جداً، ولا يستطيع أي إنسان لم يدرس هذا الكتاب دراسة مفصلة أن يفهمه، وإن هذا الصكاهن سوف يفسر للملك شخصياً عند مقابله.))

(وهذا شاهد عن سهولة وصول الكهنة إلى الملك).

كان مسكن الملك مفصلاً عن القسم المخصص لشؤون إدارة الدولة، وكانت مشكلة الملك الرئيسية هي إبقاء نسائه في ظروف النظام، وإن لدينا سلسلة من المراسيم تدعو إلى ذلك، وهي تعود إلى ما بين القرن الرابع عشر والحادى عشر.

ولقد كان إخلاد النساء إلى النظام عملاً مزعجاً ومعرجاً، وذلك نظراً لأنه بالإضافة إلى الزوجات والمخلصات اللواتي اتخذهن الملك نساءً على اختياره الشخصي فإن لديه عدداً كبيراً من السيدات الأخريات الفاديات إلى القصر وهنّ إما كن مرسلات من بعض الأمراء الذين كانوا يطلبون التحالف معه بسبب المصاهرات، أو إنهنّ قد جلبن كجزء من الجزية والفتنات من المدن المغلوبة على أمرها.

فالحياة سوف تكون مزعجة وتسبب شدة الأعصاب عند وجود عصابة من النساء محصورات كلهنّ معاً، وهنّ يتنافسن على رضا رجل واحد.

وتشير المراسم إلى زوجات الملك والنساء الأخريات اللواتي كنّ يتقاتلن ويتلاعنّ بعضهن مع البعض الآخر.

ولذلك تشير المراسم الخاصة بنساء البلاط إلى أن النساء كن كالمهاترات، وقد كانت مشاجراتهن مصدر تسلية لرجال القصر، ولكن إذا سمع أي شخص من هؤلاء النساء وهن يتشاجرن أو يقتنن الأمر الذي كان يشبه ما يحدث في

الشرق الأدنى في هذه الأيام، فإن هذا الشخص الذي سمع معرض للضرب الشديد، أو قطع إحدى أذنيه.

وبالنسبة للنساء أنفسهن فكان من الصعب إحلال النظام بينهن، وكانت نساء القصر يملكن حق الأمر بضرب خادماَتهن ثلاثين ضربة بالمصا إذا قمن باقتراك أي ذنب ولأول مرة.

وكانت هذه المقويات تجري بشكل وحشي، يصل إلى حد قتل الفتاة ضرباً، ولكن في حال حدوث ذلك فإن الميدة نفسها تصبح عرضة للعقاب.

هناك قواعد صارمة بخصوص التقاء رجال البلاط بنساء القصر، فإذا حدث ودعت إحدى سيدات القصر أحد رجال البلاط وكانت عارية من الثياب، وإذا نظر إليها أثناء المحادثة فإن هذا الرجل كان يُضرب ضرباً مُبرحاً.

وهذا يدل أن بعض نساء القصر يصلن إلى حالة من الضجر إلى درجة تسلية أنفسهن بتفذيب رجال البلاط.

ولم يكن مسموحاً ولا بأي حال من الأحوال أن يقترب أحد رجال البلاط أكثر من مسافة سبع خطوات من أي امرأة ليتكلم معها.

أما اللقاءات غير الشرعية إذا حدثت واكتشفت فإن ذلك يعني الموت لكلا الطرفين.

وإذا اضطر أحد الموظفين للدخول إلى داخل القصر كان على جميع النمرة الخروج من المنطقة إلى خارج أماكن إقامة الحريم.

وكان هناك حالة المتع الشرقي المادي بالنسبة للمرأة التي تمر بفترة العادة الشهرية، وتتنسج بعض المراسيم على ما يلي:

((عندما يحل وقت تقديم الأضاحي (وهو أحد المناسبات الدينية) فإن أي امرأة من التي لا يجوز الاقتراب منها، (وهذا يعني حالة المرأة في حالة العادة الشهرية) إنه لا يجوز لئل هذه المرأة أن تدخل إلى حضرة الملك.))

والطريف أن يمنع دخول المرأة في تلك المناسبة مما يعني أن ذلك مكان ممنوحاً
في الأيام العادية.

الفصل العاشر

الحياة المثالية

تكشف الأشياء التي يُحيط الناس بها أنفسهم مكنون مواقفهم وكأنها عبارة عن دراسة لمؤسساتهم الاجتماعية ، وهكذا فإن فحوص الملابس والأثاث لدى الآشوريين ربما يساعدنا على فهم أي نوع من الناس كان هؤلاء الآشوريون.

الملابس

إن هدفنا هنا أن نُركِّز بقدر الإمكان على الشواهد التي تطبق بصورة خاصة على آشور وبصورة خاصة في الفترة المتأخرة (أي: الألف الأول). وهناك نوعان رئيسيان من الشواهد :

أولاً: هناك نصوص تقدم لنا عدة كلمات حول اللباس بما فيها قائمة مفضلة ذات تركيب لغوي وهو نوع مؤسس على موسوعة روحية ، ولسوء الحظ فإن هذا لا يوصلنا إلى الهدف الذي نبيّحه ، وفي عدة حالات لم يكن لدينا أي فكرة عن المواد التي تعنيها هذه الكلمات أو كيف تظهر الثياب ، وهذا ما نحتاج المساعدة لمعرفة من مصدر الشواهد.

الثاني: وهو يمثل الثياب الحقيقية التي يمكن أن توجد على عدة مشاهد فنية مثل المنحوتات واللوحات المجسّمة والألواح والعاج المنقوش والأختام الأسطوانية.

هل كل إنسان يلبس ثياباً؟ إذ حسب معرفتنا اعتباراً من الألف الثالث فصاعداً فإن الناس الوحيدين الذين يسبّرون أحياناً عِراء كانوا بعض الكهنة في أثناء بعض الطقوس الدينية التي تتطلب التمرّي.

وأحياناً كان أسرى الحرب يسبّرون وهم عِراء عند تقديم واجبات الخضوع والطاعة ، وهناك لوح مجسّم يظهر بعض الناس وهم عِراء يجرّون قارباً ثقبلاً

محملاً ولكن وفي هذه الحالة من الممكن أن يكونوا قد تمرّوا بسبب اضطرابهم للخوض داخل الماء.

إن إمكان التمرّي لجميع السكان تلمسه من فقرة قالها الملك أسرجدون: بأنه سوف يمد المرأة بالملابس، ولكن هذا كان في بابل عندما حاول الملك أسرجدون أن يراب الصدع الذي أحدثه والده سنعاريب، وهكذا كان الحال بالنسبة لعدد كبير من السكان الفلبيين ومن اللاجئين، وكان وضعاً استثنائياً.

ومن الجائز أن أسرجدون كان يبالغ في مدى البؤس الحاصل للتأكيد على كرمه، وتذكر إحدى النصوص إمكان حصول العوز والفاقة عند بعض الناس، لدرجة أنهم يرتدون الثياب المصنوعة من ورق البردي وهو الورق الذي صنع منه الورق المستعمل للكتابة قديماً.

سوف نبحث أولاً: في الملابس النموذجية للمرأة وكان العنصر الرئيسي هو رداء يحيط بالوركين ليفطي عورتها، ونعلم أن هذا الثوب ينبغي أن يمد بين الساقين وبمدها يربط، وذلك يعرف من أحد النصوص الذي يذكر إحدى العاهرات قد حكّت رباطها ليسهل الوصول إليها، ويظهر أن هذه القلعة كانت تشبه النوع القديم من حفاضات الأطفال في الوقت الحاضر، لكنها تربط بواسطة رباط بدلاً من الديوس، وهناك تلميحات بوجوب ارتداء المرأة كساء حول ثدييها ولكن ليس لدينا معلومات حول هذا الموضوع، إذ نحن نقابل بعض الصور حيث تبدو بعض الخادومات وأثناؤهن عارية، ولكن ربما كان هذا بدعة فنية ولا يبرهن بالضرورة على انتشار عري الصدر بين الإماء.

مهما كان الوضع بين الفتيات الإماء فإن السيدة الآشورية لم تكن تظهر أمام الجمهور دون ارتداء الملابس الكاملة. مع أنها كانت في حالة السرية في بيتها خفيفة الملابس، وكان هذا هو الوضع بالنسبة لمسيّدات القصر في الألف الثاني المتأخر، نظراً لأن المراسم بالنسبة للحريم الملوكي في تلك الفترة تنص أن سيّد القصر ينبغي أن تحصل على إذن للحصول على ملابس تلبسها عند خروجها، ومن المحتمل أن تكون الملابس الموصوفة والتي تتم لبس السيدة كما يجب إنما

هي الملابس التي تصوّر بها السيدات في مجال الفن بحيث إن اللباس المثالي كان أبسط من تلك، وإن الصور تظهر أن السيدة التي ترى في المجتمع عادة كانت تلبس رداءً فضفاضاً ابتداءً من الكتف حتى الكامل مع وجود نصف حكم وهو مثبت بحزام.

وفي أسفل الرداء هناك تبدو ثلاثة أو أربعة خلاخيل على شكل ساق، وإن شعرها الطويل (الذي يدعمه أحياناً شعر مستعار كما تكشف النصوص) كان مجدولاً بمدة ضفائر.

وتذكر المراسيم المختصة بالحريم الملكية أن السيدة ينبغي أن تخرج من القصر وهي مرتدية حذاء للخروج مما يدل أن السيدات داخل القصر كن يمشين حافيات الأقدام.

وكانت الماهرات يرتدين ملابس خاصة من أجل جذب الانتباه، وقد سمعنا أنهن كنّ يرتدين نوعاً خاصاً من المعاطف الجلدية، وكانت إحدى ماهرات المعبد متميزة بالشعر الأجد، ولم تشجع الماهرات على ارتداء ملابس محتشمة.

وقد كانت الماهرات ممنوعات من قبل القانون من ارتداء حجاب الأمر الذي كان مفروضاً على السيدات المتزوجات عندما يخرجن من بيوتهن.

كان الشكل الأساسي للملابس الرجل التي كانت تغطي الرجل من رقبته حتى الركبتين مع أحكام قصيرة وحزام في الخصر لكن كان هناك صيغ مختلفة لهذا اللباس، فمن الطريقة التي تُطَقُّ بها الثياب كان للرجل ثياب خصوصية عند الخروج مؤلفة من ثوب منفرد، ونوع من ملابس الخروج.

وفي بعض الحالات فإن الجزء تحت الحزام فيه نوع من الشرائط بالطول الكامل، وهي تظهر أنها كانت تُلف حول الجسم وتوحي أنها كانت جزءاً منفصلاً من الثوب تشبه ثوب الخروج، وكان من الممكن تعديل هذا النوع من اللباس بطرق مختلفة، ففي بعض الحالات هناك شرائط ممتدة بلليل من كل كتف وتصلب عند الصدر.

وفي حالات أخرى فقد تطورت إلى نوع من اللوح المزلف من زرد كان يستعمله الرماة.

كان الجندي المادي والرجل المادي يرتدي رداءً يمتد حتى الركبة، ولكن الأشخاص ذوي الرتب المالية كالموظفين الكبار والضباط العسكريين كانوا يضيفون عباءة فوقه، وكانت هذه مسألة هيبة وذلك لأن مراسيم الحريم ذكرت أنه إذا اتهم أحد رجال البلاط بإهمال واجبه فإنه يعاقب بتجريدته من عبايته.

وكانت العباة مصنوعة من الصوف وأحياناً من الكتان ضمن سلسلة من الألوان التي تتدرج من الأزرق والأحمر والأرجواني والأبيض.

وعدا عن العباة كان هناك رداء يلبس فوق الملابس وهو بدون أكمام، وكان يلبس فوق الرقبة وكان يشبه الكوتش (وهو المعطف الواقى من المطر) والرداء الكهنوتي.

أما ملابس الملك وأيضاً ملابس الموظفين الكبار فقد كانت معقدة بحيث إنه من الصعب تحديد ما يلبسه الملك حين نشاهد صوره في لوحة مجسمة، وعندما نرى الملك مرتدياً ملابس تلبس في المناسبات الاحتفالية فإنه يلبس عدة طبقات من الثياب مع أنه من غير الثابت إذا كان الرداء معنوياً ثوباً واحداً أم أكثر.

وإن الجزء المرثي بالنسبة لنا يمكن أن يكون شريطاً واحداً من القماش ملفوفاً حول الملك مثل المساري الهندي، وكان هذا الرداء مزيناً بأزهار مجوهرية وأحياناً مطرزاً برسومات دينية.

وفي الحالات التي تلزم بها سرعة الحركات فكما هو الحال في حالات الحرب أو الصيد فإن الملك كان يلبس شكلاً أبسط من الملابس مؤسماً على قميص الجندي المادي، ولكن مع إضافة شيء من الوفاق يجعله ممتداً حتى الكاحل وهو بالتالي يشبه القميص الليلي أو ما يدعونه في المراق اليوم بالدشداشة.

كانت المادة الأكثر استعمالاً في صنع الثياب هي الصوف، مع أن الكتان كان معروفاً من قنرات مبكرة، وقد استعمل في صناعة أردية من أصناف من

النوعية الأرضي، أما القطن فلم يصبح متوفراً إلى أن استقدمه ستعاريب وأدخله إلى بلاد آشور حوالي عام (٧٠٠ ق.م) وهو تاريخ بدء استخدام القطن في صناعة الألبسة.

وقد استعملت مواد أخرى أحياناً في صناعة الألبسة، وهذه تشمل الجلود وأوراق البردي.

لباس القدم - الحذاء -

وإذا حكمنا على أساس اللوحات المصنوعة، فقد كان الآشوريون يمشون حفاة الأقدام حتى في أثناء الحروب، وكان أكثر الأنواع شيوعاً هو الصندل المكون من كعب ذي إسفين يُثبت بواسطة أشرطة تمتد فوق أعلى القدم وحول الإصبع الكبير أي: الإبهام ولكن هناك أحذية أكثر تعقيداً.

وهناك شكل من هذه الأحذية كان حذاءً يغطي كامل القدم وكان الجزء الذي يغطي قوس القدم مصنوعاً من مادة مختلفة عن بقية الحذاء. ويظهر مكانه مصنوع من القماش المدرووز في الجلد.

وقد ظهرت الجزمات غالباً ولاسيما التي كان يلبسها الصيادون أو الرجال الذين يشتركون في إحدى الحملات العسكرية، وكانت هذه مزلفة عادة بطول الركبة أو بطة الرجل ويلبس فوق جوارب طويلة.

وهناك أيضاً مادتان مختلفتان مصممتان فقد كانت مقدمة رجل الجزمة مصنوعة من القماش مع أن البقية كانت مصنوعة من الجلد.

وكان هناك إضافة لتقوية الحذاء عند الكعب وقد كان بعض الأجانب يلبسون نوعاً من الأحذية له خانات للأصابع ملتفة إلى الأعلى يشبه نوعاً من الأخفاف موجودة الآن في تركيا، ومن المنطقة حول كركوك وحوالي عام (١٤٠٠ ق.م) سمع عن طماقات مصنوعة من نوع من القماش. مع أنه ليس من الواضح إن كانت هذه جزءاً من الجزمات أم أنها عبارة عن قطع منفصلة بذاتها.

أما المعلومات حول أحدى النسوة فكانت أقل وفرة مع أننا نجد مراجع تشير إلى أنواع خاصة من الأحتية تلبسها السيدات، ونحن نحلل صورة الملكة آشور بانيبال وهي تلبس نوعاً من الخف الذي كان يغطي التصف الأمامي من القدم من النوع المتداول المعروف الآن باسم (الخف).

المجوهرات

لقد كان الرجال والنساء، يلبسون المجوهرات، ومع أنها لم تكن من نوع واحد، فقد سبق أن ذكرنا عن لبس النساء الخلاخيل، وهذه العادة لا تزال مستمرة بين الفلاحات في العراق حتى الوقت الحاضر.

وفي بعض الفترات وفي منطقة ما بين النهرين كانت النسوة من أعلى الطبقات يلبسن زينة للمصدر مكونة من معادن ثمينة، ولكن لا يبدو أن هناك شواهد على هذا في الفترة المتأخرة من عصر دولة آشور.

وكانت بعض المجوهرات الخاصة بالنساء الآشوريات تتألف من قلائد من المعيق الأبيض معلقة في سلسلة ذهبية، وقد وجدت هذه في بعض القبور.

وكان الرجال يلبسون أيضاً مثل هذه القلائد وذلك حسبما نعلم من عقيق كُتب عليه نقش مفاده أنه:

حجر الرهية خاصة نوكولتي- نينوترا.

وكان هذا هو الملك الثاني الذي كان يحمل هذا الاسم، وقد حكم هذا من عام (٨٩٠-٨٨٤ ق.م) وكان سلفه الأكبر نوكولتي- نينوترا (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) قد رُسم في لوحة ناهرة وهو يلبس اقراطاً في أذنيه.

وكان الرجل يلبس حجر تمويذة يتدل من عنقه، وكانت هذه التمويذة يشكّل رأس شيطان، وهي مستعملة لدرء الشر، وأحياناً كانت حجراً نقشت عليه تمويذة.

وأما الأختام الأسطوانية المولفة عادة من أحجار شبه كريمة ، وكانت هذه تلبس بنفس الطريقة.

وكان من المعتاد بالنسبة للرجال الآشوريين ذوي المراتب العالية وأحياناً النساء أيضاً أن يلبسوا الأساور على المعاصم ، وكانت الإسمارة تحمل زهوراً مستديرة بحيث تظهر بشكل ساعة اليد في العصر الحاضر. وكانت الأقراط عنصراً مشتركاً بين الرجال والنساء ، وكانت تحمل الهلال ، وكانت مصنوعة من الذهب أو الفضة ، مع وجود قلائد من أشكال مختلفة ملحومة بالقرط.

والقارئ الذي يرغب في الحصول على تفاصيل وافية عن هذه سوف يجدها موصوفة في كتاب Hyslop .

تأليف: K.R. Maxwell .

واسم الكتاب: المجوهرات الآشورية القريبة منذ (٣٠٠٠-٦١٢ ق.م) عام (١٩٧١م) من الصفحات (٢٢٥-٢٢٦).

الشعر وأغطية الرأس

يطلق الرجال الآشوريون الذين يرتدون لحاهم بشكل كثيف ، وكذلك شواربهم الضخمة.

وأما الرجال الذين نشاهد صورهم بدون لحى فقد كانوا إما شباباً صغاراً ، أو خصياناً.

وكان شعر اللحية طويلاً ولكن كان يمتسى به كثيراً مع ترك الأذنين مكشوفتين ، ونجد اللحي وشعر الرأس متموجاً وأجعد بنهايته ، وليس من المحتمل أن تكون شعور الآشوريين جميعهم مموجة ، إذ معنى ذلك أن الرجال كانوا يلجؤون إلى الحلاقين لتمويج شعورهم.

وهناك بعض الموظفين الذين كانوا يعملون في الخدمات الدينية والذين من الممكن أن تتجاوز وتدعوهم كهنة ، كان هؤلاء يحلقون بقعة من رؤوسهم كعلامة على طيبة وظائفهم ، وكذلك كان الأطباء.

لدينا كثير من الصور يُرى فيها الآشوريون لا يسيرون بغطاء الرأس، ولكن قسماً كبيراً من هذه الصور تمثل الآلهة، والعائلة المالكة والجنود أو الوثائق الدينية الذين كانوا يلبسون في بعض المناسبات أغطية رأس قديمة مهجورة، ربما كانت مرتبطة بمراتبهم أو أحوالهم الدينية.

ولمست هذه ممثلة لطراز أغطية الرأس في ذلك الزمن مما تمثل أغطية الرأس في الوقت الحاضر، والتي يلبسها الشرطي أو لباس الرأس للكهنة الكاثوليك، أو لباس الرأس للديون الإسياني.

وقد كانت الأشكال الوحيدة لأغطية الرأس الآشورية التي تمثل لنا لكي نستنتج أنها غطاء رأس نموذجي هي عصاية الرأس.

وقد كان هناك عدة أشكال من هذه العصاية بمنطبع الخبراء الفنيون تمييزها وإطلاق أسماء خاصة عليها.

ولكن بالنسبة للأغراض العملية فلم يكن هناك سوى عصاية الرأس التي من الممكن أن تكون مزينة أو بسيطة، أو تكون لها ترويسة أو لا تكون.

وكان الرجال والنساء يلبسون مثل هذه العصاية لكي تظل شعورهم مرتبة. أو ربما تُثبت فوق عمامة وكانت من طراز معقد ومهيب بالنسبة للملوك والموظفين الكبار.

المفروشات المنزلية

ليس من خطأ الكتبة في بلاد ما بين النهرين كون مآرنا عن التجهيزات المنزلية قليلة ومتقطعة.

فقد كانت طبقة المثقفين مولعة بإدخال الأنظمة والموديلات الجديدة إلى عالمهم.

ولذلك ودعماً لهذه الفكرة كانوا يدونون قوائم طويلة تشمل جميع الأشياء، ابتداءً من أسماء الآلهة إلى المصطلحات الخاصة بالأغنام، ولم تكن محتويات

البيوت محرومة من هذه الاعتبارات إذ إن النصوص السملرية تقدم لنا كاتالوكات وأهية تصف فيها المفروشات المنزلية.

ولسوء الحظ فقد بقيت هذه المصطلحات مجرد أسماء بالنسبة لنا، وفي بعض الأحيان كانت تضاف تفاصيل إضافية للنصوص، أو اكتشافات مواد من الحفريات وهذه تسمح لنا أن نخصص اسماً لبقعة من بنود الأثاث المنزلي.

ولكن وحتى بالنسبة للأشياء المعروفة في بلاد ما بين النهرين القديمة فلا نستطيع الافتراض أن هذه الأشياء مستعملة في بلاد آشور.

وهيما يلي سوف نهتم بما يمكن إثباته فقط، أو ما يمكن استنتاجه بشكل معقد بالنسبة للبيوت الآشورية والقصور في الألف الثاني والأول قبل الميلاد.

إن اختلاف أصناف المفروشات التي تستعملها البشرية متعددة بالحاجة إليها، إذ إن معظم الناس هم بحاجة إلى أشياء تحميهم من الرطوبة أو البرد أو حرارة الأرض أثناء النوم، وهم بحاجة إلى بعض المسطوح التي يستطيعون أن يأكلوا منها طعامهم.

وإن أول المتطلبات تقتضي ضرورة استعمال الحصير والحرايات والتي تطورت فأصبحت فراشاً وكانت هذه الفراش تشمل إما فراشاً تمد على الأرض مباشرة أو طبلبات مرتكزة على قوائم والتي نمرقها باسم الطاولة.

وبوجود استعمال الطبلبات كان الأكثرون يجلسون على الأرض وربما يضمون بعض الوسائد تحتهم طلباً للراحة.

ولكن وجود الطاولات التي كان يفضلها سكان ما بين النهرين القدماء يستلزم إضافة كراسي للأظهر أو مصطبات أو كراسي عادية وقد وجدت في بلاد آشور جميع قطع الأثاث الرئيسية مثلاً: الكراسي بلا ظهر والقاعدة والكراسي والطاومات والأسرة.

ولكن لا يعني هذا أن كل إنسان في آشور القديمة كان يستعمل هذه الأدوات إذ إن قطع المفروشات الشديدة التمهيد كانت محدودة بالأغنياء، أما

الرجل العادي فكان يعيش في هذه الحياة دون وجود أي مفروشات عدا بعض الحصر من القصب التي كانت تخدم شؤون الجلوس والأكل والنوم وشؤون الدفن.

الكراسي بلا ظهر - الطاولات والكراسي العادية -.

كانت الكراسي بلا ظهر مصنوعة من القصب وإطار خشبي، مع أننا نسمع عن وجود كراسي من هذا النوع أكثر تعقيداً وكانت تصنع من الخشب القاسي الممتاز، وتزين بنقوش من العاج أو الذهب وكانت هذه الكراسي تستعمل كمقاعد أو كرسى كائز يضع عليها الإنسان قدميه.

كانت المصنوعات مصنوعة بصورة شائعة من الغضار (اللبن) أو الغضار المشوي، مع أنها كانت تصنع أحياناً من الخشب.

وكانت تثبت عادة على طول الجدران وتظهر الشواهد الأثرية عنها وكانت تعود إلى فترات مبكرة قديمة في المعابد وبيوت السحرة.

ولكن يبدو أن الشواهد عليها في بلاد آشور شحيحة وقليلة وقد وجدت كلمة في بعض النصوص الآشورية الجديدة يمتثلها بعض الباحثين أنها تعني مقعداً للنوم ربما ولت على شيء مختلف تماماً.

وهناك شواهد أثرية وافرة حول الكراسي التي كانت ذات هيكل مصنوعة من مختلف أنواع الخشب، وأحياناً كانت تزين بنقوش من النحاس أو البرونز أو الفضة أو العاج المزخرف.

وكانت المقاعد تغطي بالجلد أو سمف النخل وأوراق البردي ومن الممكن أن تكون مبطنة بالباد، وكانت الكراسي تزود أحياناً بأغطية فضفاضة من الصوف، وكان من الممكن إحداث تحسينات مختلفة على الكرسي البسيط مثلاً يمكن تطويره ليصبح كرسياً ذا ذراع، ومن الممكن في حالات خاصة أن يصبح عرشاً للملك.

إذ نحن نرى سنعاريب جالحمأ على كرسي من هذا النوع عند حصاره لأخييين.

ومن الممكن إضافة بعض الأعمدة للكراسي يجري استخدامها كحجرات متقلة، وهذا التطوير يقلل عن الكرسي صفته كعنصر من عناصر الأثاث المنزلي، وقد شاهدنا أن سنعاريب كان يستعمل مثل هذا الكرسي.

ليس هناك صعوبة من إيجاد أمثلة عن وجود الطاولات في بلاد آشور، فقد وجدت الطاولات ونماذج منها ضمن الحفريات هناك، ونرى هذه الطاولات متمثلة بالألواح الناضرة وكانت تصنع من الخشب بشكل عام مع أنه كان من الممكن إضافة زينات من المعادن، وكانت بعض الطاولات تصب بشكل مياكل من البرونز.

وأما في آشور فقد كان النوع السائد هو طاولة صغيرة مربعة قائمة على أربع قوائم مزخرفة.

وهناك شواهد على استعمال غطاء الطاولة تأتي من مقاطع يذكر واحد منها (قماش من الكتان موضوع على الطاولة المذهبة الخاصة بالإله شمش).

ومع أن هذا المثال قد أتى من بابل وليس من آشور، وقد استعملت حتى الفوط على الطاولة مع أنها لم تكن بالشكل الذي نعرفه فقد كان أحد الخدم يحمل الفوط ويقدمها إلى الشخص الذي يتناول العشاء ليمسح يديه عندما يفصلها بعد انتهاء الطعام.

وهناك أثر لهذا الاستعمال في الشرق الأدنى يوجد من الطريقة التي تقدم بها خادمة الكنيسة الإنجيلية العليا في بريطانيا فوطاً للمكاهن لكي يمسح أصابعه بها بعد الفصل من خلال القربان.

الأسرة

لم يمتلك الإنسان سريراً فقد كان الفراش ينامون على حصير من القش أو القصب وحيث كان هناك أسرة، وكانت هذه مؤلفة من إطار يدعم قاعدة مصنوعة عادة من الخشب مع أنه كان هناك إمكانيات أخرى، وكانت هناك مواد بديلة تشمل الحبال أو قطع القصب.

وكانت بعض الأسرة (وليس جميعها) مزودة بجوانب خشبية تجميل السرير بشكل صندوق خشبي قليل المسق.

وكانت تدعمها قوائم مصنوعة من أشكال من الزينة وعادة تتألف من قدم منعوتة بشكل مطلب أو حاض ثور. وكما هو الحال بالنسبة للكراسي والطلولات، فقد كانت أسرة الملوك والآلهة مزينة بالذهب والفضة والعاج المحفور.

وكان السرير دعماً للفراش، وكانت الفرشة مغطاة بالصوف أو شعر الماعز أو بسمف النخل، وكانت أغطية السرير مصنوعة من الكتان أو الصوف.

ومن الممكن أن نجد الومائد مذكورة في الكلمات الأكادية المشكوك في أمرها، وكانت الحصير تستعمل بالتأكيد بجانب السرير.

إن ذكر الحصير المستعمل بجانب السرير يذكرنا بالمسألة المهمة وهي موضوع أغطية أرض الغرفة، ونحن نعلم أنه لا يد من وجود السجاد في القصور نظراً لأن هناك في الألواح المصنوعة من الحجر الكلسي منقوشة لتمثل السجاد التي يبدو أنها كانت متممة لامتداد السجاد فعلاً في المساحات ذات التمرض الأقل للاحتكاك الشديد.

الإضاءة الاصطناعية

إن إحدى وسائل الراحة التي نعدّها ضرورية في وجودنا الحضاري هي تأمين شكل من أشكال الإضاءة الاصطناعية التي تثير ساعات الظلام، والحقيقة أن الإضاءة الاصطناعية هذه كانت متوفرة بالنسبة لسكان المدن التي أصبحت بلاد آشور في أزمنة ما قبل التاريخ.

وكانت المصابيح عبارة عن أوعية تحتوي على زيت بنور العكّتان مع وجود قليل مصنوع من قصب أو نبات آخر أو حتى الصوف، وكانت الأهداف مستعملة في الأزمنة القديمة كأوعية وبعد ذلك تم تقليدها بصنع أوعية من الفخار أو المعدن. وكانت القصور تزود بالمشاعل المتهوجة عند حدوث حفلات، وكانت هذه المشاعل مصنوعة من خزّم من القصب المغطى بالزيت ويحملها الخدم عليها.

أدوات التجميل والتواليت

استعمل الآشوريون مرايا من الذهب أو الفضة أو البرونز الذي كان يلصق حتى يتحول إلى سطح عاكس.

وكان هذا يتم عن طريقه صقل المعدن بواسطة نوع من الجلد يشبه الشامواه، وذلك لأن بعض النصوص تذكر اسم الجلد البوسو لأجل المرأة.

يجري تمثيل الآشوريين بشعر طويل، ولكنّه مذبذب، وليس عجيب أن نجد أنهم كانوا يمتلكون الأضراط التي كانت تصنع من الخشب أو العاج وبمهارة.

وقد ذكرت الشفرات ولكن ليس لدينا تفاصيل عنها مع أننا إذا حكمنا بوجود ذلك المظهر النظيف والمرتب للشوارب واللحي المتمتلة بالأعمال الفنية فإن هذه الشفرات كانت عظيمة الفعالية.

استعملت النساء أدوات التجميل، اللعينين والبشرة ولا شك أنه وعلى الأقل في بداية الألف الثاني كانت عملية تكحيل العيون تتميز ذات جلدية جنسية وهذا واضح أنه من إحدى الأساطير.

إذ يقال: إن الإلهة السومرية أنلانا (كانت عشتار آلهة الحب فيما بعد) لاستعداداتها أن وضعت على عينيها مرهماً يدعى:

(أرجو أن يأتي، أرجو أن يأتي) وهكذا فهل كانت العلاقة ما بين ميكياج العين والإثارة الجنسية ■ تزال مغتروفاً بها في آشور في الألف الأول ق.م؟

الحقيقة أننا لا نعرف ذلك فقد كان ميكياج العينين المصنوع من معجون مادة الأنتمون ويوضع على الجفن بواسطة دبوس منحوت من العاج، وأن الشواهد على استعمال أحمر الشفاه طفيفة ولكنها أكيدة.

وقد قدمت لنا هذه المعلومات قائمة فسّرت فيها المصطلحات السومرية التي تعني حرفياً: (المعجون الذهبي) والذي يفسر باللغة الأكادية بأنه الصباغ الأحمر للوجه.

أدوات المائدة

لقد احتوت الأدوات المنزلية على الملاعق والسكاكين وكانت الملاعق مصنوعة من الخشب أو المعدن، وأحياناً من العاج مع أن بعض أقدم الملاعق المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة كانت مصنوعة من الفار، وهذا يعطي شعوراً بالاحترام للزمن القديم لاستعمالهم الأعواد البلاستيكية لتأمين الأدوات المنزلية.

وكان للسكاكين شفرات من البرونز أو الحديد أو من الصوان وهذا (من مخلفات العهد النيوليثي وهو العصر الحجري الحديث) وكانت أدوات القطف المعدنية تُسن على أداة جلع مسطحة (بطول الإصبع تقريباً).

وقد وجد كتاب هذه السطور بعض هذه المجالغ في تل الرماح غرب الموصل ووجد أن هذه كانت من أفضل الوسائل الفعالة التي وجدها والتي تصلح لمن سكان الجيب.

وسائل التخزين

لقد كان البيت الأشوري شأنه شأن أي بيت بحاجة إلى حاويات لحفظ أواني المطبخ والمؤن، وتدرج هذه اعتباراً من حاويات الخشب أو الجلد لحفظ المرايا والأدوات والخناجر والأحذية وتدرج هذه حتى الصناديق الخشبية الكبيرة. لقد استعمل نوعان من الحاويات الخشبية التي تشبه الأقفاص والصناديق لحفظ الفواكه.

وسكانت هناك مادة أخرى للتخزين وهي القصب الذي إذا جُمِلَ عازلاً للماء بواسطة الفار من الممكن أن يصبح بشكل حاوية لحفظ الملابس الكتانية في حالة جفافه أو أن تكون بشكل أوعية لحفظ السوائل.

وهناك مادة متوفرة وهي العاج ولكنه نظراً لنفاهة ثمنه، فقد كان استعماله مقصوراً على الأغنية المنحوتة الخاصة بصناديق الزينة.

وسكانت الحاويات الخاصة بالأطعمة والسوائل تشمل الطاسات الخاصة أو الخشبية أو أباريق الشرب الفخارية أو المدنية، وقد وجد في أحد القصور في نمرود (كالاخ القديمة) بعض الكاسات الفخارية الجذابة وهي مصنوعة من الفخار دقيق الصنع تعود إلى القرن السابع ق.م، وقد استعمل الزجاج أيضاً ولأشياء بصنع الفوارير وكان القنبرذ يخزن في جوار خاصة تتسع لعدة غالونات، وقد وجد عدد من هذه التي كانت كل واحدة قد كتبت عليها حجمها وسعتها وجدت في نمرود.

تمديدات المياه

إن توفر المياه ضروري لبناء المستوطنات فلقد كانت آشور مملوءة بالمياه فكان فيها النهر العظيم وهو نهر دجلة مع تايمة الزاب الأعلى والزاب الأدنى، بالإضافة إلى عدد كبير من الجداول الصغرى التي تغذي هذين الراهدين.

وهناك أيضاً عدد من الوديان والجداول الصغيرة التي كان بعضها دائم الجريان طول السنة وهذه تشبه أحد الينابيع الرئيسية التي تغذي البرك طوال

السنة، تشبه أحد الينابيع المتواجدة في قرية تدعى (تل أبو سرياح) في الجزيرة إلى القرب من الموصل.

ولقد أضاف بعض الملوك الآشوريين إلى الإمدادات المائية المتواجدة حول عواصمهم عن طريق إنشاء مشاريع هندسية لجلب المياه القادمة من الجبال. وحيث لا يوجد إمدادات من المياه السطحية المتوافرة كان الماء يجلب عن طريق حفر الآبار.

ولقد وجدت عدة آبار آشورية ونُظِّت في منطقة نمرود وقد مارس سكان هذه السطور تجربة النزول إلى أحد هذه الآبار حتى عمق تسعين قدماً أو ما يقارب ذلك لفحص مقدرة الآشوريين في بناء المشاريع التي استعمل فيها الحجر.

وكان في كل مدماك ثالث من الحجر في مخطوطات ملحكة تشهد على حفر باني البئر الملكي الذي قاوم عمله هذا ضغط التراب مدة تقارب ثلاثة آلاف عام.

ومن هذا البئر كان الماء يذبح بواسطة قدور متهتة سعة الواحد نحو نصف جالون وهي مشدودة من أعناقها بحبل يشكل سلسلة طويلة ويدبره جعش على قمة البئر بحيث تظل القدور في حركة دائمة وهي تغطس في البئر.

وبالنسبة لنقل الماء من مصدره كانت تستعمل دلاء، وكانت هذه مصنوعة من الخشب أحياناً، ومن النحاس أو البرونز في أحيان أخرى، وكانت المواد القديمة في الشرق الأدنى تقضي أن هذا العمل كان من واجب النساء مع أنه لا يبدو أن هناك شاهداً أو برهاناً على ذلك.

الأوزان والمقاييس

إن بيع وشراء بعض البضائع يتطلب وجود بعض وسائل الوزن، وهذا كان ضرورياً لقياس الكميات الصحيحة اللازمة لبعض المعاملات التقنية الخاصة التي كانت تشمل الطبخ مثلاً.

ولهذا استعملت الموازين مثل هذه الأغراض، وكان بعض هذه الموازين صغيراً لدرجة أن استطاعته وزن نصف شاقل (وهذه قيمته غراماً أو أكثر بقليل).

والأخرى كبيرة بشكل مكافئ لتزن رجلاً ، ونحن نعلم هذه المعلومة من بعض التقارير التي مفادها أن أحد ملوك آشور قد وضع أحد أعدائه الأسرى على ميزان وذلك لكي يقرر وزنه بالفضة التي ينبغي دفعها للشخص الذي أسره.

وكانت الأوزان المستعملة مصنوعة من الحجارة أو البرونز التي كانت منحوتة أو مسكوكة بشكل جميل جذاب يمثل بطل أو أسد.

وأما قياس الحجم فقد كان أكبر مقياس هو الإيمار ويعني حرفياً: حمل الحمار ، وهذا يقسم إلى عشرة (سوتو) وذلك بدوره يقسم إلى عشرة (مكو) وكان حجم الكو يماثل ثلاثة باينت^(١) أو أقل من ليترين ، وهذا يجعل قيمة الإيمار مساوية بالضبط لخمسة (بوشل) هذا وإتينا على علم بقيمة مقاييس الحجم الآشورية بشكل دقيق وذلك نظراً لأن بعض جرار التخزين فيها علامات تدل على سميتها.

^(١) البانت مقياس للسوائل يساوي ١ على ٨ غالون والمليون ٤٠٠ لتر.

الفصل الحادي عشر

الزراعة وتربية الحيوان والتجارة

كانت أساليب الحياة لدى الآشوريين من أول نشأتهم حتى نهايتهم مرتكزة على نوعين من الأنشطة:

وهي النشاط الزراعي (وتربية الحيوانات) ثم التجارة.

الزراعة

لقد اعترف ملوك آشور حتى أولئك الذين حازوا على شهرة حربية هائلة بأهمية الزراعة في حياة الآشوريين، ويذكر أكثر من واحد منهم عن تطوير الموارد الزراعية والحيوانية قام بها أثناء حكمه وهكذا يقول تفلان بلاسر الأول (١١٥-١٠٧٧):

(لقد أتيت بالمحارث لتعمل خلال جميع أراضي آشور، وهكذا جمعت لدينا أكوام من الحبوب أكثر من عهد أي جد من أجدادي.

ولقد ربيت قطعاناً من الخيل، والمواشي والحمير وذلك من الفنائم التي كسبتها وبعمادة سهدي الإله آشور من البلدان التي استوليت عليها).

وبعد أربعة قرون تقريباً مدح سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) قم نفسه أو ربما مدحه الآخرون لأنه:

((قد قرر أن يستثمر الأرض المراحة، وأن يزرع البساتين وقد قرر أن يجني المحاصيل الزراعية من منحدرات الجبال الصخرية التي لم تنتج أبداً أي محصولات زراعية، وقد قرر أن يحفر أنفاقاً وأخاديد في الأراضي القاحلة التي لم تعرف وجود المحارث طيلة حكم من سبقني بحيث تجعل الناس ينشدون أناشيد الفرح)).

لقد تبينت نتائج سياسة سرجون الاجتماعية والاقتصادية، فلقد كانت هذه السياسة تبقي إنقاذ البشرية من الجوع والحاجة بحيث لا يصبح الزيت وهو

الضروري لترخية المضلات غالي الثمن داخل البلد ، وبحيث تصبح بذور الكتان رخيصة الأثمان في الأسواق كالثعير.

ولقد أشرنا سابقاً أن مشاريع الري لم يكن من الممكن الاستئناء عنها في الزراعة في آشور ولعكن الري حيث يكون متوقفاً كان ذا فوائد معتبرة.

وقد هُندس عدة ملوك بناء أنظمة لمستي الأراضي حول عواصمهم ومن بينهم آشور ناصر بل في (كالك) وسرجون في (دور شار كين) وسنحاريب في (نينوى) ، وحول المواسم استطاع الملوك بناءً على وفرة المياه ، القيام بتنفيذ مشاريع طموحة بشكل استثنائي.

ولقد استثمر سنحاريب بصورة خاصة بعض مياه انري المتاحة لتنفيذ مشاريع زراعة واسعة حول نينوى ، حيث استبنت أشجاراً غريبة ونباتات كالقطن الذي جاء به من الخارج ، ولعكن مثل هذه المشاريع كانت استثنائية ، وعلى الرغم من الأهمية التي أظهرها سنحاريب في نقوشه للحدائق إلا أن معظم الأراضي حول نينوى كما هو الحال خلال بلاد آشور ، كانت تلك الأراضي مكرسة لزراعة المحاصيل الزراعية الغذائية ونباتات العلف.

كان المحصول الرئيسي في آشور هو الشعير مع القمح وهو التّد الثاني ، وكانت الحبوب المشتملة هي القمح الفاخر والدخن وهناك إمكان وصول الرز إلى آشور من خلال بلاد فارس وذلك في الألف الأول ق.م.

وكانت الأداة الزراعية الرئيسية هي المحراث في أشكاله المتعددة.

وكان أحد أشكال المحراث هو الذي يشق التربة ، والشكل الآخر كان لزراع البذور الذي كان في عملية واحدة يقطع الأتلام ويسقط البذور.

وكان كلا هذين النوعين يُجران إما بواسطة الثيران التي كان عددها يصل إلى الثمانية أو بشكل أقل بواسطة الحمير أو نادراً بواسطة الخيول.

كان موسم الزراعة في بلاد آشور (كما هو الحال اليوم) يبدأ بالحراثة وبذر البذور في أواخر شهر تشرين الأول وتشرين الثاني اعتماداً لهطول الأمطار ، وفي

السنوات الجيدة تبدأ أول زخات المطر في شهر تشرين الثاني مع أن المطر الغزير إنما يحدث حوالي شهر نيسان، ولكن لا تهطل الأمطار دوماً في شهر تشرين الثاني وإذا تأخرت الأمطار طويلاً نتج عن ذلك سوء الموسم حتماً، وقد كان هذا يحدث حتماً ولقد صادفه في عام ١٨٤٧ ميلادي السيد هـ لا يارد.

يحدث دائماً أن يمر الموسم دون سقوط أمطار، وهكذا كان الحال في هذا العام ففي خلال الشتاء والربيع لم تهطل الأمطار، وبدأ السكان وهم في حالة يأس وقنوط بسبب السماء الخالية من الفيوم وقد راقبت الأعشاب الصغيرة النامية وهي تحاول التضايل للخروج من خلال الأرض الصلبة اليابسة ولكن هذه الأعشاب تحترق قبل ولادتها.

وفي بعض الأحيان قد تدنو غيمة فوق التلال المستوحشة في أربيل، وإذا ارتفعت الفيوم في السماء قادمة من الصحراء في اقاصي الغرب فإن ذلك يؤدي إلى بداية الأمل، وإذا هطلت بضمة قطرات من المطر فإن ذلك يؤدي إلى ظهور الفرح والعبور، ولكن كان يتلو ذلك خيبة الأمل، فقد مرت الفيوم وظهرت فوقها السماء الزرقاء الصافية.

وبالنسبة لأشور القديمة (كما هو الحال بالنسبة لنفس المنطقة طيلة القرن الماضي) كان انقطاع المطر يؤدي إلى كوارثه ويهدد بالمجاعة، ونتيجة لذلك كانت أحوال مصير الحصاد قضية ذات أهمية خاصة لجميع الناس في خلال البلاد.

مما يجعل من الأهمية بمكان أن يبادر المسؤولون الإداريون لرفع التقارير إلى الملك ويخبرونه بالوضع الحاضر بالنسبة للأمطار والمحاصيل.

وقد لقيت الخرافات دورها بحيث ترسل إلى الملك تقارير ملكية حول الوضع الراهن بواسطة الخبراء الدينيين، وكان هناك قدر من الاطمئنان ضد سوء المحاصيل الشامل وذلك لوجود موسمين لزراعة الشعير موسم متقدم وموسم متأخر، وذلك في أرض تختلف نوعياً، وهكذا، إذا هطلت الأمطار باكراً عند أحد المزارعين وهطلت بشكل خامل عند مزارع آخر فإنه يصبح عندها من المؤكد أن الموسم سوف يصبح جيداً عند أحدهما.

وهناك تهديد ثانٍ رئيسي للمحاصيل الزراعية وهو أمشاط الجراد ، وقد كانت أخبار هذه المصيبة تصل إلى الملك في رسائل يرسلها الولاة المحليون أو يتبأ بها الفلكيون في تقاريرهم ، ولكن وجود الجراد بأعداد ضخمة لم يكن كارثة عامة لا يمكن تجنبها ، فقد كانوا يمسكون بالجراد ويأكلونها كطعام يدل على البهخاء ربما كان مثل القريديس (برغوث البحر).

إن ما نعرفه عن المحاصيل الزراعية الآشورية من النصوص الضخمة يمكننا الآن إتباعه نتيجة لأعمال الباحثين النباتيين المتعاونين مع علماء الآثار وذلك لفحص بقايا النباتات المتفحمة.

ويخبرنا المرحوم الأستاذ هانس هيل وهو واحد من الرواد في هذا المجال: إنه وبعد الحكم عن طريق بذور الأعشاب النامية بين بقايا الذرة فقد حملت حقول الشمير كميات من الأعشاب مثل: الشوفان والشيلم والكروسة والحمضة.

وهو لا يذكر (بسبب عدم وجود بقايا من البذور) أن النباتات البصلية وبصورة خاصة نباتات الثوليب الذي كان حتى الستينات من القرن العشرين لا يزال بكميات وافرة في حقول الذرة في بعض أجزاء شمال العراق حيث لم تكن عملية الحرثة العميقة التي تلت هذه البذور قد وصلت إلى المنطقة.

هكذا لم تسقط محاصيل الحبوب ضحية للجفاف أو الجراد فإنها كانت تجنى ابتداء من نهاية شهر نيسان حتى أواخر حزيران وذلك باستعمال المناجل التي كانت تصنع من الأغصان الثالث قم من النحاس أو البرونز ، وقد استعمل الحديد فيما بعد.

وقد كانت الذرة تقطع وتجمع بشكل حزم وترفع بواسطة المذراة وتقل إلى أرض البهيد ، وكانت هذه عادة مستوية ناعماً من الصغار في مكان غير ممرض لهبوب الرياح وذلك من أجل عملية التذرية ، وكانت عملية دراسة المحصول تتم بمساعدة الثيران التي كانت تجر نورياً وهو لوح خشبي غرز فيه قطع من الأحجار المنيبة من الصوان ويدور هذا اللوح فوق الذرة المنتشرة.

وبعد فصل حبوب الذرة عن السنابل كانت تجري عملية التذرية وذلك برمي الذرة في الهواء بواسطة رفوش خشبية وتحمل الرياح التبن الخفيف أما الحبوب الأثقل فتسقط على البهر وأخيراً توضع الحبوب النظيفة في مخزن، وهذا يخص شخصاً معيناً أو يرسل إلى المبد أو إلى مخازن الدولة، وحتى في تلك المرحلة هناك مشكلات واجبة الحل نظراً لأنه إذا وجدت الثيران والطيور طريقاً إلى المخازن فإنها سوف تواقع الهلاك في مخازن الحبوب.

ومن الممكن أن تخضع الحبوب للاستهلاك السريع من قبل الآلهة أو البشر أو الحيوانات، وفي حالة الحيوانات فإن الحبوب تستعمل إما كاملة أو مطحونة كعلف للمواشي أو الخيول، أو تستعمل بشكل كرات من العجين لتسمين البط والإوز، أما إذا كانت تستعمل كطعام للبشر فإن الحبوب كانت إما أن تسحق للاستعمال بشكل برغل أو تطحن لعمل الطحين وتنعم للخبز وكان الشمبر يستعمل لصنع البيرة.

هناك نوع من المحاصيل الزراعية التي حدد هويتها الأستاذ هيليك من بقاياها الكريونية وهو على نحو يقبل الجدل وهي بذور الكتان وهي مصدر الزيت الذي يدعى زيت الكتان وخبوط الكتان.

ولا شك أن هذا النبات كان ينمو في منطقة ما بين النهرين القديمة قبل الألف الأول ق.م، وأن النقطة المثيرة للجدل التي تظهر أنه كان هناك أيضاً نبات منتج للزيت وهو يدعى باللغة الأكادية شما شامو ١ والتي معناها أحلا نبات الزيت) وعندما يعلم الإنسان أن الشين الأكادية يصبح شيئاً بالمربية فمن الواضح عندها أن هذه الكلمة هي أصل اسم سمسم بالمربية، ولكن هل كان السمسم نباتاً حقيقة ؟

وقد أجاب الأستاذ هيليك على هذا السؤال بكلمة: كلا، فهو يظن أن هذه الكلمة تعني: نبات الزيت، وهو بذور الكتان الذي وجد منه كميات هائلة وليست السمسم الذي لم توجد منه أي كمية بالقيّة.

وطبقاً لرأيه فإن السمسم لم يصل إلى منطقة ما بين النهرين من الهند إلا في الألف الأول قـم عندما حل محل جنز الكتان واتخذ اسمه السابق.

ولكن الرأي حول التاريخ المتأخر لوصول السمسم لا مجال للشك فيه ويستمر بعض الباحثين بالقول إنه كان مستعملاً في بلاد ما بين النهرين القديمة بما فيه آشور.

وهناك بين النباتات الغذائية التي وجدت المدس والحمص والخيار ، وقد ذكرت البساتين في النصوص وأحياناً ظهرت مرسومة في الألواح الناقرة ومن بين الفواكه المعروفة من مثل هذه المصادر والمتميزة بتشكيل نباتي من بقاياها وهي: العنب والتين والزيتون والرمان وكان التمر طعاماً شائعاً في آشور مع أن أشجار النخيل لا تتجعد هناك ، وكان مصدر تصديرها ووجودها أتى من بابل.

لدينا مصادر أخرى من المعلومات حول الأشياء التي كانت تزرع في بلاد آشور ، مثلاً هناك قائمة بالمأكولات التي استهلكتها في المادبة التي أقيمت عند تدشين العاصمة التي بناها آشور ناصر بل الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) قـم وهي كالآخ ، وفيها تعد أعداد كبيرة من الطعام والتي كان الكثير منها من أصل نباتي ، ولسوء الحظ فإن تحديد هوية الأكثرية من هذه المواد هو عمل جنسي ، ولكننا نستطيع وثقة أن نعرف على البصل والثوم والسكرات واللفت والبهارات.

وقد أنشأ بعض الملوك الآشوريين عمداً بعض الحدائق التي زرع فيها نباتات وأشجار منقولة من بلاد أخرى ولكن عرف كثير من الحالات كانت النباتات الجديدة قد أحدثت تأثيرات على الزراعة في آشور بصورة علمة.

وهناك مثل قد تطرقنا إليه سابقاً كان تقديمه ذا أهمية اقتصادية وهو القطن وينزره وكان مريحاً يذكره كواحد من النباتات التي زرعها في حديقته حول نينوى وقد سماه الأشجار التي تحمل الصوف ، وكان قد صرح بوضوح بالنسبة لاستعمال هذا النبات بقوله :

لقد قطفوا الأشجار التي تحمل الصوف وغزلوها ونسجوها لتشكيل بعض الألبسة.

تربية الحيوانات

كان هنالك عنصر مصلو في أهميته للمحاصيل الزراعية وهو تربية الحيوانات، وكانت أهمية تربية الحيوانات القومية قد اعترف بها لتكون موضوع بشير الفأل الحمين التي كانت ترسل إلى الملك، وهكذا نجد تباوت من النوع الثاني ((عندما تحيط هالة بالقمر - ونجم القمر يقف ضمنها فإن الماشية في البلاد سوف تفتح إنتاجاً حسناً)).

أما الآخرون من الكهنة فيذكرون معاني عكسية إذ يقولون:

((عندما يقترب الكوكب زحل من مجموعة نجوم هايادس (ومعناها الحر في ذلك الثور) فإن هذا يعني: إما أن الظروف المناسبة المواتية في البلاد سوف تختفي أو أن منتوجات المواشي والأغنام سوف تصبح في حالة عسيرة من عدم الازدهار)).

وكان للمواشي أهمية مزدوجة فلم تكن هذه ذات قيمة بالنسبة لكونها مصدراً من مصادر الطعام فحسب بل لكونها أيضاً تستعمل كحيوانات للنقل والجر.

فالشيران كانت تستعمل لجر المحارث والعربات فضلاً عن عملية دراسة الحبوب ولما كانت الثيران غير لازمة الآن للتربية فإنها كانت تخص عادة مع أن بعضها كانت تترك حرة لأن بعض الطقوس الدينية تتطلب تضحية ثور غير خصي، وكان لحم المجل من العناصر المقبولة على مائدة الطعام مع أنه ليس شائماً سوى على موائد الأغنياء.

وقد تضمنت مائدة الملك آشور ناصر بعل مئة ثور مملح (من المحتمل أن تكون بشكل قطع كبيرة لأنه من المستحيل تمليح الثور كاملاً لحفظه من الفساد).

وهناك إحدى المظاهر المهمة بالنسبة للبقرة وهو إنتاجها للحليب ولدينا صورة مشهد حلب البقرة من فترة مبكرة (مع أنها ليست من آشور) وبالإضافة إلى استعمالها بشكلها الأملي فإن حليب البقر يستعمل بشكل يدعى الحليب الحلو، وقد تكون هي اللبن، الباغورت وكذلك تحضير الجبنه مع أن الجبنه الوحيدة

من أصل معروف مذكور في النصوص الآشورية إنما هي من حليب الفئ، وكانت المواشي تحفظ بشكل قطعان في الحظائر وتقيم في سفيات.

ولكن يجب أن يكون قد حدث شيء من تجمين التمثل ضمن المواشي المنزلية لأن النصوص تشير إلى إدخال ثيران برية إلى الحظائر وكانت هذه الثيران تعرض مع البقرات، إذ لم تكن هذه الثيران قد أحضرت لأجل الرعي فحسب.

كانت الأغنام شائعة جداً بشكل أجناس مختلفة ونحن نعلم أسماء بعض الأجناس من النقوش، ولعلنا لا نملك أي وسيلة لمعرفة خصائص هذه الأجناس مع أن أحد هذه الأجناس يحمل اسم ذات الصوف الذي يشبه الأسلاك وهذا الاسم يفسر نفسه، وهناك اسم لا يقدم لنا أي مشكلة بالنسبة للتمييز في هويته وهو الفئ ذو الذنب السمين، وهو لا يزال شائعاً في العراق في هذه الأيام وقد عرفت بعض أجناس محلية مثلاً: العموري والأكادي وغنم حانا.

والأخير سمي باسم مكان واقع في منطقة الفرات الوسطى مع أننا لسنا متأكدين فيما إذا كانت هذه الأجناس موجودة في آشور، ولكن نعلم بالتأكيد أن هناك جنساً مرموقاً في آشور باسم (حابي) وهو اسم مأخوذ من مكان تواجد في الجبال الشمالية، ولقد كان هذا سبباً في تشويش جرى على بعض الباحثين في دراستهم الجغرافية القديمة عندما افترضوا أن أي مكان ذكر فيه اسم أغنام (صباح) لا بد أن يكون من منطقة تدعى صباحا.

لقد كانت أهمية الأغنام تكمن في لحومها وحليبها (وهو المستعمل في جميع الأشكال المذكورة بالنسبة لحليب البقر وكان يشار إليه بشكل مستمر) وكذلك لأجل أصوافها.

وحتى عام (١٤٠٠ ق.م) كانت الأغنام في بعض أجزاء آشور على الأقل تتعرض للنتف وليس للجزأ: إن الصوف كان يجري اقتلاعه أو نزع بالتعطيط عند فترة تبديل الحيوانات لصوفها، ولكن جز الصوف المعروف الآن بأنه كان مستعملاً في وقت أبكر أصبح العمل العادي المعروف فيما بعد.

ومن الممكن إن كان ذلك مصحوباً ببعض التغييرات الجينية في الأغنام التي جمعت الصوف سهل الجز ، وقد كان موسم الجز في زمن قدوم الصيف وبالتحديد في شهر أيار.

وكانت جميع الأجناس المدجنة تستعمل لتقديم القرابين للآلهة ، ولكن الأغنام لعبت دوراً إضافياً في مجال السحر والدين ، وكانت إحدى الطرق الأكثر شيوعاً للحصول على فال حسن أن تقدم سؤالا أو رغبة للإله ويمدها تذبح شاء لم تفحص كبد الشاة ، إذ إن أي شذوذ في كبد الشاة كان يفسرها منجم خبير بأنها هي إجابة الإله على سؤالك واستفسارك.

ولقد أصبحت هذه الأشياء أقل أهمية في آشور عند ازدياد أهمية التجميم لنفس الفرض ، كانت الماعز غالباً ما ترعى مع الأغنام ، إلا أنها كانت أقل عدداً من الأغنام وكانت تقص شمو الماعز في الوقت نفسه الذي تجز فيه أصواف الغنم. وفي هذه الأيام أصبح شعر الماعز ذا أهمية لكونه يشكل البهاق مهمة لصنع الخيام والمسجد ، ونظن أنه كان يستعمل هكذا في الأزمنة القديمة مع أن الشواهد المحددة غير متوفرة ولكننا نعلم علم اليقين أن شعر الماعز يستعمل لحشو القرش.

وكان حليب الماعز يستعمل في نفس الأغراض التي كان يستعمل فيها حليب الغنم ، وكان لحم الماعز صالحاً للأكل كما هو الحال اليوم في العراق.

أما جلد الماعز فهو مفيد في صنع حاويات مائية لحفظ الماء (قرب) وكانت تستخدم عندما تريض بإحكام وتنفع في صنع الأطواف العائمة وكانت الأطواف العائمة من هذا النوع مفيدة للمباحين وقد ظهر هذا العمل في أحد الألواح الجدارية الفائرة في آشور.

وما تزال تمتعمل من قبل الصبيان العراقيين على نهر دجلة في الموصل في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠) وكانت مجموعات من جلود الماعز المنفوخة تستخدم للعموم في القوارب التي تسمى ككيليك المستعملة للثقل فوق مياه نهر الفرات والدجلة منذ أيام الآشوريين حتى الخمسينات من القرن العشرين (١٩٥٠ ب.م).

كانت قطعان الأغنام والماعز تحت إشراف الرعاة الذين كانت واجباتهم حماية الأغنام والماعز وهي ترعى حول القرية أو في مسافات أبعد في الريف الفصيح، وكان يساعد الرعاة كلب الحراسة المتوحش، وكانت هذه الكلاب مجبرة على معالجة الهجمات التي كانت الأسود والثئاب تشنها على القطيع، ولقد بنى هؤلاء الرعاة أكواخاً لحمايتهم وتأمين راحتهم، وكانت القطعان ربما تخص أشخاصاً معينين أو تخص المعابد أو تخص الملك وكان بعضها كثير العدد.

وفي بابل كانت المعابد تمتلك قطعاناً ضخمة بحيث إن الموظفين الذين كانت حقوقهم بالرعي تتأثر بهذا الوضع، كانوا يتذمرون وهكذا نجد تقريراً أرسل إلى الملك في الوقت الذي كان الملك آشور يحكم بابل، مفاده:

((إن أهالي مدينة بورشيبا (وهي مدينة قرب بابل وفيها معبد للإله نابو) كانوا يشتكون بقولهم: إن مواشي وأغنام الإله نابو تقطي وجه الأرض)) وكانت المعابد الآشورية تحت رقابة شديدة من جهة الملك ولم يكن من المنتظر منهم أن يسيروا لحقوق المواطنين.

بينما كان هناك عدد كبير من الأغنام في آشور وبشكل قطعان، إلا أن بعض الأفراد الفقراء لا يملك الواحد منهم أكثر من غنمة واحدة أو غنمتين للحصول على الحليب لصنع الجبنه وغيرها.

وهناك ذكر الأغنام على سطح المنزل وهذا ربما يشير أن صاحب المنزل يمكنه اقتناء بعض الأغنام ويضعها على سطح منزله.

وكانت قطعان الغنم والمواشي م عرضة للتناقص بسرعة تزيد عن معدل زيادتها الطبيعية وذلك لأننا نسمع عن أمراض معدية وجوائح في الحيوانات كانت تسبب نسبة كبيرة من الموت للحيوانات، وهناك أيضاً اليرقات الطفيلية التي تسببها بعض أنواع النباب التي كانت تهاجم الأغنام والمواشي والخيول.

كان التخزين حيواناً مروضاً في منطقة ما بين النهرين القديمة، وكان يخدم كمامل لجمع القمامة والتخلص منها في المدن، وفي الأزمنة المبكرة كان هناك قطعان من الخنازير وكانت لحومها ودهونها مواد مقبولة للأكل، ولكن هناك

منعاً دينياً وتحريماً للحم الخنزير بقي قائماً حتى اليوم في الديانة اليهودية والإسلامية.

ولكن هذا المنع في طريق التطور والزوال تدريجياً ، إذ إنه وفي الفترة المتأخرة وصف الخنزير بأنه محرم من قبل جميع الآلهة ولكن لم يحدث هذا إلا بعد عام (١٤٠٠ ق.م) وهو الزمن الذي نجد فيه أن بعض أجزاء آشور كانت تستعمل لحم الخنزير.

الحمير والحيل والبغال

كان الحمار (وهو نوع يختلف في تصنيفه عن حمار الوحش الذي كان من الحيوانات المعروفة في منطقة ما بين النهرين) كان حيواناً آخر ذا أهمية اقتصادية كحيوان يصلح للحمل ، وكانت قوافل الحمير في آشور في بداية الألف الثاني متوفرة للقيام بالأعمال ونقل البضائع إلى أواسط الأناضول ، ولقد سميت مقاييس الحجوم باسم الحمار ففي اللغة الأكادية يدعى أكبر مقياس للحجوم إيمار أو إمار وفي العبرية كلمة حور المشابهة لها تعني حمل الحمار ، وهي مشتقة من اسم هذا الحيوان وكذلك أطلق اسم الحمار على وحدة المساحة وهي نفس الكلمة التي تعني: مساحة الأرض التي من الممكن بذار كمية من الحبوب تساوي حمل حمار.

وفي الأزمنة القديمة كان الحمار حيواناً مخصصاً للركوب مع أنه قد بدأ الاستعاضة عنه بالحصان في الألف الثاني ق.م.

إلا أن ركوب الحمير كان سائداً في نظام المواصلات الملوكي في الألف الأول ق.م في آشور .

فالحمير أكثر أماناً عند الركوب من الخيول ولاسيما في الأراضي الصخرية حيث إن حدوث أي زلة تعني الكارثة ، وحسب معرفتنا لم يستعمل لحم الحمار للأكل ولكن لحم الحمار الميت من الممكن استعماله طعاماً للكلاب .

ولقد عرف الحصان وما يزال حيواناً ذا هيبة وكبرياء مع أنه وباعتبارات تختص بالتزاوجات التنينية المحافظة لقد عد الحمار أو البغل أكثر ملاءمة منه للأغراض الدينية الاحتفالية.

ولقد أصبح الحصان ذا أهمية بالغة في بلاد آشور في الألف الأول قـم لاسيما للأغراض العسكرية بالنسبة للعربات والخيالة.

ولقد استوردت قطعان الخيول بشكل دائم من الشمال والشمال الشرقي وذلك على شكل جزية أو بشكل غنائم حرب، وهناك مناطق شهيرة بتربية الخيول إلى الجنوب من بحيرة أورميا مباشرة في شمال غرب إيران، ولقد تناهست آشور مع جارتها مملكة أورارتو للسيادة على تلك المنطقة، وبهذه المناسبة يقول الملك سرجون الثاني باعتزاز :

وبالنسبة للناس الذين يمشون في تلك المنطقة في أراضي أورارتو فإنهم ليس لديهم أي مهارة في قيادة خيول الفرسان، فالمهور التي يربونها لخدمة القطع العسكرية الملكية تمسك متوياً وتؤخذ إلى بلاد سوبي (للتدريب) حيث يرون مفرتها فلنفس من المسموح أن يقتلي أحد ظهورها، وهي لا تتلم من الهجوم أو جر العربات أو من التقهقر أو التدريب على الحرب.

ويشار إلى سلالتين من الخيول وهما: سلالة الكومسي وسلالة الميس وهما تنزهران من أجزاء مختلفة من الأراضي الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق.

وقد ذكرت عدة ألوان من الخيول أيضاً، فالخيول البيضاء مخصصة من الواضح أنها تُعد حيوانات حية صالحة للأغراض الاحتفالية أكثر منها كضحايا لتقديم القرابين لبعض الآلهة، وعلى الرغم من الإشارات المتعددة إلى استيراد الخيول إلا أنه من المؤكد أن الخيول كانت تربي في بلاد آشور لأنه قد ذكرت الأفراس والمهور ولم يستعمل الآشوريون خيولاً للأغراض العسكرية سوى الفحول من الخيول.

ونرى أحد الملوك الآشوريين يذكر باحتقار عن ملك من ملوك الأعداء المهزومين قد هرب راحكياً فرساً.

كان تأمين الخيول للأغراض العسكرية أمراً ذا أهمية خاصة، ويشير الملك سرجون إلى إحراق مخازن التبن التي كان أحد الملوك الأعداء في شمال آشور قد أعدها لأجل خيوله. وعندما مار الملك ستطاريب زاحفاً إلى الخليج العربي لإتمام هجوم بحري على عيلام (إلى الجنوب الغربي من إيران) فقد حمل الحبوب والتبن بواسطة السفن وذلك لاستعمال خيوله التي سارت عن طريق البر حتى وصلت الخليج ومن ثم نقلت بحراً عبر الخليج.

وكما ذكرنا توأ فقد عرف الحصان لأول مرة من مناطق في الأقطار الشمالية وقد حصل الآشوريون على خيولهم من الشمال أو الشرق، لذلك لا عجب أن يكون الآشوريون قد اكتسبوا خبرتهم بالخيول من شعوب قطعت في تلك المناطق، ولقد رأينا سابقاً واجبات الاحترام والتقدير التي قدمها سرجون لبعض الشعوب في شمال غرب إيران بهذا الخصوص.

وهناك برهان ثابت أن المنطقة الشمالية كانت مركز تربية الخيول يظهر من أحد النصوص التي ترجع إلى الألف الثاني وهي تذكر شيئاً عن تدريب خيول جر العربات، ولا شك أن هذا كان معروفاً في آشور لأن لدينا نصاً (ولكن لحق به ضرر كبير) فيه إرشادات بالنسبة لهذا الموضوع وهو لا شك مدين بما فيه من المواد إلى المصادر الحثية، ونجد فيه أن الخيول كانت تعامل بعناية عظيمة كما تعامل في هذه الأيام.

وهنا نذكر جزءاً من هذه التعليمات:

"يجب أن تنزع السروج عن الخيول... دعها تتدحرج حول نفسها... وقدم لها الملف... وحافظ على ذهنها.. وافركها جيداً.."

وكان من الممكن أن تنهار الخيول ضحية للأمراض السارية كما يحدث للماشية والأغنام إذ نحن نجد ما يذكرنا بهذه الأمور.

أما البفل: فهو ينتج كهجين عقيم عن تلقيح الحمير والخيول وهو حيوان معروف أيضاً من منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور، وهناك مثل بابلي

مضحك يعكس الحقيقة التي مفادها: إن البغل يمكنه أن يرث صفات الحمار أو الحصان ويقول المثل:

((عندما يركب الحصان المتعب ظهر حمارة، يهمن في أذن الحمارة: دعي المهر الذي سوف تحملين به أن يكون عداء متلي ولا تجعليه حيوان جر وحمل مثل الحمير)).

وعلى الرغم من طموحات الحصان الفحل الأب فإن البغال في آشور كانت تستعمل للجبر والحمير كانت تستخدم للركوب، البغل هو ابن الحمار من الفرس.

الطيور

كانت أسراب البط البري وكذلك الإوز تصطاد بواسطة شباك، وقد ربيت بعض الأصناف المهجنة من سلالات مختلفة لتكون مصدراً من مصادر الحصول على اللحوم وكانت تسمن بعد أكل الشمير الذي كان يقدم لها بشكل عجينة.

وكان شعب الإوز يستعمل كدواء في الطب، ففي بابل وفي الألف الأول كان هناك ساحات خاصة لتربية البط وكانت تلحق أحياناً بالمهد ومن المحتمل أن ذلك كان سائداً في آشور أيضاً.

كان الحمام (الذي كان يمتاز بالنظرة الشاعرية إليه في الأدب الآشوري) يربى في بلاد آشور ويؤكل وتشير قصة الطوفان البابلية التي نقلت في التوراة باسم طوفان نوح تشير هذه القصة إلى أن الحمامة قد رجعت إلى الفلك بعد أن أطلق سراحها، وهكذا فقد كان سكان ما بين النهرين القدماء عالمين بفرائب الحمام المتعلقة بحب الوطن، ولحسن هناك أي ذكر لاستخدام الحمام الذي ينقل الرسائل.

التجارة

كان العامل الثاني الذي سبب ازدهار آشور هو التجارة بشكليها الداخلي والعالمي.

التجارة الداخلية:

إنه وفي علومنا الاقتصادية نأخذ بالحسيان وجود نظام مميز مؤسّس على المال وهو يخدم كمتقياس للقيمة وأيضاً كوسيلة من وسائل التبادل وبذلك يساعد الفرد وبسهولة على التصرف بما ينتجه وعلى الحصول على ما يحتاجه، وهناك بعض المرونة التي تتحقق عن طريق نظام القروض الذي تقوم به البنوك.

لم يكن الاقتصاد القائم على المال متوفراً في آشور القديمة، وعلى الرغم من الإشارة المبهمة التي تسوّى بها الملك سنحاريب عام (٦٩٤) ق م حول حب التماثيل البرونزية التي قال عنها إنها تشبه: "سك قطع الشيكل".

(وربما أنه كان يعني أن الحرفيين في بلاده يستلمون للتصرف بكميات كبيرة من البرونز بشكل ماهر كما لو أنهم يصنعون قطعة نصف شيكل).

إلا أن النقود المعدنية لم تلعب أي دور في نظام التوزيع الآشوري فقد استعملت عملة النقود المعدنية أولاً في آسيا الصغرى في وقت لا يقل عن الوقت الذي سقطت فيه الإمبراطورية الآشورية، ومن جهة أخرى كان هناك في آشور سلف بدائي لاقتصاد المال، فقد كانت المعادن تستعمل بصورة مستمرة كوسيلة للتبادل ولم تكن هناك عملة معدنية مختومة، بل كانت المعادن تستعمل كقطع تعرف بقيمتها بوزنها، وفي الأوقات الصعبة كان الذهب والفضة والقصدير والنحاس كلها تستخدم لهذا الغرض مع أن الأكثر شيوعاً من هذه المعادن في الفترة الآشورية الجديدة كان الفضة.

ولقد تجاوزت الأعمال الآشورية استعمال الفضة كوسيلة للتبادل، بل وصلت إلى مفهوم استعمال الفضة كمتقياس للقيمة، وهكذا نشأت حالات حين كانت

تحدد الديون بكمية من الفضة ولكن هذه الديون كانت تنفع بطرق أخرى مثلاً بكمية من الشعير.

وبالاختصار فإننا لا نود إنشاء نظرية اقتصادية جديدة عندما نقول: إن هذه العملية وهذا الاقتصاد هو (اقتصاد شبه نقدي).

لم يكن الاقتصاد الذي تمتعمل فيه المبادل كواسطة للتبادل، ولا بشكل من أشكال النظام المتبع بالتوزيع المتوفر في دولة آشور في الألف الأول ق م فقد كان هناك مساحات واسعة من الأراضي تمتلكها الدولة المتمثلة بشخصية الملك، وكان هنالك كثير من الناس ابتداء من الموظفين الكبار حتى الأتقان والعبيد وكان هؤلاء جميعاً يعتمدون على الدولة من أجل تأمين معيشتهم، وهذا كان يسمح بإحداث نظام مباشر للتوزيع، فقد كانت منتوجات أراضي الدولة تصل إما إلى العاصمة أو إلى المخازن في المدن الرئيسية المحلية، أما المنتوجات التي كانت تصل إلى العاصمة فقد كانت تستعمل لتلبية حاجة البلاط والمعبود وبعضها كان يخصص كإعاشة لمختلف الموظفين والعمال.

وكان القمح المخزن في المدن المحلية يوزع جزء منه حسب المقتضيات، وبمضنه الآخر كان يشكل احتياطي استراتيجي لاستعمال الجيش عند القيام بحملات في المنطقة أو خارجها.

وكان هذا هو نظام التوزيع المباشر وهو يقع خارج الاقتصاد شبه النقدي، وكانت إمدادات الحبوب التابعة للدولة بشكل كلي خارج الاقتصاد شبه المالي وهي تدخل ضمن التجارة الخارجية المالية، فنحن نسمع مثلاً عن معونات ضد المجاعة قد أرسلت من آشور إلى عيلام في أوقات الطوارئ.

أما منتوجات الأرض وهي غير المنتوجات التي تملكها الدولة بشكل مباشر معرضة لتكوين نظام توزيع مختلط، فقد كان كثير من الموظفين لديهم حصص من الأراضي وقد استلموها من الدولة، وكانت مثل هذه الضيع تدفع جزءاً من معاصيلها للدولة كضرائب، مع أن أراضي بعض الموظفين المُرُضى عنهم كانوا يتمنون بإعفاءات من الضرائب وكان قسم من معاصيل الضيعة ينقل عن طريق

التوزيع المباشر إلى العائلات المتصلة بالأرض، وكان هذا يتم بالطريقة التي كان المعتمدون بشكل مباشر على الملك يحصلون بها على دخلهم، وأما الباقي، وبعد خصم بعض الالتزامات، فهو يصبح تحت تصرف مالك الضيقة، ويصدق هذا على أي فائض يخص أولئك الفلاحين من مالكي الأراضي الذين كان عددهم في تراجع وتقص مستمر.

وهذا الفائض سوف يكون متوفراً للدخول في الاقتصاد شبه المالي، ويحدث أحياناً تماس مباشر ما بين الظاهرتين المتوازيتين من الاقتصاد، وهكذا نجد عقداً يعطي الحق لشخصين لشراء الحبوب بواسطة الفضة التي حصلوا عليها، ولكن الحبوب ينبغي أن تشتري في إحدى الولايات وتسلم عن طريق النقل المالي في النهر في ولاية أخرى.

ولكن يبدو أنه باستعمال الاقتصاد شبه المالي فقد أصبح من الممكن استعمال الفائض من القمح في إحدى الولايات للتفويض من نقصه في ولاية أخرى، وعن طريق المبادلات التجارية لهذا النوع من البضائع أصبح من الممكن التحرك من اقتصاد التوزيع المباشر إلى الاقتصاد شبه النقدي.

ومع وجود مجتمع معقد لا يسمح بإمكان التبادل بالمقايضة الحرة على مقياس واسع وفي مجتمع غير مؤهل بشكل كاف لوجود اقتصاد معتمد على توزيع الحصص المباشر وجملة مناسبات كلياً كان من الضروري وجود نظام شبه نقدي.

فقد كان هناك في المدن أعداد متوفرة من الناس الذين لم يكونوا من طبقة الموظفين الذين يحق لهم استلام الإعاشة من الدولة، ولا هم من العمال العاملين بشكل مباشر في إنتاج وسائل التفتية، وربما يظن المرء أن هؤلاء الناس كانوا عبارة عن جماعة من صائمي الفخار والنساجين أو صنّاع المعادن أو ناقشي الاختام ولكن وجود بعض هؤلاء في خدمة الملك لا يؤثر على وضعهم كطبقات مستقلة.

وكان هناك أيضاً رجال أحرار فقراء لم يمتلكوا أي أرض ولكنهم لم يكونوا ملتصقين بأي أرض أو ضيقة الأمر الذي يعطيهم الحق ليمسكوا في جني المحاصيل.

وقد كان مثل هؤلاء الناس يميّزون كعمال في مختلف المجالات، مثلاً المساعدة في جني المحاصيل أو القيام بمهام البناء وهلمّ جراً، وبينما كان هؤلاء العمال يستلمون ما يدفع لهم بشكل حصص أسبوعية من الطعام والشراب ولحكن حاجياتهم الأخرى من الممكن أن تُلبى بشكل دفعات من الممكن اعتبارها وسيلة تبادل.

ومما يدل أن هذا كان يجري فعلاً ما تثبته مذكّرة تشير إلى دفع القضة أو النحاس للعمال، وفيما يلي مثال حول عقد لإتمام بعض أعمال البناء، اشتغل فيه جماعة من الرجال في مشروع يتوقع أن يستغرق شهراً وقد دفع لهؤلاء وجبات يومية (إعاشة) وكمية من النحاس في آن واحد.

وفيما يلي مثال عن عقد جرى لإتمام بعض أعمال البناء، عمل به مجموعة من العمال ويُنتظر إتمام العمل في مدة شهر واحد، وقد دفعت لهم كملاً الإعاشة ووزنة من القضة.

لهنا توجد قائمة من الأسماء الشخصية

المجموع: ستة عمال.

وزنتان من النحاس.

٦، ٣ وهومر (وهو مكيمال عربي قديم) من الخبز والبيرة.

ولسوف ينجزون العمل في مدة شهر.

لهنا سطر معناه غير مفهوم

وهم سوف يتمون الدعائم

ولسوف يركّبون السقف

وسوف يضعون الصندوق في مكانه

وإذا صالاف ولم يتموا هذا العمل

فإنهم سوف يستمرون في العمل حتى النهاية

أي حتى ينهوا عملهم بعد شهر.

وإن الصندوق المذكور ربما كان الفطاء الخشبي لبرج التهوية على السطح.

وأما كميات الطعام الموجودة فهي كميات الطعام اللازمة لكل عامل في كل يوم، بواقع نحو ستة بلونديات من الخبز وستة بلينات من البيرة في حالة وجود ٦، ٢ هومر من كل واحد من هذه الأصناف أو نصف هذه الكميات إذا كان هناك ٦، ٢ هومر وهي مجموع كميات الخبز والبيرة.

ومن الواضح أن الرجال كانوا يستلمون وجبات أساسية كاملة وكذلك كميات النحاس المذكورة كالأجور التي كانوا سوف يستلمونها كمصروف للعيب لأجل تلبية حاجاتهم الأخرى.

وبالنسبة لأسعار النحاس الحالية فإن الوزنتين من النحاس المذكورتين يعادل ثمنها عشرين جنهياً استرلينياً لكل رجل لمدة شهر واحد، ونظراً لوجود فروق شاسعة ما بين تكاليف المعيشة في منطقة ما بين النهرين القديمة وتكاليف المعيشة في المجتمع الغربي الحديث، فإن هذه التقديرات لا تمثل أرقاماً ذات معنى حقيقي لتقدير الأجور القديمة بالنسبة للقوة الشرائية.

لا نعلم بالتفصيل كيف يستطيع العامل استعمال الكمية الضئيلة من النحاس أو الفضة للحصول على بضائع وأشياء أخرى، ومع ذلك فقد كان هناك عدد كبير من التجار وبينما نرى بعضهم مهتماً بالتجارة على مقياس واسع، مثلاً الصفقات المذكورة آنفاً لجلب الحبوب من مقاطعة أخرى، لذلك نجد أن هناك دلالات عن وجود بعض من هؤلاء من الذين يعملون في تجارة على مقياس ضيق يشبه عمل أصحاب الحوانيت والمطارين، فقد كان هناك أناس بالتأكيد كانوا يبيعون المواد الصغيرة للأفراد على مقياس ضيق حيث إننا نجد ذكراً للعقبة الجلدية التي توضع فيها الأوزان.

وهناك أيضاً نص يذكر إمكانية حدوث أعمال الغش من قبل تجار المُرُق ويتكلم عن نوع من الأشخاص يملك بالهزان ويزداد في أعمال الغش بأن يبدل الأوزان.

وأما بالنسبة إلى وجود المطارين نجد أن رجل أعواد الثياب ورجل الملح
مذكورين (مع أن هؤلاء كانوا موجودين في بابل وليس في آشور) وكلاهما يدل
على صفار التجار الذين لا ينتقلون من منزل إلى منزل.

ولقد عرفت آشور إجراءات منح القروض وذلك لتسهيل الأعمال التجارية
وكانت المباد والشخصيات المادية تقدم الفضة بقصد أغراض العمل.

وكانت النقود المستقرضة تصاد في الوقت المحدد بشكل بضائع وينتظر
مُقرض الفضة أن يستقيد بالحصول على سعر مناسب في لحظة تسديد الديون، أو
بأن يدفع له الفوائد أو سكلا الأمرين.

وكان من الشائع أن تكون البضائع ذات العلاقة من الحبوب ولكن فيما يلي
وصف صنفية تجارية بخصوص توريد الخمر:

٢٠٥ هومر (حوالي ١٠٠ غالون) من الخمر.

وهي تخص مانو - كي - نينوى.

هي من الالتزامات التي على بارتاما،

فهو سوف يسلم الخمر في نينوى،

في شهر أيار،

وإذا لم يسلم هذه الخمر في هذا الوقت،

فسوف يدفع الفضة طبقاً للأسعار في نينوى.

اليوم الخامس والعشرون من شهر كانون الثاني.

وقد كانت الخمر تنتج في المناطق الجبلية في الشمال والشمال الغربي، وإن
تسليم مئة غالون منها في نينوى في أوائل الصيف كان من الواضح أنه عملية
تجارية بحتة.

وإن الرجل الذي قُدم له كميته من الفضة يأمل أن يحصل على فوائد عن
طريق الشراء بسعر رخيص في الشتاء في منطقة إنتاج الخمر، وكان المُقرض
محمياً في حالة تأخر التسليم وذلك بأن يكون له الحق بالتعويض عن المئة غالون

من الخمر بالسعر السائد في نينوى في شهر أيار، أي في بداية شهر الحر، عندما يرتفع سعر الخمر والمشروبات الأخرى ولا سيما إذا ظهرت ظروف معاكسة في الشمال وهي التي ستجعل المون نادرة الوجود.

وفي بعض الأوقات وبعض الأمكنة في منطقة ما بين النهرين القديمة بُدلت محاولات لضبط الأسعار عن طريق مراسيم حكومية، ولكن لم يكن الحال ممكناً في الإمبراطورية الآشورية، وإذا إن العقود التجارية كانت تؤكد دوماً، كما سوف نلاحظ من العقد التالي، أن الدفعات تكون طبقاً للأسعار في مكان ما وفي زمن ما.

وهذا يظهر أن هناك اعترافاً واضحاً بالحقيقة التي مفادها أن الأسعار في آشور كان يقررها أحوال وقوى اقتصادية خاصة، وليس بالمراسيم الرسمية.

ونحن نجد أيضاً بعض الرسائل التي تذكر أن أسعار البضائع المختلفة في مناطق مختلفة كان يجري إخبار الملك عنها ولم يقررها الملك، ومن الواضح أنها أسعار يتلاعب بها السوق وليست أسعاراً تقطعها الدولة.

وهناك نقوش تظهر أن الملوك أنفسهم كانوا يعلقون على الأسعار وعلى تأثير القوى الاقتصادية المختلفة على الأسعار، وقد تكلم الملك سرجون الثاني عن سياسته الرامية إلى تحسين الزراعة في أراضيه، وكان يعلق على نتيجة هذا تخفيض الأسعار بالنسبة للزيت وبذر الكتان وقد اقتبمنا هذا المقطع، وقد علق فيه الملك على زيادة الغنائم الحربية وتأثير ذلك على الأسعار في آشور، ويمد أن عدد الأدوات المعدنية التي جلبها بعد القيام بحملاته يقول:

((إن الأملاك المنقولة التي حصلت عليها لا تُعد ولا تُحصى من التي لم يحصل عليها أجدادي أبداً، لقد كثرت في عاصمتي قلعة سرجون.))

وفي بلاد آشور يستطيع الناس دفع أثمان الأشياء بالفضة كما لو كانت نحاساً.

ويعد أن استولى آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧) ق.م على أعداد من الجمال بشكل غنائم وبعد أن وزع هذه الجمال بصورة واسعة علق على تأثير هذه الكميات الزائدة على الأسعار وهو يقول:

«في بلادتي تباع الجمال في الأسواق بسعر شيكل واحد أو نصف شيكل من الفضة لمن الجمل الواحد».

وطبقاً لأسعار الفضة في الثمانينات من القرن العشرين لم يصبح قيمة هذا المبلغ جنيتين استرلينيين وهذا سعر رخيص بالنسبة لجمل مستعمل، ويمكننا أن نضيف أن أهمية التجارة بالنسبة للدولة كانت عاملاً معروفاً.

وذلك أن التجارة كانت مراقبة للمحاصيل الزراعية في أهميتها. أما نذر الفال الفلكية والتي كانت منحصرة بالمسائل ذات الأهمية بالنسبة للدولة وفيما يلي مقتطفات نموذجية من مثل هذه التنجيمات الفلكية:

((عندما يظهر القمر في وقت ليس هو موعده فإن نشاطات الأعمال التجارية سوف تنقص، وعندما يظهر الكوكب مع ظهور الشمس في شهر أيلول (سبتمبر) فإن نشاطات العمل سوف تزداد وترتفع وسوف تزيد الكميات المحبوبة.))

وهناك أحد التنجيمات الفلكية من نفس الموضوع مع أنها في الحقيقة متعلقة بعلم الأرصاد الجوية أكثر منها بعلم التنجيم:

((وعندما تظهر ويزداد الضباب في البلاد فإن المحاصيل الزراعية سوف تزداد وسوف تصبح التجارة مستقرة.))

إن هذا حول زيادة أو نقصان أنشطة العمل تظهر اعترافاً جزئياً بدائياً بوجود الدراسات التجارية (نشاط- ركود- نشاط) وإن ربط هذه الحركات بالظواهر الفلكية يدل على أن الناس قد شعروا أن هذه الحركات ليست ذات أسس عقلانية.

التجارة الخارجية

تعود قضية التجارة العالمية أو الخارجية في جنودها إلى أزمنة ما قبل التاريخ. ونظراً لموقعها على طول نهر دجلة معترضة الطرق الممتدة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى زاغروس ومن جبال طوروس إلى بابل فإن المنطقة المعروفة باسم بلاد آشور كانت مهمة دائماً.

ونظراً لوضعها الجغرافي فإن شعب آشور قد أصبح في وضع يحوله أن يكون شعباً تجارياً وسيطاً.

ولكن هناك عاملاً آخر قد شجع التجارة الخارجية أو العالمية، على الأقل التجارة الداخلية في منطقة الشرق الأدنى القديمة، وهو: عدم الاستقرار في التكوين الغذائي ومن الواضح أنه إذا كانت الأمة في حالة من الاكتفاء الذاتي اقتصادياً دون اشتراكها في أي صلات تجارية مع جيرانها فإنها سوف تحصد الفشل حتماً.. وهناك في الحقيقة مناطق قليلة جداً لا تشكو ولا تفكر في سوء المحاصيل الزراعية.

وحيث تعتمد محاصيل الحبوب على الري فإن زيادة منسوب المياه في النهر أو حدوث طوفان هائل ربما أدت إلى مجاعة كما يحدث عند حدوث سنة جافة في مناطق تعتمد على هطول المطر.

ومن الممكن تدمير أي محصول زراعي وأعد عن طريق الجراد والأفات الزراعية.

وإن الوفاة الوحيدة ضد مثل هذه النكبات هي الاحتياط بتخزين كمية وافرة من المحاصيل التي جنت في المواسم المباركة أو عن طريق الحصول على الحبوب من المجتمعات التي صلاتها ظروف مواتية وبذلك يحصل عندها فائض من المحاصيل.

هذا وإن نقل الحبوب من الميسورين الذين عندهم حبوب إلى الفقراء الذين لا يملكون حبوباً يكون إما عن طريق الحرب أو عن طريق التجارة.

هذا وإن المجتمع الذي صادفه الحظ بجتي محاصيل وافرة سوف يكون متأثراً بجبرانه الجياع، فليس لديه إلا أن يلجأ لأحد أمرين إما الحرب أو الفجارة، كما أن المجتمع الجائع ليس لديه سوى أن يقتل أو يتاجر أو يموت.

كانت التجارة والحرب أمرين مترابطين في دولة آشور من البداية إلى النهاية، ولقد عانى المزارعون الأوائل القاطنون بسهولة آشور من الفترات على محاصيلهم الزراعية ومخزوناتهم من قبل شعوب قادمة من التلال المجاورة أو من الصحراء.

وعندما أصبح هؤلاء دولة منتظمة فقد استعملوا هم بأنفسهم التجارة أحياناً والحروب أحياناً أخرى للحصول على البضائع التي كانوا يرغبونها من أجزاء أخرى واقعة في الشرق الأدنى.

وكانت أقدم مظاهر التجارة الخارجية الآشورية المعروفة بتفاصيلها هي التجارة ما بين مدينة آشور وكاروكيا (الجزء الشرقي الأوسط من تركيا) وذلك في بداية الألف الثاني قـم ولقد ناقشنا هذه القضية في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ولقد عرفنا شيئاً عن دور آشور في التجارة الخارجية في الألف الثاني قـم ولقد ناقشنا أعلاه المفاوضات التي جرت بين الملك آشور أباليث (١٢٦٥-١٢٣٠) قـم ونظيره المصري لإنشاء علاقات تجارية بشكل تبادل الهدايا، ولقد تمت التجارة لمساكن طويلة عن طريق القوافل.

وهنا كانت أهم المشكلات هي الأمن وهي عامل أسهم في إيجاد الصلات بين التجارة الخارجية والأنشطة العسكرية.

وفي المراسلات التي جرت ما بين آشور أباليث والملك المصري، لقد شكك الأخير من تأخر رسله، ولقد أخير آشور أباليث الملك المصري أن هذا التأخير نتج عن القبائل الرحل المتواجدين في منطقة منتصف الفرات، وأنه قد اتخذ الخطوات لمعالجة أمور هذه الصعوبات.

وفي نفس الفترة اشتكى أحد ملوك بابل إلى نظيره المصري عن عدم توفر الأمن في فلسطين، وكانت تلك المنطقة ضمن السيطرة المصرية الاسمية. وقد جاء في الرسالة:

(إن كنعان بلد خاضع لك وملوكها خدّم لك ولكنني تُهَيْتُ في أرضك. ألق القبض على الأشخاص ذوي العلاقة وإلا إنهم سوف يعودون ويقضون على قوافلي وحتى على رسلك).

وفي أمكنة أخرى كتبنا نسمع باستمرار أخبار قتل أو خطف التجار مؤكداً الحاجة لتدخل الدولة لتأكيد الأمن بالنسبة لازدهار التجارة.

وعلى العموم فقد كانت سيطرة الدولة على التجارة الخارجية شديدة وصارمة في أواخر الألف الثالث ق.م.

وهكذا تقدم لنا أحد النصوص العائدة لأحد الملوك الحثيين والتي يعود تاريخها إلى ما بعد عام (١٢٠٠ ق.م) الشروط التي يسمح بموجبها للتجار من الأناضول بالاتجار داخل أوغاريت، وكانت هذه المدينة خاضعة تقع في شمال سورية، وكانت هناك شكوى واضحة معلية تشير إلى أن التجار كانوا يحاولون اكتساب حقوق منافسة لمنفعة أهل البلاد والأهلين، ولذلك فقد أصدر الماهل المحلي مرسوماً يلزم فيه التجار بالنشاط داخل أوغاريت أثناء الصيف فحسب، وليس أثناء الشتاء.

وأنه لا يجوز السماح لهم لكسب حقوق الإقامة أو شراء البهوت والأراضي. هناك وفي أواخر نفس القرن نجد أن القصد من استورد من الأناضول عن طريق تاجر خاص، ولكن ليس لدينا أي معلومات حول الشروط التي بموجبها كان هذا التاجر وعملاؤه يتحركون في الخارج.

عندما تلقى نظرة على التجارة الآشورية في الألف الأول ق.م نصادف صموية من الصمويات وهي: هل كان هناك أي شيء في المجال الدولي يمكن أن ينطبق عليه مصطلح التجارة بالشكل الصحيح.

ولا مجال للشك أن كميات لا بأس بها من البضائع قد وصلت إلى آشور من الخارج ولكن النسبة الطاغية لما نريد أن نسأل عنها أتت من الغنائم الحربية أو الجزية.

ومن الممكن أن نذكر أن هذه كانت شحناً من أشكال التجارة تدفع تكاليفها بعض الصادرات بشكل مواصلات جيدة وأمن في الطريق، والتحرر من الهجمات الخارجية، ومع أن هذا النوع من التصريعات من التحمل لفيض أعداء الإمبراطورية إلا أن هذه هي الطريقة التي يفكر بها المحكمات الخاضعون حول هذا الموضوع.

ولدينا مثال واضح حول هذا الأمر في التوراة عند ذكر العلاقات ما بين (أحاز) ملك يهوذا وتغلث بلاسر الثالث ولقد هدد أحاز ملك يهوذا التحالف ما بين إسرائيل وسورية، وهكذا التجأ إلى تغلات بلاسر بقوله:

تعال وأنقذني من سطوة ملك سورية أو من سطوة ملك إسرائيل اللذين بهاجماني (٢ملوك ١٦: ٧) ولقد فصل تغلات ببلاسر هذا فأرسل أحاز هدية إلى ملك آشور ومن الواضح وبالنسبة لهذه القضية الجزئية التي دفعها أحاز وكانت «قابل الخدمات التي استلمها».

وهناك ملك آخر في أقاصي شمال سورية ترك نقشاً يذكر فيه حكم قدم هو ووالده من ولائهم للملك تغلات بلاسر الثالث، ذلك الولاء الذي اشتمل على وضع الجزية، وبعد ذلك يذكر الفوائد الاقتصادية لبلاده من هذا الولاء.

وسواء كان علينا أن نعتبر أداء الجزية جزءاً من التجارة الخارجية أم لا نعتبره، إلا أنه كان نوعاً من التجارة الخارجية ليس فيه مجال للجدل، واستمر في الإمبراطورية الآشورية، ولقد عثرنا على رسالة تثبت هذا من أحد الموظفين في صور، فلقد كان الناس هناك يمارسون عادة قطع الأشجار في غابات لبنان وجلبون الخشب إلى المدينة حيث كان الآشوريون يتقاضون ضريبة عالية، وبعد نشوء بعض الاضطرابات حول الضريبة قام المسؤول الآشوري بفرض حظر على بيع الخشب إلى مصر بقصد أن يبيع أهالي صور الخشب إلى آشور.

وممكننا فقد انضغ الرابط التجاري نظراً لأن الموظفين الآشوري قد هدد بأن لا يسمح لأهالي صور بقطع الأشجار إذا أحدثت اضطرابات أخرى حول الضريبة.

وقد كان هذا التهديد مخيفاً لو كان الآشوريون قد استلموا الخشب كعجزية دون أن يدفعوا الثمن، ومع أنه وفي تلك الظروف فقد منعت السلطات الآشورية أهالي صور من المتاجرة بالخشب مع مصر، إلا أن سرجون الثاني صرح بأنه يشجع التجارة ما بين المصريين والآشوريين.

وفي مكان آخر نجد سجلاً يذكر شيئاً عن تسليم الرصاص الذي كان يجلب من منطقة تسمى الآن: كوردستان، وليس هناك من دلالة تشير بأن هذا مكان جزية.

وهناك وثيقة تشير إلى نقل نحو (٧٣٠) حصاناً قد جلبها التجار.

وهذه شهادة على وجود تجارة خارجية حقيقية نظراً لأن الأهمية الرئيسية للخيل في آشور كانت لأغراض عسكرية، وأن الخيول وبهذا المدد إنما قد أرسلت للاستعمال الحكومي.

وكان التجار يملكون وكلاء للدولة ولكن كون التجار مشمولين بهذا الأمر إنما يدل أن هذه كانت تجارة حقيقية وليست تسليم الجزية.

إن ذكر بعض البضائع التي كان أصلها من خارج المنطقة الخاضعة لآشور ما هو إلا شهادة دامغة لإثبات وجود التجارة الخارجية حتى ولو وصلت إلى آشور بشكل جزية.

وبهذا تكون قد تركت البلاد التي أنتجت فيها عن طريق آلية التبادل التجاري، وإن إحدى هذه البضائع هي ناب الفيل الماجي الذي تجده قادماً إلى بلاد آشور من نهاية القرن الثامن ق م وذلك بعد أن انقرضت الفيلة من سورية، وهبل أن سيطرت آشور على مصر وهي البلد الوحيد الذي كان من الممكن أن يكون هذا العاج قد أتى منه.

وكنذلك كان الوضع بالانتمية للآزورد الذي كان يستعمل لتزيين المعابد والقصور وقد كان مصدر الآزورد أفغانستان إلى الشرق من إيران التي لم تصل إليها السيطرة الآشورية.

وفي نهاية القرن الثامن قـم بدأ الآشوريون بلعب دور رئيسي شرقي زاغروس ومن ذلك الوقت بدؤوا بالحصول عليه عن طريق الجزية من القبائل في غرب إيران الذين حصلوا عليه عن طريق التجارة مع أقاصي الشرق.

والحقيقة أننا نجد ذكراً لبعض الآزورد الذي أتى كجزية من القبائل الإيرانية ولكن ليس بذلك الانتظام الذي يجعله المصدر الرئيسي للآزورد الذاهب إلى آشور، أو أن البقية كان من الممكن أن تصل إلى آشور عن طريق التجارة غير الموثقة.

بالتبع كانت القوافل التجارية لا تزال في حركة دائمة عالمياً خلال الإمبراطورية الآشورية الجديدة وأيام عزها مع موافقة الملك الآشوري، وذلك لأن الملك سرجون كان يشير دوماً إلى الأعمال التي عليه أن ينجزها ضد رجال القبائل الأرامية الذين استمروا في الإغارة على القوافل التي كانت تخمس مواطنين بابلين. ومع ذلك فإن المؤشرات التي ذكرناها قبل قليل ووجود بعض المؤشرات الأخرى المماثلة حول التجارة الخارجية بالنسبة للإمبراطورية الآشورية الجديدة يظل توثيق هذه المؤشرات صعباً ونادراً.

وهناك طريقتان يمكن تفسير هذا الأمر بواقطتهما :

الأولى: هي أن آشور لم تمتلك سوى تجارة خارجية ضئيلة وهي التي كانت بشكل استلام الجزية فيما لو اعتبرناها شكلاً من أشكال التجارة، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون التجارة الخارجية بالحقيقة واسعة ولكن كانت تعمل بألية ثم لم تترك أي سجلات.

ونحن نعلم أن اللغة الأرامية بشكلها الأبجدي المكتوب كانت أبسط بكثير من اللغة المسمارية الأكادية، وكانت اللغة الأرامية قد ازداد استعمالها في آخر

قرن وربع من حكم الإمبراطورية الآشورية وكانت هذه اللغة تكتب ولكن ليس
مثل المسمارية التي كانت تكتب في ألواح من القرميد وغير قابلة للتلف، إلا أن
الآرامية كانت تكتب بالحبر وعلى قطع من الخزف أو أوراق البردي أو الدفوف.
إن قطع الخزف تمتلك القدرة على البقاء، ولقد وجدت بضعة أمثلة من الوثائق
الآرامية (ولكن ليس لهذه علاقة بالتجارة الداخلية أو الخارجية أو العالمية).
ولكن بالنسبة للمناخ فمن الصعب بقاء أوراق البردي المكتوبة عبر آلاف
السنين بحيث إن أي تجارة خارجية مسجلة على هذه المواد لا يمكن أن تترك أي
أثر.

الفصل الثاني عشر

السيطرة على البيئة

الآشوريون والموارد الطبيعية

لقد كان العنوان المقرر لهذا الفصل هو: العلم والتكنولوجيا، لكننا أهملنا هذا العنوان لكونه مضللاً.

إذ إنه مع أن الآشوريين قد عرضوا بعض الحقائق التي من الممكن أن تدرج تحت عنوان عام وهو: المعرفة العلمية، وقد استعملوا عمليات ربما نعتبرها ضمن حقل التكنولوجيا.

إلا أنهم افتقروا إلى تنظيم معرفتهم، ذلك التجهيم الذي ربما برز استعمال كلمة علوم، ومع أن الاصطلاح المعروف باسم التكنولوجيا من الممكن تبرير استعماله حينذاك، إلا أنه يبدو وكأن فيه شيئاً من المبالغة عندما يطبق على مهارة كصناعة القرميد.

ومن الممكن أن نتلاعب بالكلمات ونقول: إنه ما دام أن العلم من حيث الاشتقاق اللغوي يعني: المعرفة، وما دام أن الآشوريين كان لديهم معرفة، لذلك فنستطيع القول: إنه كان لديهم علوم.

ولكن كما هو معروف اليوم فإن كلمة العلوم لا تعني المعرفة فحسب، بل تعني مجموعة منتظمة من المعارف تتوسع دائماً عن طريق البحوث التجريبية التي ربما تؤكد، وربما ترفض الفرضيات.

ولهذا نعتبر ضمن هذا المفهوم أنه لم يكن هناك أي علوم في آشور أو في أي مكان في منطقة ما بين النهرين القديمة، ما عدا الزمن الذي حدث فيه تحول من الألف الرابع إلى الثالث قبل الميلاد.

ففي تلك الفترة المبكرة عندما كان العقل السومري المتوقد يتعكر الأسطح المادية والمعنوية بالنسبة لجميع المجتمع القديم في منطقة ما بين النهرين.

فقد حدثت هناك تغييرات سريعة فكانت تدل على ذلك الاستعداد للدخول في حقل التجارب مع المواد والأفكار التي تمد أساساً للملوم.

ولكن منجزات السومريين الأولى كانت طاغية واكتسبت شهرة مهيبة عظيمة بحيث أصبحت المعرفة السومرية وبسرعة مكشفي ثابت ونهائي.

وبعد الألف الثالث ومع وجود بعض الاستثناءات أصبح كل ما يجري عمله في أي مظهر من مظاهر الحياة محترماً إذا شعر الناس أنه متناغم ومتوافق مع ما أنجز في الماضي.

ولكن البهتة لمست ثابتة، مثلاً من الممكن أن تتلاشى بعض الفابات التي كانت مصدر الحصول على الخشب، أو من الممكن أن تهجر إحدى المستوطنات نظراً للموجة التربة هناك خلال إنجاز عمليات الري خلال مدة طويلة.

وقد أصبح هذا النهج من التطور في بعض درجات التغير حتمياً بمرور الزمن.

ولكن وبالنسبة إلى منطقة ما بين النهرين القديمة فإنه عندما حدثت مثل هذه التغييرات كانت تعاط بالتعليمات التي توجب أن يظل الجديد متناغماً مع القديم. هذا وإنه من وجهة النظر النموذجية لمنطقة ما بين النهرين القديمة فإن المعرفة كانت شيئاً مستقراً ونهائياً، وذلك لأن الآلهة هي التي قدمت في البداية.

فلم تكن المعرفة شيئاً نامياً بشكل عفوي من الممكن تطويره وتحسينه عن طريق روح التساؤل.

لقد صرح بوجهة النظر هذه (بيروسوس) وهذا أحد الكهنة البابليين في القرن الثالث ق م والذي وعمل إلهاً بعض كتاباته باللغة اليونانية:

(وقد قصد بهذه الكتابات تفسير طرق الحياة عند البابليين لمعاصرة (اليونانيين) ويصف بيروسوس كيف أن (أواتيس) وهو مخلوق إلهي يظهر بشكل رجل يشبه السمكة وقد ظهر من البحر في الأزمنة الغابرة وقدم لشعب منطقة ما

بين النهرين جميع المعارف، فقد قدم لهم بعض أحوال نفاذ البصيرة والحروف وفي جميع فروع العلوم والفنون من جميع الأنواع، وقد علمهم كيف يبنون المدن ويؤسسون المعابد ويبتدعون القوانين ويهتسون الأرض.

ومن ذلك الوقت لم يستطع أحد أن يضيف شيئاً ذا قيمة لتحسين تعليماته.

وفي الألف الثاني قم بذل الكتبة البابليون محاولات ضخمة لتنظيم معارفهم (ولكن ليس لتوسيعها) فقد جمعوا وفحصوا جميع النصوص التي تعود إلى جميع المواضيع المتوفرة، ووضعوا نسجاً متقناً عليها لبعض النصوص، مثلاً الأساطير والتمازيذ والأناشيد والصلوات والتنبؤات الفلكية والوصفات الطبية والملاحظات الفلكية والمواد اللغوية، وكانت المواد اللغوية تشير إلى شيء مثل الموجودات من الأثاث المنزلي والكتالوجات تخص قوائم الفنائم وقوائم بأسماء الآلهة والنباتات والمعادن والأشجار والمهن والأشكال المختصة بقواعد اللغة والنجوم.

إن إنجاز الأشياء المتفق عليها كما يقول المهتمون بالدراسات الآشورية والأشكال القانونية لسلسلة النصوص كانت تعتبر كافية في حد ذاتها ولم يستطع الكتبة أن يتجاوزوا قوائم النباتات الحيوانية أو المعادن ليصلوا إلى دراسات منظمة لبيدات علوم النبات والحيوان والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وقد كانت كميات النصوص التي نشأت في بابل في الألف الثاني قم وكانت من جذور سورية تامة للألف الثالث قم.

ولقد وجدت بعض هذه النصوص في آشور والكمية الموجودة الآن في نينوى في مكتبات مختلف الملوك الآشوريين وخصوصاً آشور بانيبال قد جمعوها، ولذلك فإن أي شيء يمكن قوله عن العلوم الآشورية المؤسمة على مثل هذه النصوص الأدبية إنما تعود لما كانت آشور قد نقلته واستعارته مباشرة وبشكل مقصود من بابل، ومع ذلك هناك بعض العوامل التي تظهر الثقافة الآشورية التي عرّفناها إما من اللقيات أو التصاريح التي وجدت في النقوش ذات الأصول الآشورية ليس البابلية والتي من الممكن أن نعزوها لآشور نفسها.

ولكن علينا القول ومع أننا لا نقترح أن نسمع للأشوريين بنيل قصب السبق في معرفة العلوم المنظمة عندما يكون علينا الحذر عند استعمال الاصطلاح (تكنولوجيا) نقول:

إنه كان هناك حالة عظيمة في آشور عندما عرفوا أنه من الممكن التوسع في المعرفة، ومن الممكن تحسين عملياتها وإبداعاتها التي قبلت على علاقتها ولم تلبس لباس المحكمة الإلهية القديمة.

تمتاز شعوب المنطقة الجنوبية من أراضي ما بين النهرين بوجود إحدى المفارقات وهي: إنهم استمروا بالقيام بجميع منجزاتهم العظيمة في بيئة كانت فقيرة في كل شيء من الموارد الطبيعية كالخشب الجيد، والمعادن الخام، فالأشوريون في شمال منطقة ما بين النهرين قد حالفهم الحظ في موقعهم فقد كانت الأحجار بمثابة أيديهم، وكانت أمامهم التلال الحجرية (وهذه تحتوي الحجارة الكلسية أو الرخام) التي كانت على مرأى النظر بالنسبة لكل من عواصمهم المتعاقبة.

ولقد حصلوا على الحجارة عن طريق المضايق المفتوحة، إذ تركت إحدى هذه المضايق في عملياتها تدوياً واضحة في وجوه الصخور قرب (الممكن-موسل) إلى الشمال الغربي من نينوى وكانت الأحجار مادة خام لا تصلح لبناء المعابد والقصور فحسب، بل أيضاً لبناء أبنية أخرى أيضاً.

وهكذا كانت الأحجار تملأ بشكل قطع عظيمة بمساحة خمسة أقدام طولاً بمرضى قدمين ونصف وذلك في أوائل القرن التاسع ق.م، وقد استعملت هذه الأحجار في بناء سور لأحد المراكز.

وهناك قطع كبيرة يصل وزن الواحدة منها إلى عشرين طناً وكانت تحتل لتملأ سوراً أو مدناً هائلًا.

وإن الإمدادات من الحجارة هي إحدى النقاط التي يعرف منها معالم التجديد الواسعة نظراً لأنه وفي أثناء حكم سنجاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) أرسلت عدة فرق منها المساحين للتحقيق عن مصادر جديدة لأندر وأجمل أنواع الحجارة.

أما الخشب الجيد وهو مادة ثباتية أخرى مهمة بالنسبة إلى منطقة ما بين النهرين القديمة، وقد كان من السهل الحصول عليه لدى الآشوريين، ففي الأزمنة القديمة التي كانت التلال القريبة من المواسم تحمل أشجاراً عظيمة (وقد بقي منها البعض التي حمتها بعض الظروف المواتية) وحالما نفذت تلك الأشجار كانت السيطرة الآشورية قد امتدت بحيث أصبحت الغابات فوق جبال زاغروس وطوروس متوفرة وفي متناول اليد.

وكانت الشعوب المهزومة معتادة على قطع تلك الأشجار وتصديرها إلى آشور، وهنا نجد أيضاً أن سنجاريب قد قام بتجديد آخر، فقد أرسل هذا الملك المساجين إلى الجبال بقصد التفتيش الدقيق عن مصادر جديدة للأخشاب الكبيرة الضخمة، ولكن وعلى الرغم من استعمال الأحجار والخشب بقيت المادة الشائعة في البناء هي اللبن والطين، وقد كان اللبن يستعمل بشكل قرميد مجفف بالشمس، ولكن كان القرميد يتعرض للشوي أو الطلي بألوان متعددة بالنسبة لأعمال الزينة والفصوص أو المعابد وكانت هذه الألوان تتراوح ما بين الأسود والأحمر والأزرق أو الفضي.

وفي بعض أنهاء المعابد والقصور استعملت مواد عازلة للرطوبة وكذلك الببتومين وقد وجد أن قطع الحجارة الكلسية التي شكلت غرضاً في كالأخ في القرن التاسع ق.م قد ثبتت بالببتون، ويشير سنجاريب بعد حوالي قرنين إلى نفس الممارسات.

وقد استعملت هذه المادة أيضاً عند سد الشقوق في القوارب وكان الببتومين متوفرًا من حفر خاصة موجودة في آشور نقيها وهناك مثلاً حفرة من هذا النوع (والحقيقة أنها عبارة عن تصرب من حافة حقل نفطي) على بعد قليل من وسط نمرود.

وكانت هذه المادة تستعمل بشكلين إما كببتومين خام قد أخرج ثواً من الحفرة، أو ببتومين جاف وهو مادة لزجة ناتجة عن مزج القار مع الحجر الكلسي المطحون وهذا الشكل يستعمل بنجاح في بناء الأرصفة.

وكان هناك إحدى المواد الخام غير موجودة في جميع منطقة ما بين النهرين وآشور وحتى بابل وهي الخامات المعدنية ، ويجانب الذهب والفضة (وهذان كانا لبنين قلا يستعملان إلا في أغراض الزينة وهما أيضاً نادران فلا يستخدمان بشكل واسع) فللمعادن المعروفة في العالم القديم كانت الرصاص وكان هذا لبناً أيضاً فلا يستعمل في معظم الأغراض مع أنه مفيد في صنع الحليوات للماء أو الأنايب.

وكذلك الحديد والنحاس والقصدير وكان المعدنان الآخران يخلطان لتكوين البرونز، لقد استعمل النحاس وخليطه البرونز في الشرق الأدنى ابتداء من الألف الرابع ق م مع أن الحديد عرف في أواخر الألف الثاني ق م.

وتوجد خامات النحاس والحديد التي كانت معروفة لدى الأقدمين في جبال طوروس وزاغروس وفي جبال الأناضول وفي هذه المناطق وحواليها بدأ إنتاج المعادن وتطور.

ولأننا نجهل كيف أصبح منتج المعادن في طوروس والأناضول قادرين على العمل في إنتاج البرونز الذي يتطلب إيجاد خليطة من القصدير.

وحتى الألف الثاني ق م لم يعرف صانعو البرونز في الأناضول عن وجود القصدير وخاماته في منطقة طوروس والأناضول وكان عليهم لذلك استيراده من بلاد آشور والأناضول ولذلك استوردوا القصدير من إيران التي كانت تعرف كمصدر من مصادر القصدير منذ الأزمنة القديمة.

وفي هذا الوضع كان الآشوريون ابتداء من بداية الألف الثاني ق م (وحتى قبل ذلك) قد اشتغلوا في تجارة المعدن ولكن هذا العمل لم يؤهلهم ليصبحوا رواداً في علم تقنية المعادن والتي ظلوا هيها إلى النهاية أهل شائناً بالنسبة للشعوب الجبلية إلى الشمال منهم. وقد كان الآشوريون مضطرين لاستيراد معادنتهم من الخارج وكلما كان لديهم أي إمكانيات كانوا يستوردون المعادن بشكل تقني مصفى أكثر منه بشكل خامات تفقر إلى الصهر.

ولكن كان للآشوريين الخامات والاسيما خارج أراضي آشور بالذات، حيث لا توجد خامات ومنذ أيام اسرجدون (٦٨٠ - ٦٦٩) ق م الذي صرح

أن مصدر الذهب الذي استعمله هو العالم السفلي فقد كانت خامات المعادن تعاد معاملتها لهذا الغرض.

وخلال الألف الثاني كان النحاس والبرونز، وبشكل عملي، هما المعدنان الوحيدان المتوفران في آشور، وكانا يخدمان في جميع المجالات ابتداء من الأسلحة والأدوات حتى أحنية الخيول، ولقد كان الحديد الناتج من أصول زيركية معروفاً في منطقة ما بين النهرين ابتداء من الألف الثالث ق م ولم يستعمل حتى القرن الثاني ق م وذلك بصهره من خاماته.

وكان مركز هذه التطورات آسيا الصغرى، وحتى هناك فقد بقي الحديد منتوجاً نادر الوجود حتى أواخر الألف الثاني ق م، وكان استعمال الحديد الرئيسي صنع الأسلحة، وهناك إمكانية محاولة ملك الحديد أن يمارس سيطرته على تصديره، وإن وجهة النظر هذه مؤسمة على رسالة أرسلت من قبل حاكمه حتى يعود زمنه إلى منتصف القرن الحادي عشر.

وقد أرسلت هذه الرسالة إلى ملك آخر من الممكن أن يكون شلمنصر الأول ملك آشور وقد اعتذر الحاكم الحثي بسبب تأخره في تقديم الحديد الذي طلبه الملك الآشوري، كان عذره من الأعذار المألوفة في دوائر التصدير وهو صمويات الإنتاج ولكن هل كان عذره صادقاً أم كان يخفي محاولة فرض الحظر التجاري؟

ولقد وجدت قديماً محاولات لفرض السيطرة الاستراتيجية والتي أشهرها القصة التوراتية التي تذكر كيف أن الفلسطينيين في القرن الحادي عشر ق م رفضوا أن يتعاملوا مع الإسرائيليين في الصناعة التقنية للمعادن وذلك لئلا يصنع الإسرائيليون لأنفسهم سيوفاً ورمحاً.

ولكن سواء كان التأخير في انتشار إنتاج الحديد راجعاً لمحاولة الحثيين الاحتفاظ بالاحتكار بالنسبة لهذا المعدن، أو إلى صمويات إنتاجية فعلاً، إلا إن هذا المعدن قد بدأ متوهراً لدى الملوك الآشوريين ونمكن بكميات صغيرة في القرن الثالث عشر ق م عندما نسمع عن ذكر خنجر حديدي.

وفي القرن الثاني عشر ق م يرد ذكر حداد في البلاط الملكي قد منح خازنين بناء على أمر أحد الملوك وهذا يدل على أنه ليس الحديد فحسب بل أيضاً معرفة العمل بالحديد قد انتقل من آسيا الصغرى إلى آشور.

ومن الممكن أن يكون ذلك الحداد وابنه هو الذي صنع رؤوس النبال التي استعملها تفلات بيلامير الأول (١١٥-١٠٧) ق م بعد جيل من الزمان وتباهى باستعمالها ضد الشيران الوحشية ، ولكن لم يكن حتى أوائل القرن التاسع أن أصبح الحديد متوفر الوجود بشكل كاف لتزويد عدد كبير من المساكين بالخناجر الكافية.

وابتداء من نفس القرن فصاعداً استعمل الحديد لصنع الدروع المصفحة (التي لم يكن الجنود يلبسونها فحسب بل كانت الخيول الحربية أيضاً) وكذلك الخوذ والمؤوس لتطويق الطرق أمام الجيش.

ولا ينبغي لنا أن نظن أنه حالما أصبح الحديد متوفراً فقد حل محل النحاس والبرونز بصورة أوتوماتيكية في جميع الاستعمالات حين يمكن دخوله ، ولكن لم يكن الأمر كذلك ، إذ إن هناك عاملاً آخر هو أنه ليس من السهل التحكم بنوعية الحديد ، فالحديد الرديء قد يكون أقل فعالية من البرونز الجيد والنحاس الجيد.

وهكذا ومع أن المؤوس الحديدية كانت تستعمل في شق الطرق في عهد آشور ناصر بمل (٨٨٣-٨٥٨) ق م إلا أن ابنه شلمناسر الثالث في نفس القرن وسرجون الثاني في أواخر القرن الثامن كلاهما يشيران إلى استعمال البرونز والنحاس في شق الطرق أثناء الحملات العسكرية.

ولكن بحلول القرن الثامن أصبح الحديد متوفراً لصنع أصناف متعددة من الأدوات وأواني المطبخ ، وفي قوائم الغنائم تذكر موافد التدفئة في الشتاء والمصابيح المصنوعة من الحديد بينما هناك أصناف حثيئة قد وجدت مثل السلاسل والمعاول والأزاميل والمناشير والمسكاكين وشفرات الحارث والمطارق كلها كانت مصنوعة من الحديد.

وقد وجد في الحفريات مخزن واسع يحتوي على أدوات من الحديد والقلائم التي جلبها سرجون الثاني ويبلغ وزنها حوالي (١٦٠ طن) من الحديد ، وقد وجدت في خورسياد وهي موقع عاصمة سرجون (دور شاروكين) ولقد حصل تحليل لبعض الأشياء التي وجدت في خورسياد ولم تكن النتائج متسقة.

فقد وجد أن معولاً وقدمواً مصنوعان من الحديد اللين ، بينما كان هناك قضيب حديدي وعلى الرغم من أنه لم يكن متجانساً في تركيبه إلا أنه قد احتوى في بعض أجزائه ما يكفي من الكربون لجملة قاسياً كالفلوذا ، ولم يظهر أن الخبير الذي قام بهذه التحاليل كان متأثراً بالمهارة التقنية للحداين القدماء (الذين ربما لم يكونوا آشوريين نظراً لأن الأشياء كانت من الفئات) فلم يكن الخبير متأثراً في مجال التحكم بنوعية المعدن أثناء تدرجه من الحديد اللين حتى الفلواذ القاسي الذي يحتوي كميات كبيرة من الكربون.

ويبدو أن حداثي البرونز الذين كانت لديهم تقاليد طويلة الأمد ومشكلات أقل هؤلاء كان يبدو أنهم كانوا أفضل في أعمالهم.

واعتباراً من بدء الحضريات في آشور في منتصف القرن التاسع عشر بهم فقد لوحظ أن الآشوريين أو أولئك الذين صنعوا لهم البرونز قد تمرهوا على الخصائص المختلفة للبرونز وخلطه وتركيبها.

وبينما كانت الطلسمات والصعجون والأقراط مصنوعة من نوع من البرونز المؤلف من جزء واحد من القصدير بنسبة واحد إلى ستة ، فلقد كان الآشوريون ماهرين في صنع البرونز فلقد استطاعوا صنع أنابيب ذات أقطار صغيرة جداً تصلح أن تدخل في قضيب الرجل أثناء إجراء المعالجة الطبية له.

ولكن هناك بعض ماصري الآشوريين الذين كانوا أشد مهارة منهم في صنع البرونز ففي شمال آشور وفي الجبال التي أصبحت أرمينيا هيما بعد كانت هناك مملكة (أورارتو) ولقد كشفت الحفريات على كثير من أعمال البرونز هناك ، ووجد أن كلاً من الصفات الفنية والتقنية عندهم أفضل من الأعمال الآشورية ولا بد أن الآشوريين كانوا موافقين على هذا الحكم ، وذلك لأنه عندما صنعت

الفرصة تكما كان الحال عندما استولى الملك سرجون الثاني على أورارتو في حملة عام (٧١٤ ق.م) عندها أخذ الجيش الآشوري كميات هائلة من البرونز الأورارتي ككنائهم، ولم يكن البرونز بشكل ممدن بل بشكل أشياء مصنعة.

وقد أحصى سرجون الأشياء المأخوذة من الحديد والفضة فضلاً عن البرونز وكانت أعدادها تصل إلى مئات الألوف التي كان منها الخناجر البرونزية التي كان مقدارها (٢٠٥٠٠) ولكن لم نستطع ترجمة أسماء كثير من الأشياء المأخوذة.

وكان سرجون يساهم في الشعور بهذه العقوبة عندما اشتمل في قائمته (١٢٠) مادة برونزية من صنع بلهم ولم يكن من السهل كتابة أسماء هذه المواد.

التكنولوجيا الكيميائية

لا يعرف إلا القليل عن التكنولوجيا في المنطقة ما بين النهرين القديمة وتقتصر معلوماتنا بما نستطيع استنتاجه من بقايا التجهيزات التي وجدت في الحفريات، ومن سيفة نصوص تماذج مثل هذه الأمر وتلميحات متناثرة في أمكنة أخرى.

ولمنا بحاجة إلى الإشارة أن تحضير الطعام في منطقة ما بين النهرين كما هو الحال والأماكن الأخرى كان يشمل بمض المظاهر المأخوذة من التقنيات الكيميائية باستعمال مواد كيميائية إضافية (كما هو الحال عند حفظ اللحم بواسطة التخليل) (عمل المخلات).

وبعض العمليات الميكروسكوبية مثل: استعمال الأنزيمات والبكتيريا والفلور في صناعة البيرة والتبييض واللين الراشب والجبنة.

وعدا عن تحضير الطعام فإن العمليات الكيميائية المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور كانت صنع الزجاج والفلور والصبغ ودباغة الجلود وتحضير الفلويات والصابون، وعمليات التمدين التي تشمل الصهر في الأفران، وربما التقطير.

والحقيقة أنه ليس لدينا نصوص واضحة مرتبطة مباشرة بتأشور سوى صناعة الزجاج وتحضير المملور.

إن الافتراض أن شعب منطقة ما بين النهرين كانوا قادرين على استخدام التقطير مؤسسة على الاستنتاج من وجود بعض الفخار والأواني الفخارية ذات حافة غريبة مزدوجة وكانت شتيها الداخلية مثقوبة وأحياناً لا تكون مثقوبة، وعند رؤية غطاء في الأعلى ونار مشتعلة في الأسفل مع وجود شكل وعاء دون وجود ثقب للتصريف في الأعلى من الممكن أن تستخدم كجهاز للتقطير.

بينما نجد أن الشكل المجهز بثقب للتصريف في الشفة العليا من الممكن أن يكون جهازاً للتكثيف يشبه جهاز راووق القهوة.

مع أن هذا التفسير يبدو ممكناً إلا أنه ليس لدينا أي شهادة إيجابية أن أوانٍ من هذا النوع قد استعملت فعلاً كأدوات للتقطير أو أدوات للتكثيف.

هذا وإن الحصول على النار هو مظهر من مظاهر التقنية العكمالوية القديمة التي لا تزال نجلها، ومنذ الألف الأول هناك إشارات عديدة قد على استعمال الكبريت وإنتاج اللهب هناك مثلاً تعليمات في عدد من الطقوس تقول: ((إنك سوف تضفي مشعلاً من نار تتج من الكبريت)).

ولكن ليس هناك من دلالة على كيفية إشمال الكبريت.

وفي الألف الثاني وجد في آشور عذمات معدنية الجانبين مصنوعة من بلورات منقرعة ومن الممكن استعمال هذه لتركيز أشعة الشمس بحيث تمتج احتراق ما تحتها، ومع ذلك فليس هناك من شواهد أبداً أن هذه العذمات قد استعملت بهذا الشكل.

إن أوسع مجموعة معروفة من النصوص المسمارية المختصة بالتقنيات الكيمائية تتكون من بضعة دزينات من النصوص تشرح صنع الزجاج الملون، ومعظم هذه النصوص مأخوذة من مكتبة آشور بانيبال في نينوى.

وينبغي أن نشير إلى أن هذه النصوص تمتلك تاريخاً أدبياً طويلاً خلفها وفي الشكل النهائي الذي تتخذه ربما تعكس إجراءات حدثت قبل بضعة قرون في بابل وليس في آشور.

ومع ذلك فإن صنع الزجاج كان يتم بالتأكيد في آشور في الألف الأول، الأمر الذي نعلمه من وجود أوان زجاجية حقيقية وأشياء أخرى مثل بعض الخز من الزجاج كلها وجدت في المواقع الآشورية.

لقد وضعت التعليمات التقنية في إطار سعري ديني مع وجود الخشوع الفيني المتداد وكان على التقني أن يكشف (ربما عن طريق التنبؤات الفلكية وجود شهر مناسب أو يوم مناسب) وعندئذ يرسمه أن يبنى أتوناً له ويمدها كان عليه أن ينصب بعض التماثيل التي تدعى سكلو وتعني هذه الكلمة ((الطفل المولود ميتاً)).

وهكذا فإن هذه التماثيل تشير إلى أرواح الأطفال الذين ولدوا ميتين، وكان من الواجب تقديم طقوس الإراقة وهي سكب سائل على الأرض تكريماً للإله.

وكذلك ينبغي أن تقدم الضحايا لهذه التماثيل ويضع اقتراب أي شخص غير ملأهر طقوساً من هذه المشاهد، ومن الواضح أن هذه التمهضيرات السعرية كانت تمكس شعور صانعي الزجاج بأن للمهم التقني بمعلم غير كاف لضمان النجاح. ويمدها تتبع التعليمات التقنية وكانت هذه تشمل وزن العناصر المكونة وطعنها ثم مزجها، وبعد ذلك وضعها في أتون تحت شروط خاصة حتى تذوب الحبيطة ويصبح منتجاً مع تكرار العمليات عند الضرورة.

وبعد ذلك كان الناتج يبرد ويطحن ويمزج مع المواد الأخرى (لبلوغ اللون المطلوب) ثم يعاد تسخينه.

هذا وإن أحد تلك النصوص يقول:

((إنه في المرحلة الأخيرة ينبغي أن يترك باب الأتون مفتوحاً حتى يتوهج الزجاج المنصهر ويصبح لونه أحمر وعندئذ يفضّل باب الأتون)) ومن الواضح أن تقنيي

منطقة ما بين النهرين كانوا يعلمون أن هناك نتائج مختلفة وقد تولدت عن طريق الأكسدة والاختزال.

لقد أشرنا إلى نصوص تتعلق بصناعة العطور وأن جميع هذه النصوص عدا نص واحد قد أنت من مدينة آشور في القرن الثاني عشر، وكانت العملية التي يصفونها بالتخمير والنقع والتقلي برفق للنباتات العطرية في الماء لمدة أيام وبعد ذلك يضاف الزيت لامتصاص المادة العطرية وثم تستخلص العطور من طبقة الزيت الرقيقة جداً.

هذا وقد جرت محاولات لتفسير بعض المصطلحات التقنية المشكوك في أمرها في النصوص وذلك بالإشارة إلى عملية التقطير ولكن هذا أصبح أمراً مشكوكاً فيه أيضاً.

تخطيط المدن

كانت المحاولات المقصودة للسيطرة على البيئة التي تعملت ببناء المدن ما هي إلا مظهر آخر من مظاهر تحكم الإنسان المتزايد في الطبيعة. ولكن وفي الوقت نفسه فإن شكل المدن القديمة من الممكن أن يعكس تشكيل الطبيعة للإنسان.

وذلك لأن أصولها نابعة من الجغرافية، هذا وإن مواقع المدن القديمة وإلى حد كبير مخططات مساحة الأرض والمواد المستعملة إنما تقررت عن طريق مظاهر طبيعية، أي: عند وجود نهر أو تلة أو أرض خصبة، أو مواد قريبة من الحجازة، أو الأخشاب المستعملة في البناء.

وضمن هذه المقاييس تمت المدن الأصلية كمجموعات متشابكة من الجيران، مثلاً منطقة المعبد أو سوق النحاسين، أو سوق بافهي الفخار، أو بيوت المسكن التي تبنى دون تخطيط معقول.

ولكن فيما بعد عندما وجدت السلطات المحلية التي تستطيع تجاوز الاعتبارات الجزئية طبقاً لمصالح الدولة ككل، عندما أصبح من الممكن إيجاد

شبه من تخطيط المدن التي أصبحت ضرورية من الضروريات، إذا اقتضت المصالح الوطنية إعادة بناء مدينة.

ومع ذلك وحتى في مثل هذه الحالات هناك تغييرات لما يمكن عمله، وقد كان أوضح هذه التقديرات المظاهر الدينية المحافظة التي كانت تطلب أنه حيث كان هناك معبد عندها يجب بناء معبد شبيه له بالضبط على ذلك الموقع. ولتكن ضمن هذه القيود تم بناء عدد من الأماكن وتم إحداث تخطيط جديد وذلك في الألف الأول قبل الميلاد في عواصم منطقة ما بين النهرين القديمة وبابل ونيوى.

وقد كان مجال الترميم التام واضحاً في بابل نظراً لأن هذه المدينة قد نهبت وهدمت إلى الأرض من قبل سنجاريب ولكن تفصيل ذلك الترميم إنما يعود للتاريخ البابلي وليس للأشوري. هذا وتهمنا جداً نيوى وهي آخر عاصمة آشورية وسعها ورممها إلى حد لا بأس به سنجاريب.

كانت إحدى أبحاث بعض المؤرخين القدماء هي ما يخص الأوائل، وعلى هذا الأساس يمكن أن ندعو سنجاريب أول مخطط للمدن. وكان سنجاريب مخططاً نموذجياً وقد أوضح الخصائص المهمة جيداً وما هو سين فيها.

وكان لديه رغبة صادقة لعمل ما هو الأفضل لدولته ومدينته وشعبه، وكان معتقداً بأنه يعلم ما هو الخير بالنسبة لهؤلاء، ولم يكن يتورع عن إبداء الحقائق بشكل تبدو فيه مناسبة لأغراضه.

تظهر هذه الحقيقة وبداية سرد سنجاريب للأعمال التي قام بها في نيوى، ومع أنها كانت مدينة ذات أهمية متزايدة منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وقد كشفت العاصمة القديمة آشور بالنسبة لأهميتها الاقتصادية والتجارية قبل ظهور سنجاريب إذ إنها لم تصبح عاصمة لآشور المتوحدة قبل سنجاريب.

ورغم ذلك فإن سنحاريب يصف نينوى بأنها المكان (حيث منذ الأزمنة القديمة مارس الملوك الذين أتوا قبلي من أجدادي شؤون الملك قبلي، ووجهوا رعايا الإله انليل).

والحقيقة أنه ليس من كذاب في هذه التسميحات فقد حكم أسلاف سنحاريب نينوى كما يقول التصريح، ولكنهم لم يحكموا نينوى كما تفيد العبارة التي ذكرها وهي أنهم وجهوا رعايا الإله انليل.

وربما كان هناك بعض الصراعات السياسية التي وقعت وراء هذا الادعاء وهو مسألة نقل العاصمة، إذ إنه مع وجود إمبراطورية متحدة شمالاً وشرقاً وغرباً كانت مدينة آشور في أقصى الجنوب، وهذا موقع غير مناسب بصفة استراتيجية كموقع مدينة الشمال.

ولكن كان هناك عامل ثانٍ إذ إنه نظراً لأن آشور كانت مدينة ومركزاً معترفاً دينياً فقد اكتسب مسكنها واحتفظوا بامتيازات، مثلاً الإعفاء من الضرائب والسفرة (وهي واجبات الخدمة الإجبارية).

وقد شعر عدة ملوك بالقيود الناتجة عن ذلك، فقد بنى توكلتي نينورتا الأول لنفسه مدينة عبر نهر دجلة.

وأنشأ آشور- ناسر- بعل عاصمة جديدة كلياً في (كالك) وقد بنى هذه المدينة فوق مدينة سابقة صغيرة.

وخبر شلمناسر الخامس عرشه بسبب خصوماته مع مدينة آشور، في حين أن سرجون الثاني وهو والد سنحاريب قد اضطر للتنازل عن جميع مطالبه من شعب آشور لكي يحصل على تأييدهم في مطالبته بالعرش، مع أنه ولكي ينجو من هزمتهم بنى لنفسه قاعدة ملكية جديدة إلى الشمال الشرقي من نينوى في المرتفع الذي أطلق عليه اسم دور شارووكين (وهي مرتفع خورسبلد اليوم).

لقد زاد سنحاريب من قيمة نفسه عندما كتب تصريحاته في سبيل إعادة بناء نينوى، ولكن لم يكن هناك من شيء غريب عندما يصف أحد الملوك الآشوريين عمليات بناء عاصمته الجديدة.

فقد تخلصت النقوش الآشورية الملكية من ذكر أحوال البناء وأصبحت تذكر الملك نفسه وألقابه، وأضافت ملاحظات مختصرة عن بعض الحوادث الجارية في الدولة وذلك لكي يتم تثبيت التاريخ، وبعد ذلك كان بعض أعماله التي تدل على التفوق عند بناء ما بنى.

وقد قدم الملوك الآشوريون نقوشهم الملكية بتوسيع أخبار أي حادث جديد في الدولة، وجعله قصة مفصلة تصف الحملات الملكية.

ولكن أخبار البناء كانت دائماً في القسم الأخير من النص، ولو كان هذا النص غالباً ما يشير إلى إصلاحات صغرى في معبد أو أي بناء عام.

وهذا يعني أن شكلاً تقليدياً كان بمقتول اليد عندما يريد سنحاريب أن يصف ما صنعه لنينوى، وقد حصل على كل الفائدة من هذا العمل.

والرواية الآتية التي تبين ما كان يدعيه وما فعله، وهي تجدد عدداً من الروايات المختلفة عن عمله في المدينة وهي تمثل الروايات جميعها حول منجزات سنحاريب في هذا العهد، ولهمت روايات متسلسلة متكررة حول النظام الذي قال عنه: إنه أتى به ذلك العمل.

وينبغي أن نذكر أولاً أن هناك كثيراً من الأشياء التي لم يخبرنا عنها سنحاريب التي نُسَرنا أن نعرفها، إذ إننا نود أن نعرف كيف يعين الناس العاديين، وكيف بنيت بيوتهم وكيف تجمعت وكيف يتصرفون في أمور السوق والطعام والمعادن ولكننا نستطيع أن نكتشف ذلك من الحفريات، فقد كان كل اهتمام سنحاريب في مثل هذه الأمور هو أن قرر بأن لا يجوز أن تكون البيوت الخاصة معيطة بالطريق الملكي.

وكان اهتمام سنحاريب الرئيسي منعصراً في بيته وهو القصر الملكي، ولقد كان هناك قصر ملكي في نينوى دوماً ولكن الآن وبعد أن أصبحت نينوى العاصمة الإمبراطورية أصبح ذلك القصر صغيراً، ولم يكن يقطن نصف هذان أو ما يقارب ذلك، ولذلك قرر سنحاريب أن يبني قصراً مناسباً وأن يبني عاصمة مناسبة أيضاً.

ولم يكن هناك نقص في الموارد وقد قدمت حروبه عدداً من المبيد للمل، فأرسل عدداً من الخبراء الجيولوجيين إلى الجبال للتحقيق عن أحجار شبه كريمة وأحجار تصلح للبناء، ولقد أمن سنحاريب ووضع تحت تصرفه كميات من الخشب الجيد المجلوب من الجبال الممتدة من جبال لبنان وأمانوس في الغرب حتى جبال زاغروس شرقاً.

وكان هناك مادة ثمينة للبناء وهي أشجار القصب الهائلة (التي يبلغ طول الواحدة منها ٢٥ قدماً) من المستنقعات الواسعة في جنوب المراق والتي يقال عنها: إنه قد سحبها وأوصلها إلى آشور ولم يفسد ككيف جرت هذه الأشجار ولكن تصريحه من الممكن أن يعني أنها قد ربطت ونقلت عبر النهر في قوارب.

كانت الأيدي العاملة تأتي من جميع أنحاء الإمبراطورية: من مستنقعات في جنوب بابل ومن شمال غرب إيران ومن أسية الصغرى من سواحل فلسطين، وقد أسهمت هذه المجموعات المختلفة من جماعات عرقية وثقافية مختلفة، في توحيد مناطق الشرق الأدنى تدريجياً ولم تذكر الأعداد التي كانت تستخدم للعمل في نينوى، ولكن كان هناك مئات الألوف من العمال تحت تصرف سنحاريب.

وتقع نينوى حيث يتصل أحد الروافد المدعو خوسر بنهر دجلة، وكان يجري إلى جانب القصر القديم فرع من خوسر يعرف باسم تيلتو وفي أوقات الفيضان، لم يسبب لأكل الأرضية التي وقف عليها القصر فعصب، بل وصل النهر إلى داخل المدينة وأتلف مدينة ذات قدسية تدعى الجيجونو.

ونبشت القبور القديمة التي احتوت عليها تلك المدينة، وقد عالج سنعاريب المشكلة بأن حوّل مجرى ذلك النهر، وملاً مجراه القديم بقطع كبيرة من الحجر الكلسي المجلوبة من الجبال، وثبتها بالكينتومين، وفوق هذه وجدت كميات من القصب وكانت مترابكة تهدد البيوت بالخطر، ولقد أمنت الجمالية ضد الطوفان، وذلك ببناء سور مدعوم بقطع من الحجر الكلسي.

وفوق كل ذلك بنيت شرفة علوها (١٧٠) متماكاً من القرميد (وقد ذكر سنعاريب في مكان آخر أن عدد المهداميك (١٨٠ أو ١٩٠) فوق القاعدة، وكان القصر الجديد في هذا المكان.

وفي عدة نواح كان القصر الجديد بناءً نموذجياً في نوعه ويتألف من عدة غرف منووعة حول سلسلة من الباحات، وكانت بعض الغرف عبارة عن أماسكن مخصصة للسكن أو مكاتب إدارية وهناك غرف طويلة تولف المقر الحكومي، ونحن لا نعرف هذه الأمور من أي أوصاف ذكرها سنعاريب بل من الحفريات الحديثة، وكان هناك تجديدات معمارية ذكر سنعاريب أنها تستحق الذكر، وكانت هذه تتحصر في وضع رواق ذي أعمدة على واجهة القصر وهو نسخة عن أسلوب البناء الموري وهذه كانت تدل على رغبة سنعاريب في تبني الأفكار الجديدة.

وكان المظهر الآخر من مظاهر القصر الذي اعتبره سنعاريب شيئاً يستحق التسجيل بالتفصيل وهو حجم القصر فقد كان حجم القصر يزيد على فدانين ونصف من الأرض وكذلك زينة القصر.

وكانت المادة الرئيسية التي تغطي العظمة على البناء هي أخشاب الزينة المطلة، ويقول الملك: إن الآلهة قد أظهرت له الأمكنة التي كانت أشجار الأرض الضخمة تنمو في الجبال وأنه قد أمر بجلب أشجار الأرض وأشجار أخرى من الغابات الضخمة في جبال زاغروس وأملوس.

وامتدعت هذه الأشجار في تحضير المعارضات والأعمدة والأبواب ومن الفرابية
بممكن أن سنحارب، قد خسر جمال القابات بمسبب معيه للزخرفة، وقد أخبرنا
أنه وضع أبواباً مزدوجة من الأخشاب المطرة وبمدها كسلاها بالقضة والنحاس.

3 وكان هذا يعني أنه إما قد دهنها بألوان فاتحة أو أنه طلائها بمعدن لامع
ويعتبر التفسير الأخير أنه الجواب الأكثر احتمالاً، نظراً لأنه وفي الصطور التالية
يقول الملك:

إنه قد ثبت مسامير من القضة والنحاس حول الحجيرات المذكورة، وقد استعمل
الماج المحفور من أجل الزينة، أما الجدران الخارجية فقد زُيّنت بالقرميد المطلي
الملون فوق كورنيش وإفريز مائل.

وكما ذكرنا سابقاً فإن سنحارب قد أرسل مكشافين إلى الخارج للتحقيق
عن مصادر جديدة للمعادن، وذلك لأنه أخبرنا أن الرخام الشفاف الذي كان نادراً
في أيام أسلافه وأنه مكلف جداً، وقد اكتشف في أحد الجبال بحيث إنه
يستطيع أن يصنع تماثيل منحوتة منه.

ووجدت مصادر جديدة من الحجارة الأخرى بما فيها كمية واسعة من الحجر
الكلسي الذي نحتت منها تماثيل الثيران الهائلة، وقد كانت هذه الحجارة تنقل
فوق نهر دجلة إلى نينوى على أطواف في موسم الفيضان.

وكانت تماثيل هائلة تصنع من البرونز بواسطة عملية جديدة وهي المبيك
المتجوف التي اخترعها سنحارب نفسه، وقد رُؤد القصر بمياه الشرب من آبار
مجهزة بمحركات مثبته على عارضة مع وجود مسطول ترتفع من البشر وهي مثبتة
بمسلسلة طويلة من البرونز.

أما التدفئة والتهوية فهي مظاهر تختص بتقنية البناء التي لم يتنازل سنحارب
بإخبارنا عنها ولكن الحفريات الفعلية في قصوره والقصور الأخرى تدلنا بما
يساعد على ملء هذه الثغرة، إذ ربما يكون الطقم بارداً بشكل لاذع في نينوى
في فصل الشتاء، ولا بد أن سنحارب كان لديه طريقته الخاصة للبقاء بشكل
مريح.

فقد كشفت الحفريات هناك وفي قصور أخرى عن إنشاءات بشكل سدك حجرية متوازية موضوعة في أرض القصر وتشبه خطوط القطارات، فقد اقترح أن هذه الخطوط كانت منقل فعلم فيه حجرات من نار على دواليب يمكن أن تتحرك في الغرفة إلى حيث كان الله مطلوباً.

إن استعمال منقل النار المتحرك في القصر يتطلب شكلاً من أشكال التهوية وذلك في حالة رغبة السكان التخلص من أول أكسيد الكربون السام وناتجه الضارة، ولكن لم يستطع علماء الآثار تقديم أي قرينة تثبت ذلك نظراً لأن أي ترتيبات من هذا النوع تتطلب أن تكون موضوعة في الجزء العلوي من الجدران التي لا شك أنها اختفت.

ومع ذلك فإن النصوص تذكر وجود شيء في أحد القصور وهو يدعى بابها النسيم الذي بطن أنه نوع من نافذة للتهوية من الممكن فتحها وإغلاقها.

وبالنسبة للشخص الآشوري كانت النظافة تقترب من العبادة، وكانت هناك عدة مناسبات كان من الواجب القيام بالاعتمال لأغراض طقوسية دينية وهي مختلفة تماماً عن قضايا المحافظة على الصحة والراحة الشخصية، وكانت هذه الحالة تنطبق على الملك، إذ كان هناك في قاعة العرش باب يؤدي إلى غرفة الاستحمام، وهذه كانت مظهراً شائعاً في القصور، وبشكل نموذجي كان للحمام أرض مصنوعة من القرميد المشوي لا يتسرب منها الماء لوجود البيتون، وهذا كان يحمي الأجزاء السفلى من الجدران وفي منطقة منخفضة من أرض الحمام هناك ثقب أو ثقبان لتصريف الماء وفيها سدادات حجرية.

ولا يوجد في قصر منحاريب أي مكان يمكن أن ندعوه مرحاضاً مع أن هناك بعض الثقوب للتصريف من الممكن أن يركب فوقها مقعد، مع أن المقعد غير ضروري إذا كان الآشوريون يقرضون عند التغوط، وذلك كما لا يزال العراقيون يفعلون ما لم يكونوا قد تأثروا بالمعدات الأوربية.

وبالإضافة إلى بناء القصر فقد رُمّ منحاريب ووسع بنابة ثانية كبيرة من الممكن أن نصفها بأنها ثكنة عسكرية مع أنها لم تحتوي على عساكر بل على

خهول تعمل لمصلحة الجيش والمركبات الحربية (المربات والشاحنات) والانهجهيزات الميدانية بشكل عام، وفي البناء هناك، صاحة استعراض كبيرة تستعمل لتدريب الخيالة وتمارين خهول جر المربات فضلاً عن الحيوانات الأخرى المستخدمة عند القيام بالحملات العسكرية مثل البقال والجمال.

لقد اعتنى بممدخل القصر ووسّع الشوارع لإنشاء طريق ملكية عرضها نحو تسعون قدماً تولف طريقاً مرتفعاً مصنوعاً من ألواح الحجر الكلسي ومزيناً بمسلات على جانبيه، وقد ككتب إنذاراً على جانب الطريق يذكر أنه إذا عمد أي إنسان إلى إعادة بناء بيته وجعل أسس هذا البناء داخلة في الطريق الملكي فسوف يعاقب بوضعه فوق الخازوق على سطح منزله.

ولم ينسَ سنهاريب أن يزود قصره بمنظر ملائم ولذلك فقد أنشأ ما دعاه بالمنتزه العظيم وكان هذا المنتزه يشبه جبال أمانوس، فقد كان فيه جميع أنواع النباتات المطورة وأشجار الفاكهة التي تنمو في الجبال وفي أرض سكلدان، وكذلك الأشجار التي تحمل الصوف أي: القطن، وليس من السهل زرع مثل هذه الأشجار في منطقة نينوى حيث درجة الحرارة مرتفعة ولا يهطل المطر ابتداء من شهر أيار حتى تشرين الأول.

ولم يمكن من الممكن جلب الماء من نهر دجلة في زمن سنهاريب لأن مياه النهر كانت منخفضة جداً بالنسبة للأرض حول نينوى، وقد تغلب سنهاريب على هذه الصعوبة وذلك بحفر نظام من الأقنية لجلب الماء إلى حدقته من الجبال والينابيع على بعد نحو ثلاثين ميلاً من ثلاث جهات على الأقل، وكان الجزء من هذا النظام الذي وصلت إلينا معلومات عنه من نقوش سنهاريب والذي كان أهم جزء من هذا النظام على العموم بحيث كانت المياه الجبلية تجر بواسطة الأقنية والقنوات إلى نهر خوسر وهو رافد من روافد دجلة، حيث تهبت السدود والقناطر وذلك لضبط منسوب المياه حالما يقترب خوسر من نينوى.

وما تزال أجزاء كثيرة من هذا المشروع الهندسي الهائل ظاهرة حتى الآن ويمكن رؤية آثار الفن الآشوري في إقامة السدود على أجزاء من نهر خوسر عند

انخفاض منسوب المياه في التهر، كذلك نرى في أحد الأمكنة حيث ينبغي عبور أحد الوديان أنه قد بني نوع من الأقنية طولها حوالي (٢٠٠) ياردة وهي مؤلفة من حوالي مليوني قطعة حجرية ضخمة تزن القطعة حوالي ربع طن وكانت مرصوفة على أساس من الجص الخشن، وكانت قمة القناة تبلغ أربعة وعشرين ياردة طولاً وتدرج بشكل يضمن تدفقاً منتظماً للمياه وفيها دعائم لتقوية جانبيها.

رُما يتساءل المرء فيما إذا كان المشروع الطموح ذا فائدة اقتصادية وذلك من وجهة نظر نمو الاقتصاد الزراعي في جوار نينوى، ومن المحتمل أن الأمر ليس كذلك ولم يكن هذا هو هدف التجربة الواضح اقتصادياً، فإن ما كان سنحاريب يحاول عمله -وهذا يُعدُّ من حسناته- كان تحسين نمط الحياة بالنسبة له ولشعب نينوى وذلك عن طريق بناء مدينة يبهج الإنسان أن يعيش فيها.

وهكذا فإن المياه الآتية من نظام القنوات، وبعد أن تستثمر في سقي الحديقة لا بد أن يسمح لها أن تجري بشكل عشوائي لتصل إلى نهر دجلة للاستفادة منها، مكتفية المنطقة التي كانت -لولا ذلك- ستصبح مسنقماً، ويتفديتها للمنطقة سوف تشجع إكثار النباتات والحيوانات حيث أجمعت القصب والطيور المائية المفردة والخنازير البرية، ولقد شجع أهالي نينوى على القيام بواجباتهم في جمل المدينة مناسبة ومستمرة، فقد قسمت الأراضي في أعالي الجداول إلى قطع تبلغ مساحة القطعة هناك واحداً أو ما يقارب ذلك ووهب سنحاريب هذه الأراضي أهالي نينوى لكي يزرعوا فيها الحنائق.

لقد زادت مساحة المدينة كثيراً، فقد كانت مساحتها سابقاً تبلغ ١٨٠ هكتاراً والآن بنى سنحاريب سوراً يحيط بالمدينة التي أصبحت مساحتها ألف هكتار ويقال: إن السور كان سمكه حوالي أربعين قطعة من الفرميد وعلوه حوالي ١٨٠ مداهكاً، وهذا يعني أن سمك السور أربعون قدماً وعلوه خمسة وأربعون قدماً وكان هناك ١٥ بوابة في السور وبعد هذا السور الداخلي كان هناك سور ضخم هو السور الخارجي.

وإلى شمال وجنوب المدينة كانت هناك حدائق أخرى ومن المحتمل أن الأراضي المحروثة التابعة للمدينة كانت منتشرة إلى مسافة تبلغ خمسة أميال وحتى عشرة فيما وراء المدينة.

البيوت الخاصة

لا نعرف إلا القليل عن البيوت الخاصة في آشور كما نعرف عن القصور ولا بد أن يكون هذا الأمر محتوماً، إذ إن الملوك الآشوريين يقدمون لنا معلومات واضحة عن قصورهم في نقوشهم ولكن لم يكن لهؤلاء الملوك أي مصلحة أو اهتمام بوصف البيوت الخاصة.

وهو في ذلك فإن بقايا القصور التي كانت تبنى على تلال ظاهرة في المواقع الأثرية، هذه القصور كان من الممكن تمييزها بشكل أفضل من تمييز البيوت الخاصة، وكذلك علينا أن نعرف أن القصور من المحتمل أن تحتوي مواد أو أشياء يمكن حفظها في المتاحف، وهكذا كان الوضع حتى الأزمنة الحديثة، نجد أن علماء الآثار في آشور، إذا جاز لهم الاختيار فإنهم يختارون الحفر والتقيب في قصر أكثر من اختيارهم الحفر في بيت عادي.

وأخيراً نظراً لأن القصور تحتوي على أجزاء لا بأس بها من الحجارة، بينما نجد أن البيوت الخاصة مبنية من الفخار والقرميد حتى أنه ولو كان بالاستخانة الكشف عن بقايا البيوت الخاصة فإن هنالك مشكلات خطيرة تظهر إذ ليس من السهل العثور على معلومات ذات قيمة بالنسبة لشكل البيت.

ومع ذلك فإن لدينا بعض المعلومات الواردة من النصوص حول البيوت الخاصة، وهذه تأتي على العموم من الوثائق التي تشير إلى بيع أحد البيوت مثلاً، وهذه الوثائق التي طالما تعطي جرداً عن محتويات البيت.

وهناك نص من هذه النصوص يسجل بيع بيت مبني وعمه عارضاته وأبوابه مع ما في الباحة والحمام، ومبنى الخدم في النهاية الرئيسية، وكذلك الطابق العلوي، وغرفة الملن والسقيفة والمقبلة.

وهناك نص آخر يعود إلى الألف الأول يصف بيتاً في نينوى، وهو بيت مبني مع عوارضه وأبوابه، وغرفة الطعام وغرفة النوم، وحمام وغرفة غورسو (لا يعرف معنى هذه الكلمة) وغرفة مؤن وطابق علوي، فيه أربعة أبواب.

وبالإضافة إلى ما تذكره مثل هذه النصوص فإننا نعلم شيئاً عن البيوت الخاصة ومحتوياتها باليهاكل الفعلية التي تم العثور عليها من طريق الحفريات في سكانا الماصمتين آشور وكالاخ، وفي بلدة ريفية وهي شيباكيا (اسمها اليوم تلة تيب غاورا) وهي على بعد نحو (١٢ ميلاً) من نينوى.

لقد أظهرت الحفريات في كالاخ مجعماً مؤلفاً من ستة بيوت متلاحمة إزاء سور المدينة، وكانت الجدران من اللبن الطيني مغطاة بطبقة من الطين، كما أن اللبن المرصوص كان مستعملاً في معظم البيوت وأرضياتها، مع أن بعض الممرات والباحات كانت مبلطة بالقرميد المشوي أو بالجر.

وسكان أكبر هذه البيوت يحتوي على اثني عشرة غرفة أرضية، وكان يشغل نحو ثلاثة آلاف متر مربع (حسب الرقم الذي ذكره عامل الحفريات) وهذا الرقم غير دقيق، بل ربما كان (٢٥٠ متراً مربعاً) أو أقل من ذلك، أو ١ من ١٦ من الفدان، ومع ذلك فإن هذا البيت تبلغ مساحته ضعف مساحة أي بيت حديث، يحتوي على أربع غرف للنوم، وكان بعض جدران المنزل التي تقسم الغرف سميكاً، ووجود الأراج يدل على أن البيت كان فيه طابق علوي.

ولكني تتم الشروط القطعية اللازمة لجلب الراحة في المنزل ينبغي أن نلاحظ أن جزءاً من المساحة كانت تؤلف بعض الباحات.

وسكان مدخل الدار يبدأ من باحة خارجية، وهناك باحة داخلية مبلطة، وهما غرف للمؤن في جانب من الباحة، وغرفة الاستقبال في الجانب الآخر.

وفي خلف غرف المؤن كان هناك قبو الدفن العائلي نظراً لأن موتى الآشوريين كانوا يدفنون تحت أرضية بيوتهم، وقد وجدت غرفة صغيرة تحتوي هراً مخروطي الشكل لصنع الخبز وهو مصنوع من الفخار.

وكان هناك غرفة كبيرة نوعاً ما وجد فيها الهيكل العظيم لكتاب الحراسة في المنزل.

وفي غرف أخرى وجدت مجموعة أخرى من أواني جمع الطعام وكاسات وجرار كانت تحتوي على آثار من القمح والشعير والدخن ويخبر الكتان والزيت وفأس من الحديد وهناك أدلة أخرى على أسلوب المعيشة المنزلية في بيوت الآشوريين ومنها ملحقة مصنوعة من العظم.

ولم يجد الآثريون أي أشياء مصنوعة من معادن ثمينة ولكن صادف أن كان البيت قد سرقت منه أدواته وأحرق ولا بد أنه قد سرقت منه معادن ثمينة لو وجدت. وكان في بعض البيوت الخاصة الآشورية مراحيض مع مصارف وهي بمثابة أقبية مصنوعة من القرميد ومع أنه وفي الألف الثاني قم أصبح هناك أنظمة للصرف الصحي مصنوعة من أنابيب من الفخار.

وكانت الأبواب الداخلية للبيوت تعلق على ركائز تدور داخل فجوات موجودة ضمن قطع من القرميد المشوي.

وكانت في بعض الأحيان تجويفات تدل على أنها كانت خزائن داخل الأرض وكان هناك مخاين تحت أرض الغرفة تحفظ فيها الأشياء الثمينة.

قوة الحيوانات والمواصلات البرية

هناك مرحلة أخرى مهمة تمثل سيطرة الإنسان على الطبيعة وهي استخدامه لقوة الحيوانات ويبدو أن هذه العملية قد بدأت في منطقة ما بين النهرين في زمن متأخر عن بداية الألف الرابع حين ظهرت الثيران وهي تجر المزارع.

ولقد اخترع الدولااب في هذه المنطقة وبذلك تحولت المزلجة إلى عربة أو مركبة ولقد شكل هذا التطور جزءاً من نظام المواصلات في آشور وبقية العربات (التي قد تحسنت بشكل تقني وذلك باستعمال الدواليب ذات الأسياخ بدلاً من الدواليب الخشبية).

هذا وقد ظلت هذه العربات تُجر بواسطة الثيران وعلى مقياس بواسطة البغال حتى نهاية الإمبراطورية.

وابتداء من زمن الإمبراطورية الآشورية الوسطى بدأ استعمال العربات الحربية السريعة الحركة والتي كانت تجرّها الخيول.

ولقد استعمل الملوك الآشوريون الجدد شكلاً جديداً محسناً من العربات الخفيفة (ذات الدواليبين) وكانت هذه العربات مزودة بمظلة اتقاء لحرارة الشمس.

ثم حدث استخدام الحديد مع الثيران مما شكّل مرحلة جديدة لميطرة الإنسان على بيئته وهو جر المحراث، ثم حدث استعمال ثالث لقوة الثيران في دراسة الحبوب التي كان الحيوان يجرّ نوعاً من النواجر المرسّعة بأحجار صغيرة من الصوان ويعتمد هذا النوع على رؤوس كيزان الذرة المنتشرة على أرض البيدر.

وكانت هناك قوة أخرى حيوانية وهي قوة الحمار ثم قوة الحصان والبغل والبهين وإلى حد محدود الجمل.

وإن الحمار هو الذي خدم كحيوان يحمل الأشياء بحيث كانت قافلة من الحمير تستطيع نقل كميات كبيرة من البضائع لمسافات طويلة في أرض صعبة التضاريس بحيث يتعدد مدى نشاط هذه الحيوانات بإمكانية توفر الماء.

ومن الواضح أنه كان بالإمكان استخدام الحمير للركوب، ولكن ركوب الحمار أقل راحة من ركوب البغل، هذا وإن الحمار بطيء في سيره إذا قورن مع الحصان.

ولكن بحلول الألف الأول ق.م لم يعد الحمار مقبولاً بشكل عام، فهذا منجم الملك، وهو موظف من الدرجة الثالثة يطلب من الملك:

(أتوني بحمار أركبه لكي ترتاح قدامي).

أما تدجين الحصان ومن ثم تقديمه ووصوله إلى منطقة ما بين النهرين في نهاية الألف الثالث ق.م فقد كان له وقع كبير على حياة البشر.

وبعد أن استعمل الحصان لجبر العمريات الحربية أولاً من قِبل الآشوريين فقد وفر الحصان منبراً ومنصة لإطلاق المهام الأمر الذي سوف يضمن النصر في المعركة إذا كانت التضاريس الأرضية ملائمة.

وعندما استعمل الحصان كوسائل للفريسة كما كان الحال بالنسبة للآشوريين في الألف الأول ق.م فقد وفرت قدرة الحصان على إتقان المناورة وإن سرعة الحصان أعطت أفضلية تكتيكية في المعركة مما أسهم إسهاماً كبيراً في نجاح الجيوش الآشورية في الشرق الأوسط ولكن لم يستعمل حصان الركوب في الحرب فحسب، إذ إنه قد وفر الاتصالات السريعة وقد عملت هذه النقطة في إحراز الآشوريين قصب السبق.

وحالما توسعت الإمبراطورية الآشورية اعتباراً من القرن الثامن ق.م، أصبح من الضروري لكي تستطيع هذه الإمبراطورية ضبط وحكم وإدارة نظام هذه السلطة الضخمة تأمين المواصلات المنظمة والمستمرة ما بين حكام المناطق النائية والعاصمة.

وهكذا فقد جعل الآشوريون الحصان طرفاً في هذا النظام، ونشأت شبكات من طرق ومراحل البريد عبر الإمبراطورية مع محطات لتبديل الخيول (أما في المناطق التي يصعب فيها استعمال الحصان فكانت البغال أو الحمير هي المستخدمة) وعلى طول الدروب كان الخيالة يستطيعون وهم يركبون الخيول أن ينقلوا بسرعة بحيث إنه باستثناء محرم فقط وهي التي تقتضي عبور صحراء سيناء عند الاتصال بها، لم يكن هناك أي جزء من أجزاء الإمبراطورية عاجزاً عن إرسال رسالة إلى العاصمة وأن يستلم الجواب خلال أسبوع من الزمن.

لقد تطلب هذا الوضع صيانة الطرق العامة، وليس لدينا أي شاهد على وجود طريق ممهدة خارج المواسم ولكن كان هناك وبالتأكيد طرق رئيسية كانت مصانة واعترف بها كطرق عامة.

ومنذ بداية القرن الثالث عشر يُخبرنا الملك (توكولتي نينورتا الأول) عن الحوادث التي جرت في أوائل حكمه عام (١٢٤٤ ق.م) فيقول:

إنه قد قام بحملة في منطقة طور عابدين الجبلية (وتقع في ديار بكر في شرقي تركيا): (لقد شققت طريقاً في جبالهم واستعملت الفؤوس النحاسية ووسّعت ممراتهم التي كانت غير سالكة).

وفي حوالي عام (١٠٠٠ ق.م) نرى الملك تغلات بلاسر الأول يخبرنا أنه مع وجود تلك التضاريس الطبيعية الصعبة:

((لقد شققت الجبال المزعجة والطريق الصعبة بالفؤوس النحاسية فأصبحت الطرق صالحة لمرور عرباتي الحربية وجنودي)).

ويخبرنا الملوك الذين تلوهم أعمال مشابهة بالنسبة للطرق.

ومع وجود مثل هذه العناية بخطط المواصلات في الجبال فإنه من المؤكد أنها كانت على اتصال بالطرق الرئيسية في السهول التي كانت في الحقيقة مصانة، ومع أن تلك الطرق لم تكن مهيّدة إلا أنها كانت محدّدة بشكل جهد ودائم بحيث يمكن اعتبارها حدوداً للحقول التي ذكّرت في وثائق بيع الأراضي، وأحياناً وفي مثل هذه الأحوال كانت الطرق تحمل تسمية خصوصية أو يشار إليها ببساطة بكونها (الطريق العام الملكي) أو بشكل أوضح الطريق العام الملكي الموصل إلى المكان الفلاني.

أو الطريق الذي يسير من .. وإلى.. مع ذكر أسماء البلدات في نهاية كل قسم من الطريق.

ولا شك أن هذه كانت تعتبر طرقاً عامة دائمة ومعترف بها تصونها الدولة لتأمين نظام هائل من المواصلات.

وفي أزمنة الحروب كانت العريات الملكية هي التي تستعمل الطرق.

أما في أوقات السلم فإن هذه الطرق كانت تؤمن إمكانيةً تحميل العريات أحمالاً لمسافات طويلة يصعب على قوافل الحمير أن تقوم بها.

وأما بالنسبة للعريات الفعلية فهي الحقيقة أن التكنولوجيا المحلية لم تكن لتواكب مثيلاتها في البلدان الأخرى.

وذكر الملك آشور بانيبال وبصورة خاصة أنه ولأجل تنفيذ المشاريع البنائية الخاصة به، كان القرميد يجلب من جميع أنحاء بلاده في عربات عيلامية التي كان قد كسبها كقنائم وهذا يدل أن هذه العربات إما أنها كانت أكبر وأقوى (أو كليهما) من العربات الآشورية والوطنية.

أما الأحمال الثقيلة جداً التي لا تستطيع العربات حملها مثل التماثيل الحجرية الهائلة التي يزن الواحد منها حوالي عشرين طناً فقد كانت تُجر على عجلات بمساعدة أعمدة طويلة تستخدم كرافعات وهذا ما نراه ظاهراً في لوحة جدارية نافرة.

المواصلات المائية

كانت مدن آشور وكالاخ ونيوى وهي العواصم الثلاث الأكثر أهمية في آشور وكل هذه المدن كانت واقعة على طول نهر دجلة، الذي يشكل واسطة مهمة للنقل من منطقة إلى أخرى في الأجزاء المركزية من المملكة الآشورية.

وهناك شاهد على استثمار هذا المصدر المائي قد قدمه وجود جدار لرصيف ميناء ضخمة قد اكتشف في كالاخ.

وهو قريب من بعض الأبنية الملكية، ولقد تويمت آثار هذا الجدار بمسافة ٢٤٠ ياردة، فلقد بُنى من قطع حجرية ضخمة ترتفع نحو ثلاثة وثلاثين قدماً فوق الأرض.

وكانت تهبط بمقدار واحد وعشرين قدماً إلى عمق النهر ولقد بنى سنغاريب ميناءً مماثلاً في نيوى وذلك كما يظهر من اسم واحد من الخمس عشرة بوابة لمدينته الذي كان يسمى بوابة الميناء.

ويصف سنغاريب أيضاً كيف كان النهر مستعملاً كطريق نقل نهري لجلب الحمولات الثقيلة جداً، وهي في هذه الحالة تماثيل ضخمة من الحجر الكلسي وكانت هذه الموانئ مصدراً من مصادر الدخل الإجمالي الوطني نظراً لأننا نعلم أن استخدام الميناء كان يقتضي دفع رسوم لقاء ذلك.

ولقد استخدمت عدة أنواع مختلفة وعديدة من المراكب على أنها من آشور وإن أكثرها بدائية وكانت طوفاً كبيراً يدعى الصكالكو، وهي كلمة لا تزال موجودة في التسمية العربية في الوقت الحاضر لتمي نفس المعنى وهو كيليك، وإن أطوافاً من هذا النوع لا تزال ترى على نهر دجلة حتى عام (١٩٥٠ ب.م) وبعد ذلك بطل استعمالها لأنها غير ملائمة.

وقد وصف هـ. لاهارد لهذه الأطواف وطريقة صنعها قال: إنه قد استعمل مثل هذه الأطواف في الأرمينيات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ب.م) وتستعمل جلود الأغنام والماعز الكبيرة، وقد كانت هذه الجلود تُنزع وتسلخ بحذر حيث لا تسبب أي شقوق في الجلد ويمدها تجفف وتعالج.

ويتم نفخ الجلود بواسطة الرئتين والفم من خلال ثقب يقفل فيما بعد بواسطة خيط.

ويمدها يصنع هيكل مؤلف من أشجار الجوز وأغصان الشجر والقصب وتكون بشكل الطوف المقصود بنائه.

ويمدها يتم ربط الجلود المنفوخة عن طريق أغصان شجر الصفصاف وغيرها من الأغصان وتربط كل هذه المجموعات معاً بإحكام ويمدها يحرك الطوف إلى الماء.

ويجب الانتباه إلى أن الجلود المنفوخة ينبغي أن تكون أفواهاها إلى الأعلى بحيث يمكن فتحها بسهولة في حالة انفجار أحدها أو تفرينه بحيث يتطلب أن يُملأ، عندها يمكن للناسل بالطوف أن يفتحها بسهولة، وفوق الهيكل الخشبي يتم وضع بالات البضائع والأشياء الخاصة بالتجار والمسافرين.

وكان الكيلييك يحكم تركيزه حيث من الممكن أن يكون بالحجم الذي تتطلبه البضاعة وكانت وظيفة رجل الطوف أن يوصل الطوف إلى التيار الرئيسي في النهر وأن يتجنب أي عقبات تصادفه في الطريق.

وبناء على ذلك فإن الطوف يتبقي أن يسير بسرعة تيار النهر أي دجلة إذ لا مجال لاتخاذ مجرى الطوف بشكل معاكس لتيار النهر.

وفي حالة تكون الطوف قد وصل إلى هدفه كان الطوف يفصلك عند وصوله إلى المكان المقصود وكانت تباع المواد التي ينقلها فوراً.

هنالك نوع آخر من الأطواف المائية التي لا تزال موجودة على أنهار العراق خلال العقدين الماضيين هو قارب دائري ذو قعر مسطح، وإن اسمه الحديث باللفة المربية هو: (جوا أو كافا) هذا هو الاسم الأكادي (كوبا) وهو يعني: الصلة وهذا الاسم يمثل المضمون فهو عبارة عن صلة كبيرة جداً مصنوعة من القصب القاسي وهي ضد الماء لوجود البيتومين فيها.

ومع أنها ثابتة ومثزنة إلا أنها ليست مناسبة لأن تدفع في مجرى تيار النهر لمسافة وهكذا فهي مفيدة للمواصلات المحلية بما فيها عمليات عبور النهر في الوقت الذي لا تصلح به لعبور المسافات الطويلة.

أما النوع الثالث من القوارب فهو الشكل التقليدي المعروف مع وجود مقدمه ومؤخره أما بالنسبة لقضية دفعه فليس هناك من برهان أو إثبات على وجود الشراع إذ إن جميع صور القوارب المائدة لأشور تُظهر أن هذه القوارب كانت تُحرك بالتحديق أو تحريك القدمين في الماء.

وبالنسبة لنقل المائي كما هو الحال بالنسبة للأشياء الأخرى فقد عرف الآشوريون أن هناك أمماً أخرى قد أصبح لديها مقدره تقنية أعلى من مقدرتها ولذلك فعندما قرر سنحاريب القيام بحملة بحرية ضد عيلام عبر الخليج الفارسي فقد كلّف بعض بناء السفن من شمال سورية لبناء أسطول في نينوى وقد وثق بالبشارة الفنيقيين وسلمهم سفنه للإبحار جنوباً، وكانت هذه السفن من نفس نوع السفن الحربية الفينيقية التي ظهرت في لوحة آشورية ناهرة والتي كانت ذات ١٧ مجدافاً على كل جانب.

وخلال الألف الثاني قم كان نهر دجلة مملوفاً بالقوارب التي تحمل البضائع متجهة إلى العاصمة آشور بحيث كانت تحلث بعض الاصطدامات.

وكان هذا يمثل مشكلة يفتي على قانونيين دولة آشور في القرن الثاني قبل الميلاد حلها بإصدار قانونين حول قضايا المسؤولية إذا تسببت مثل هذه الحوادث في غرق إحدى الممن.

كانت القوارب لا تجول في الأنهار الرئيسية فحسب، بل في القنوات ومن المعتقد أنها كانت تجلب المنتجات إلى العاصمة من الولايات البعيدة وليس لدينا أي رواية أو قصة عن أحد الحكام في القرن الرابع ق م وهو يحاول توسيع إحدى الأبنية بحيث تستوعب قوارب ذات طول يبلغ خمسة وعشرين ذراعاً (تقريباً أربعين قدماً).

وهذا القياس يقدم لنا فكرة عن قيام أصعب القوارب المستعملة بالإشارة إلى طول القارب وليس عرضه.

وعداً عن وظائف القوارب في حمل البضائع على طول القنوات في الأنهار فإن القوارب كانت تعمل كمصلة وصل في نظام المواصلات البرية. وذلك بطريقتين:

أولاً: كانت هذه القوارب تستخدم لعبور الأنهار حيث كانت قوارب العبور الرسمية قد احتفظت بها تحت إشراف الحكام.

ثانياً: كانت هذه القوارب تستخدم كمجسور وكان هذا يحدث بضم عدد من القوارب بعضها مع بعض عبر النهر، ولا يزال هذا النظام مستعملاً في بغداد حتى عام ١٩٥٧ م.

أما في آشور القديمة فكانت كلا هاتين الطريقتين ذات أهمية وطنية بالنسبة للقضايا التي سوف ترفع تقارير عنها إلى الملك.

الفصل الثالث عشر

عالم ما وراء الطبيعة

تستمد الفاليلية من سكان القرب أولى انطباعاتها حول الأمور الدينية في منطقة الشرق الأدنى من التورات.

ولذلك ينبغي علينا أن ننتبه إلى أن كل ما قيل عن هذا الموضوع من التوراة فيه الكثير من التعامل.

فالأنبياء الإسرائيليون مع ما لديهم من صفات الخوف من الله إلا أنهم كانوا قادرين -عن قصد- على التضليل مع شيء من حسن النية.

فالقضية التي نشير إليها هي الصورة التي تتمثل وجهة النظر في منطقة ما بين النهرين حول آلهتهم، تلك الصورة التي نحصل عليها من أقوال ما يدعى أشعيا الثاني (نبي وهو المسؤول عن السفر ٤٠-٥٥ من كتاب أشعيا) :

أولئك الذين يصرفون الذهب من أكهاس دراهمهم، ويزنون الفضة في الميزان.

فهم يستأجرون أحد صانعي الذهب ويبدلون الفضة إلى ذهب

وبعدها يخرون على الأرض وينهمكون في شؤون المبادلة

وهم يحملون آثامهم فوق أكفثاتهم وينقلونها

ويضعونها في أمكنتها حيث تبقى هناك

وليس من الممكن أن تتحرك من مكانها.

(أشعيا ٦١٤٦-٧)

وهنا نجد التباسين حول الدين في منطقة ما بين النهرين:

الأول: وهو أن هؤلاء السكان فكروا بالإله ليس إلا صورة فحسب.

والثاني: هو أن المتعبدين صوّروا تلك الآلهة بالصورة التي تحلو لهم ونزقوا لآخياتهم.

ولكن الحقيقة أن كلتا الفكرتين خاملتان.

لقد كان هناك صور للآلهة وهذا أمر صحيح وقد اعترف بهذه الصور بأنها مجرد منور وليست هي الحقيقة الإلهية المطلقة.

حقاً إن باستطاعة الناس الوصول إلى الآلهة من خلال صورههم، ولكن ما يدعى يهوه عند الإسرائيليين من الممكن الوصول إليه من خلال تابوت العهد، ولم تعد الصورة الإلهية بالنسبة لأحد أفراد منطقة ما بين النهرين هي جوهر إله أكثر مما كان تابوت العهد الجوهر بالنسبة إلى يهوه، أو القلب الذي يقسمه (الشخص الكاثوليكي بالنسبة للمسيح) وكانت الصورة الإلهية بالنسبة للبابليين القدماء أو الآشوريين ما هي إلا النقطة التي من الممكن الاتصال بالإله عن طريقها، فهي النقطة التي ينكشف من خلالها الحضور الإلهي ولكنها لم تكن لتمثل الكمال الإلهي بذاته، وقد كان اللاهوتيون القدامى صريحين حول هذه الأمور.

إذ يقول أحد النصوص:

((إن مردوخ هو الإله الأعظم في بابل)) مع أنه كان من الآلهة المعبودة في آشور، يقول النص:

(المالم السفلي هو الحوض الذي تفتسل فيه، وأعالي السماوات هي الطاسة التي توضع فيها المنجدة التي تستعملها) وهكذا فإن الإله الذي يمتلك مثل هذه الأهمية الفلكية ليس من الممكن أن ينحصر داخل تمثال، وهو ذلك فإنه بفضل النظر عن مطابقة الآلهة العظيمة بصورها إلا أن هذه الآلهة كانت تحظى بالاحترام والتبجيل ليس لكونها صوراً فحسب ولكن لكونها رموزاً.

هكذا نرى أحد المتعبدين في إحدى النصوص راكعاً أمام مذبح وضع فوقه سيف.

ونرى في إحدى الوثائق القضائية التي تعود إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ما يشير إلى أن أحدهم قد قام بأداء القسم أمام خنجر الإله آشور.

تعدد الآلهة

هناك مظهر في ديانة ما بين النهرين من الممكن أن يتعرض للسخرية من قبل أنبياء الإسرائيليين وهو تعدد الآلهة.

فقد عدت النقوش التي تذكر ملوك الآشوريين عدداً من الآلهة، مثلاً آشور السيد العظيم والد الآلهة، وأنوما نليل، وايا-اومن-شمش، وآرات، ومردوخ، ونابو، ونيرجال، وعشتار، والسبعة هم الآلهة العظماء والذين يقفون إلى جانب الملك.

ولكن لم تكن مثل هذه القوائم تحتوي سوى كمية ضئيلة من مجمل الآلهة الكامل الذي اعترف به اللاهوتيون القدماء.

وإن ما ذكره أرميا عن يهوذا لم يكن سوى نوع من التهكم بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين وذلك عندما يقول:

((إن عدد آلهتكم يبلغ بقدر عدد خدمكم)).

ففي منطقة ما بين النهرين نجد أن كل مدينة كان لها آلهتها الخاصة بها، ولكن بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك عدة مظاهر سواء كانت في الحياة المادية أو في المجتمعات البشرية، لكل واحد منها كان له ما يحميه من القوى الإلهية.

فقد كان هناك على سبيل المثال آلهة لصنع الخمر وآلهة للبناء.

وهكذا يجد الباحث الحديث الذي يذهب إلى منطقة ما بين النهرين القديمة أنهم يبدون الوفاً من الآلهة في المجتمع الإلهي ولكن لم تكن هذه القائمة الضخمة انعكاساً للمعتقدات الدينية العامة ولا انعكاساً لمعتقدات أي فرد من الأفراد، بل كانت من بنات أفكار الباحثين القدماء الذين حاولوا تجميع عدد من مجموعات الآلهة في محاولة منهم أن ينظموها ضمن نوع ما من أساليب التنظيم، وفيما عدا الدوائر المختصة بالعلماء الباحثين لم يعتبر أي إنسان لا في بابل ولا في آشور أن العالم يسير ضمن هذا المجتمع الضخم المنظم الرسمي من الآلهة.

ولا شك أن الإسمان الآشوري العادي كان يرى نفسه محاطاً بأصناف متعددة من القوى الخارقة للطبيعة.

ولكن لم تكن هذه القوة للقوى الخارقة هي الهيكل الرسمي المكروس للباحثين، ومع أن الشخص العادي يعلم أن هناك هيكلاً مكرماً إلا أنه كان قد تعرف على التفاصيل بشكل ليس بأفضل من تعرف الشخص المسيحي العادي على القوانين الكنسية المختصة بالقسيسين.

ولكن الآلهة التي كان الشخص الآشوري العادي مهتماً بها كانت قليلة العدد.

وكان أولها: هو الإله القومي آشور الذي لا يمكن لأحد أن ينسأ نظراً لملاقته الوثيقة بما يفعله الملك وكان مكرماً ومقدساً في كل المناسبات الرسمية.

ولكن ربما لم يكن الشخص الآشوري العادي عالماً أن آشور امتص عدة مظاهر من الإله السومري انليل (عضو الثالوث الإلهي) ومن مردوخ إله بابل.

وإلى جانب آشور كانت هناك الإلهة عشتار التي لم تكن بعيدة عن الاعتبار نظراً لملاقاتها بالأنشطة الجنسية من جهة ومن جهة أخرى لارتباطها بالحرب.

وقد أظهرت عشتار نفسها في عدة أشكال، مثلاً، عشتار نهوى وعشتار إريبل وعشتار بيت عنجوري على سبيل المثال، وقد ظن بعض الآشوريين أن هؤلاء كانوا آلهة متميزين، ولهم الحق في ذلك نظراً لأن أشغال عشتار المختلفة ربما تكون قد تطورت وذلك بسبب إضعاف صفة الآلهة عشتار لبعض الآلهة المحلية المعروفة.

وبعد ذلك كان هنالك بعض الآلهة، المختصة بالظواهر الطبيعية مثل إله الشمس شاماش (وكان هذا هو إله العدالة) وإله القمر (مين) وإله الطقس (أداد).

وكل من هذه الآلهة كان مرتبطاً بالحياة اليومية فلا يجوز تجاهلها، وكان إله المحكمة (إيا) يحتل المقام الأول بالنسبة للوعي الديني مع أنه لم يكن مرتبطاً بالمحكمة بقدر ارتباطه بأهميته بالنسبة للمملكات السحرية والعبادات المائية.

وكان (نيرجال) إله المالم السفلي والموت يهتم بشكل رهيب بأمور المسحر بينما كان نينوترا أحد آلهة الحرب والصيد يحتل مركزاً مرموقاً في حياة الآشوريين.

وبل تلك الفترات الزمنية التي كانت النصوص الاجتماعية تهتم بالملاقات البابلية أصبح الإلهان البابليان مردوخ ونابو يمتلكان أهمية خاصة في آشور.

لكن عدداً عن هؤلاء، لا نحيل لأي واحد من ألوف الآلهة في المجتمع الإلهي الرسمي له ذكر في بعض الحالات في النصوص الآشورية.

هناك شواهد قليلة تدل على أن أفراداً قليلين من المجتمع الإلهي قد دخل في الضمير الشعبي.

ومع ذلك فإن الفكرة الأخيرة هي بحاجة إلى إبداء بعض التحفظات: إذ إن عدداً قليلاً من أسماء الآلهة الأخرى موجودة كعناصر متقلبة في الأسماء الشخصية.

وربما كان هذا دلالة على وجود ظاهرة عبادة هذه الآلهة وانتشارها الواسع مع أنه ليس لدينا أي شواهد أخرى.

أما مجتمع الآلهة الأخرى فلم يهتم بهاجات العبادة بقدر اهتمامها بالتعبير عن حالة الإجبار التي شعر بها المثقفون من ذوي العقول النيرة في بابل القديمة في آشور وذلك لتظيم جميع مظاهر الحياة.

ولهذا الفرضية فقد = اللاهوتيون إلى ترتيب جميع الآلهة من مختلف الأحوال وضمتها إلى مجتمع ديني منظم، يمتلك علاقات متداخلة متعددة مع حق الأفضلية.

ولكن كانت التقاليد المحلية ذات قوة عظيمة بحيث كان الشخص الآشوري المادي أصبح في وضع حرج أجبره على استحضار تلك التفسيرات الموجودة في المجتمع الديني الرسمي كما هو الحال بالنسبة للرجل المسيحي المادي الذي يتوجب عليه أن يحدد العلاقة ما بين الإله الأب والإله الابن والروح القدس.

وكانت حالة الأفضلية فيما بين الآلهة الآشورية وقضية علاقاتها المتبادلة، لقد بقيت هذه القضايا وبشكل واضح مشكلة من المشكلات حتى زمن نهاية الإمبراطورية قريباً.

وهكذا نجد الملك سنحاريب مجبراً على أن يؤسس (يمشيئة الآلهة) الترتيب المناسب لأفضلية عدد من الآلهة التي تشترك في الاحتفالات الدينية، وهناك نص آخر يعكس نواحي الشك فهما إذا كانت الآلهة (شيراوا) هذه زوجة الإله آشور الذي كانت زوجته فعلاً تصرف باسم (نبذيل) وهذا هو أصلاً اسم زوجة الإله المومري (أنليل) أو أخته.

إن الآلهة العظيمة التي ذكرت بصفتها مهتمة بحياة دولة آشور (ويابل) ككل من الممكن في الوقت نفسه اعتبار أن لديها صلات خاصة ببعض المدن.

وهكذا فإن الإله نيرجال الذي كان بصفته إله العالم السفلي كان مسيطراً على أهوال الموت، فقد كان بالاشتراك مع زوجته (لاس) يوصف في بابل بأنه كان يعيش في مدينة (كومتها).

وأما في آشور فهو يوصف بأنه كان يعيش في تاريبو (وهي ممر على النهر شمال نينوى).

وأما آشور الإله القومي الآشوري فقد كان طبعاً مرتبطاً بالمدينة التي تحمل اسمه.

وكما لاحظنا سابقاً فقد كانت عشتار في أشكالها المختلفة ذات ارتباطات مختلفة مع نينوى وأربيل.

وأما (سن) إله القمر فقد كان يمتلك بيتاً في (أور) وأما في آشور العظيم فقد كان مرتبطاً بمعبده المتواجد في حران.

وفي الأصل فقد اعتبر الإله ككائنات ذات أشكال إنسانية ولكن خلف هذه المعتقدات كانت هناك معتقدات أقدم ما تزال تؤلف بعض آثار المصور والنصوص.

وهكذا فقد كان آشور ناصر بمل الثاني يحمل منجلاً بشكل رأس طير كان يمثل الإله نينورتا، وهو إله الحرب والمبيد عند الآشوريين، وهناك خرافة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد وهي من سومر ولكنها كانت لا تزال شعبية في آشور في الألف الأول قبل الميلاد وقد أخبرتنا هذه كيف أن هذا الإله قد تغلب على كائن إلهي بشكل طائر يدعى (أنزو) وسلبه قوته، وكانت هذه إحدى الطرق (مطبقة) لبعض الإجراءات الشائعة ضمن القصص الخرافية) التي تعكس كون الشكل القديم لنينورتا كان ذلك الكائن الإلهي بشكل طائر.

وبالمقابل فإننا نرى الإله آشور يوصف بكونه جالساً على أسد، هذه الفكرة من الممكن أن توحي أنه وفي مرحلة أقدم عهداً كان من المعتقد أن القوى الخارقة التي كان يحملها هذا الإله كانت تتشكل بشكل أسد.

مبدأ التوحيد البدائي

حتى مع وجود مجتمع الألوهية ذي الاستعمال المادي، هناك ميل للانقياس من شأنه ولقد تأثر هذا الميل بالتطورات السياسية فضلاً عن التضمينات الدينية.

ففي دولة آشور عبد المواطن نفسه موجوداً في مجتمع كانت فيه جميع السلطات التي كان يخضع لها المواطن، إنما تمثل في نهاية المطاف مصدراً واحداً من مصادر السلطة وهو الملك.

وقهاساً على ذلك من المقول القول: إنه وبالنسبة للعالم الإلهي فإن جميع الألوهية في نهاية المطاف ما هي إلا تمثيل لإله واحد محيط بجميع القوى الإلهية، وإننا نجد هذا الأمر موجوداً في عدد من النصوص -مثلاً- النص التالي الموجه للإله نينورتا:

عنهالك أيها الرب هما تمثّلان الإله أينليل ونينيل

وشفتاك تمثّلان آتو وأنتو

وأما جبينك فهو يمثل الإله شالا وهي زوجته المحبوبة التي تفرح القلب

وأما عنقك فيشبه ويمثل الإله مردوخ

وأما رأسك فيمثل الإله حدد

الذي خلق السماء والأرض

وكيفية جانبية من الممكن أن نشير أن هذا الشعر يمثل مظهراً آخر لذلك الرُحْم والتدفق الذي حدث داخل المجتمع الإلهي وعلى الرغم من محاولة اللاهوتيين تبني وجهة نظر واحدة متماسكة.

هنا يقول الإله حدد:

((هو الذي خلق السماء والأرض)).

ولكن لقد مُنح عدد من الآلهة الأخرى نفس اللقب، وكذلك فقد كُرمت كثير من الآلهة بالقدرة على الخلق بالنسبة لعلم الأساطير.

ويذكر نص آخر:

((إن كوكب المشتري هو نجمة الإله (سن) (وهو الاسم الذي يطلق عادة على القمر) وأن الإله (سن) هو آشور)).

ثم يستمر هذا النص في القول: إن نجوماً أخرى محددة مرتبطة بالآلهة الأخرى هي نجوم الإله آشور.

هل إن الاعتراف بالآلهة الأخرى كمظهر من مظاهر وجود إله واحد، إنما تمثل الاعتراف بالوحدانية؟

إن الجواب على هذا السؤال يعتمد اعتماداً عظيماً على كيفية فهمنا للوحدانية.

فالمسيحيون يمدّون أنفسهم وحدانيين، ولكن هناك بعض المسلمين الذين ينكرون اعتراف المسيحيين بالوحدانية نظراً لأن المسيحيين يقبلون فكرة الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القدس.

إن وجود ثلاثة أشخاص إنما يعني ثلاثة آله.

لكن إذا كانت التوحادية تعني الاعتماد بأن جميع الكهانات الإلهية هي في آخر الأمر كيان واحد، عندها يمكن اعتبار الآشوريين موحدين، وعلى العكس فإن الاعتماد على وجهة النظر القائلة:

((إنه من الممكن للإله أن يظهر بعدة أشكال مختلفة)) وإن وجهة النظر هذه منافية لبداً التوحيد، عندها يتضح لنا أن الآشوريين لم يكونوا موحدين.

المعابد

كان الآلهة المطعما موجودين في كل مكان، لدينا نصوص مختلفة حول الآلهة مفادها ما يلي:

يضع الإله السموات فوق رأسه كانتها عمامة، ويدوس على العالم السفلي كما يدوس على الحذاء.

ولكن وكما هو الحال لدى اليهود والمسيحيين والإسلام فإن المكان الذي يتقابل الناس فيه مع الإله هو الكنيس أو الكنيسة أو المسجد، وهكذا وبالنسبة لآشور القديمة كان المعبد هو المكان الذي يمكن فيه الالتقاء بالآلهة.

نقد كانت المعابد قديمة قدم المدن نفسها، ففي أوائل المستوطنات كان المستوطنون يؤمنون لأنفسهم مساكن مناسبة للآلهة مع أنها كانت صغيرة بالنسبة للإله الذي سوف يسكن فيها، وكان هذا الإله يحضر ومعه عائلته وما يلزمه تماماً كما يفعل الحاكم من بني البشر، وكانت تمثله آلهة أخرى أقل مرتبة منه ولها مساكن عبادة ومساكن ملاصقة لأبنية المعبد الرئيسية، وحالما توسعت المستوطنة لتصبح مدينة كبيرة فقد توسع المعبد معها، بحيث أصبح ابتداءً من فترات قديمة وفي بعض الحالات مؤلفاً من أبنية ذات حجوم لا بأس بها وذات ثروات وأبنية.

وحيثما اتممت علاقات المدينة مع المجتمعات الأخرى انعكس هذا في علاقات
إله المدينة وربما كلن هنالك بعض المعابد الصغيرة التي كانت تضاف لاستعمال
الآلهة القادمة بناءً على العلاقات الجديدة.

ربما يتوقع المرء أن تكون عبادة الآلهة مرتبطة بالمعابد، والحقيقة أنها كانت
كذلك مع أنها لم تكن معصورة بالمعابد حين كان القصر الملكي مهتماً بشؤون
العبادة، هذا ولدينا عدد كبير من النصوص الواردة من المعابد البابلية، أكثر
منها من المعابد الآشورية، وهكذا نتحن بالتالي نعرف معلومات أكثر عنها.
ونظراً لذلك علينا أن نتجنب ذلك الانحراف بملء الفجوات حول المعابد
الآشورية من المعلومات التي نعرفها حول المعابد البابلية، لوجود فروق كبيرة
بالتأكيد.

ففي بابل: كانت المعابد تمتلك بعض الضيع على مقياس واسع، مثلاً في
إحدى الفترات كان معبد إيانا في المدينة الجنوبية المدعوة (إيدسن) قادراً على إدارة
شؤون اقتصادية موازية وأحياناً مستقلة عن الشؤون الاقتصادية الخاصة بالدولة.

ولم يكن يطبق هذا على آشور في الألف الأول قبل الميلاد حيث كانت
الإدارة الآشورية تملك بزمام المبادرة في جميع الشؤون الاقتصادية والحياة الإدارية
في البلاد، في حين أن المعابد هنالك لم تستطع امتلاك الأراضي المحيطة بهذه
المعابد، وحتى في الأحوال التي كانت فيها أحد المعابد الآشورية يمتلك أرضاً
مجاورة للمعبد وحتى في الحالات التي لم يكن المعبد الآشوري يمتلك أرضاً، كان
مدى امتلاكها غير كافٍ لتأمين الوظائف الاقتصادية المطلوبة، ولا يعني هذا أن
المعبد لم يكن غنياً، فالمعبد الرئيسي ذو الوظائف التعمدية والدينية التي كانت
مقررة من الملك يمكنه أن يجد الوسائل من وقت لآخر لتقديم عطايا وهدايا لازمة
لإصلاح بناء بعض المعابد.

وكانت التقدمة من المتعبدين أيضاً ذات شأن، فقد ذكر أن أحد القائمين
على خدمة أحد المعابد قد أخبر الملك أنه قد حصل على (١٢) مئناً من الذهب
حصل عليها من التقدمة التي كان يقدمها المتعبدون وأنه قد خصص هذا الذهب

لعمل زخرفات لزوجة الإله، وتبلغ قيمة هذا الذهب (١٠٠,٠٠٠) جينيه إسترليني حسب سعر الذهب عام ١٩٨٠ ب، وهذا بالتأكيد كان من أعظم المعابد في بابل. وهنا نمود لنذكر مظاهر العبادة في المعابد الآشورية، إذ نظراً لأن المعابد كانت أولاً: هي المأوى الديني للآلهة لذلك فعلياً أن نتوقع شهادة تدل على الوجود الإلهي فيها وكانت العادة أن يتمثل الإله بوجود التماثيل التي كانت مصنوعة من الخشب والحجر المرصع بالذهب أو تماثيل محفورة من النحاس أو المعادن الثمينة، وكان لكل تمثال يقف أو ينتصب على قاعدة أو منصة ولكن وكما ذكرنا سابقاً لم تكن تماثيل الآلهة ذات أشكال بشرية.

وليس لدينا أي شاهد معين عن وجود أي إله آشوري بشكل حيواني ولكن من المؤكد أن يمثل الإله برمز من الرموز الإلهية، مثلاً أحد الخناجر بدلاً من تمثال.

لم تكن التماثيل في المعابد الآشورية تمثل الآلهة حصراً إذ نحن نسمع عن تماثيل كبيرين نصبا في معبد القمر في حران، واحد منهما عند يمين تمثال الإله والآخر عن يمينه، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة لأمرأة المائلة للمكبة من الأمام، ولم يكن هذا يدل على الهوية الملك بل كان الفرض من هذا أن يحصل الملك على بعض الفوائد السحرية لمصاحبه الدائمة لهذه التماثيل مع إله القمر.

ولقد فسر الكاهن الذي رُتب هذه المجموعات بما يلي:

((نظراً لأن الإله القمر المتوج يرتفع ويفيب شهراً بعد شهر فإنه سوف يرسل إلى الملك سيدي بيشائر مشجعة لممر طويل واستقرار للحكم وعظمة للسلطة)).

بيت الإله

إن الحاجات الرئيسية لبني البشر هي المأوى والعظام والملابس ولذلك فقد نشأت فرضية معقولة من وجهة نظر الإنسان في منطقة ما بين النهرين: إن الإله إذا كان سوف يتشكل بشكل بشري، ينبغي أن يساهم في الحاجة لمثل هذه الأشياء والحاجات.

كانت أول حاجة للإله هي وجود معبد كبيت له، وكانت الأمثلة الأولى للمعابد في بلاد آشور في الألف الثالث قـم ذات أبعاد متواضعة، ولكنها أصبحت فاخرة فيما بعد، بحيث كانت مضارعة للقصور الملكية.

إلا أن المعبد كان يختلف من ناحية واحدة عن القصر فقد كان يحتوي على برج ذي درجات (وكان هذا البرج مريمأ في آشور) (الزاقورات) وهو يحتوي على سبع درجات، وهناك صورة موجودة على ختم أسطواني يقدم لنا فكرة عن شكله، وهناك عدة زاقورات في آشور تلك الموجودة في نمرود وهي عبارة عن تلة مرفوعة من صنع الإنسان مع أنها لا تظهر بوضوح شكلها المدرج.

أما بالنسبة للزاقورات المعروفة في آشور فكانت حجوماً الأصلية تتدرج من شائين قدماً مكعباً حتى ما يزيد عن (٢٠٠) قدماً مكعباً (أي: من ٢٤ متراً مكعباً إلى ٦٢ متراً مكعباً) وكان في ورسبال بقايا زاقورة تحتوي على أربع درجات مع وجود درج منحدر عرضه ستة أقدام مصنوع من الحجر المشوي وهو محمي من الخارج بمئذنة دائرية.

وأما الأوجه العمودية للدرجات الأربع فقد كانت مطلية بالجص ومدهونة باللون الأبيض والأسود والأحمر والأزرق بالتوالي، وكانت هذه تدل على رموز دينية لم نفهمها ومن الممكن أن يكون هناك ثلاث درجات ولكن ليس هناك من دليل على ذلك.

لقد جرت نقاشات عديدة حول القصد من بناء هذه الزخارف، فمن المؤكد أنها لم تكن مرصداً فلكية (كما يقترح البعض) ولم تكن تحم ككيبور مثل الأهرامات ربما كان بناء الزاقورات مما له علاقة بالفكرة الشائعة في منطقة الشرق الأدنى القديم وهي:

إن الآلهة كانت تعيش في الجبال بحيث كانت الزاقورة بديلاً عن الجبل في سهول منطقة ما بين النهرين.

ولكن هناك مجالاً للشك فيما إذا كان الآشوريون أو البابليون من الألف الأول قـم يملكون معرفة أكثر منّا حول الأفكار التي تكمن وراء هذه الظاهرة المعمارية في الألف الثالث.

لم يكن من الضروري تأمين معبد للإله بل تأمين الكساء اللازم والطعام اللازم وكانت الملابس الطقوسية للتماثيل العائدة للآلهة جزءاً هاماً من مظاهر العبادة في جميع الأزمنة في منطقة ما بين النهرين القديمة وكان هذا ينطبق أيضاً على آشور كما على بابل.

وفي الفنون الآشورية كان هناك تمثيلات وصور لبعض المواكب التي تظهر فيها ملابس الآلهة ولكن ليس هناك من نصوص تظهر كيف ومتى كانت تلبس هذه الملابس.

ولكن لدينا قوائم فعلية للأردية الإلهية والمجوهرات في بابل وهناك يبدو أن الملابس الاحتفالية التي تخص الآلهة كانت تستعمل في مواكب خاصة أو أعياد وليس في شكل يوم، ونحن نعلم أن الآلهة كانت تقدم لها الأطعمة في المعابد الآشورية يومياً لأننا لاحظنا أن تقديم الطعام في معبد نينوى والوجبات الصباحية والمسائية للآلهة في نينوى قد ذكرت.

وللمرة الثانية نجد أن المعلومات مشوّهة بالنسبة إلى بابل التي نجد فيها نصوصاً تقدم التفاصيل التي لا تخص القضايا الاحتفالية لخدمة الآلهة فحسب بل حتى قوائم مواد الطعام، فقد كانت الآلهة تزود بوجبتين غذائيتين رئيسيتين ووجبتين خفيفتين يومياً وكان الطعام يشتمل على البيرة والحليب وخبز الشعير وخبز القمح ثنائي البذرة ولحم الفم ولحم البقر ولحم البط والدواجن الأخرى وبيض النعام وبعض البط والتمر والتين.

ومن المجهز أنه على الرغم من الكميات الكبيرة من الأطعمة التي كانت تقدم للآلهة إلا أنه لم يرد ذكر قضية التناول، إذ يبدو أن هذا كان من وظائف البشر التي كان يستقني عنها الآلهة، نظراً لأن علم الأساطير يظل صامتاً تجاه

هذه القضايا ، ومع أن الآلهة كانت تشترك في معظم الأنشطة البشرية الأخرى كالأكل والشرب وأعمال الحب والجنس وسوء المزاج والمبوس والبكاء والنوم.

وهضلاً عن الواجبات التي تحتم العناية بصور الآلهة إلا أنه كان هناك عدد كبير من المراسم بعضها يجري شهرياً وبعضها في المناسبات في أيام خاصة من السنة ، وفي أيام تقصيب الملك الجديد وفي أي وقت كان من الواجب حضور المعبد لأداء بعض الفروض والطقوس ، وذلك لتجنب شرور سوء الطالع وكانت بعض هذه الاحتفالات تشمل صورة الإله وتمثاله الذي يلبس بعباية ويخرج من المعبد للاشتراك في الاحتفالات ثم الرجوع. في بعض الحالات كنا نعلم عن الاحتفالات من تلميحات عابرة في النصوص مع ندرة التفاصيل أو عدم وجودها ، ومن الممكن مثلاً أن نجد سطرأ واحداً في نص يشير إلى الوقت الذي يضحي به الملك بأحد الخراف أمام النجوم والذي نستنتج منه أن شيئاً ما ذا أهمية وطنية تشمل الملك سوف يحدث ليلاً ربما في باحة المعبد أو في المعبد أو على سطح القصر ولكن لا نعلم فعوى الحادث.

وكانت بعض الطقوس معقدة جداً وهي تشمل وجود عدد كبير من الآلهة ، وهكذا نجد أحد الطقوس يذكر خمسة عشر إلهاً أنهم واقفون إلى يسار الإله آشور وخمسة عشر إلى يمينه من الواضح أن هذا كان إحدى الاحتفالات الرائعة ، ولا نعلم ما كانت تفعله هذه الآلهة في هذا الاحتفال ولكن يبدو أن هذا كان اجتماعاً سرّياً وخلوة للآلهة ، لأنهم كانوا مزودين بالطعام المؤلف من الخضروات في هذه المناسبة وكذلك بذور الحنّان والمكسرات والقنب والرمان والتين والخبز والنبيد والبيرة.

كانت معظم الطقوس في المعبد مؤلفة من صيغ معدلة لعناصر مختلفة كتميرات الآلهة والتضحية بالحيوانات وتقديم الطعام والشراب وتلاوة التعاويذ والصلوات وإنشاد الأناشيد واحتمالات الاغتسال ، وموسيقى الطبول (وعلى مستوى أهل) تمثيل درامي لحوادث خرافية وكانت عناصر هذه الأخيرة تحتوي على قتال طقوسي وسباق أو الذهاب إلى القراش لممارسة الجنس ، وهذا الطقوس يدعو

الباحثون الحديثون، وهم خطلون، بالزواج المقدس، وكانت الطقوس مصحوبة بالموسيقى وبخاصة قرع الطبول الذي كان شائعاً جداً بالنسبة لمختلف الآلهة.

وتُعدُّ إحدى القوائم ثلاثة عشر من هذه الاحتفالات الدينية الإلهية في آشور التي كانت تحدث ما بين أشهر أيلول ونيسان، وتذكر إحدى النصوص القديمة أن الفرض من قرع الطبول كان دعوة الآلهة.

هناك واحد من الأعياد التي نسمع عنها الشيء الكثير هو ما يدعى (أكينو) مع أن هذا يترجم باسم عيد رأس السنة، ولكننا لا نعلم ما معنى هذا الاسم أصلاً، ونحن نستعمل الترجمة نظراً لأنه وفي بابل هذا هو ما حدث، فقد كان هذا العيد يتم في الشهر الأول من السنة وهو نيسان.

وفي بابل كان هذا العيد يبدأ بثلاثة جمع أحداث أسطورة الخلق، وكذلك تمثل الصراع الطقوسي ما بين إله المدينة والوحش البدائي المدعو نهامات (وهو عبارة عن تين بشكل امرأة).

وأما الزواج المقدس فقد كانت هذه الاحتفالات تتم لتأمين راحة المدينة في السنة القادمة وترويج الملك الجديد، ولكن لا يجوز شرعاً الافتراض أن علينا أن نرى في الاحتفالات في آشور نسخة طبق الأصل عن الاحتفالات في بابل.

ففي بابل ليس من الضروري أن يحتفل (بالأكينو) في بداية العام وفي شهر نيسان، بل نجد ذكر مثل هذه الاحتفالات مثلاً في شهر آب وأيلول في مكان قرب إيربيل وفي آذار في مكان ثم يحدّد، ولقد حدثت الاحتفالات في شهر آذار خلال الألف الثاني ق.م.

ومع ذلك فإننا نجد أن هناك احتفال (الأكينو) في شهر نيسان في مدينة آشور مع وجود دلالات قوية أن كثيراً مما حدث كان موازياً للاحتفال الذي حدث في بابل، وهذا لا يمثل الماديات الآشورية القديمة فعصب بل يمثل نفوذ بابل الأخير.

وفي اليوم الثاني غادر الإله آشور معبده بعد أن تناول فطوراً من اللحم، وركب عربة تجرها الخيول البيضاء على رأس موكب من الآلهة متجهاً إلى بناية تدعى

بيت أكييتو، وكان هذا معبداً قد بناه سنعاريب خارج المدينة، ولقد اعتبر سنعاريب الأرض الواسعة هي خير مكان لبناء بيت أكييتو، نظراً لأنه من الواضح أنه عند بنائه هذا المعبد كان يشير بوضوح أن عادة إقامة العيد المختص بوليمة آشور ملك الآلهة قد تطور، وأصبح داخل المدينة بدلاً من إقامته في الهواء الطلق.

ولكن هذا يخدم للبرهنة أنه رغم آراء سنعاريب القوية فقد كان هناك تقليد آشوري بديل في هذا المجال وإن تأكيد سنعاريب على ما هو حق وصحيح لربما كان متأثراً بتجربة البابليين.

ولم يخبرنا أحد ماذا فعل آشور عندما وصل إلى بيت أكييتو، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نستنتج أنه عدا عن ترومسه للوليمة التي ذكرها سنعاريب فقد استأنف ذلك الصراع الكوني ضد الوحش تيامات، وأن السبب الذي يجمعنا نفكر بهذا الشكل هو أن سنعاريب يصف بيت أكييتو بأنها مزخرفة بنماتل آشور الذي كان ذاهباً لخوض معركة ضد (تيامات) حالما يرفع قوسه وهو راكب في عربته وعلى خصره سلاح الطوفان.

ولكن هنا أيضاً يجب الإنسان إلى أي حد قد وصلت هذه التفاصيل إلى آشور القديمة وإلى أي حد قد اقتبست آشور هذه التفاصيل من بابل.

لقد كان الدين الآشوري هو دين الدولة وكانت الدولة تعتمد على الملك لذلك لا عجب أن تتركز طقوس المعبد على الملك أيضاً، وقد ظل هذا الوضع صحيحاً حتى بالنسبة إلى المعابد المتوسطة في مدن بعيدة عن العاصمة حيث لا يستطيع الملك أن يحضر بنفسه جميع الاحتفالات، وفي هذه الحالة كان رداء الملك الطقوسي يرسل إلى المعبد ليقوم بالدور الذي كان الملك سوف يقوم به.

وكان من المأدبة أن يحضر آخرون من أفراد العائلة المالكة وفيهم نساء، الطقوس في المعبد وهكذا نجد أن أخت الملك أو ابنته قد دعيت للاحتفال وذلك لكي تستدعي بالاسم زوجة الإله آشور الأعلى حالما يقدم لها شيء من اللحم المطبوخ.

كهنة المعبد ورجال الدين الآخرون

كان المعبد الرئيسي في مدينة رئيسية ربما ينقصها وجود الممتلكات والضيع التي كانت تتمتع بها أي مدينة مماثلة في بابل، وكان هذا المعبد لا يزال مؤسسة معقدة تتطلب وجود موظفين ورجال دين أيضاً.

وبالنسبة للمعبد في العاصمة القديمة آشور فقد تركزت السلطة بموظف لم يكن ذا شخصية دينية وهو يدعى: الأبراهكو (أي: مدير الأعمال) في بيت الإله آشور.

وفي بعض المعابد الآشورية كان المدير الرئيسي يعرف باسم الرجل المسؤول عن البيت بينما كان يدعى في معابد أخرى شانفو وهو الموظف الكهنوتي الأول، وهكذا فقد ترجم لقبه بكلمة كاهن ومن الممكن أن يحمل هذا الرجل لقبين وهما: (الرجل المسؤول عن البيت) ولقب: شانفو وكان استئصال أحد هذين اللقبين يدل على أي من هاتين الوظائف كانت أعلى مقاماً في ذلك الوقت.

وعادةً كان هناك نائب للشانفو نظراً لأن شانفو معبد عظيم كان رجلاً ذا أهمية كبرى وغالباً ما كان ذا اتصال مباشر مع الملك شخصياً أو في المناسبات الاحتفالية أو عن طريق المراسلة حول الحوادث التي تجري في المدينة أو الدولة.

وكان من الممكن أن يكون هذا ذا ثروة هائلة وأن يمتلك الضياع الكبيرة بالإضافة إلى الأجور التي كان يتقاضاها كحكمة من مدخول المعبد.

ولقد كان الملك هو الذي يعين هؤلاء الموظفين مع أن اختيار الملك في مثل هذه الحالات كانت محايدة بماديين:

الأول: وهو قبول مبدأ التوارث، وهكذا إن تقريراً قد أرسل إلى الملك فحوام أن الرجل المسؤول عن البيت في أحد المعابد قد توفي، وكان يقترح على الملك أن يعين بدلاً عن المتوفي إما ولده، أو ابن أخيه وابن عمه الذي سبق أن أقبل بعد أن كان نائباً للشانفو، إذ إن التعيينات في ذلك المعبد كانت منحصرة في دائرة ضيقة.

أما العامل الآخر من القيود على حرية الملك في الاختيار فهي: أن اختيار الملك ينبغي أن ينال موافقة الأئمة واحتمال ديني وهكذا فقد أصبح الكهنة المحترفون مسيطرين على الإجراءات اللازمة للحصول على القرار والتأييد الإلهي، ومن الواضح أن هذا التأييد كان يوفر لهم الفرصة للاعتراض والنقض بالتسمية إلى أي ثغرات لا يوافقون عليها.

الشانفو

كان للشانفو مساعد وهو نائبه عند الضرورة وهو الذي يعني بالشؤون المالية للمعبد فقد كان مسؤولاً عن استلام التقدمة وإدارة شؤون المعبد المالية.

وكان مسؤولاً عن أملاك المعبد بصورة عامة (ما عدا حالة المعبد الرئيسي في آشور حيث كان هناك مدير للأعمال (أباراهكو) (معيناً لهذا الغرض)، وهذا وإن حمالة أملاك المعبد لا تخلو من مشاكل إذ إن الاختلاسات التي يقوم بها بعض أفراد موظفي المعبد لم تكن نادرة، وفي بعض المناسبات نجد بعض الموظفين الإداريين يقدمون شكاوى إلى الملك أن أحد الموظفين المحليين قد نهب أموال المعبد.

وكان الشانفو ونائبه هما المسؤولين عن طقوس المعبد، وطالما لعبا دوراً رائداً في هذا المعبد مع أن شخصيات وفيه أخرى مشكوك فيها.

هذا وكان ملك آشور نفسه الذي كان الرئيس الأسمى لطقوس الدولة يحمل لقب شانفو بين ألقابه الكثيرة.

كان هناك عدة طبقات كهنوتية عدا عن الشانفو مرتبطة بالمعبد، وآخرون كانوا غير مرتبطين ويتوقف تكون مثل هؤلاء الموظفين أصحاب صفة كهنة أو غير كهنة على وجهة النظر الموضوعية بالنسبة لمعنى كلمة كهان.

وكلمة كهان تستعمل أحياناً متصلة باصطلاح وصفي (لهامه) ولكن على الرغم من هذا فإن وجهة النظر المعتمدة هنا هي أن هؤلاء الموظفين الدينيين (مع استثناءات ممكنة) لم يكونوا كهنة كما كان الحال بالنسبة للشانفو الذي

كان على اتصال وثيق بالإله لكونه مسؤولاً عن تسيير الطقوس في بيته وهو المعبد.

والحقيقة فإن التميز بين الكاهن وغير الكاهن لم يكن من اختصاص الثقافة الآشورية، إذ كان هناك تمييز واضح بين الأشخاص الذين كانوا أعضاء في هيئة الموظفين في المعبد والذين لم يكونوا كذلك وكان الاسم الذي يطلق على المصنوع في هيئة موظفي المعبد (أريب ييه) ومعناه الحرجي: (الشخص الذي يدخل البيت).

إن مثل هؤلاء الموظفين كانوا مسؤولين بانتظام عن تسيير شؤون المعبد، بينما لم يكن الأشخاص الآخرون مسؤولين عن هذا الأمر.

وهذا الاصطلاح ربما شمل الصانع فضلاً عن الموظفين الدينيين وأحياناً بعض الموظفين الملصكين، وكان مثل هؤلاء حق المساهمة وأخذ حصة من التقديمات التي كان يستلمها المعبد.

الكالو

إن الطبقة الثانية من طبقات الموظفين الدينيين الذين عُندوا موظفين رسميين في طاقم المعبد كانوا يعرفون باسم: الكالو، وترجمتها: (كاهن الابتهاالات) مع أن هذا الكاهن كان يقوم بأنشطة أخرى عدا عن الأنشطة الكهنوتية، وما عدا الدور الرئيسي والاحتفالات الكبرى التي كان يقوم بها الشانقو أو نائبه، وإن أكثرية الطقوس في المعبد كان يقوم بها الكهنة الذين يُسمون بالكالو ويمساعتهم.

ونحن نجد هؤلاء يقومون بتأدية أعمال كممثل نمب الطبول في فناء المعبد عند إقامة طقوس خاصة بمناسبة خسوف القمر، أو يؤدون طقوساً دينية ليلية ذات علاقة بالمعجزات وعلم النجوم، وبمساعدة الأشييو (سوف يذكر فيما بعد) كان الكالو يقيم طقوس تطهير المعبد التي تشمل عمليات التنظيف الطقوسية ونشر البخور، أو سكب الخمر على جسد الأضحية وهو ما يدعى بالإراقة.

ولقد وجدنا أن سمناريب قد أرسل أحد هؤلاء الكالو ومعه أحد الأشيبيو لإنجاز الطقوس الضرورية عند شق إحدى الأقدية.

ولكن الوظيفة الرئيسية للكالو كانت الإنشاد وهو ترجمة اسمه التقليدي، فلقد كان الإله يسكن في بيته الأرضي وهو المبد، وكان من الضروري الحفاظ عليه في مزاج جيد، وإبقاء أساليب التواصل مفتوحة وذلك للمساعدة على إبقاء شفقة ورحمة الإله للبشر حين وقت اللزوم.

وكان هذا هو عمل ووظيفة الكالو الذي كان يقوم بترانيله وإنشاداته الطقوسية الموجهة إلى الإله والتي كانت تتخذ شكل الصلوات أو الأبتهاالات بصورة نموذجية، وكذلك الصلوات والأغاني الدينية التي تدعوها بالزامير وترافقه بعض الآلات الموسيقية كالطبل أو القيثارة.

أما الموسيقيون من الطبقة الدنيا فكانوا يساعدون في أداء الأناشيد الفعلية، واللمب تحت إرشاداته، ومن الممكن أن يكون الكالو رجلاً ذا أهمية وثروة، إذ نظراً لأنه كان يقرأ وينشد طقوساً صعبة فإنه كان ينتمي إلى طبقة المتعلمين وهم أقلية.

ونجد بعض هؤلاء الكالو يملكون مكتبة في بابل (ولسنا متأكدين أن هذا ينطبق على آشور) كان الكالو المثقف المتعلم يجمع ما بين عدة وظائف إذ يمكن أن يكون (كالو) و(شانتو) في معبد آخر، ولكن ليس من الضروري أن يكون الكالو من طبقة اجتماعية راقية.

ونحن نجد قضية كالو قد اعتنق من الميودية إكراماً للإله بعل، وليس من الواضح إن كان هذا الكالو عبداً في الأصل أو سيداً، ولكن من الواضح أنه كان تحت سيطرة اجتماعية تجعله مشبوهاً.

موسيقى المعبد واليلاط

لقد لعبت الموسيقى دوراً مهماً في الطقوس في كل من الهيكل والبلدة، وبالإضافة إلى ذلك في التراتيل التي كان يقدمها الكالو، وكان هناك طبقة من الناس قد كثرسو أنفسهم للموسيقى، وكانوا يقدمون موسيقى الصوت والغزف على الآلات الموسيقية، وكان الشخص من هذا النوع يدعى (نارو) والمؤنث نارتو، وكان الموسيقيون يذكرون إلى جانب الكالو في الطقوس في المعابد ولكن مراتبهم الاجتماعية كانت أدنى من هؤلاء.

وكانت مسؤولية ترتيب التراتيل تقع على الكالو، وكانت واجبات السارو أن ينشدوا الأناشيد بشكل جيد وأن يمزقوا على الآلات الموسيقية، وقد كان الموسيقيون سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً يذكرون بأعداد كبيرة بما يخص بشؤون القصور، إذ إن الملوك الآشوريين كانوا حريصين على جمعهم.

ولدى الاستيلاء على بلاد أخرى كان الآشوريون يجلبون أحياناً مجموعات من مثل هؤلاء الناس باعتبارهم جزءاً من الفنائم، وكان الموسيقيون يرافقون الملك الآشوري أثناء غزواته.

الآشيو

كان الدين الآشوري معقداً جداً فهو يحتوي على مزيج مختلف من المواقف من أصول مختلفة كانت تعمل على مستويات مختلفة.

إذ لم تكن المعابد ولا المبادات المؤسسة على الإيمان بأله تتخذ أشكال البشر، هي كل الديانة الآشورية.

وفي هذا المجال كان الاعتقاد السائد هو وجود آله ذات مواقف إنسانية بشرية مع قوى خارقة لقوة البشر، وكان لهذه الآله اهتمام بالبشر الذين يستلهمون الاقتراب من هذه الآله.

وإن هذه الكائنات الإلهية إذا تم الوصول إليها بشكل لائق ومناسب من الممكن إقناعها بأن تستعمل قواها لفائدة الأشخاص الذين يعبدونها.

هذا وإن القرّاء إذا كانوا قد نشأوا ضمن تربية وتقالييد مسيحية أو يهودية ربما فكر هؤلاء أن هذه الأقوال بديهيّة، والحقيقة أنه لم تكن جميع المعتقدات الدينية الآشورية معتقدات متديّنة فقد كان هناك معتقدات بالنسبة لما وراء الطبيعة ذات أصول مختلفة وممارسات مختلفة وتمود هذه المعتقدات إلى أزمنة ما قبل التاريخ قبل أن يكون هناك أبداً أي دولة آشورية، أو أي ملك آشوري، وفي بعض الحالات حتى قبل أن تتشكل فكرة الآلهة ذوي الشكل البشري وهذه اشتملت هذه الأوضاع ما ندعوه في الاصطلاحات الحديثة بالسحر أكثر منه في الدين.

وإن كثيراً مما حدث في هذا السياق كان منعصراً بالنضال ضد التأثيرات الشريرة، وهو الذي كان يبدو أحياناً هلامياً، وأحياناً يُشخص بكونه شكلاً من أشكال الشياطين، ولكن في آشور لم يكن هناك تمييز قاطع ما بين السحر والدين، ونتيجة لذلك وجد بعض رجال الدين الذين كان نشاطهم مُنصباً على مجال السحر وليس مجال الدين كما نفهمه ولهم مركز ضمن الطقوس في المعابد والاحتفالات الدينية.

وكان أشهر وأنشط العاملين من الكهّان في هذا المجال هم الخبراء بالتعاويذ السحرية، وهم المعروفون باسم الأشيبو (أو ماش ميشو) التي تترجم باسم طاردي الأرواح الشريرة، مع أن كلمة الساحر أو طبيب الساحرات ربما تبدو أكثر دقة وأكثر إقناعاً عن وظيفة هؤلاء في المجتمع الآشوري.

وكان من المعروف أن الأشيبو كان لديه قوى سحرية هائلة لدرجة أنه وفي التصور الدينية فكانت قد وصفت بعض الآلهة بأنها أشيبو الآلهة وهذا يعني: إن قوة الأشيبو كانت عظيمة جداً بحيث إنها تفوقت حتى على القوى الإلهية، مما دعا الآلهة أنفسهم لتظهر السرور بامتلاكها، وهكذا يصبح الأشيبو متمماً بعبية واحترام.

لم يكن الأشيبو بموجب طبيعة وظائفهم عبارة عن موظفين في المعابد مع أنه كان بعض هؤلاء يمينون في ملاك موظفي المعبد لإنجاز وظائفهم المختصة بهم كما يجب، مثلاً: عند إنشاء التعاويذ، أو عند محاولتهم طرد الأرواح الشريرة والشياطين من حضرة الملك.

وكان معظم هؤلاء يعملون خارج المعبد، وكان بعضهم يعمل في خدمة الملك، وكان بعضهم في ملاك موظفي القصر.

ونرى واحداً منهم يعمل كموظف عبادات يعمل في الاحتفالات الدينية عند افتتاح فنال شقه منجاريب.

وكان آشوريون آخرون يرسلون التقارير المنتظمة إلى الملك حول قضايا تخص أحوال الملك وأحوال عائلته، وأحوال الدولة.

ويذكرون بعض الطقوس اللازمة للتأمين ضد الأخطار، وكان الملك يحترم آراء هؤلاء خصوصاً عندما يصاب الملك بالخوف المريع بحيث يبالغ في الأشياء، وإن لدينا رسالة من أحد الأشيبو إلى الملك يذكر أشياء مشابهة لهذه، ولم نعرف ما سبق هذه الأخبار ولكن هاك ما يقوله الأشيبو:

((لماذا لم تأت مائدة الطعام وللهيوم الثاني إلى حضرة الملك لسيدي) الذي هو في الظلام طيلة اليوم، وذلك لأن إله الشمس وهو ملك الآلهة بات في الظلام اليوم بطوله، والليل بطوله، ومدة ثانية لمدة يومين.

ولكن الملك وهو سيد البلاد ما هو إلا صورة للإله الشمس، ولكن ينبغي أن يظل في الظلام مدة نصف يوم فحسب)).

يبدو أن شيئاً ما قد حدث للشمس، وربما كان كسوفاً شمسياً، وكانت متطلبات هذا الكسوف تستوجب البقاء في الظلمة.

ويقترح بعض الباحثين أن هذا الفعل يعني: التواضع والتدب (مع أنه هنا ليس المعنى المادي) أن يبقى في الظلمة لمدة يومين.

فقد كان الملك يلاحظ ويتقيد بهذا الطلب الشديد الوطأة، ولكن عندما أتى الأشيبو وهو يقول:

((إنه نظراً لأن الملك نفسه عبارة عن إظهار بشري للإله شمس فإن فترة بقائه في الظلام (أو في حالة من حالات الذنب والضجيج) وسوف تتحدد بنصف يوم)).

ولكن لماذا عرض الأشيبو هذا الاقتراح بعد أن كان من الواضح أن الملك قد قضى في الظلام مدة تزيد على نصف يوم؟

ولكن أقوال الأشيبو: إن يعقود الملك أن يتخلص من الذنب بقضائه نصف يوم في الظلام هو قول خادع.

إذا كانت هناك قاعدة تقضي بقضاء يومين من العكفارة ضد ذنب أو حادث خاص من سوء الطالع، عندها كان من الواجب أن يكون الملك وهو الذي يمثل دولة آشور هو الذي عليه أن يقوم بهذا العمل.

وقد وجد مكان غير مذكور في رسالة أشيبو، ولكن وحيث أمكن فهمه فإن هذه الرسالة تعطي انطباعاً يبرز السبب الذي جعل الأشيبو يلتمس عذراً للملك في كسر الصيام.

وأما بقية الرسالة (وفيها بعض المقاطع غير مفهومة) فهي حكما يلي:

إن تناول الطعام الطيب وشرب الخمر سوف تملأ الملك من مرضه، وينبغي الأخذ بهذه النصيحة، فإذا كان الامتناع عن الطعام والشراب سوف يقلق ذهن الملك، ويجلب له المرض، والرجاء أن يصفي الملك لما يقوله خادمه حول هذه القضية:

((والحقيقة أن فرض الصيام والانفلاق بالنسبة للملك قد كان سبباً في زيادة قلقه)). وقد اضطر الأشيبو أن يجد طريقة يحدد ويقلل فيها الأضرار التي سوف تصيب الذات الملكية دون المماس بسلطة وقوة المطالب الطقوسية السابقة.

لم يكن الملك وحسب ولكن الأعضاء الآخرين من العائلة المالكة، وربما أيضاً الموظفين الكبار في الدولة، كل هؤلاء كان من الممكن أن يكون لديهم (أشييو) في ملاك موظفيهم الدائمين.

وهكذا نسمع عن وجود أشييو رئيس في بيت ولي العهد وهذا ما يدل أن لدى ولي العهد مجموعة من الأشييو تحت تصرفه إذا هددته بعض الشرور، وقد كان كثير من الأشييو يحصلون على ما يؤمن معيشتهم من الأجور التي يتقاضونها لمساعدة الناس العاديين للتغلب على الأمراض، أو التغلب على سلسلة من الخصوم من النوع الذي ندعوه الحفظ المعين، وفيما يلي نص موضح للطريقة التي كان الأشييو يتصرف بها وهو حكما يلي:

لأجل استبدال رجل بشيء يخص أيديش كينال (آلهة العالم السفلي) عند غياب الشمس ينهي على الرجل المريض أن يمتطحب معه أنثى من الماعز الصغيرة في السن والتي لم تلحق لتستلقي بجانبه، وفي نهاية الليل سوف تستيقظ عند الفجر ثم ينفي أن تتبلح وتغير وجهك إلى الجانب الآخر من الفراش، ثم ينهي على الرجل المريض أن يضع أنثى الماعز بين ساقيه (وفي الحالة) التي تتلق برجل وامرأة يكون معنى هذا الجماع الجنسي مع امرأة.

وأما حالة أنثى الماعز يمكننا أن نمطي الرجل مع ما بلغت حالة مرضه فالدة الشلل، ونقبل الفكرة التي مفادها أنه قد اتخذ موقف الاتصال الجنسي غير الفعال ولكنه كاف لخداع القوى الشريرة.

وبعدها تجعل الرجل المريض وأنثى الماعز يضطجبان على الأرض وبعدها تلمس عنق الرجل المريض بخنجر مصنوع من خشب الطرفاء (وهي شجرة نحيلة الأغصان) (وكانت الطرفاء تعد ذات خشب سحري) وبعدها تقطع عنق أنثى الماعز بخنجر مصنوع من النحاس.

ثم تفعل أحشاء أنثى الماعز التي ذبحتها بالماء ثم تدفن بالزيت ثم تملأ أحشاؤها بالتوابل، ثم تلبس بعض الملابس وتكس أقدامها بأحذية ثم تكمل

عينها بالكحل، ثم تصب الزيت الحلو على رأسها، ثم تزعج عمامة الرجل المريض وتضعها على رأس أنثى الماعز، وأن تعاملها باحترام كأنها رجل ميت.

ثم ينهض الرجل المريض ويخرج من الباب وعندها يبدأ الأشيبو بتلاوة بعض التعاويذ ثلاث مرات وهي: (ذلك الرجل هو الذي مسته إلهة) ثلاث مرات.

وبعدها يطلق الأشيبو صرخات من البكاء على المريض قائلاً: (ذهب يواجه مصيره ثم يبدأ بالنواح والبكاء على المريض).

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة إلى الإله إيديش ككيغال ثلاث مرات.

ثم تضع صحنين من البرغل الساخن أمامه.

وبعدها تقوم بمدح وتكريم (الميت) ثم تصب الماء والبيرة والذرة المصلوقة والعسل والزبدة والزيت.

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة لأرواح أفراد عائلتك وكذلك لأنثى الماعز ويعدها تردد بعض التراتيل أمام الإله إيديش ككيغال وهي: إن الشي (غالبو هو اسم مرادف لأشيبو) هو أخوهم.

وينبغي معاملة أنثى الماعز باحترام كما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم تدفنها.

إن كلمات التوجيهات الطقوسية تبدو وكأنها تشير إلى أن هناك اثنين قد اشتركا في القيام بالطقوس:

أولهما: الأشيبو المذكور بقلبه شخص آخر يخاطب بكلمة أنت، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص هو (بارو) الكاهن الذي كان يهتم بالمرض دائماً. ومن جهة أخرى: فإن النصوص من هذا النوع لها تاريخ طويل على طريق التطور، وإن تغيير الكلام من أنت إلى هو ربما كان نتيجة إضافات تدريجية.

وهكذا فمن الممكن أن تكون كل التعليمات متوجهة إلى الأشيبو، وليس هناك من مجال للشك، أن العمليات المذكورة في الطقوس المنقولة ما هي إلا شؤون

صحبة تختص بالبحر، فالرجل المريض متطابق ومتماثل مع أنثى الماعز الصغيرة مع اختفاء صفة الحتمية على أنثى الماعز.

ويفترض أن يكون لحماية أنثى الماعز الصغيرة تأثير عن طريق الحقيقة المجردة وهي وجودها.

ولكن لم تذكر قضية الدين بمعنى التقرب إلى الآلهة للحصول على تدخلها الرحيم في مصير حياة الإنسان.

ومع أنه لم يرد اسم إيديش كميال آله العالم السفلي، ولكن ليس هناك أي أقل الدلالات بوجود أي تقرب لها كآله تمتلك بعض العلاقات مع البشر، ومن الممكن الاقتراب منها سواء بقصد الاسترخاء أو التضرع.

هذا وإن تقديم اسم الآلهة إيديش كميال لا يبدو أكثر من علاقة طفيفة بانجاء الإيمان بالآله ذات التوجه البشري المستعمل كاصطلاح مضاف لقوى الشر التي لا يمكن تسميتها أو معرفتها وجودها، وهوى الموت التي كانوا يودون خداعها عند القيام بأداء الطقوس.

فمن نعرف فعلاً المناسبة التي أُنم فيها العلقس المشار إليه، فقد كان هناك العلقس بالنهاية عن ولي العهد الذي كان مصاباً بالحمى، وهذا المرض قد عزي الأشيبو حصوله لاقتراف بعض الجنوب (ربما كان الذنب خرق الطقوس الدينية) بالنسبة للملك نفسه.

وهناك مثال آخر عند وقوع النشاط السحري الذي يقوم به الأشيبو وهو يتلخص بالمقتطفات التالية من رسالة أرسلها الأشيبو الرئيس إلى الملك:

بشأن طقوس الابتهاال التي تسمى: ((حقاً أنت الشرير)) التي أرسل إلى سيدي الملك رسالة بشأنها فهذه الطقوس تتم من أجل طرد الشيطان الشرير (آلو) وطرد المرض الطارئ وهو مرض السقوط (وهو يعرف على المموم باسم مرض الصرع).

إذا كان حصل للمريض شيء ما فإن الأشيبو سوف ينهض ويلقي فأرة وغصناً من شوكة الجمل على باب عتبة البيت، ولسوف يرتدي الأشيبو ملابس حمراء،

ويضع قناعاً أحمر، وتسوف يحمل غراباً بيده اليمنى، وصقراً بيده اليسرى،
وبعدها ينشد نشيد الابتهاال: ((حقاً أنت شرير)).

وبعد الانتهاء فإن الأشيبو يصاحبه أشيبو آخر يقومان بدورة حول هراش
المريض وإلى جانبيهما مبخرة ومشكل، وبعدها سوف ينشد نشيد الابتهاال: ((أيها
الشیطان هوئتوبو اغرب عن أنظارنا)) حتى يصل إلى الباب، وبعدها توضع تمويذة
على الباب.

وينبغي أن يكرر هذا الابتهاال صباحاً ومساءً حتى يطرد الشيطان، والنواضع
من النصوص النموذجية التي ذكرت أن اسم الطيب الساحر هو أكثر ملاءمة
للأشيبو من اسم العكاهن، ذلك لأن البسته فضلاً عن الطقوس قد خدمت
للإقناع، فإن قدرته على طرد الآثار السيئة ما هي إلا خرافة من الخرافات.

إذ إن الثوب المستعمل عند أداء أنشطته الرسمية كان ثوباً أحمر، وهذا
وبالنسبة إلى عدة ثقافات هو الذي يقدم قضية طرد الشياطين والعفاريت.

وبالنسبة لبعض المراسيم فقد أعطي النخس الغربية المستهجنة، وذلك لوجود
القناع الذي ليسه.

وتذكر النصوص الخرافية أنواعاً مختلفة من المخلوقات البهيمية الفيلة مثلاً:
الرجل السمكة، ورجال العفاريت ذات الصفات المسحورية، ونرى على بعض
الأنصاب الأشورية رجالاً يلعبون أقتعة تجعلهم يظهرون وكأنهم رجال سمك، أو
رجال أسود، وما شابه ذلك.

وتختص هذه التمثيلات بالطقوس المسحورية وكان الرجال الذين يرتدون
الأقتعة ليسوا أكثر من أشيبو وكهنة وهم يمارسون أعمالهم.

العراقون - البارو

لقد عمد الإنسان في معظم المجتمعات لإيجاد وسائل تمكنه من معرفة ما سيحدث في المستقبل.

ولم يكن أهالي ما بين النهرين شواذاً عن هذه القاعدة، ولقد اخترع كثير من تقنيات المرافاة للتنبؤ عن ما سوف يحدث، وتعود بعض هذه إلى الألف الثالث ق م في منطقة سومر، وربما كانت أصولها حتى أقدم من أزمنة ما قبل التاريخ، وقد ازدهرت هذه المظاهر في آشور في الألف الأول ق م.

وتظهر أهمية هذه الوسائل لمعرفة المستقبل والثقافة الآشورية عن طريق ما نراه من محتويات المكتبات التي أسسها ملوك آشوريون مختلفون، وعلى الأخص آشور بانيبال والتي بناها في نينوى.

ولقد اكتشفت هذه المكتبات في القرن الماضي، ووجد أنها تحتوي حوالي (١٢٠٠) من الأعمال الأدبية القديمة المختلفة، ومنها حوالي ثلاثمائة مختصة بالمرافاة والتنجيم.

ومن وجهة نظر شعب ما بين النهرين القديم كان شكل المرافاة من أعلى المستويات مرتبطاً ببعض الكهان المعروفين باسم (بارو)، مع أنه ولا حوالي نهاية الإمبراطورية الآشورية الجديدة تخلت المرافاة عن وضعها المرموق وتركته للتنجيم.

وقد كان البارو ومنذ أقدم الأزمنة مترافقاً مع تقنيات مختلفة ولكن مرافقته كانت تجري بشكل أساسي عن طريق فحص الأعضاء الداخلية المهمة في الحيوانات المنبوحة والمضغى بها.

وكانت تفاصيل هذه الإجراءات تختلف من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، ومن مكان إلى مكان، ولكن وبصورة أساسية إن ما كان يحدث في دولة آشور في الألف الأول قبل الميلاد كان كما يلي:

يُكتب سؤال على لوح من القضار، ويوضع هذا اللوح أمام الإله، وبعد ذلك كانت تُذبح غنمة وتُفحص أعضاؤها الداخلية، وبعدما يصل تقرير الإله وتفسيره

على افتراض أن الإله قد وضع جوابه على الأعضاء الداخلية للحيوان بشكل صور وأشكال خاصة، مثلاً الحجوم والألوان والبقع وغيرها من المظاهر الشاذة.

وسكان للمرافين مفاتيح بشكل نماذج من القضاة للأعضاء الداخلية (ولاسيما العكيد) وهي تلب على المظاهر الموجية، والمظاهر السالبة.

وقد كانت المظاهر الموجية والسالبة بديلة، ويكون الجواب الذي وضعه الإله مختلفاً حسب غلبة الموجب والسالب.

لدينا النصوص القليلة لبعض الأسئلة التي كان الملوك الآشوريون يطلبون الإجابة عليها من خلال تقنيات (البارو) وفيما يلي جزء من هذه الأسئلة:

آ- يا شمش، أيها السيد العظيم، أجبني بتأكيد حازم عن المسألة التي أسأل عنها.

أجبني بتأكيد حازم

وابتداءً من هذا اليوم وهو الثالث من شهر الإرحنى

الحادي عشر من شهر آب من هذا العام

خلال هذه الأيام المائة والليالي المائة وهي أنصهرها

المنية بقضية الاستئصال.

هل سيقوم جنود السيمريين أو الميديين أو المانيين أو أي عدو آخر مهما كان

بمعاولة القتال أو التآمر ضدي؟

وسكان الكهنة البارو يحضرون مشهد المرافة عن طريق عدة تحضيرات ذات

طبيعة سحرية، مثلاً: مضغ خشب الأرز، أو حرق البخور، وعمل التعاويذ وهمسها

في أذن الحيوان المضغى به.

ومن الواضح أنه وتحت سطح إجراءات تبدو أنها تطلب التجدة من إله ذي

شكل بشري، وتطلب الجواب، هناك شيء أكثر بدائية ولكنه ليس ذا طبيعة

إلهية، وهو الاعتقاد بقوة غير مشخصة وخارقة ولكن يمكن السيطرة عليها

بواسطة أساليب سحرية.

وشأنه شأن الكالو والأشييو سكان البارو بحاجة لاستعمال النصوص
المسمارية خلال أنشطته المهنية، ولذلك أصبح ينتمي إلى تلك الأقلية المتقفة مع
جميع الفوائد التي تجمله قادراً على الاقتراب من الدولة، ومن إدارة المعبد.

والحقيقة أن البارو كان منتبهاً إلى الشريحة العليا من المجتمع، ونحن نعلم
مثلاً عن جماعة من (البارو) كانوا أبناء (الشانجو) وهناك نص مسماري يذكر:
إنه ليس بإمكان أحد أن يصبح (بارو) ما لم يكن خالياً من العيوب الجسدية،
وأن يكون من أصل حر.

ولم يكن من الضروري أن يكون البارو موطناً في المعبد أو موطناً في
الدولة، مع أن طبيعة عمله كانت تقتضي أن يخدم المعبد، أو يخدم الملك.
وبالنسبة للعناصير المهمة كان أفراد البارو يعملون بشكل مجموعات،
ويشير كثير من الملوك الآشوريين إلى عدد من عراقي البارو مشركين في عمليات
الاستئصال وكانوا موزعين بشكل فرق.

لدينا مجموعة لا بأس بها من الرسائل أرسلت إلى الملك الآشوري من قبل
رجل كان يدعى البارو الرئيسي، وقد خدم هذا في هيئة الموظفين الملكي مع
المسؤولية لتنظيم أحوال زملائه من البارو الآخرين، وقد منحت له قطعة من الأرض
كأجر من قبل الملك.

وسكان البارو الرئيسي المذكور يعمل في مكتب متواجد في القصر
الملكي، ولكن لم يسمح لكل بارو يعمل في خدمة الملك أن ينجز أعماله في
خدمة القصر أو المعبد، مثلاً: كان هناك بعضهم يخدم في الجيش الملكي،
وكان مستمداً لإنجاز بعض الطقوس، وإعطاء القرارات عن طريق المرافقة عندما
يطلب منه ذلك.

وكان بعض (البارو) يضعون خدماتهم تحت تصرف أناس عاديين،
وكانوا يخدمون أغراضاً خاصة كالكشف احتمالات الأمراض، وعندما كان
البارو يتعاون مع الأشييو.

لغات العرالمين الأخرى

لقد اعتبرنا البارو أولاً: بأنه يمثل أعلى طبقة من طبقات المراهقين، ولكن كان هناك قياسات أخرى متعددة، مثلاً: هناك قائمة من المحترفين تذكر فئتين تدعيان: شا إيكو، وماهو، فضلاً عن الأشيبو البارو.

لا نعرف إلا القليل من المعرفة التفصيلية عن الشا إيكو وذلك من أخبار آشور في الألف الأول، وربما كان ذلك نظراً لأنه هو أو هي (لأن المرأة تستطيع القيام بهذه الخدمة) قد أصبح منعصراً بالشريحة الدنيا من المجتمع، بحيث إنها لم تذكر في النصوص السامرية الباقية التي تمكس وبصورة رئيسية مصانع الشريحة العليا المثقة.

وفي مستهل الفترة الآشورية المتأخرة كان (الشا إيكو) وبصورة خاصة الإناث من هذه الشريحة متخصصين بتفسير الأحلام، واستحضار الأرواح بحيث وبسبب حاجتنا إلى شواهد أكثر تفصيلاً ربما افترضنا أن هناك مشتركاً ما بين الشا إيكو وساحرة (ايندور المذكورة في التوراة).

ولكن معرفتنا بالماكو تفوق معرفتنا بالشا إيكو، وبموجب علم اشتقاق الألفاظ فإن هذه الكلمة تعني: الشخص المصاب بجنون مزمن.

وإن الشخص الموصوف بهذا الوصف هو الشخص الذي يقع في حالة من الانجذاب بحيث يعطي بعض الرسائل القادمة من الله.

وهناك عينات من المذكور والإناث المصابين بهذا المرض وهم يكونون هيئة موظفين في المعبد أو أشخاصاً عاديين.

وهناك أوصاف أخرى متعددة استعملت في بلاد آشور للدلالة على أشخاص من هذا النوع، وكانت رسالتهم النبوية على نسق أولئك المذكورين في العهد القديم والذين وسفت نبوياتهم بأنها نبوءات أنبياء كائنين (كما ذكر في سفر الملوك في التوراة) وكانت هذه النبوءات تمثل الموافقة على أعمال الملك وتشجيعه.

ولقد كان ملوك آشور يقدرون تلك التنبؤات ويأخذونها على محمل الجد، بحيث إنه في إحدى المعاهدات مع أحد الأمراء البابليين عهد الملك اسرجون على ريجل الأمير التابع بتمهد أن لا يخفي أي كلمة يلفظها أي شخص يمرقه.

وكان باستطاعة (الملك) الاشتراك في حفلات المعابد، ومن المظنون أن ذلك الاشتراك يتم بشكل يكون فيه هذا الشخص أحد الدراويش.

وكان هناك نوع آخر من العرافين الذين نشطوا في الألف الأول قبل الميلاد في آشور، مثلاً نسمع باسم ملاحظ الطيور، وهو شخصية رسمية يخدم الملك بأن يقدم تقاريراً للملك تحتوي على تنبؤات فلجية مأخوذة من حركات الطيور.

وتحتوي إحدى الوثائق الآشورية قائمة من الأسماء من الممكن تلخيصها بما يلي:

١٧- أشيبو

٥- باروس

٩- أطباء

٦- كالكوس

والآن لا نعد هارثي كلمة آشورية وطنية، فهي كلمة مصرية تدل على مفسري الأحلام، والكلمات الثلاث التي وجدت كانت كلها مصرية، وليست آشورية.

ولهذا فمن الواضح أن الملوك الآشوريين قد جلبوا بعض مفسري الأحلام من مصر لإضافة هؤلاء إلى ما عندهم من جماعة المتنبئين بالمستقبل.

علم التنجيم

كانت أكبر الوسائل البروزة للتنبؤ بالنسبة للدولة وأغراضها في حوالي نهاية الإمبراطورية الجديدة هي علم التنجيم، وكان هناك عدد كبير من الخبراء في هذا العلم من الذين كانوا يقدمون تقارير بانتظام إلى الملك حيث يذكرون ملاحظاتهم لأوضاع القمر والكواكب والنذر التي يلاحظونها.

وينبغي أن نشير إلى أن علم التنجيم في آشور كان مختلفاً عما نفهمه من هذا الاسم في هذه الأيام وإذ إن ما يذكر من وراء علم التنجيم في هذه الأيام إنما يُفترض فيه إخبار عن مصير الأفراد من خلال شعوذة مؤسسة على مراكز الأجرام السماوية في الزمن الذي ولد فيه هؤلاء الأفراد.

ولكن علم التنجيم الآشوري ومع أنه خال من الشعوذات إلا أنه لا يلتزم إلا بأخبار شؤون الدولة وليس الأفراد (عدا العائلة المالكة ضمن الوضع الذي تتجسد فيه الدولة في الملك).

ولقد أتت التنبؤات من تطبيق التفسيرات التقليدية على الحوادث الجارية والسموات مثلاً: حوادث الخسوف والكسوف، والحلقات حول القمر، أو أوضاع الكواكب، ويأتي ضمن هذه المقولة الرعد والهزات الأرضية، ومن الممكن فهم طبيعة علم التنجيم الآشوري بالنظر إلى بضعة أمثلة وكلها بشكل تقارير موجهة إلى الملك.

عندما يرى القمر في اليوم الثالث عشر ظمًا سيكون هناك صقيع أو أن يسمع صوت العدو.

وعندما يفيد ملاحقة القمر يظهر هذا عالياً في السماء فإن العدو سوف يستولي على البلاد بالقوة.

وعندما يصبح القمر مرثياً في وقت أبكر من ميعاده فسوف تظهر الاضطرابات في هذا الشهر.

وهنا نورد تفاصيل أخرى:

في هذه الليلة أحاطت هالة بالقمر ويظهر كوكب المشتري وتكون كوكبة العقرب في داخلها ، وعندما تحيط بالقمر هالة ويصبح كوكب المشتري في داخلها فإن ملك أكاد سوف يُحاصر ويطلق عليه .

وعندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع المشتري داخل هذه الهالة فسوف تحدث جائحة تسبب موت قطعان المواشي والحيوانات البرية .

هذا وإن نجمة الإله مردوخ عند رؤيتها لأول مرة هي :

S U L - P A . E وعندما يشرق مدة ساعة مزدوجة يكون في حالة :

S A G . M E - N I G وعندما يتوضع في منتصف السماء فهو نيبورو .

وعندما تحيط هالة القمر ويتوضع العقرب في داخلها فإن الكاهنات سوف يُصلن اتصالاً جنسياً مع الرجال ، أو أن الأسود كما تقدم شرحه سوف تخرب وتقتل الملقى في البلاد .

وتأتي التنبؤات الفلكية من السلسلة التالية :

عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري (SUL - P A . E) داخلها ، فإن ملك الأراخي القريبة سوف يمارس القوة ويخرب بلاد عدوه ، وهي ندير شرم .

إن ما ذكر أعلاه يتطلب بعض التفاسير ، فالظاهرة الأساسية التي لوحظت واضحة قد كانت هناك حلقة حول القمر تتضمن أجراماً سماوية مضيئة ، ويظهر أن المنجم قد فتنش عن معاني تلك الملائم في السلسلة (أي : في كتاب النصوص) الذي يرجع إليه في النهاية ، وشأنها شأن النصوص المسمارية القديمة فقد سميت هذه السلسلة باسم السطر الأول .

وهو يفسر المسألة وهي : إنه ومن وجهة نظر علم التنجيم فإن الكوكب نفسه وهو المشتري تطلق عليه عدة أسماء طبقاً لعلوه في الأبراج ، وهو يفوق ذلك بإعطاء تفاسير مناسبة لوضعين مختلفين .

وقد عمد الباحثون الأولون الذين ألفوا كتب النصوص إلى وضع بعض الملاحظات ، وذلك بتقديم تفاسير اختيارية بالنسبة لكوكبة السرطان ، وهكذا

أصبح مجال الاختيار والتمييزات غير المواتية مما يجعل المنجم يستنتج ان الظاهرة التي رآها إنما تعني شيئاً سيئاً بالنسبة للدولة.

وكان هناك بعض التقارير الأكثر إيجازاً وأكثر وضوحاً ، مثلاً: عندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع قلب الأسد **Regulus** في داخلها فإن النساء سوف تلد في تلك السنة مواليد من للذكور.

ففي هذه الحالة والحالة التي كانت قبلها فإن الظاهرة المذكورة هي ما شاهده المنجم ، وقد أطلق الاسم فوراً وذلك بقصد الاقتصاد بالكلمات.

وأخيراً إننا سوف نقبس جزءاً صغيراً مأخوذاً من تقرير طويل مختص بالتنجيم وذلك من أجل التعليقات الاجتماعية التي يحتوي عليها ، وهو يقول:

((عندما يصل القمر إلى الشمس ويسير جنباً إلى جنب معها ، أي: إن القرن سوف يمانق القرن فسوف تعين أحوال البلاد المملوكية ، فالابن سوف يصدق مع والده)).

وهنا من الممكن أن نفترض أن الوضع في ذلك الوقت كان عكس ذلك.

نحتوي بعض التقارير التنجيمية معلومات عن الطقس ربما كانت مؤسسة أصلاً على الملاحظة مثلاً: عندما يسمع الرعد في شهر أيار فإن القمع والخضروات سوف تسوء منتوجاتها.

أو عندما يسمع الرعد في شهر شباط فسوف تمر على البلاد نعمة الجراد.

((وعندما نسمع صوت الرعد في شهر شباط فسوف ينزل البرد)).

وفي هذا التقرير الأخير فإن المنجم يقبس تبؤرين فلصكين مختلفين قد وجدتهما في مجموعة النصوص ، خاصة والتي تعود إلى شهر شباط ، وإن الإشارة إلى نزول البرد في شهر شباط ما هو إلا نتيجة الملاحظة ، فالرعد في شهر شباط غالباً ما يتبعه نزول البرد.

ومن المحتمل أن يكون هذا التنبؤ غير صحيح نظراً لوجود علاقة عرضية فإن
توارد الموصاف الرعدية مع درجات الحرارة في شهر شباط يؤيد في المراقب سقوط
ترسبات بشكل بارد.

أما التنبؤ حول جائحة الجراد ربما أنت من ملاحظة بعض الأشخاص أنه وفي
بعض المناسبات فإن الرعد في شهر شباط كان يتبعه هجوم جائحة الجراد ، وفي
هذا المجال ليس هناك من علاقة عرضية بين الحادثتين.

وقد نشأ التنبؤ على أساس الجملة اللاتينية التي فُحوها: ((إن هذا يتبع ذلك،
لذلك فإن هذا قد كان نتيجة عن ذلك)).

ومع ذلك فإن معظم التنبؤات كانت على أساس مختلف عن هذا ، وهذا نوع
من الرمزية ، ويمكن للمرء أن يرى كيف يحدث ذلك من المقطع المذكور أعلاه
الذي مفاده:

((عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري داخلها فإن الملك الأكادي سوف
يُحبس)).

وكان المشتري هو كوكب الإله مردوخ ، وكان مردوخ هو إله البابليين ،
وكانت بابل هي عاصمة المملكة البابلية المعروفة باسم: أكاد بلقة المنجمين.

وإن الكلمة الأكادية التي نترجمها بمعنى: هالة ، يمكن استعمالها
أيضاً بمعنى: حظيرة لحفظ الماشية ، وهكذا فإن رؤية الكوكب المشتري في
داخل هالة القمر يوحي بأن القوة العظمى في بابل كانت في داخل الحظيرة التي
سوف تمثل الوضع إذا أصبح ملك بابل تحت الحصار.

وبشكل مشابه فإن التنبؤ الذي يشير إلى أن القمر قد وصل إلى الشمس وسار
جنباً إلى جنب معها ، وأن الابن سوف يصنع مع والده ، إن هذه الحقيقة تقدم نوعاً
من الرمزية إلى الأب والابن اللذين ينبغي أن يبقيا على وئام وسلام.

لقد سببت ظاهرة الخسوف والكسوف الذعر والخوف بالنسبة للأقوام البدائية وأحياناً لغير البدائية ، وطبقاً لذلك فقد كانت ظاهرة الكسوف تدل على شيء سيئ.

ومع ذلك فكان من الممكن أن يخترع المنجم تفسيراً للخسوف والكسوف لكي يوفر على الملك شيئاً من القلق. وهكذا نجد ما يلي:

((لقد حان وقت الخسوف، ولكنه لم يلاحظ في آشور إذ إن ذلك الخسوف قد تجاوز آشور تلك المدينة التي يعيش فيها الملك.

فقد كان هناك غيوم في كل مكان بحيث لم نعرف أن الخسوف قد حدث أم لم يحدث، ألا فندع الملك يرسل الرسائل إلى آشور وإلى جميع المدن في كل مكان - إلى بابل، وإلى نينور، وإلى العريش، وإلى بورشيبا، إذ ربما قد لوحظ خلال تلك المدن، وليسمع الملك التقارير المنتظمة.

فلقد عمد الآلهة في المدينة التي يعيش فيها الملك إلى تعتميم السماء، وهكذا لم يظهر الخسوف، وهكذا فإن الملك سيدي من الممكن بالتأكيد أن يتحقق من أن هذا الخسوف لم يكن ضد سيدي الملك، أو ضد أراضيه وهكذا فلنظل الملك سعيداً.))

وهكذا يقرر المنجم أنه سواء حدث الخسوف أم لم يحدث فإن الدلالة مناسبة بالنسبة للملك.

(ومن الممكن أن نلاحظ أيضاً أنه من الغرابة في الزمن الذي نحن بصدده كان المنجمون يرفقون معلومات كافية حول حركة القمر بحيث استطاعوا التنبؤ بالخسوف القمري الذي يحدث عادة كل ستة أشهر، ومع ذلك وبسبب الأفكار المحافظة الخرافية كانت لا تزال تمد ظاهرة الخسوف دلالة على الفأل السيئ).

وكان هناك مظهران لهذه التقارير التحجيمية:

أحدهما: أن يقدم للملك إنذاراً وتحذيراً من الحوادث القادمة وهي ذات أهمية بالنسبة للدولة.

أما الثاني: فهو لإعطاء الفرصة لإتمام شعائر الطقوس وذلك لتجنب أي حوادث سيئة قد أُنذرت بها هذه التقارير ، ولقد اعتنى جماعة الموظفين الآشوريوس بهذا المظهر الثاني.

ربما يلاحظ القارئ أنه مع أننا لا نزال نعالج القضايا الدينية في هذا الفصل من فصول الكتاب إلا أنه قد مضت صفحات وصفحات دون ذكر أي شيء عن الآلهة.

وهذا مكان مناسب لإيضاح الانعكاس الذي كانت الآلهة تشغله في الموقف الآشوري تجاه الحياة.

ولقد بدأنا مناقشاتنا حول الديانة الآشورية بالتحدث حول طبيعة الآلهة المعظام، ولطعن هذه المقاربة إنما هي نوع من التنازل لطريقتنا في التفكير حول دور الدين في المجتمع.

وبالنسبة للرجل الآشوري المادي فإن الآلهة المعظام لم تكن هي الجزء من العالم الذي يمثل ما وراء الطبيعة الذي كان متأثراً به إلى درجة عظمى، مع أنه عندما قبل السيطرة على ذلك العالم الذي يعيش فيه مع الآلهة المعظام، فإن تماسه الشخصي السريع بتلك الكائنات الإلهية ربما أصبح ضئيلاً جداً.

ولكن لم يمت هذا أن الرجل الآشوري المادي سوف يهمل عالم ما وراء الطبيعة، بل لقد كان عالم ما وراء الطبيعة هو كل ما كان حوله وقد أثر في حياته بكل معنى الكلمة.

وهكذا فإذا أصابه المرض بسبب الشياطين أو ربما كان شراً من الشرور التي تهاجمه، وإذا فقد ولداً من أولاده فإن الشياطين هي السبب، وهو يرى القوى الشريرة من عالم ما وراء الطبيعة هي التي تعمل.

ولكنه لم يرَ أي قرار من قرارات الآلهة العظام، فلم يكن هناك إيمان
توكلي عميق بوجود الأهداف الإلهية التي تسمح للأشوري أن يقول عندما تصادفه
مصيبة فادحة: «(إن الله قد أعطى، والله قد أخذ)» ومبارك هو اسم الرب، ولقد
دخل الآلهة العظام في هذه القضية كقوى تستطيع إذا تم التضرع إليها ومناشدتها
أن تحيط بالبشر الناجم عن القوى الشريرة.

لقد رأى الآشوري العالم المحيط به مليئاً بالقوى التي تؤثر فيه، وهكذا نحن
عندما نعد الفيضان الحاصل من النهر أو العاصفة كقوى طبيعية أو نرى الأمراض
ونعتبر أن سببها فيروس في الخلايا.

إلا إن الآشوري كان يعد كل هذه الظواهر من عمل مشيئة خارجية، ويمتد
الشخص الآشوري أنه لا بُدَّ من وجود كائنات تتحكم بالفيضان والعواصف
والأمراض.

وبما حالة وجود قوى عظيمة تؤثر في جميع أنحاء العالم وهي تؤدي نوعاً من
وظيفة واضحة ومفهومة في تخطيط ونظام الأشياء، مثلاً نظام العواصف أو حركة
الشمس، فقد بدا واضحاً بالنسبة للآشوري أن المشكلات التي تشغل هذه القوى
ينبغي أن تكون عقلانية وقد أصبحت هذه المشيئات متخصصة بشكل آلهة
تتصف بجميع الصفات الحمسة، والصفات انسيئة للبشر ولكن على مقياس أوسع.
ولكن حدثت بعض الأشياء غير العقلانية والمستبعدة فقد كان الأطفال
المولودون حديثاً سرعان ما كانوا يهزلون ويموتون. أو كانت الأمهات تصاب بنوع
من التفرغ ذي الرائحة الشديدة بمصاحبة الحمى والبهزيان، وتنتهي بموت مؤلم.

وكان باستطاعة الآلهة العظمى القتل، ولكنها كانت تقتل وعندها غرض
وهدف من هذا القتل إذ إن هذه الوفيات المتممة من الأطفال والنساء وعند الولادة
كانت ليست بذات معنى، ولا يمكن أن تكون إلا فعل شيطان شرير.

وقد كان هذا المجرم يتمثل باسم امرأة من الشيطانات تدعى لاملتسو التي لم
يكن لها أي وظيفة في هذا العالم سوى مهاجمة تلك الضحايا العاجزة والمسالمة.

كانت لاماتشو الأكثر شهرة ولكنها لم تكن الشيطانة الوحيدة، فقد كان العالم مليئاً بمثل هذه الكائنات اللينة، فقد كانت أي مصيبة أو إزعاج أو شذوذ ذي طبيعة عرضية تصيب الإنسان إنما كانت من عمل أحد الشياطين.

ولكن ليس من الصحيح أن نقول: إن الشياطين ما هي إلا مصائب مجسدة، ولكن كانت بعيدة عن أن تكون مجسدة تماماً، ولكن بعضها كان من الواضح أنها كانت لا جنسية أي: بدون جنس، أو بدون اسم، وبدون شكل وكانت مفقورة لبعض الخصائص التي تثبت أنها كانت وكما تقول بعض النصوص: لم يكن معترف بها من قبل الآلهة الحكماء.

ولم تكن الشياطين عبارة عن مصائب مجسدة بل كانت عبارة عن إرادة سيئة عملت على تشييط الكوارث والمصائب.

إن هذا الموقف بالنسبة إلى الحياة يؤلف الأرضية للأنشطة المسحرة للأشيبو وكان النفوذ الهائل لهذه الطبقة من السحرة لدى البلاط الملكي أو لدى الشخص الأثوري العادي كان سببه وجود الأشيبو بطقوسه التي كانت مفتاحاً لطرد الآثار المشرومة لتلك القوى الخارقة للطبيعة، التي كانت تحيط بالشعب الأثوري سواء كان الملك أو أي رجل عادي من كل الجهات.

ولكن بتقشنة نوع من التوازن كان هناك اعتقاد مقابل بوجود الأرواح الخيرة التي يمكنها أن تسكن في بيت وتحميه، وأن تحمي البناية، أو ترافق وتحمي أي إنسان، ونحن نجد هناك تصريحاً يتناول قضية الرجل الذي يعمل ككاهن بريد ((أن الآلهة سوف تقدم له (شيدو) وهو نوع من الملاك الحارس الذي يمتني به)).

أما في بابل فإن المصطلح المستعمل للدلالة على الروح الحامية هو (إيلو) أو (عشتارو) ولما كانت هذه الأسماء تدل على الإله أو الآلهة، فإنه غالباً ما يقال: إن لكل إنسان إلهاً شخصياً أو آلهة الشخصية، ولكن مع استثناء الملك فإن ما يدعى بالآلهة الشخصية أو الإلهات لم يكونوا أعضاء رسميين في مجتمع الآلهة، وبذلك تصبح كلمة ((الروح الشخصية الحامية)) هي الانتمكاس الدقيق والصحيح لتلك المفهوم الكامل.

الساحرات والسحرة

لقد استخدم الأشيبو سحرة لحماية البشر من القوى فوق الطبيعية، أو الشرور التي تحيط بالإنسان، ولكن كان هناك بعض الناس الذين كانوا يستخدمون تقنيات متعددة لتوجيه تلك القوى ضد الكائنات البشرية، وكانت هذه الكائنات الشريرة وهي الساحرات والسحرة الذين كان باستطاعتهم محر الناس، وإرسال الأرواح الشريرة ضدهم وأن تفصلهم عن الأرواح الخيرة وتجلب لهم أي نوع من أنواع سوء الطالع أو المصائب.

ولدينا سلسلة طويلة من النصوص التي تعطي السحر المضاد ضد هذه الأعمال السحرية، ومن الغريب أن نجد أحد الباحثين الذي لم ينجح في فهم الدور الذي يتم في كل المجتمعات عن طريق الإيمان بوجود السحرة في مجتمعات عديدة، فحاول أن يعزو إيمان الآشوريين بالسحرة إلى نوع من الهوس النفسي، أو الهذيان، وعلى هذا الأساس فإنه يدعي أن النصوص التي تذكر السحر المعاكس ضد السحرة كانت من أحد الكتب التي تبحث في الطب النفسي عند البابليين.

والحقيقة أنه كان هناك بضع حالات تزعج أهالي منطقة ما بين النهرين قد فُكر بها هؤلاء أنها مسببة عن السحرة ولكنها بالنسبة لنا نعتبر بأنها حالات مناسبة للطب النفسي، ولكن كان كل إنسان في منطقة ما بين النهرين يمتد بوجود السحر، وإن عزو المصائب والكوارث والأمراض إلى السحر كان من الميزات الثقافية، وليست قضية هوس نفسي.

ولم يعد لدى البابليين أي علم مختص بالطب النفسي بالقدر الذي لم يكن لديهم أي معرفة بعلم الفيزياء النووية.

الفصل الرابع عشر

الطب عند الآشوريين

لقد وضعنا الطب عند الآشوريين في فصل خاص خارج عن الالتزام بالتصنيف الحديث.

ولقد ربط الآشوريون أنفسهم باسم الطبيب (أسو) ربطاً وثيقاً باسم الموظف الذي كان يلقب الأشيبو، والذي ترجمناه باسم الساحر أو الساحر الطيب، وكان هذا الربط واضحاً جداً كما سوف نرى، فالموظفان كانا يعملان بشكل وثيق معاً.

ولقد اقتبسنا نصاً يعدد الأطباء مع الأشيبو والكالو (وهم الكهنة الذين يعملون بالنذب والبهاس) وأيضاً عدة أنواع من العرافين. ولقد كان هناك في آشور ما يدل أن الأسو كان ذا مرتبة أدنى من مرتبة الأشيبو.

وتظهر لنا إحدى الرسائل التي أرسلها أحد الأشيبو إلى الملك أن الملك قد قام باستشارة الأشيبو قبل أن يسمح لولده ولي العهد أن يشرب شراباً قد وصف له من قبل (طبيب على الأرجح) ولقد نصح الأشيبو الملك قائلاً: إن الشراب لا بأس به، ولكنك اقترح كإجراء وفائي أن يشرب أحد العبيد بعضاً من هذا الشراب قبل أن يشرب ولي العهد منه.

وهذا يظهر لنا المرتبة العالية التي وصل إليها الأشيبو بطريقتين:

أولاً: الحاجة للحصول على موافقة طبيب ساحر قبل تناول الدواء، وهذا يظهر أن خبرة الأشيبو كان لها حق الأفضلية.

ثانياً: وبينما كان هناك نوع من فقدان الثقة انعكست باستفسار الملك حول المعالجة بواسطة الأدوية، إلا أنه ليست هناك من دلالة على أن الملك كان

يسمى للحصول على رأي آخر عندما قرر الأشيبو ضرورة اتخاذ بعض الإجراءات السحرية.

ولقد قام الباحثون ببعض المحاولات لتحديد الحد الفاصل بين أنشطة (الأشيبو) وأنشطة (الأسو) ولكن دون إحراز أي نتائج حاسمة، وهناك سبب ذلك عدم وجود خط فاصل واضح بينهما فقد كانت وظائفهما متداخلة، وفي بعض الظروف كانت كلتا الوظائفين تتملان بشكل تماواني، مثلاً: هناك رسالة آشورية مؤداها أن أحد الموظفين المسؤولين يعتذر للملك عن الحضور إلى مدينة آشور بسبب مرضه، وقد أنهى رسالته باقتراح بأخذ علاج لمرضه هائلاً: أرجو أن يمين الملك أحد أعضاء الأشيبو وأحد أعضاء الأسو ليكونا تحت تصرفه، ودعمهما بمارسلان وظيفتهما معاً.

مفهوم الآشوريون للمرض

لقد اعتبر شعب ما بين النهرين القدماء (كل من بابل وآشور) أن المرض حاصل من أحوال ترجع إلى ما وراء الطبيعة، ولدينا كثير من التصريحات حول هذا الموضوع، وكانت الفوائد الفعلية أمراً مشكوكاً به، مع أن الاسم كان يقدم دلالات واضحة لضرورة التكفير على أسس خطوط سحرية، فقد كانت تلا حظ وبعد ذلك كان المرض يُنسب إلى تدخل معين مما وراء الطبيعة، وهكذا فسوف نستشهد ببعض الأمثلة المرضية ولكنها نموذجية.

إذا شكك المريض باستمرار هائلاً: يا رأسي يا رأسي فإن هذا من فعل الإله (هالان الفلاني).

إذا شمر المريض يدوار في الرأس وكانت بطناً رجله يارتين فإن هذا من فعل الإله (هالان الفلاني).

إذا استمر رأسه في الوجع وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإله عشتار. إذا كان صدغه يؤلم ويستمر بالصراخ: ((يا بطني، يا بطني)) فإن هذا من فعل إحدى الأرواح، وهناك إمكانيات أخرى أن يكون ذلك من فعل الآلهة عشتار،

وهو سوف يموت، وأما إذا كان من فعل الأرواح فسوف يبقى حياً مدة قصيرة ثم يموت.

إذا تغير كلامه وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإله نهنوترا.

إذا سال الدم من قضيبه فإن هذا من فعل الإله شمش.

والثبُّ هو إلى أرض لا عودة بعدها وهي العالم السفلي.

إذا التهاب قضيبه وخصيتاه فإن يدي الإله ديليات قد أدركته في الفراش (أي:

إن الإله ديليات قد سببت له المرض).

إن الأمثلة المقتبسة مأخوذة من نص مسلسل ليس موجهاً للطبيب أسو فحسب

بل إلى الطيبة الساحرة أشيبو، وهو يحمل عنواناً من المطر الأول بهذا الشكل:

((عندما تذهب الأشهبو إلى بيت رجل مريض)) ويستمر النص في الأسلوب

الموصوف في ذكر أعراض ممكنة، وهناك بعض النصوص المماثلة تتعلق بوظيفة

الأسو مع إدراج قائمة بالأعراض، يتبعها وصفة تحدد العلاج (وهو عبارة عن مواد

طبية مع ذكر كيفية الاستعمال) وذلك بدلاً من ذكر الأسباب الراجعة إلى

فضائها تتعلق بما وراء الطبيعة.

وهذا الاختلاف ربما يوحي بأن هناك تعارضاً تاماً بين وجهة نظر الأشهبو

بالتنسبة للمرض (وهي نظرية خرافية) وبين وجهة نظر الأسو (وهي نظرية عقلانية)

ولكن ليست القضية بهذه البساطة، فإن كلا من الطيبة الساحرة والطبيب قد

اتفقا أن للأمراض بعض الأعراض الجسمانية التي من الممكن معالجتها وشفاؤها

أحياناً عن طريق الإجراءات الطبية وباستعمال المواد الطبية.

ولكن وفي الوقت نفسه نجد أن (الأسو) بالإضافة إلى الأشهبو قد اتفقا أن

هناك عنصراً شيطانياً يمود إلى ما وراء الطبيعة قد سبب المرض وهو يتطلب

المعالجة بأساليب سحرية، ولاشك أننا لا نستطيع ربط الفرق بين هاتين المهنيتين

بالقول بشكل ارتجالي أن الأشهبو كان يعمل ويتعامل السحر والتمويذات، وأن

الأسو يلجأ إلى العقاقير والضمادات التي يقلب استعمالها من قبل الطبيب ولكنه من المحتمل أيضاً أن يستعمل التمليز إلى جانب الأساليب العقلانية في العلاج.

وهكذا نجد أحياناً أن الأسو يصف سداً تحشى في الأنف لوقف النزيف كعلاج لنزيف الأنف ولكنه في الوقت نفسه ينصح بتلاوة بعض الابتهاالات.

وإذا كان المريض يعاني من انتفاخ في البطن فإن الأسو يجعله يشرب دواء معيناً لكي يرتاح، ولكنه يقرن ذلك بتلاوة تعويذة.

وعندما يعالج الأسو أحد الملوك فإنه يصف له بعض الضمادات التي تُشد بطريقة خاصة، ولكنه في نفس الوقت يقدم حججاً يعلقه الملك حول عنقه.

قد كتب أحد كبار الأطباء (راب أسبي) إلى الملك يصف له فاعلية بعض العقاقير التي يستعملها ويقول: إن العقاقير التي أرسلتها إلى الملك نوعان يختلف الواحد عن الآخر وربما قال سيدي الملك: ما فائدة هذه العقاقير؟

والجواب: ((إنها مفيدة في طرد السحر، وهي مفيدة للمرأة حين الولادة)).

ومن الواضح أنهم كانوا يعتمدون أن المواد الطبية تستطيع العمل ضد القوى الشريرة فيما وراء الطبيعة، والحقيقة أنه كان هناك ادعاءات متعددة تذكر أن عقاقير (الأسو) يمكن استعمالها ضد التأثيرات الشيطانية التي فشلت أساليب الأشيبو في القضاء عليها، وهكذا يقال: إذا ظل نشاط الأرواح مستمراً وشديداً بحيث لم يعد بمقدور (الأشيبو) أن يزيلها، ولذلك لكي تزيله فإن عليك (أي: على الأسو) أن تحصل على ثمانية عقاقير وتمزجها معاً...

لم يكن هناك أي خلاف في عقول القدماء بين المعرفة بأن إحدى المواد تستطيع تخفيف مفعول بعض الأعراض، وبين الاعتقاد بالأسباب الراجعة إلى ما وراء الطبيعة لهذه الأعراض، مثلاً: كان من المعتقد أن هناك بعض أمراض الحمى التي يسببها سيطرة الشياطين، وكان من المعروف أن معالجة هذه الأعراض بتماطي مادة معينة كانت تسبب ارتياح المريض، وهناك من الممكن التوفيق ما

بين وجهتي النظر هاتين بالقول إن العقار كان مفيداً في طرد ذلك الشيطان
المسؤول عن هذا العمل.

إن استخدام الأسو ليمض الأدوية لا يمكن اعتباره شهادة على وجود موقف
عقلاني بالنسبة للأمراض إذ إن لدينا أمثلة واضحة للاستنتاج أن فاعلية المواد
الطبية كانت تعتبر مدينة للسحر (أي: العمل ضد الشياطين التي سببت تلك
الأعراض) أكثر منها للمعالجة الطبية، وهذا الأمر يثبت دون أي شك عندما نجد
المواد الطبية موضوعة في حاوية ومعلقة حول عنق المريض...عندها ليس هناك دلالة
أوضح من هذه أنه وعلى الأقل في بعض الحالات كانوا يعتبرون أن الدواء يعمل من
خلال وسائل سحرية.

إن طبيعة الأدوية نفسها تؤدي إلى استنتاج مماثل، إذ ربما يتبادر إلى الذهن أن
بعض المواد المستعملة سوف تخفف بعض الأعراض إذا لم تحدث الشفاء التام من
المرض، ويدخل في هذه المقولة الزيوت، النبيذ، الملح وحجر الشب، وبعض النباتات
ونماها، ومع ذلك فقد استعملت بعض الأدوية التي كان مفعولها مشكوكاً في
أمره وأن أسماها توحى بإشارات واضحة إلى تفكير يعتمد على السحر.

فهناك مثلاً شيء يدعى العضو التناسلي للحمار وهذه كانت صدقة بحرية
قد اتخذ ذلك الاسم من حجمها وشكلها، بالنسبة كان هذا العضو التناسلي
يستعمل لمعالجة اضطرابات قضييب الرجل، إما بطحنها ونفخها داخل القضييب من
خلال أنبوب، أو توضع في البيرة وتُشرب.

وبالنسبة للفرض المذكور فإن هذه الأعمال ربما لم تكن لها أي فائدة
عملية، ولكن يمكن للمرء أن يرى كيف أن السحر كان يمتلك السيطرة على
التفكير بحيث يُعتقد أن صدقة ذات شكل معين سوف تؤثر على قضييب الرجل.

يمكن للمرء أن يتوقع أن اختلاص الأسو في استعمال الأدوية سوف يؤدي
لولادة علم الصيدلة، ولكن الجو الذهني السائد لم يترك سوى إمكانية ضئيلة
للتجارب والتقدم في ذلك الاتجاه، وحتى لو لم نعتبر تلك العناصر السحرية التي
كانت تتدخل في نشاطات (الأسو) فلم تكن المهارة أو المعرفة التي توصل إليها

الطبيب بصفة شخصية، والتي كان يُظن أنها تسبب الشفاء، والتي لدينا نصوص من الوصفات الطبية التي استعملها (الأسو) بل إن قيمتها الرئيسية كان من المظنون أنها نتيجة عن سلطتها الإلهية القديمة.

وهذا واضح من التذييل (أي: خلاصة التفاصيل التي ألحقها آشور بانيبال ببعض النصوص الطبية، والتي أضافها إلى مكتبته في القرن السابع.

وتصف إحدى هذه التذييلات النصوص بأنها وصفات للشفاء لجميع أنحاء الجسم من الرأس حتى أصابع القدم وهي مجموعة موجودة خارج مجال المجموعات الأخرى وتحتوي على العلوم التجريبية وما يخص وظائف الآلهة الأطباء وهما نينورتا وجولا.

ويضيف آشور بانيبال: ((لقد أودعت هذه النصوص داخل قصري كمرجعية ولأجل الرجوع إليها ومطالعتها وقراءتها بشكل مستمر)) هذا يوحي ومن وجهة نظر آشور بانيبال بأن الحكمة الإلهية الموجودة في النصوص نفسها هي الأداة الفعالة وهذا متوافق ومتناغم مع الموقف القديم، فقد وضعت النصوص الطبية (شأنها شأن جميع النصوص في مكتبة آشور بانيبال) وقد أعيدت كتابتها ونسخت في الألف الثاني ق م بشكل مستقل عن الأعمال الطبية المعاصرة، وكانت للنصوص هذه سلطة وهيبة التقاليد القديمة التي كانت تقاوم أي محاولة للتجربة أو التجديد.

الطبيب في الممارسة

نتجه الآن لنذكر ما نعرفه عن الأنشطة الفعلية والإجراءات التي كان يقوم بها الطبيب، وتدل النصوص أن الأسو عندما يفحص الشخص المريض (وهذا ينطبق على الأشهبو) كان يبدأ رأساً بملاحظة الأعراض، فقد كان يلاحظ مثلاً أي أعضاء الجسم كانت ساخنة أو باردة، ويلاحظ لون الجلد ولون البول، وإذا كان هناك دم في البول، والألم، أو الشكل أو عدم انتظام الحركة وحالة الأوردة الدموية وإفرازات القيح فضلاً عن حالة المريض العقلية، وبعد ذلك يتوجه

إلى معالجة المريض التي تشمل إما إعطاء الأدوية أو الضمادات أو كليهما، وكان استعمال الضماد من المظاهر المميزة للمعالجة التي كان يقوم بها (الأسو).

ولم تكن هذه الطرق تمثل الاستقامة في العمل كما يبدو، نظراً لأن الأفكار السحرية والدينية كانت تتداخل في الأمور، فلم تكن الفروح والجروح هي التي تعالج بالضمادات فحسب بل كانت الضمادات تستعمل في حالة بعض الأمراض التي كانت تعزى إلى أصول ما فوق الطبيعة، مثلاً: (يد الروح) وفي مثل هذه الممارسات كانت الضمادات تثبت بعض الأدوية فوق أجزاء الجسم ونظراً لعدم وجود أي أنسجة في الجسم تلزمها المعالجة فإن الفرض من استعمال الضمادات كان لطرده المرض من الجسم بطريقة سحرية، وذلك بالتقاسم المباشر للأدوية المستخدمة ضد الشيطان الذي سبب المرض.

ويظهر المنصر السحري الديني أيضاً عن طريق الابتهالات التي كانت توصف أحياناً لتستخدم مع الضمادات، وكان هناك أيضاً طرق صحيحة وطرق خاطئة في استعمال الضمادات، ونمود في هذه الحالة إلى الرجوع إلى الأفكار السحرية الدينية وليس للاعتبارات العملية.

وقد روي عن أحد الموظفين الذي وثَّقه الملك لأنه سمح عندما أصابه المرض أثناء إحدى حملاته الحربية في أراضي العدو باستعمال تقنيات أجنبية في استعمال الضمادات تلك الاستعمالات التي لم تكن مناسبة في بلاد آشور ويضيف الكاتب:

((دعونا نحافظ على المعايير التي وهبتنا إياها الآلهة، ووهبتنا للملك سيدي)).

ومعنى هذا أن الطريقة الأشورية في استعمال الضمادات كانت مباركة من قبل الآلهة، وأن التجارب بطرق بديلة سوف تعتبر عملاً غير شرعي.

لقد أشرنا حتى الآن إلى أنشطة الطبيب بما تختص بالأمراض، وكان عمل الطبيب يعتمد إلى مجالات أبعد وهي الجراحة مع أنها كانت في مستوى يدائي تماماً، وتشير مجموعة قوانين حمورابي (التي هي بابلية وليست آشورية) بشكل

متكرر إلى الأسوي عمل الجراحي موضحة أنه من الممكن أن يحدث جراحة في الجسم (ربما يشير إلى استعمال المبيض) أو معالجة العظام المكسورة. وتشير القوانين الآشورية حوالي نهاية الألف الثاني إلى أن واحداً من (الأسو) قد عالج خصية رجل أصيبت في الحرب دون التأكد من نجاح تلك العملية نظراً لأن القوانين تشترط معرفة ما سيحدث للشخص الذي اقترف حادثة الإصابة، ومعرفة فيما إذا كانت الخصية الأخرى سوف تصاب بضرر.

ونحن نعلم أنه وفي نفس الفترة في آشور كان هناك أطباء ملحقون بالبلاط الملكي الذين كانت واجباتهم تقتضي بالتأكد أن الذكور من الموظفين في القصر قد حصل إخصاً (هم بالشكل الصحيح وهذا لازم للسماح لهم بالاقتراب من السيدات، ونحن نفترض ولكن ليس عن طريق تواتر الأخبار أن عمليات الإخصاء الضرورية كانت تتم على أيدي الأطباء.

المواد الطبية

كانت المواد التي استخدمها الطبيب من أصول مختلفة فقد استخدمت كثير من الأعشاب والخلاصات النباتية التي كانت من أكثر الأدوية شهوعاً، بحيث إن كلمة الأعشاب أصبح يطلق عليها اسم دواء.

وقد قدم الباحث (R.C. Thomp, ٥٧) في قاموسه عن علم النبات الآشوري عام (١٩٤٩) بمحاولة بطولية لذكر أسماء جميع النباتات المذكورة مع مقارنة الأسماء المستعملة في اللغات الشرقية المتأخرة بعد أن أخذ بالحسبان معرفة أي من النباتات يمتلك التأثير المطلوب على الأعراض المذكورة.

ولكن لا يزال هناك مجال للشك حول التماثل والمطابقة.

إن المشكلات التي تواجهها عند بحث المطابقة أننا نلاحظ أن هناك ذكراً لنبات اسمه (لسان الكلب) وكان هذا النبات يستعمل لمعالجة السعال واليرقان،

ولكن ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كان هذا الاسم هو نفس اسم النبات المدعو (لسان الكلب) والمستخدم في إنكلترا ، وهناك بعض النباتات كانت تستعمل لمعالجة جميع الأمراض ويحمل أحد هذه النباتات اسم ((صالح لمعالجة ألف مرض)) كان بالحقيقة دواء مُسهلاً.

وقد كتب في الوصفة الخمسة للاستعمال ما يلي:

ينبغي على المريض أن يشرب هذا الدواء مع البيرة وبمعدا سوف يتسبب ذلك في حركة أمعائه ، وهناك مواد دوائية أخرى ذات أصل حيواني فالدم هو مثل واضح ، فالمخلوقات مثل السحالي والعقارب كانت أقل المخلوقات مناسبة لتكون أدوية ، ولكنها كانت مشمومة ، وقد استعملت بعض المماد من الملح ومادة الثوب ، وكان الطبيب يحفظ هذه الأدوية في صندوق أو حقيبة جلدية ، وعندما يحين زمن استعمالها كانت تحضر عن طريق عدة عمليات مثل الطحن ، أو الفلي وبعد ذلك توضع مع مادة مناسبة مثل البيرة إذا كان الدواء سوف يستعمل عن طريق الابتلاع ، أو إضافة الزيت أو الشمع إذا كان الدواء سوف يستعمل كمرهم.

وقد استعملت طريقة غسل الجزء المصاب من الجسم بواسطة غسل كشكل آخر من أشكال العلاج ، وكان من الممكن إدخاله إلى الجسم بواسطة التعامل والحقن الشرجية ، وكانت هناك إمكانية ثانية وهي أن ينفخ الطبيب المواد الدوائية الضرورية في إحدى فتحات الجسم.

وهكذا نجد بعض الوصفات التي كان الطبيب ينفخ الدواء المطلوب بواسطة نوع من القصب حيث يدخل الدواء إلى أنف المريض أو أذنه أو بواسطة أنبوب من البرونز أو الرصاص حيث يدخل إلى قضيب الرجل.

وكانت فاعلية المواد الطبية تختلف تبعاً لطبيعة الدواء اختلافاً معتبراً ، مع أنه ليس من الممكن أن نقول أقوالاً مسهية حول هذه القضية ، نظراً لأن كثيراً من المواد المذكورة في التصوص القديمة لم نعرف أسماءها أو هويتها بشكل أكيد دون أي مجال للشك ، فقد كان الكبريت الممزوج مع زيت شجر الأرز مستملاً

لعلاج حكة الرأس وكان هذا الدواء فعالاً جداً تبعاً للحكمة، وهناك أدوية أخرى مثل تقديم الحليب الذي وضعت فيه مسحوق وغليت فيه، ويتعمد هذا الحليب للمريض ليشره وقد بدا بأنه نوع من العلاج بالسحر أكثر منه علاجاً عقلانياً.

وهناك حالة موازية لهذه الحالة في وصفة إنكليزية شعبية لا تزال مستعملة لعلاج السعال الديكي وهو مؤلف من البزاق المغلي بالحليب، وكان المرضى دوماً يشكون بفاعلية الأدوية، وهكذا نجد أن الملك يصبر أن يجرب الدواء الذي وصف لولي العهد ليشره، أن يجرب هذا الدواء أولاً بتقديمه لأحد المبيد ليشره.

دعوة الطبيب إلى النزول

لدينا نص أدبي يخبرنا شيئاً عن الطريقة التي كان الطبيب يتصرف بها ضمن مهنته، وهذه ليست مذكورة في النصوص الطبية، وهناك قصة تمود إلى الألف الثاني ق م (وهي لم تقع في آشور بل في بلاد بابل) واسم هذه القصة (الرجل الفقير في نهبور).

وقد كان هذا الرجل الفقير قد وقع عليه الظلم، ولذلك فقد قرر أن ينتقم من الظالم، ولقد خدعه المحافظ لذلك فقد قرر أن يضربه ثلاث ضربات، وقد عمد إلى القيام ببعض الحيل، والحيلة المناسبة لنا كانت عندما تخفى وأظهر أنه طبيب وذلك بعد الحصول على إذن لدخول بيت المحافظ فقد قص شعر رأسه مما يدل أن الأطباء كانوا حلقى الرأس، وبعدها سار ومعه جرّة ماء ومجمرة مملوءة بالفحم المحترق، وهذا ربما كان من الأدوات اللازمة للأطباء في ذلك الزمن للمساعدة في تركيب الأدوية، ولقد قدم هذا الرجل الفقير نفسه للبواب وقال: إنه (أسو) ماهر وقد سمح له بالدخول لفحص جروح المحافظ التي أصيب بعد أن ضرب مرتين، وبعدها أنجز الطبيب فحصاً كاملاً جعل المحافظ يثق بخبرته التامة، بعدها أخذ الرجل الفقير المحافظ لوحده معه بحجة أن المعالجة سوف تكون فعالة في الظلام، ولهذا دخلاً إلى غرفة مظلمة وهنا أطفأ الرجل الفقير الضوء الصادر عن المجرمة وذلك بصب الماء فوقها، ومرة ثانية قام بضرب مبرج للمحافظ، والنقطة التي نهتم

بها في هذا الجزء من القصة هي أنه كيف يمكن من القبول إجابة طالب الطبيب بإجراء المعالجة في الظلام، وهذا يؤكد مرة ثالثة العنصر السحري الديني في المعالجة الطبية في ذلك الزمن.

الفصل الخامس عشر

الفن الآشوري

إن من الصعب غالباً تجنّب فرض نظام أفكارنا على الشعوب القديمة عندما نبادر إلى دراسة هذه الشعوب، وليس هذا الخطر بأقلّ شأنًا عندما نتحدث عن الفن الآشوري، خصوصاً عندما نميل إلى أن نحيط علماً بكل شيء جميل وذو فائدة.

وحتى لو نظرنا من منطلق وجهة نظرنا نرى أن هناك تقسيمات مقبولة بين الفنون الجميلة (مثل الرسم والنحت) والفنون المفيدة والتطبيقية (مثل فن العمارة) حتى إنه ولو اتبعنا المعايير الحديثة نجد أننا مجبرون أن نفرض بعض القيود في التصنيف.

وقد ذكرنا هذا التعليق نظراً لأن هناك بعض الكتب الممتازة التي عالجت موضوع منطقة ما بين النهرين والفن هناك ولم تترك شيئاً في مجال تعليقاتها إلا وذكرته ابتداء من خطيط وتخطيط المعابد والقصور مروراً بالمقروشات، والمجوهرات والأختام الأسطوانية إلى المنحوتات والرسوم الجدارية واللوحات المجسمة.

إذن ليس هناك من سبب يجعلنا نظن أن الشعوب القديمة قد وضعت شكل هذه الأشياء ضمن تصنيف واحد وهو الفن، والحقيقة أنه لم يظهر هنا أن كلمة أكاديمية ترمز إلى الفن، وتشمل شكل هذه الأجناس الفنية، ومن جهة أخرى ينبغي علينا أن نقبل أنه من الواجب استثناء المخططات المعمارية الأرضية، أما البقية فهناك تبرير لمؤرخي الفنون الذين يدرسون الكثير من أنواع المواد كلها مما طالما أن نفس الموضوع يتكرر بالنسبة لمواد مختلفة، مثلاً، الختم الأسطواني واللوحة المجسمة.

لقد قامت عدة سلطات موثوقة بوضع مؤلفات ممتازة حول الفن في منطقة ما بين النهرين مع تخصيص فصول متفصلة حول الفن الآشوري ولا سيما H. Frankfort و A. Moortgat في كتابه الفن والمعمار في الشرق القديم (١٩٥٦) وكذلك مورنجر A. Moortgat في كتابه الفن في منطقة ما بين النهرين القديمة (١٩٦٩) ولم يمتد أي عالم للدعاء بمرهته وخبرته في تاريخ الفن. وهكذا فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نقدم صورة واقعية عن بعض الأنواع الرئيسية من المواد التي يمكننا إدراجها ضمن الفن الآشوري (من خلال تصنيفاتها الحديثة).

الألواح المجسمة

إن أكثر المواد المؤثرة والجديرة بالمعرفة في الفن الآشوري هي الألواح المجسمة الموجودة على جدران القصور في نمرود، وفي كالاخ وكوبونجيك (نينوى) وخورساباد (دورشاروكين) وإن أفضل النماذج موجودة في المتحف البريطاني. ولقد بدأ صنع هذه الألواح المجسمة في زمن آشور ناصر بعل (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) وقد كانت هذه تمثل أصلاً جمعاً ما بين شكلين من أشكال الفن القديم، وأحدهما: الأفريز الذي تُنقش عليه زخرفات واطئة من نوع الأعمدة المربعة الحجرية التي ندعوها المسلة، وكان أقدم هؤلاء عبارة عن منظر منفرد يظهر بعض الأعداء المقهورين، وهم واقفون أمام الملك وتظهر رموز الآلهة الآشورية في الأعلى، وفي مسلة أخرى تعود إلى أواخر ذلك القرن نرى أن هذا المنظر المنفصل قد امتد ليشكل بداية عهد اللوحة النافذة القصصية.

أما النوع الآخر الذي كان من أسلاف الألواح الجدارية المجسمة في الألف الأول ق.م في بلاد آشور فقد كان الرسوم الجدارية، فقد كانت الأجزاء السفلى من الجدران في قصر آشور ناصر بعل في كالاخ مغطاة بالألواح من الرخام الشفاف التي نقشت عليها رسوم مجسمة، ونحن نعلم أنها نقشت بعد تثبيت الألواح نظراً لأن بعضها قد ترك فراغاً، وتظهر هذه الرسوم المجسمة الصلة الواضحة مع

رسومات جدارية أقدم، إذ هناك أحد الثقافات البارزين في معرفة الفن في منطقة ما بين النهرين قد ترك لنا وصفاً لهذه النقوش النافذة القديمة على الرخام الشفاف، وهي تنتمي إلى الرسوم الجدارية في قصر آشور ناصر بعل وقد تجسدت في حجر، ولقد تأكدت هذه الصلة بالتحقيق التي مفادها أنه وكما تلتأت الآثار الباقية من الألوان فإن آثاراً من الدهان قد بقيت في المجسمات، وهناك إمكانية تكون الأجزاء العليا من الجدران التي هدمت كانت مزينة برسومات جدارية تتمم النقوش النافذة على الرخام الشفاف.

وكانت الرسوم النافذة في قصر آشور ناصر بعل تولف نوعين مختلفين من حيث المواضيع، وأحد هذين النوعين يظهر مشاهد طقوسية احتفالية أسطورية متركزة حول الملك، وأما الأخرى فكانت تظهر مشاهد من العهد أو الحرب.

إن المناظر الطقوسية تظهر لأول وهلة تشكيلات ساحنة متوازية مع ملامح الأشخاص وهناك مثال نموذجي مصور في إحدى اللوحات ففي الوسط هناك شيء غريب ومتناسق وغير طبعي يمثل شجرة مورقة مألوفة، وعلى كل جانب من الشجرة يتوضع نفس الشخصين المواجهين للشجرة وهما يفترقان في إظهار الذراعين، وإن أحد الزوجين قد نظر إليه من الجانب الأيمن والآخر من الجانب الأيسر وفوق الشجرة هناك رمز يتكون من جناحي وذنب صقر يرفرف بجناحيه ليتوسطه قرص عليه الجزء العلوي لكائن يدل لباس الرأس على إله.

وأما المشهد الطقوسي فهو سر مقدس، فالمعلومات الإنجليكانية (وهي الكنيسة الإنجليزية) تعرف السر المقدس أنه إشارة خارجية مرئية لنعمة روحية سامية، وإن هذا بالضبط هو ما تدل عليه هذه النقوش النافذة، فهي تخبر المشاهد أن الملك آشور قد امتلأ بالقوة الإلهية، وأما الشجرة في وسط المشهد فهي الشجرة المقدسة، وهي رمز ديني قديم في منطقة ما بين النهرين بالنسبة للفنون، وهي موجودة في منطقة سومر ابتداء من بداية الألف الثالث قبل الميلاد وهي تمثل الحياة والخصوبة وهي حلقة الوصل ما بين الأشياء الحية، والقوة الحيوية الظاهرة في

النباتات، وإن صلتها بالآلهة والقداسة يُرمز إليها بشكل الصقر المجنح فوهيا-
بنغبه وجناحيه المنتشرين.

وهذا رمز معقد، ويقول علماء آثار آشور الذين تفضل عقولهم المرنية أن تكون
معملياتهم مصنعةً تمنيناً جيداً ونظيقاً، وقد ناقش هؤلاء فيما إذا كان هذا
الرمز يمثل الإله القومي لآشور، أو إله الشمس الذي يدل عليه وجود القرص.

والحقيقة أن الرمز ربما كان يمثل كليهما وأكثر، ففي أوائل العهد
السومري كانت الأجنحة المنتشرة والذنب الخاصة بالصقر تصعبها قوة إلهية
تدعى الأمدوجود (الرياح العاتية) التي شملت طائراً هائلاً إلهياً يدعى (أنزو)
(وبلاحظ أن كلمة إله قد حذفت عن قصد في هذا المكان) وهذه الرياح العاتية
هي التي سرقت من الإله الأعظم (أنليل) الشارة التي أعطته سلطته وقوته.

وأما أنزو فقد تغلب عليه أحد أولاد (أنليل) وهو الإله نينوترا الذي استلم قوى
أنزو، وكانت هذه طريقة خرافية للتعبير أن نينوترا كان التمثيل المجسم للقوى
التي كانت في مرحلة مبكرة من التطور الديني، وهكذا أصبح نينوترا الذي
تُبْنَر في النهاية كإله العهد والحرب حائزاً على جميع القوى الطبيعية وعلى
المواطف والحياة الحيوانية.

وهكذا فإن الأمور المفهومة ضمناً في النقوش النافرة التي تمثل الصقر
وأجنحته ليست فقط الإله آشور وقرص الشمس بل أيضاً قوى الطبيعة التي يمثلها
(نينوترا).

والآن نعود إلى الشخصين المرسومين في اللوحة بشكل بشري، إذ إن الشخص
الأقرب إلى الشجرة المقدسة هو في الحقيقة الملك آشور ناصر بمل نفسه، وفي كلتا
صورتيه نجد رافعاً يده اليمنى بثلاثة أصابع مثنية وأما اليسارية فكانت توشح
والإبهام بارز تحت اليسارية، وهذه علامة يظهر الملك فيها احترامه للإله، وهذه
إشارة تقليدية تمثل احترامه للآلهة، وإن الأوضاع النسبية للقرص المجنح والشجرة
المقدسة وصورتي الملك تصل الملك بشكل حميم بكل الرمزين الدينيين الذين
يوحدانه مع قوى الخصب في الحياة النباتية والحياة الحيوانية.

وإن عظمهر العسر المقدس يؤكده المخلوقان المجنحان الموصوفان ككائنات إلهية لوجود القرون الثلاثية على رؤوسهم ويقف الواحد منها خلف كل صورة من صور الملك، ويحمل كل واحد منهم سطلاً وكوزاً (وهذا رمز آخر للخصوبة) وسكانا يرشان الملك وهذا المشهد يعبر عن رفع الملك إلى مرتبة الألوهية حين يسيطر على جميع القوى الطبيعية، بحيث يجعل هذه القوى مستعلة لجلب الخصب والأزدهار إلى البلاد التي يحكمها وهذه التصاريح تدل على الاطمئنان والخير لأشور.

وأما الألواح النافرة التابعة لأشور ناصر بعل من النمط الآخر فهي على مستوى مختلف فليس فيها شيء من الخرافة، وليست ساحنة فهي تصور الحركة والعمل وتظهر أنشطة الجيش الآشوري ونشاط الملك الآشوري، وترى فيها مناظر الحصار ومناظر المعارك وترى الأسرى أمام الملك، وترى الملك مشغولاً بقوة بصيد الأسود. ولكن شكل هذه الروايات مع أنها مختلفة في تأثيرها السريع، إلا أنها تضيق التأكيد بأن آشور سوف تظل دائماً منتصرة ومزدهرة ما دامت تحت قيادة الملك بجلالة قدره.

ولقد استمر خلفاء آشور ناصر بعل في إقامة الألواح النافرة مع إجراء بعض التحسينات في أسلوب العمل وظل هذا حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية، ولكن بشكل آخر من أشكال الفن كان هذا الملك قد قدمه قد فُتد بعد تولي ابنه الحكم، وهذا الشكل مشغول على البيرونز ويمرّف بشكل تقني باسم ريوسبي، وإن هذه التقنيات المستخدمة في (الريوسبي) هو عمل صورة على صفيحة من المعدن بواسطة طرقها من الخلف.

وفي الأمثلة الآشورية فإن النتيجة هي شرائط من البيرونز تبرز عليها مشاهد مماثلة لتلك الموجودة في اللوحات المصنوعة من النعش الروائي.

ولقد وجدت أمثلة من زمن الملك آشور ناصر بعل نفسه وابنه شلمناصر الثالث في موقع صغير اسمه (بالاوار) حيث كان هذان الملكان يملكان مقراً دينياً على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من العاصمة (كالاخ) وقد ثبتت صفائح

البرونز على الأبواب الخشبية الكبيرة التي تقصع المجال للوصول إلى مفيد ، ولم تكتشف صور آشور ناصر بل حتى عام (١٩٥٦) ولم يكن قد أصابها التلف، بل قد أصبح من المتعذر الحصول عليها من بغداد.

وأما مقر الملك سلنناصر الثالث فقد اكتشف عام (١٨٧٧) وهو ظاهر بشكل حسن في المتحف البريطاني، وكانت الأشرطة البرونزية المتواجدة على يوابات قصر سلنناصر نحو ثمانية أقدام طولاً وأحد عشر إنشاً في علوها و ١٦ إنش في ثغاتها، وكان كل شريط مقسماً إلى لائحتين لكل لائحة علوها خمسة إنشات.

وعلى هذه اللوحات أنتج حرفيو الملك سلنناصر سلسلة مرموقة من المناظر الروائية وكانت مصحوبة بنقوش قصيرة منقوتة فوق الصور وهي تصف الحوادث، وإن خبراء الفنون يعملون إلى التقرز لدى رؤيتهم هذا العمل، إذ يقول أحدهم: ((هناك مجال قليل في هذه الكتلة من التفاصيل)) بينما يعلن آخر بأنها عبارة عن مجرد نثر واقعي، ولكنهم جميعاً معضون بالاهتمام ويعتبرون أن هذه الأثر جديرة بالفحص.

ونرى على هذه اللوحات خيولاً يستعنها مواضعها على جر العربات فوق جبال متعذرة، وكانت أعناق الخيول مريوطة بالثير وهنا نرى عملية جر الفئام من البلاد المقهورة والمدن المفلوية، وتسليم عدد لا نهاية له من الماعز والخيول والماشية وجمالين ذوي منامين وكان هذا المنظر مربعاً حيث ترى فيه أبدي الأسرى وقد قطعت وكذلك أقدامهم، ويرى الملك نفسه بجلالة هنره واقفاً تحت مظلة احتفالية مع حرس الشرف في الخلف وهم يستلمون الجزية، ويرى بعد ذلك الملك جالساً على عرشه فوق أسكمة وهو يوجه عمليات الحصار التي كان يقوم بها جماعة من الرماة رابضين خلف المنجنيقات الهدامة.

وهناك سلسلة من المشاهد يظهر فيها الملك وهو يقوم بحملة على منطقة واقعة عند منابع دجلة، وهي واقعة في عمق بلاد الأناضول في أقصى الشمال، ولمكي يحدد أقصى حدود لمملكته فقد أقام احتفالات ذبحت فيها الأضاحي ووضع لها

تمثال محفور على وجه الصخور، وقد سميت كل هذه المشاهد على تلك الشرائح البرونزية التي تلو بمقدار خمسة إنشات لكل شريحة.

ويشكو خبراء الفنون من أشكالك هذه النقوش، ولكن ومن وجهة نظر سلمناصر فإن موضوع اللوحة وهو ما كان يهمه، ومن جهة أخرى ومن خلال أنواع الريموزي فإن كل ما صنع عبارة عن رواية ألفت لتمجيد مآثر وأعمال الملك الآشوري، ولتسجيل إنجازات الدولة الآشورية التي أخضعت جميع الشعوب لسلاطنتها وذلك حسب مشيئة الإله آشور.

ومع أن أعمال الريموزي لم تمتد تظهر بعد حكم الملك سلمناصر الثالث، ولكن الرسوم الجدارية استمرت وربما كان لطبيعتها الهشة بالنسبة لتلك اللوحات المجسمة المصنوعة من الحجر كانت هذه سبباً لوجود كميات كبيرة منها أكثر مما نعرفه من أمثلة أخرى، وفي جميع المعينات الباقية فقد كانت الألوان المستخدمة هي الأزرق والأحمر والأبيض والأسود.

وابتداءً من منتصف القرن الثامن (مع وجود نقاش بين الباحثين حول التاريخ المضبوط والحكم المضبوط) كان هناك أمثلة على رسوم جدارية مأخوذة من قملر آشوري في تل بارسب الواقع على نهر الفرات في سورية، وقد كانت الجدران جميعها مغطاة بصور مناظر تمجد الملك وهي تظهر ارتباطاً من الموظفين والأعداء المهزومين، وهم واقفون أمام الملك الجالس على عرشه في هيئة رائمة.

ولكن هناك أيضاً أمثلة عن تكوينات تهتم بالمجال الطقوسي وما وراء الطبيعة إذا قورنت بتلك التي وجدت في عهد آشور ناصر بعل والتي ناقشناها سابقاً، ابتداءً من نهاية القرن الثامن وصلت إلينا نماذج عن الرسوم الجدارية الآشورية مأخوذة من قاعة العرش للملك سرجون الثاني في قصره الذي بناه حديثاً وعاصمته الجديدة (دور شارووكين).

وهذا هو أيضاً مشهد من المجال الطقوسي في ما وراء الطبيعة، وعلى طول الجدار هناك شرائط من أفاريز ذات طبيعة تزيينية، وقد بنيت بشكل متناظر من مجموعة من الموضوعات الدينية، وفوق هذه الأفاريز يملو اللوح الرئيسي الذي

تحيط به أفريزات مرتفعة نحو القوس وفي داخل هذا اللوح هناك صورة الملك سرجون ومعه أحد الخدم واقف خلفه وهو واقف منتصباً أمام الإله وكانت يده متوافقة بشكل الإشارة التي تدل على الاحترام والتي وصفناها آنفاً.

ولكن تركيب الصور يظهر أن سرجون وليس الإله كان في الوسط، وأن جميع الزخارف الجدارية تلفت النظر إلى عظمة الملك سرجون ومرة أخرى نجد أن الصورة لها وظيفة فهي تعبر عن قوة وجبروت ملك آشور التي تقترب من جبروت وقدرة الإله.

وهنا يجدر بنا أن نعود إلى الألواح النافذة التي تظهر التطور والتحسينات التي حدثت في القرن الثامن والتي وصلت إلى أوجها تحت حكم آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) في القرن السابع قبل الميلاد.

ونلاحظ أن الألواح النافذة في زمن آشور كانت متأثرة وضئيلة بل كانت معدومة كلياً، وبذلك ظلت الحادثة وقد صورت في فراغ ولم يرتبط بأي خلفية من نوع خاص.

ولكن لقد تغير كل ذلك بحلول القرن الثامن. فقد أصبحت المناظر تستعمل بشكل أوسع بحيث تغطي الحوادث انقباعاً يوحي أنها قد حدثت في مكان حقيقي، وكذلك فقد حدثت حالة من الحرية في استعمال الفراغ على الألواح الحجرية. وفي الماضي كان النقش النافر يعامل كشيء كامل في نفسه ولكن الآن أصبحت المناظر تتقل من لوح إلى آخر وهي تبرز وتؤكد معنى الحركة ولقد توصلت الفراغات الممودية إلى شكل الاستعمال بشكل خبر.

وعلمنا أن نقول: إنه حتى في النقوش النافذة الروائية الخاصة بالملك آشور ناصر بل لم تكن القضية أن يوضع جميع الأشخاص على الخط الأساسي، ومع ذلك فقد كان الخط الأساسي النقطة المرجعية بالنسبة لجميع الصور، ولكن وفي بعض النقوش النافذة كانت الصور موزعة خلال ميدان العمل بأكمله بشكل مستقل عن الخط الرئيسي، وهناك مثال جيد بصورة خاصة وهو تصوير آشور بانيبال لحادث قهره للميلايين الذي يصور المعركة في المراء المفتوح وصور

المطاردين والمطاردين والمقتصرين والمهزومين وجثث الموتى والمشوهين المبعثرة فوق وجه النقش البارز إنما حققت انطباعاً حياً عن المعركة بل المجزأة التي حصلت في ميدان القتال.

هناك بعض النقوش البارزة المؤثرة وهي تمثل مشاهد الصيد في زمن آشور بانيبال، ومع أن الخبراء الفنيين يمكنهم معرفة الاستعمال المتكرر للموضوعات نفسها مما يظهر أن المنحوتات لم تكن عفوية بل كانت تستعمل موضوعات مقبولة، ولكن ما يؤثر في المشاهد العادية هو الدرجة الجديدة للواقعية بحيث يشعر الإنسان بالمعطف عند رؤية الحيوان من الحصر الوحشية وهي تفر وتظهر إلى الخلف لترى ظلها الذي كانت تلحقه الكلاب وتمسكه وكذلك يظهر الحزن عندما يرى المشاهد أسداً يموت والسهام مفروزة في جسده.

تظهر بعض لوحات النقش البارز بعض الفروق في المقاييس وفي عناصر التشكيل التي تمثل الأشياء الأشد هرباً والأشد بعداً، وهذا ما سبب حصول نقاشات عديدة حول إمكان أو عدم إمكان الآشوريين محاولة تمثيل المنظور في رسومهم، وحول إمكان الإنسان بالتكلم بصديق عن النقوش النافرة عن المقدمات والخلفيات بالنسبة للنقوش النافرة، ولكن يظهر أنه لم يكن هناك أي اتفاق بين الخبراء حول هذا الموضوع.

إن الرواية أو القصة المشاهدة في النقوش النافرة ليست هولوجرافية إذ إن قصد النقوش النافرة غالباً وصف وضع متطور يغطي فترة زمنية، إذ هناك بعض النقوش النافرة تظهر فيها نفس المجموعات من الجنود تظهر بشكل متكرر في مواقف مختلفة مظهرة تطور الحدث، ويظهر خير مثال بسيط لهذا المبدأ من ميادئ التركيب في مشهد صيد الأسد وهناك يظهر الأسد وقد أطلق سراحاً من قفصه، ولكنه يثار عندما يصيبه سهم في كتفه وعندها يجري ويهجم على الملك ليتلقى من الأخير ضربة الرحمة الصادرة عن رمح.

وهناك في النقش النافر يبدو أن هناك ثلاثة أسود تظهر في ثلاثة مواقف متتالية تماماً كما لو كانت قد صُوِّرَتْها آلة تصوير في ثلاثة مواقف والنتيجة طامناً أدرك المشاهد هذا العُرف وهو تعزيز وتقوية الشعور بالحركة.

النحت الفراغي

كان هناك أيضاً نحت آشوري فراغي يتمثل بالتماثيل الحجرية بحجم الإنسان، ولكن الكتب التي تهتم بالفنون في منطقة ما بين النهرين لا تميز إلا وقتاً قليلاً واهتماماً قليلاً بهذا الأمر، وبالمقارنة مع النقش النافر يبدو النحت مادة فطنة مججوة، إذا إن الأعمال الرئيسية ما هي إلا تمثيلات للآلهة والملوك وتصف الصور بشكل جامد في حالة استعداد، والوضع الوحيد لتقاصيد الجسم تنعصر في بعض الثبات في الثوب تغطي سائر الجسم، ومع ذلك فإن أفضل المينات مثل تمثال آشور ناصر بل لا يخلو من الوقار والجلالة.

وهناك بضعة تماثيل صغيرة آشورية في المنطقة مصنوعة من مواد ليست حجرية (برونز أو كهرمان) ولكن خبراء الفنون لا يظهرون سوى حماس حذر بالنسبة للمواد المستعملة، ومهارات الصنع وتستحق تعليقات أوفى بالنسبة لهذا العنوان.

وهناك تماثيل الأسود الهائلة المجنحة والثيران التي كانت تخدم كعرس في مداخل القصر وتظهر قوتها الخارقة في أجنحتها والقرون الثلاثية على رؤوسها وهي من علامات الألوهية، ويظهر الانطباع كاملاً بالإحساس بالقوة وهو المطلوب، وإذا أوردنا الكلام بشكل دقيق فإن هذه ليست هي الأمثلة الدقيقة عن فنون النحت في المنطقة نظراً لأنها لم تنزع من كتل حجرية قد نحتت منها، ولما كانت متوضعة بشكل أزواج قريبة من جانبي البوابة فإنها لم تكن قد خصصت لمشاهد من جهتين فحسب وهما الجهة الأمامية والجهة الجانبية.

وبالنتيجة لقد أصبحت لها مناظر توحى أنها قد دعمت بخمس أرجل أربع منها مرثية من الجانب واثنان من الأمام وكانت الرجل الخارجية الأمامية محسوبة في كلا المنظرين.

العاج المنحوت

وهناك نوع آخر متمثل في الألف الأول ق م في آشور وهو العاج المنحوت، ونفهم من هذا الاصطلاح شرائط مسطحة من العاج إما محززة أو منحوتة بشكل نقش نافر قليل العمق من الممكن تعليقه في تقنيات أخرى ربما توجد، ولقد وجدت كتل كبيرة من العاج في عدة مواقع، ولا تزال كميات لا بأس بها من هذه المادة لم تلمس، مع أنها لكونها من آشور إلا أننا لا نستطيع أن نطلق عليها جميعها اسم الفن الآشوري، فلفد سكان الملوك الآشوريون يستفيدون استفادة كاملة من المصادر البشرية في إمبراطوريتهم، وكانوا يستخدمون الحرفيين المهرة بشكل لا يقل عن العمال غير المهرة.

ومن الواضح أن نسبة لا بأس بها من العاج المنحوت في آشور كانت من أصول آشورية هنيئة، وهي تحتوي على عناصر ليست آشورية ويحمل عدد لا بأس به منها سمات مصرية في أهلها وذلك نتيجة للصلات الوثيقة الثقافية التي كانت سائدة عن طريق البحر في الأزمنة القديمة ما بين مصر وبهبلوس على الساحل الفينيقي (أي اللبناني).

ومع أن المواد العاجية قد وردت من عدة مواقع آشورية، إلا أن أكثرها واشدها تأثيراً قد أتت من نمرود، ومن أشهر المواد التي وجدت في نمرود هي قناع مقعر أبعاده لا تزيد عن ستة إنشات طوياً، وخمسة عرضاً ويمثل وجه امرأة في نقش نافر طبعي.

وهو منحوت في قطعة واحدة من العاج وهناك علامات من وقع الأزاميل في خلف القناع تظهر أنه كان سيوضع بحيث تظهر مقعته فقط، وربما كان ذلك موجوداً على قطعة من المفروشات أو على حائط.

وليس من المحتمل أن يكون هذا القناع جزءاً من تمثال، وهناك لقية من نفس النوع (مع أنها صلبة في خلفيتها بدلاً من أن تكون مقعرة) وهي أكبر من القناع (وأبعادهما تبلغ سبعة إنشات ونصف طوياً مع خمسة إنشات عرضاً) ولكنها لم

تُمكن متقنة الصنع مما دعا بعض خبراء الفنون أن يستنتجوا أنها كانت أقدم من تلك أصلاً.

وهي بالتأكيد أقل جاذبية من وجهة جمالية بالنسبة للذوق الحديث، وإن علم دراسة الآثار والتطبيقات الأثرية لا يقدم لنا أي مساعدة بالنسبة لتواريخها النفسية نظراً لأن كليهما قد وجد في نفس البئر الذي رميتا فيه بعد تجريدهما من جميع الزينات الذهبية التي كان من المحتمل أن يحملها وذلك عند نهب مدينة كالاخ. ومن نفس البئر اكتشفت أيضاً قطعة من العاج منحوتة بشكل كلي بشكل دائري لتشكل رأس أسد يزار، وكان قطرها الكبير يبلغ نحو ثلاثة إنشات مع بعض التفاصيل الواقعية.

وقد وجد في البئر أيضاً قطعتان من العاج مرموقتان وهما زوج من اللوحات العاجية منحوتة بشكل نقوش نافرة وهما متشابهتان كأنهما مصنوعتان بحيث تتكاد إحدهما تكرر الأخرى، ويظهر فيها أسد حامل رجلاً زنجياً يطرحه على الأرض من رقبته.

وهناك بعض الزخرفات النباتية التي تشكّل خلفية للأشكال الرئيسية مغطاة بالأوراق الذهبية مع صورة الأزهار تتكون على التوالي من المقيق الأحمر واللازورد الأزرق. وهناك نقش بارز من العاج وهو جذاب بالنسبة للذوق القديم، وكانت مجموعة تمثل بقرة ترضع عجلها.

وكانت المنحوتات العاجية متقنة الصنع في وصفها وتصويرها للحيوانات، وهناك بعض المنحوتات العاجية التي تشمل مجموعة من الأجانب وقد جلبوا الجزية المولفة من الحيوانات، مثلاً أحد الأشخاص النوبيين يحمل قرناً على كتفه ووعلاً إلى جانبه وجلد فهد فوق ذراعه الأيمن.

وهناك عدد كبير من العاجيات المنقوشة بشكل نافر وبعض الأشكال الفراغية من التي تستحق الوصف أو الرسم لو سمح المجال بذلك، وكان هناك أيضاً تقنيات فنية مختلفة، مثلاً: نحت شرائط عاجية بشكل نقش نافر غير عميق

على كلا الجانبين أو أشكال ونماذج (كاريكاتيرية) وهي تمثل امرأة تقوم مقام عمود في مبنى.

وكذلك ألواح من الأعمال المفتوحة (وهو عمل يُرى من خلفيته ويترك أشكال الأشخاص واقفة بحرية في إطارها) وكذلك التقنيات الضخمة (تتألف من نقوش نافرة عليها مواضع منقوشة).

ولكن الكتلة الكبيرة من الحاج المنحوت تتألف من ألواح صغيرة ليست منقوشة نقشاً نافراً بل كانت المشاهد محزّزة، وكانت هذه تُولف بصورة عامة جزءاً من الخزاف في المفروشات مع أنها متواجدة بشكل مُستقل بشكل أشياء من الأمشاط، والملاعق أو غيرها، وعلى وجه التقريب أي: رسم أو مشهد موجود على النقوش البارزة أو الرسومات الجدارية من الممكن أن يظهر في هذه الاحتفالات مثل الحيوانات (سواء كانت طبيعية أو خرافية أو رموزية) وكذلك مناظر الحرب أو مناظر الصيد أو الاحتفالات الدينية أو النماذج الهندسية أو المناظر الطبيعية.

الأختام الأسطوانية

لا ينبغي علينا مفادرة بحث الفنون الآشورية دون ذكر الأختام الأسطوانية، وكانت الأختام مصنوعة من نوع الحجارة منسجمة من الحجر الكلداني المادي حتى اللازورد الثمين.

وأما طولها فكانت تتدرج من أقل من إنش حتى حجم الإبهام، وهي تحمل تصميمات منقوشة مصهوبة أحياناً باسم ولقب حاملها.

ولقد استعملت هذه الأختام ابتداء من أقدم عهود السومريين وكانت تُدحرج على قطعة كبيرة من الفخار وتطبع على أريطة البضائع وذلك لضبط البضاعة منعاً للمزفة.

أو أن يطبع على الوثائق الرسمية كتأكيد على إعطاء الثقة بالفرق المتعاقد أو الشهود، وفي الأزمنة المتأخرة كان للختم ثقب مفسور بشكل طولاني بحيث يمكن أن يُربط بخيط ويلبس.

وتقع أهمية الأختام الأسطورية في التصميمات التي تحملها، وتكون هذه أحياناً ذات أهمية وجاذبية جمالية ولكن بالنسبة لمؤرخي الفنون فإن الشيء المهم هو وثيقة البواعث والأساليب ومطابقتها مع تطور الفنون الآشورية.

لدينا بعض المعلومات عن هذه مستقاة من الأختام الفعلية التي اكتشفت في الحفريات (أحياناً تحفر بشكل غير قانوني من قبل الأهالي في البلد نظراً إلى أنها سهلة الحمل وغالية الثمن) وأيضاً من طباعة الأختام على ألواح من الفخار.

هناك عدد كبير من طبقات الأختام تعود إلى الفترة الآشورية الوسطى (على العموم القرن الرابع عشر قم) وهي مطبوعة على ألواح من الفخار من آشور بالإضافة إلى عدد كبير من الأختام الفعلية.

وكان القرن الرابع عشر زماً بدأت فيه آشور تتخلص من تأميمها لميتاني وعندما كانت بابل في الجنوب لا تزال محتفظة ببعض سمات عظمتها الماضية، وتحتوي الأختام الآشورية في العصر المتوسط أمثلة تُظهر نفوذ البواعث والأساليب المثبتة في هذه المناطق.

ولكن الأساليب الآشورية الخاصة كانت تتطور أيضاً، وكانت موضوعاتها مرتبطة بالعناصر التي وجدت في أوج ازدهار الفنون الآشورية المتأخرة لاسيما بالنسبة للنقوش الفاخرة المذكورة آنفاً.

وما بين هذه الموضوعات تجد أزواجاً من الحيوانات المجنحة المتناظرة، وكان الواحد منها غالباً ما يواجه الآخر على شكل جانب من جوانب الشجرة المقدسة.

وكذلك القرص المجنح أو أحد الأبطال في المعركة أو مناظر الصيد بواسطة المزيات وتظهر بعض هذه المناظر أنها من المجال الخرافي وهي توحى بأنه كانت

الأعمال المشابهة في النقوش النافرة المتأخرة لها أحوالها في إضفاء صفة العلمانية على ما كان يُعرف مثلاً بالموضوعات الخرافية.

ولكن ومع تلك المناظر التي كانت تبدو خرافية، فإن الأختام الآشورية في الأزمنة المتوسطة كانت تشتمل على أمثلة من مناظر الحيوانات ذات الخلفيات الطبيعية مثلاً: الماعز الذي يرتع بجانب شجرة أو الغزالان الوافدة بجانب الأشجار. وإن هذا الاهتمام الذي أبداه صانعو الأختام بالحيوانات البرية والمناظر الأرضية من الممكن اعتباره جداً تلك المناظر الحية التي وجدت فيما بعد في الألواح التي تحمل نقوشاً نافرة.

إن الأختام الأسطوانية التي تطورت وتحسنت من البدايات الآشورية المتوسطة، تشمل مناظر طقوسية وبصورة خاصة عدداً من الأنواع المختلفة للشجرة المقدسة التي وجدت أيضاً في النقوش النافرة ولكن فوق كل شيء كانت مناظر الصيد ومناظر القتال حيث تظهر الآثار النافرة من المناظر الخرافية (مثلاً الحيوانات المجنحة والطيئات هذه المناظر تظهر أحوال هذه الطقوس في هزون منطقة ما بين النهرين القديمة).

ولكن وينفس الوقت كانت تحتوي على حيوية تشير إلى الطريق التي تؤدي إلى اللوحات المجسمة والنقوش النافرة التي تصوّر الحيوانات في عهد آشور بانيبال.

الفصل السادس عشر

الجيش الآشوري

إنه وفي أثناء القرن الأخير أو ما يقارب القرن الأخير من عمر الإمبراطورية الآشورية كان هناك عدد قليل من الناس لم يتأثروا بتلك الإمبراطورية بصفة أو بأخرى وكانت النواحي التي تأثرت فيها الحياة اليومية (سواء تأثراً حسناً أم سيئاً) إنما هي القضايا الاقتصادية والإدارية.

ولكن النقطة التي دخل الإنسان منها إلى حالة النعاس المباشر مع دولة آشور بانيبال كانت غالباً هي الجيش الآشوري، وهذه هي أيضاً النقطة التي استطاع القارئ الغربي الحديث (إذا كان قد تعرّف على التوراة) أن يواجه الآشوريين لأول مرة نظراً لأن السفر الثاني من كتاب الملوك (أشعيا) ٣٦-٣٧ يكرّس سفرين (الـ ١٨ والـ ١٩) لقضية حصار أورشليم وهناك ثلث من أسفار أخرى تكرّس لهجوم الآشوريين على مملكة إسرائيل الشمالية.

استطاعت آشور تجييش الجيوش التي كان يبلغ تعدادها مئات الألوف من الرجال، ولكن أنشطة الآشوريين العسكرية لم تكن متمثلة بالحملات الحربية على ذلك المقاس.

وقد تمت بعض العمليات العسكرية عن طريق قوى صغيرة أو عن طريق الحاميات التي كانت تسيطر على النقاط المفتاحية وكان تعداد هؤلاء الجنود بضعة دزينات هسب.

ولكن ومهما كان حجم هذه القوى فقد كان استخدامها الفعال يعتمد على عاملين أساسيين وهما التنظيم والانضباط.

لم يكن جيش آشور العظيم عبارة عن قطع من الفلاحين المتعطشين لسفك الدماء تدعّمها قوة من الفرسان الرهيبين الذين لا هم بينهم سوى الفنائم، ولكن في الحقيقة كان الجيش منظمة معقدة تتألف من وحدات متخصصة من عدة أنواع،

وكان نواتها هي الجيش المرباط وكان هذا الجيش مكلفاً بمدة مهام وواجبات على أسس دائمة.

أولاً: كان توظيف الأمن الشخصي للملك الأمر الذي استدعى وجود المحرم الخاص الدائم.

وأيضاً: كان هناك الحاميات الدائمة المتواجدة في نقاط مفتاحية مختلفة في الإمبراطورية وهذه تستلزم تزويد هذه الحاميات بالرجال والعتاد بشكل دائم وعلى أسس من الأمد الطويل.

وهكذا فإنه لن يستطيع أحد سوى الرجال المحترفين أن يؤمنوا هذه الواجبات، ولهذا فقد كان بعض هذه الحاميات مبرولاً بشكل مباشر أمام الملك وليس أمام الولاة المحليين، وقد بدا هذا واضحاً من التقارير التي كانت ترسل إلى الملك من قبل هؤلاء هذه الوحدات.

إن إحدى هذه الوحدات من الجيش المرباط والتي نسمع عنها الشيء الكثير، كانت مجموعة من الجنود من أصول قبلية تسمى (الإنثو) ومن ناحية عرقية لم يكن هؤلاء من الآشوريين، بل كانوا مجموعة من الجنود من أصول قبلية آرامية من جنوب آشور وهم قرييون من مدينة آشور.

ولقد كان هناك في يوم من الأيام مزعجون للسلطات الآشورية ولكن لقد تم إخضاعهم تماماً.

وعندما نسمع عنهم في المراسلات الملكية ابتداء من أواخر القرن الثامن فصاعداً نجد أنهم قد أصبحوا وحدة متميزة يمكن الاعتماد عليها في أداء واجبات خاصة، ونجد مثلاً أنهم قد جلبوا لإعادة النظام في منطقة لبنان عندما تمرد أهل صيدا بسبب الضرائب وقتلوا أحد مفتشي الضرائب.

هذا وإن قضية (الإنثو) تظهر أن الجيش الآشوري لم يكن مقتصر على الآشوريين فقط، إذ وكما ذكرنا سابقاً لم يكن لدى الآشوريين أي تمييز عنصري وقد أدخلوا الشعوب التابعة لهم في جيوشهم واعتبروهم على قدم المساواة مع الآشوريين الأصليين، وكانت كل مجموعة عرقية تحتفظ بشخصيتها وهويتها

بالنسبة لأغراض القتال وكانوا يؤلفون فوجاً أو وحدة صفرى ويحتفظون بأنواع أسلحتهم وأشكال ملابسهم المستعملة في مناطقهم الأصلية.

وهكذا نجد في لوحات النقوش النافرة مبوراً لمجموعات من رماة السهام ورماة المقاليع والسيافين وقرق المشاة الخفيفة وقرق المشاة الثقيلة الذين يتميزون بأحذيتهم الثقيلة وملابسهم وأغطية رؤوسهم فضلاً عن أسلحتهم، ولكن هؤلاء المحاربين كانوا بحاجة إلى الدعم التقني وتخبرنا الأضرار والنصوص بوجود وحدات تقنية متخصصة.

وكان هناك عربات حربية تستخدم في ميدان المعركة مرافقة للجيش، وعربات لنقل المعدات اللازمة التي كانت تشمل الطعام والخيام وقطع خاصة من المعدات مثل آلات الحصار والمنجنيقات، عندما أصبح الطرق صعبة بالنسبة لمرور عربات النقل والعربات الحربية وعندها أصبح الطرق مقفلة.

وكان فتح الطرق من وظيفة جنود الاستطلاع المجهزين بالفؤوس البرونزية والنحاسية، وفي بعض الأحيان كان الجيش يصادف نهراً لا يمكن الخوض فيه وعبوره وكان هذا يقتضي إنشاء أطواف أو جسور كانت تضمها جنود الاستطلاع، وكانت الأطواف من نوع الكميلك.

أما الجسور فكانت جسوراً من القوارب أي: الجسور المتشكلة من قوارب مصقوفة عبر مجرى النهر وتوضع فوقها الألواح الخشبية التي من الممكن أن تصبح ممرات للمرات الحربية.

وبعدها وعندما يصل الجيش الأشوري إلى إحدى المدن المراد حصارها عندها يستعان بجنود الاستطلاع مرة ثانية لوضع المنجانيق والسهال وأعمال حفر الخنادق.

وكان هناك عدد من الموظفين فقة وهم الكتبة الذين يسجلون النتائج وتفاصيل الحملة الأخرى.

وكان هناك فئتان من الكتابة الفنة التي تكتب بالخط المسماري على ألواح من الفخار ، والفنة التي تستخدم الحروف الأبجدية الآرامية التي تكتب على الرقوق أو على أوراق (البابيروس) المستوردة من مصر ، وكان هناك أيضاً المترجمون ورجال المخابرات.

وكان لدى الآشوريين أيضاً ما يمكن أن نسميهم بشكل فضفاض ومهلل دائرة القساوسة ، وكان هؤلاء مهتمين بالشؤون الدينية ولم يكن لديهم أي علاقة بالاعتناء بالجنود وأرواحهم.

والملاك المذكور من الموظفين كان ملاكاً دينياً وكانوا يرافقون الجيش ، وبالنسبة فلم يكونوا منشغلين بتوضيح القرابين فحسب بل أيضاً في تفسير وعمل التبرعات الفلكية عند الضرورة.

ويبدو أنه وبسبب تعاملهم مع التبرعات الفلكية فقد لعب بعضهم دوراً مهماً في الحفاظ على الأخلاق العامة.

ونحن نعلم عن كثير من الأزمات التي ساهم المتدينون في الجيش في إعطائها قالباً من الفال الحسن ساهم في تقوية معنويات المحاربين في الأوقات الصعبة ، وهكذا عندما اغتيل سنحاريب عمده ابنه أسرجدون للتحرك ضد جيش قاتلي الملك وقد كُتبت رساله من الآلهة تؤيد أسرجدون مما ساعد على تقوية قلوب جيشه وزرع الخوف عند قاتلي الملك.

ويروي آشور بانبيال أيضاً طالاً حسناً تلقاه من أحد المتدينين في زمن قيامه بحمله ضد أخيه المتمرد وهو ملك بابل.

وقد تكتب على قاعدة تمثال إله القمر مليلي : (بالنمبية إلى أولئك الذين يتآمرون ضد آشور بانبيال ويوزعون العداوات إنني أدعو عليهم بالموت البقيض ، ومن خلال الخناجر الحديدية اللامعة وبالحرائق الملتهبة ومن خلال المجاعة والاطاعون سوف أنهي حياتهم).

وفي مناسبة أخرى واجه الجيش نهراً قد أحدث طوفاناً فاصابه الدُعر، وفي الحال استلم المتبزيون والموظفون الدينيون تواصلاً إليها سبب لهم الطمأنينة.

(رأى الجنود نهر (أديدي) وهو هائج لذلك فقد خافوا العبور ولكن الإله عشتار التي كانت تعيش في إربيل أرسلت مناماً إلى جنودي في الليل وقد أخبرتهم (إنني وبنفسي سوف أمشي أمام آشور بأنهبك ذلك الملك الذي خلقته بيدي) وهكذا فقد تطمعت جنودي من جراء ذلك المنام وعبروا النهر بسلام).

ويظن أنه كان بين الموظفين الذين مع الجيش من الذين يقومون بملقوس الجنائز بالنسبة للذين ماتوا في الخدمة العملية، مع أنه ليس هناك من شاهد متوفر ومن الممكن أنه كان هناك خطر أو منع الإشارة إلى عدد الأموات الآشوريين في الحرب.

والحقيقة أنه عندما تعلن قائمة الإصابات في نقش رسمي فإن أعداد الموتى المصرح بها تكون صغيرة بشكل لا يُصدق.

مقدمات الرعة العسكرية الآشورية

لم تكن آشور دولة مهيأة للحرب دوماً، ففي بداية الألف الثاني كانت الأهمية العظمى للدولة مؤسسة على الجيش وكانت مدينة آشور مركزاً تجارياً لها مستعمرات تجارية في المناطق الأخرى بعضها يصل إلى أواسط الأناضول، والحقيقة أن المنصر التجاري مع أنه قد طغت عليه النزعة العسكرية لم يخف نهائياً كمنصر مرموق في حياة الآشوريين.

ففي زمن انهيار الإمبراطورية الآشورية وانطوائها في نهاية القرن السابع قـم وقد انتقد هذا أحد أنبياء بني إسرائيل بقوله: (لقد ازداد عدد تجاركم أكثر من عدد النجوم في السماء (ناحوم ١٦: ٢).

ومع ذلك فقد انخفضت أهمية التجارة في القرن السابع في آشور بسبب الحروب، وهكذا كانت الحوليات الآشورية تتكلم في شؤون الحرب ولم تتكلم

في شؤون التجارة ولقد بدأ التغير بعد تسلم الميثانيين على آشور في القرن الخامس عشر.

وقد اضطرَّ الآشوريون أن يحاربوا لاستعادة استقلالهم وبعد استعادة الاستقلال لم يمد لديهم حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها وفي الوقت نفسه يُحافظ على أمن الأراضي المزروعة بالذرة والفلأى بالمراعي التي شكلت نواة الملاحكة الآشورية، وهكذا ظلوا أنهم قادرون على حماية أنفسهم من خطر تكرار الاحتلال والنبعية السابقة وذلك عن طريق التوسُّع إلى المناطق التي من الممكن أن تأتي التهديدات منها.

وهكذا فقد تقلبت آشور على التهديدات الأتية من ميثاني وذلك باحتلال ميثاني نفسها، وما بقي منها.

ولممكن بعد أن أصبحت ميثاني على الحياد مكان هنالك في طور عابدين جبال في الشمال الغربي وفي الشمال والشمال الشرقي شعب شرس جبلي مستعد دوماً لفزو السهول الآشورية، وإيقافهم عند حدِّهم اتخذت آشور زمام المبادرة وذلك بالقيام بفارات وحملات خلال الشرائط المعادية للجبال، ولممكن ذلك لم يكن يضمن سوى سلام هش من الممكن أن يزول لمجرد انسحاب الجيش الآشوري من تلك المنطقة.

وهذا أوجب بذل محاولات تضمن الأمن في تلك المناطق مما يجعلها بلداً عملية تجارياً أو بفرض الإدارة الآشورية المباشرة، ولممكن حتى لو أجبرت منطقة معينة على التهادن مع آشور إلا أنه كان وراء ملك المنطقة التهديد القديم للأمن الذي سوف يعود للظهور، الأمر الذي جعل آشور مستتفزة دوماً طلباً للاستقرار.

ولقد كان هذا العامل في التوسع تعززه وتدعمه الاعتبارات الاقتصادية فقد كانت الجبال مصدراً من مصادر الخشب اللازم لبناء المدن الجديدة، ومن الممكن تجهيد المجتمعات القاطنة في وديان الجبال لجلب هذا الخشب، وقد كانت تلك المجموعات من شعوب الوديان تنتج المعادن وتربي الخيول، وكلا هذين الصنفين كانا غنيمة بارزة يتوق الآشوريون للحصول عليها.

وهكذا أصبحت الفوائد الاقتصادية وطلب الأمن عاملين أثرا على نمو حركات التوسع الآشورية بعد القرن الخامس عشر ق م، ولقد اقترح أنه كان هناك عامل أيديولوجي، فقد كانت إرادة الإله آشور أن يوسع الملك أملاكه، فالأوصاف التي أضيفت إلى اسم آشور ظهر أنها مظهر من هذه المظاهر، فهو الذي يستطيع أن يهزم جميع العصاة، والذي يبعثر الأشرار، وإن الذي يعمل ضده هو الذي لا يحترم كلمته، وإنه الواحد الذي لا يستطيع الشر أن يهرب من شبحه.

وكل هذه الجمل كانت تأتي في سياق الإساءة إلى الإله آشور إذا عارض ذلك الجبروت العسكري الذي تتمتع به آشور، وهناك أحد الباحثين المتميزين يذهب إلى حد القول عن التوسع الآشوري الإمبراطوري بأنه نوع من اللاهوت الديني الذي يبرز الحرب الحقيقية، وهذا الرأي مؤسس على الادعاء بأن الإله آشور سوف يحكم جميع البشرية.

يظهر أن الأيديولوجية اللاهوتية سوف تحاول أن تضع التوسع الإمبراطوري الآشوري في مستوى أعلى كليا من تلك الفوائد السياسية والاقتصادية المجردة، ولكن لا يمكننا فصل الأيديولوجية عن الاعتبارات العملية فليس هناك من شاهد أنه في بداية الألف الثاني ق م قد قام الإله آشور بالادعاء بحكمه للعالم بأكمله، إذ إن هذه الفكرة إنما تتبع من فكرة التوسع الآشوري.

ويبدو أن اللاهوت لم يحض على اتباع سياسة توسعية بل لقد حاول أن يعكس ويعطي تمبيراً دينياً لتلك السياسة أثناء تطورها.

وهكذا فإن النظام اللاهوتي بالنسبة للحرب المقدمة لم يكن القوة الدافعة المستقلة بنفسها بل نوع من التفسيرات بمصطلحات الخرافة لما كان يحدث فعلاً تحت دوافع القوى الاقتصادية والسياسية، ولكن وبما أنها قد حدثت فقد خدمت لتدعم وتحافظ على الزخم الإمبراطوري الآشوري، وهو يمثل ككشي لا يعتبر مجرد جواب بشري على الظروف المريعة فحسب بل يعتبر نشاطاً قد تقرر على مستوى إلهي.

وغالباً ما يشير الملوك الآشوريين لمهمتهم الإلهية ، وهكذا نجد أن تفلات
بيلاسر حوالي ١١٠ ق-م يخاطب الآلهة ويتكلم عن نفسه بضمير الغائب ويقول:
(لقد وهبتموه قوته المصيرية لامتلاك السلطة وقررتم أن ذريته العالية المقام
بين الحكمة سوف تظل إلى الأبد واحدة في المعبد)) (أي: المعبد الإلهي القومي
آشور).

وبعد أكثر من أربعمائة عام يدعي أسرحون: ((بأن الآلهة قد فوضتني بالعمل
ضد أي بلاد قد أذنبت ضد الإله آشور)).

وأضاف قائلاً: ((لقد خولني آشور أبو الآلهة إجلالاً سكان وإعادة توطي
سكان آخرين لكي تصبح حدود أراضي آشور أوسع)).

وأما الملك سرجون فيضرب مثلاً في حولياته على الاعتقاد بأن لآشور مهمة
دينية بأن يحكم ، وفي معظم الحالات فهو لا يقدم قصة حملاته بالقول والتصريح
عن كل الأمكنة التي ذهب إليها بل كان يفضل أن يعطي تبريراته لهذه الحملة
هكذا:

((في السنة الخامسة بحكمي لقد أذنب (ببسميري) ملك كركميش بحق
عهد للآلهة العظام واستمر في إرسال الرسائل إلى (ميتا) ملك بلاد موسكي التي
تضمر العدا لآشور لذلك رفعت يدي إلى سيدي الإله آشور عندها وقع ببسميري هو
وعائلته أسرى بين يدي)).

أو مرة ثانية نراه يتكلم عن الإجراء الذي اتخذته ضد الكلداني (أبال -
إيدينا) وهو الملك المُقْتَصِب للسلطة في بابل وهو يظهر أن عمله كان متناسقاً مع
إرادة الآلهة وهو يقول:

((ولدت اثني عشر عاماً لقد مارس الحكم والسيطرة على بابل مدينة الإله
وبذلك بمكس إرادة الآلهة ، هذا وإن مردوخ السيد الأعظم الذي فكره الأعمال
الشريرة لهذا الكلداني... وقضى أن ينزع منه صولجانه الملكي وعرشه ، كل ذلك
كان مرسوماً بين شفتيه ، ولقد ناداني أنا سرجون الملك المتواضع وراح رأسي

عالياً ، ولكي يبعد الكلداني وهو العدو اللدود والشرير فقد عظم شأن
اسلحتي)).

الحرب النفسية

وبالانسجام مع إحساس الآشوريين بمهمتهم الإلهية فقد عمد هؤلاء إلى فرض
التوعي بهذه المهمة على الشعوب الأخرى ولكي يحافظوا على الاستقرار عبر منطقة
الشرق الأدنى ذلك الاستقرار المؤسس على أحقية السلطة الآشورية ، فقد كان من
الضروري إقناع الشعوب الأخرى بأنه من العبث مقاومة آشور.

وكان من الواجب القيام بهذا عن طريق إظهار القوة الشاملة لأشور من جهة
ومن جهة أخرى عن طريق الدعاية ، ولم تكن هاتان الوسيلتان منفصلتين أو غير
متصلتين ، هذا وإن إظهار قوة آشور بما فيه مماقية أولئك الذين أذنبوا بالنسبة إلى
آشور وأهانوها ، لم تكن موجهة ضد أولئك الذين عانوا بشكل مباشر فحسب بل
أيضاً ضد الذين سمعوا بتلك الإهانات عن بُعد.

وهناك مراجع متكررة في الحواريات الآشورية تشير إلى الملك الذي سبب جام
غضبه على الأعداء ما يمكن أن نترجمه بأنه سوف يسبب الخوف الرهيب ، ولقد
استعملت عدة كلمات أكادية للدلالة على هذا ولكنها جميعاً تمتلك نوعاً من
الفارق الدقيق فهي تشير إلى نوع من الفرع المملوء بالخوف الذي يأتي من مقابلة
شبه على المستوى الإلهي.

وهكذا فإن الملك الآشوري عند تنفيذ بعض الأعمال التي تشمل أحياناً
الأعمال الفظيعة الشنيعة التي توقع الذعر في الأعداء هذا الملك كان يفكر
بنفسه أنه كان يدخل مخافة الله في أولئك الذين من الممكن أن يفكروا
بمعارضة آشور ، وهذا يمثل استعمال الآشوريين بشكل واع للإرهاب ليس لأسباب
سارية بل لأجل الحرب النفسية.

وهنا يشير سنحاريب فعلاً إلى الحقيقة التي مفادها أنه قد أزعج نفسه بإجراء
تظاهرة تحديدية ضد عيلام ، ولكن الموت المفاجئ للملك عيلام بعد أقل من ثلاثة

أشهر قد نُصِبَ على العرش أخاه الأصغر الذي لم يكن يملك من الذكاء والفطنة ليستنتج الاستنتاج المناسب ويستخلص العبرة المناسبة فيما يتعلق بمطمة آشور، ومن وجهة نظر سنحاريب فإنه من غير المناسب وليس من المتوقع أن تتدخل عيلام في شؤون بابل (وهي التي تدخل تحت النفوذ الآشوري) وذلك بعد إظهار آشور لقوتها.

ولقد تأكد من موقف سنحاريب لتلك الحقيقة التي مفادها أن اختار الملك الميلاسي الشاب إلى الذكاء والفطنة أشير إليه ثلاث مرات من خلال عدد من النصوص.

تظهر نتائج السياسة الآشورية الطبيعية المنتظرة في تلك الحادثة التي عمد فيها الملك آشور باتيئال إلى تخريب منطقة من الأراضي المنية (في شمال غربي إيران) وصب جام غضبه عليها، ونتيجة لذلك فقد اغتيل الحاكم المناوئ لأشور على أيدي رعيته واستلم المحكم الوسين ابنه الموالي لأشور.

ويذكر الملك سرجون بصراحة أن انتصاراته كان لها مظهر من مظاهر الدعاية.

وبعد قهره لقوى مملكة (أوراتو) وحلفائها بعد حملته الرئيسية عام (٧١٤ ق.م) يقول: (إن بقية الناس الذين فروا حفاظاً على حياتهم، قد أطلقت سراحهم ولكي يمجّدوا النصر الذي أحرزته سيدي الإله آشور.

ولقد مات بعض هؤلاء التسماء المباحين نتيجة لتصرفاتهم في الجبال ولكن ناضل الآخرون للرجوع إلى بيوتهم حيث إن روايتهم المزعبة حول القوة التدميرية المضارية لأشور وللجيش الآشوري أصابت المستمعين بالهكم.

ويقول سرجون: (لقد كان قوادهم من الرجال الذين كانوا يفهمون معاني المعارك والذين هربوا أمام أسلحتي وصلوا إليهم وهم مضطربون بسبب الموت ورووا لهم عن عظمة آشور بحيث إنهم أصبحوا وكنانهم رجال موتى).

ومن الممكن رؤية نفس مبدأ الحرب النفسية الذي قصد به تخفيف الحاجة إلى العمل الفعلي من الممكن رؤيتها في التوراة عند حصار اورشليم، فقد أمر

القائد الآشوري على الإعلان باللغة العبرية وذلك ليفهمه كل الناس وكل المواطنين ويمد ذلك أكد بهذه المناسبة أن ليس هناك من بلد قادر على مقاومة قوة آشور بنجاح.

وقد قال: (هل استطاع أحد الآلهة عند الأمم أن يخلص بلاده من سطوة ملك آشور؟)

لقد أظهر المظهر النفسي للحروب الآشورية عن طريق الأسلوب الذي استعمل في تصوير النقوش التافرة لمشاهد الحروب، ففي قصر آشور ناصر بمل في كالاخ كانت مشاهد الحرب هي السائدة والنقوش التافرة ولكن في القاعة التي كانت تستخدم كمقر اجتماع المستمعين فقط.

وإنه لاستنتاج معقول أن نذكر أن سيادة المشاهد الحربية إنما كانت للتأثير على رؤية ووعي الزوار من الحكام والسفراء لمظلة آشور وقوتها العسكرية، أما في الفسوف الأخرى في القصر فقد كانت مخصصة للموضوعات الدينية أو الاحتفالية.

وقد كان بعض الفطاعات التي اقترعها الآشوريون مظهرًا من مظاهر الدعاية، فلم تكن مجرد أعمال عقاب ولا مجرد سيادة، إذ هناك مثال مناسب لهذه الفكرة ما وقع لسرجون الثاني ففي الجانب الآخر من جبال زاغروس على السفح المقابل لآشور في شمال غرب إيران وإلى الجنوب من بحيرة أورما كان هناك شعب (المانيان) الذين كانوا في وضع غير مريح لوقوعهم في منطقة عازلة ما بين دولة آشور ومناقصتها الشمالية الرئيسية وهي مملكة أورارتو في أرمينيا.

وفي عام (٧١٦ ق.م) كان ملك المانيان موالياً لآشور، ومع ذلك فقد أقتنع ملك أورارتو اثنين من الحكام المانيين بأن يقوموا بالمصيان ضد الملك الموالي لآشور ثم قتلاه، وعندها بدأ سرجون بالعمل وهو يقول:

((لقد رجعت يدي لآشور ورجوته أن ينتقم من المانيين ويرجع أراضيهم إلى حدود بلاد آشور، ولهذا فقد استجاب لي الإله وأمسك بأحد الحكام المتمردين وسلخ جلده، ثم عرضه أمام المانيين)).

ولم يمكن هذا مجرد عقاب وحشي، فقد كانت الدعاية تقتضي تأكيد حماية الأنشطة الموجهة ضد الحكم الآشوري والتمرد ضد الملك الموالي للآشوريين بشكل لا مجال للشك فيه، ولذا فهم بعض الماتيين هذا الدرس.

هذا وقد اقتنع (أولوسونو) شقيق الملك المقتول ووريثه الذي كان قد عقد تحالفاً مع مملكة أورارتو بمد أن لمس الحملة التي اقترحتها.

ونرى سرجون يقول: ((لقد تجمع أولوسونو الماني مع جميع رجال بلاده معاً وأمسك بقدمي لذلك فقد أشقت عليه وقد غمرت لأولوسونو ذنبه وأرجمته إلى عرشه واستلمت الجزية منه)).

ومن الواضح أن سرجون لم يمكن مهتماً بإنزال عقوبة ضد أي شخص قد عارض آشور في أي وقت من الأوقات، فالجيش الآشوري كان أداة من أدوات الدولة وكانت القضية توجب الرضا إذا تم إرجاع أي حاكم معام إلى الحضيرة، وأن يصبح تابلاً وموالياً بمجرد إظهار القوة.

وحيث كان الممارضون المهزومون يتمرضون للمعاملة القاسية كما كان الحال بالنمسية للحاكم المتمرّد المذكور أعلاه، لم يمكن هذا قضية تعذيب انتقامي بل كان موجهاً لإقامة مثال وإعطاء إنذار بإظهار ما حدث لأولئك الذين قاوموا آشور مقاومة نشطة.

وهناك مثال مناسب لشرح هذا المبدأ يقدمه لنا تصريح لأشور بانبيل، فهو يذكر في إحدى رسائله بمناسبة عصيان بابل أن جد سنحاريب قد قدم وزنة من الفضة مكافأة على قتل الزعيم المتمرّد، وقد قال إنه نفسه كان سيعطي هذا المال ذهباً مكافأة لجلب أي زعيم متمرّد ضده سواء كان حياً أو ميتاً، وإن الحقيقة التي مفادها أن المرض كان مجرد تسليم المتآمر ولو كان ميتاً، إنما يُظهر بوضوح أن غرض الملك هو إعلان مصير أي شخص متمرّد وليس الابتهاج المساري بإيقاع التعذيب على المتمرّد، هذا هو غرض الملك.

الجيش أثناء الحملات العسكرية

وطبقاً لما ذكره الملك سرجون فقد كان هناك موسم للحملات العسكرية وهو يصف هذا الموسم بكونه شهر الإله الأعظم والأقوى (نهنوترا) ابن الإله أنليل أقوى الآلهة الذي سجله رب الحكمة (نينشيكو) في أحد الألواح أنه هو المسؤول عن جميع الجيوش والمسيكرات بكاملها والشهر المشار إليه هو شهر تموز، وهذا أظهر حسن التدبير لدى رب الحكمة نظراً لأن الحملة سوف تتوجه إلى الجبال حيث ترتفع درجة الحرارة في سهول منطقة ما بين النهرين إلى درجة 120 فهرنهايت، وقد كانت هذه الفترة مناسبة لجميع الجيوش والإمدادات الوصلية لأن عمليات الحصاد تكون قد انتهت في نهاية شهر أيار أو بداية حزيران مما يقدم فرصة مناسبة للإسهام في الخدمة العسكرية من قبل الفلاحين.

ولقد كان تشكيل موسم للحملات عملاً من ابتداء الملك سرجون ولكنه لم يحافظ على مواعيده بانتظام نظراً لأن إحدى حملاته قد بدأت في شهر أيار مع أن ذلك قد حصل بشكل إجباري نظراً لحصول عصيان كان لابد من معالجته، ولمكن وبالتالي تأكيد وفي خلال القرن التاسع قم نجد أن الحملات كانت تبدأ في أي شهر من أشهر نيسان أو أيار أو حزيران أو تشرين الأول أو تشرين الثاني مع أن الملك المحارب آشور ناصر بمل العظيم كان يفضل شهر أيار أو حزيران وكانت الحملات في فصل الشتاء غير مرغوب فيها وغير عادية.

وإن أحد العوامل المسببة لهذا المنع هو أن الأنشطة الزراعية في آشور كانت تبدأ في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني بحيث كانت تحدث مشكلات خطيرة إذا كانت جموع المقاتلين بالخدمة العسكرية من الفلاحين وكانت لا تزال تخدم في الجيش في ذلك الوقت.

أما العمليات العسكرية التي كان من الممكن للجيش النظامي القيام بها لوحده فلم تتأثر بوجود هذا الاعتبار، ولكن العامل الثاني كان الطقس الذي كان يتحكم في العمليات العسكرية في الجبال في فصل الشتاء.

ومع ذلك فإننا نسمع من النقوش الملكية التي تتحدث عن الحملات أن هذه كانت مستمرة في شهر كانون الثاني وشباط، مع أن تلك التعليقات التي تتحدث عن الملحق الماكن كانت تذكر أن هذه التواريخ تعتبر من الأمور الشاذة.

القواعد العسكرية والتحذيرات اللوجستية

يحتاج الجيش المربط إلى قواعد دائمة، التي كانت تؤمن في العواصم المتتالية والتي نسمع عن وجود مجمع يدعى (الإيكاك مشارتي) وهو يعني حرفياً قصر المكان الذي يتجمع فيه الجيش (أي: الثكنات).

وكانت هذه الثكنات عبارة عن أبنية ذات باحات واسعة تستخدم لعدة أغراض، ولكن مع تزايد واجبات الدولة العسكرية أصبحت هذه الثكنات صغيرة فلا تستطيع تلبية الأغراض المنوطة بها.

وقد تحدث عدة ملوك بصراحة عن هذا الأمر إذ يخبرنا أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩) أن (الإيكاك مشارتي) في نينوى الذي أقامه الملوك الذين سبقوني وهم أجدادي وذلك لاستيعاب ترتيبات المعسكر وللغاية بالخيول والبغال والعربات ومعدات القتال والفنائم التي تُستخلص من العدو...

ذلك المكان قد أصبح صغيراً جداً فلا يتسع لتدريب الخيول وتمارين المرات. وتشير بعض النصوص الأخرى أن الأسلحة والتمرينات العسكرية كانت تخزن في (الإيكاك مشارتي) بحيث أصبحت هذه تولى ترسانة أكثر من كونها ثكنة، وكان فيها هيئة من الكتبة وهم يولفون دائرة قسم الأدوات.

كانت الثكنات الدائمة في العاصمة تؤدي أعمالاً أخرى عدا خدمتها كقاعدة للعمليات العسكرية، إذ إن وجود قوات ضاربة مستعدة لتقوية الملك ضد التهديدات أو العصيان ماعدا في حالة حدوث انقلاب يُعده قائد الجيش بذاته.

وربما كان هناك علاقة مباشرة بين الحقائق التي مفادها أن الملك شلمنصر الثالث هو الذي أسس (الإيكاك مشارتي) في كالاخ وأنه في حوالي نهاية حكمه

حدث عصيان كبير اشتركت فيه كل المدن الرئيسية ما عدا كالاخ، إلا أنه وبقاء كالاخ تحت سيطرته الناعة فقد انتصر هو ووريثه الشرعي.

لم تكن المواسم المتعاقبة على طول نهر دجلة هي التي خدمت كقواعد للعمليات العسكرية إذ إننا نسمع مثلاً عن وجود جيوش آشورية عاملة ابتداء من (أربيل) إلى مدينة تدعى : (كالهزي) إلى الجنوب الغربي من أربيل وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشرق من كالاخ.

ولقد بنيت قواعد في الأراضي المستولى عليها خارج آشور وكانت غالباً عبارة عن معازل قديمة للسكان الوطنيين وقد حطمت هذه المعازل واستخدمت لهذا الهدف، ولكن أطلق عليها أسماء آشورية مثلاً في سجل حملاته ضد أورثوا عام (٧١٤) يتحدث عن وجود قلعة حصينة استولى عليها في شمال غرب إيران ذات موقع استراتيجي بحيث تشرف على مقاطعتين وهو يقول:

(لقد عملت على تقوية ودعم هذه التحصينات في ذلك المعقل وجلبت لها الذرة والزيت والمعدات الحربية).

وعندما يبدأ الجيش بالزحف خارج قواعده وفي داخل الأراضي الآشورية عندها تصبح مسؤولية الحاكم تأمين المؤن المتوفرة وبالتالي فهي أراضي الممالك التابعة فإن هذا العمل يصبح واجب الحاكم المحلي.

وعند العمل خارج الأرض التابعة للدولة الآشورية فإن الجيش مسؤول عن تغذية نفسه من المؤن التي أخذت ككنائهم، وربما كان هذا الاعتبار هو الذي أملى عليهم اختيار الطريق داخل أراضي العدو دون الحصول على المواد الغذائية، وكانت الذرة والتبن تحمل من قبل الجيش وكانت متوفرة ككوجيات للجنود والخيول.

وكانت إحدى الفوائد السريعة للاستيلاء على إحدى المدن هو فتح باب أهراء الحبوب بحيث يستطيع الجنود أن يأكلوا حتى الشبع دون تحديد للوجبات، وكان هناك مشكلة المياه التي كانت تظهر في المناطق المأهولة بالسكان فإذا نفذت المياه كما كان يحصل في مناطق كثيرة من الشرق الأدنى فإن هذا كان

يؤثر على انضباط الجيش، وينسكب سرجون حالة قريبة من التمرد بسبب الإرهاق
وهلة المياه

ولقد صادف أسرحيون مشكلات بالنسبة للمياه أثناء غزو مصر ولم يستطع
أن يسير بجيشه بأمان خلال صحراء سيناء إلا بعد أن عمدت بعض القبائل العربية
إلى نجيته وذلك بجلب الماء للمساكنه في قُرْب موضوعة على الجمال.

الجيش أثناء تنقله

عندما كانت تقتضي الضرورة كان باستطاعة الآشوريين أن يقدموا إلى
الميدان القتال عدداً من الجنود يزيد على مائة ألف جندي، ويذكر سلعناصر
الثالث أنه قد يمر القرات باتجاه الغرب وهو يقود جيشاً تعداده ١٢٠ و ١٠٠ جندي،
عام ٨٤٥ ق.م وهناك إشارات أخرى تتفق مع هذا الرقم، ومن وجهة عديدة كان
الجزء الأعظم من الجيش الآشوري العظيم يتألف من مجموعات جمعت بمعرفة
الحكام المحليين.

ونجد ذكراً لعدد من المساكن جميعها تحت قيادة أحد الحكام تقدر
بـ (١٥٠٠) جندي من الفرسان و (٢٠٠ و ٢٠٠) من الرماة، ولما كان هناك حوالي
عشرين ولاية يستطيع هؤلاء جمع مئات الألوف من الجنود فإن هذا الرقم يصبح
صحيحاً وممكناً.

وهذا يتفق مع الإصابات التي تلحق بالمدى في معركة واحدة، مثلاً المعركة
التي خاضها سنحاريب في عيلام في هالولي عام ٦٩١ ق.م وقد ادعى سنحاريب أن
خسائر الميلايين كانت ١٥٠٠٠٠ قتيل ومن الممكن أن يكون هذا مبالغاً يقصد
بها الدعاية، ولكن إذا كنا سوف نصلق فإن العدد المذكور لا يمكن أن يزيد
عن الحجم الممكن للجيش الميلامي مع وجود أعداد مقابلة يمكن مقارنتها مع
الجيش الآخر وهو الجيش الآشوري.

وكانت المذبحة التي تلت عندما التقى الجيوش فالمركبة قد ظهرت في مناظر على ألواح النقوش النافرة مثلاً اللوحة التي تظهر أحد الطيور الكاسرة وهو يحمل أحشاء جندي مقتول.

ليس هناك سبب يجمعنا تفكر أن جميع الجيش الضارب في آشور كان يستدعى للخيمة ككل عام، فقد كانت بعض الحملات (التي ربما كانت تتم خلال شهر) تجري باستخدام قوى أقل عدداً أو ربما باستخدام الجيش المرابط فقط بخاصة عندما تحدث الحملة خلال الفصول الزراعية.

ويخبرنا أمritchون أنه وأثناء الجزء الأخير من حملته ضد أورارتو عام ٧١٤ ق م فقد أعاد معظم جيشه إلى آشور وقام بنضمه بمتابعة عمله فوق جبال صعبة التضاريس ولم يكن معه سوى عربة حربية والى من الجنود الخيالة.

كان ترتيب الزحف يعتمد على اعتبارات تكتيكية مثلاً الخوف من وجود كمين أو الحاجة إلى السرعة، ولقد سُجلت أخبار عدة حملات يقول فيها الملك بصراحة إنه تحرك دون إجراء احتياطات عادية، ودون استمراض الجيش أو دون تجهيز فرق النقل التي كانت تؤلف مؤخرة الجيش، وفي زمن سرجون الثاني كان الترتيب العادي للمسيرة عند عدم وجود أي اعتبارات أخرى كما يلي:

أولاً: سارت أعلام الآلهة بمرافقة موظفين دينيين وبعدها يأتي الملك راكباً عربة يصاحبه سائقو العربات والفرسان والذين يصنفهم بأنهم الفرق الحربية التي تسير على الجانبين (الحقيقة أن سرجون مات في إحدى المعارك).

وتفيد الدلائل أن هؤلاء الفرسان كانوا تحت إمرة الملك مباشرة وكانوا يولفون الحرس الخاص للملك، ورأس الرمح للهجوم ويأتي خلف هؤلاء القسم الرئيسي من الجيش الآشوري، وأخيراً تأتي فرق النقل التي تؤلف المؤخرة.

وتسمح لنا التفاصيل التي نحصل عليها من تحركات وحدات الجيش العسكرية أن نحسب أن الجيش كان يتقدم مسافة ثلاثين ميلاً يومياً وكان هذا سهلاً جداً بالنسبة للخيالة عدا عند مصلافتهم نداء ليس أرضية صعبة ولكن هذه المسيرة كانت صعبة بالنسبة للمشاة.

وعندما يدخل الجيش ميدان المعركة كانت الوحدات التنظيمية التي تألف نواة الجيوش الآشورية تظل في حالة تأهب واستتعار دائمة للدخول في المعركة، وهذا واضح مما قاله أسرحدون حول الحوادث في الزمن الذي اغتيل فيه والده سنحاريب عام ٩٨١ ق. م.

وكان أسرحدون عندما يفقد جيشاً متجهاً نحو الغرب ويخبرنا أنه عندما سمع الخبر وبعد أن تلقى نبوءة مشيخة من الآلهة...

((لم أتاخر يوماً واحداً، ولم أنتظر حتى اكتمال تعبئة جيشي، ولم أهتم بوحدة المؤخرة، ولم أهتم باستلام الخيول والمعدات وتجهيزات القتال، ولم أكون الملن اللازمة على الطريق، ولم أخش من الصقيع ولا الثلج الذي يسقط في شهر شباط ولا صمويل (الشتاء)).

وعلى العكس فقد بدأ بالحركة حالاً لملاحقة قتل الملك وقد كان هذا ممكناً لو كان لديه بين وحدات جيشه وحدات قتالية في حالة استعداد لدخول القتال فوراً.

لم تكن حملات الآشوريين كلها حملات قتال، فلقد حصل بعض الآشوريين خصوصاً بعض الملوك على متعة كبيرة عند اشتراكهم في مثل هذه الحملات العسكرية خصوصاً عند ارتقاؤهم التلال والجبال تلك الأعمال المنفصلة عن الاشتراك في المعارك، فالجبال إلى الشرق وإلى الشمال من آشور تتميز بمناظر خلابة وفي الصيف يكون الطقس مبهجاً جداً.

وقد سجل بعض الملوك انطباعاتهم أثناء ذلك فقد ذهل سرجون عند رؤيته مناظر جبال زغروس ولقد اقتبسنا تعليقاته الشعرية حول هذه ولكن ابن سرجون وهو سنحاريب كان أقل شاعرية ولكنه بكل ما يشمر بالبهجة عندما ذهب لتسلق الجبال.

وهنا نقف على قطعة نثرية كتبها عند صعوده أحد الجبال لطاردة بعض رجال الجبال الممادين له:

((لقد قُدت المجموعة مثل ثور وحشي هائج، ومعي حراسي الخاص المُتقنون، وعساكر الجيش الذين لا يرحمون عند المعركة، ولقد قطعت الوديان والسهول والوهاد والمنحدرات الخطرة وأنا محمول في محفَتين ولكن انطلقت ومشيت على قدمي لتأدية المطاردة حتى القمم العالية وكنت مثل الفزال، وعندما ثُمِيت ركبتي جلمت على صخرة في الجبل، وغَيَّبَت الماء البارد من فريقي لكي أطفئ ظمئي)).

المواصلات

كانت سرعة الحركة طبعاً عتِماً فعلاً في الحروب الناجحة وإن كثيراً من مناطق الشرق الأوسط خارج منطقة ما بين النهرين كثيرة المقبات التي تعمق التقدم، مثلاً الجبال الوعرة، الأراضي الصخرية أو الصحراء الواسعة، بينما هناك في السهول يجري نهر الفرات ودجلة وروافدهما المتعددة، وهي عقبات تؤخر تحركات الجيش.

وكان لدى الجيش الآشوري مواصلات بالمریات ذات المجالات وليس بالمریات فحسب بل أيضاً في مركبات تجرها أحياناً البغال وأحياناً الثيران وحتى الجنود، وكانت هذه تستعمل لنقل الملن والتجهيزات ولقد ذكرنا سابقاً استعمال المهندسين المسكرين لشق الطرق حيث تغطل التضاريس الطبيعية تقدم المريات والمركبات، وفي بعض الأمكنة حتى هذه الاحتياطات لم تكن عملية.

ولكن هذا لم يكن ليوقف تقدم الآشوريين، فقد كان الجيش يترك المريات ذات الدواليب خلفه لكي تجمع ههنا بعد، أو عندما يعلمون أن الطريق سوف يتعصّن فقد كان الجنود يذهبون المريات والمركبات بالأيدي وبذلك يتقلّبون على الصعوبات.

من الممكن أن تعمق الأنهار حركات الجيش الآشوري، لكن الجيش لم يتوقف، وحيث يكون خوض النهر غير عملي وخير ممكن فقد كان الجيش

يستعمل القوارب والأطواف المتوفرة وهي التي كانت تجلب مع الجيوش لهذا الغرض.

ويذكر آشور ناصر بعل عن بناء القوارب في إحدى المدن (التي كانت دون شك تحتوي على المواد المناسبة والمعدات المناسبة) حالما يقترّب من الفرات، وفيما يلي بضعة أسطر ذكرها لوصف الحوادث:

((إنه وبواسطة القوارب التي صنعتها وهي القوارب المصنوعة من الجلود، والتي حملتها معي على طول الطريق فقد عبرت نهر الفرات عند مدينة خريدي)).

وإن القوارب المصنوعة من الجلود تشبه الأطواف التي نسميها: الكيليك، ولم تكن هذه بدعة بالنسبة لآشور ناصر بعل نظراً لأنه في نحو (١١٠٠ ق. م) قد استعمل قنلات بلاسر الأول نفس الوسائل للوصول إلى الآراميين المزعجين الذين تواجدوا عند الجانب البعيد من نهر الفرات.

وفي أوائل القرن السابع قبل الميلاد صنع الملك سنحاريب طريقة طموحة لاستعمال القوارب وكان هذا أشاء حربية مع عيلام (جنوب غرب إيران) لقد كان هذا مشمولاً في مجرى حروبه مع عيلام، وإذا قبلنا الفكرة التي مفادها أن صانعي القوارب النهرية من الآشوريين كانوا غير أكفاء، لذلك فقد جلب بناء السفن من السوريين لكي يبنوا له السفن في نينوى، وهو يقول:

((إنهم سوف يستعملون أساليب صنع السفن في بلادهم)) وهو يعني: طراز السفن في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ويمد ذلك فقد أبحرت تلك القوارب بواسطة البحارة المتفوقين إلى أسفل منطقة نهر دجلة (إلى حيث تقع بغداد الآن) ومن هناك (نظراً لأن الجزء السفلي من دجلة غير قابل للملاحة) فقد نقلت القوارب بطريقة العمل اليدوي إلى نهر الفرات وهكذا حتى الخليج الفارسي حيث استعملت لنقل الجنود والخيول استعداداً للهجوم البحري.

لم يصاحب الملك جيشه دوماً في حملاته بل كان دوماً على علم بما يجري من العمليات، ونحن نعلم ذلك من المراسلات المتعددة التي كانت تجري والتقارير كان الضباط في ميدان المعركة يرسلونها إلى الملك يعلمونه بالأنشطة التي كان الجيش يقوم بها بشكل، أو أخبار الوحدات العسكرية المختلفة.

وكان الملك بدوره يرسل التعليمات إلى القواد العسكريين تشمل في بعض الحالات تعليماته حول المفاوضات مع الدول الأجنبية في المنطقة، وقد أصبح هذا الاتصال الجيد بين العاصمة والجنود الذين فيما وراء الحدود الآشورية ممكناً وذلك بسبب وجود نظام المواصلات الفعال.

وقد اشتمل نظام المواصلات الآشوري على نظام مخابرات عسكري، وقد أنشأ المعلومات المستفيضة حول هذا النظام من الحدود الشمالية الشرقية حيث كانت آشور تواجه مملكة (أورارتو) في أرمينيا.

ولقد زوّدت الرسائل المرسلة من الضباط الآشوريين في الجبهة بكثير من المعلومات حول استخدام الجواسيس للحصول على المعلومات حول مراكز الأورارتية ونواياهم.

وهكذا نجد أن بعض الضباط يرسلون تقارير إلى الملك حول حركات الجنود الأورارتيين مع إيراد التفاصيل عن الإعداد والطرق والوجهات المقصودة.

ونجد في إحدى هذه الرسائل أن خمسة خكام أورارتيين ذكرت أسماءهم قد جمعوا عساكرهم في مدينة ممّنة وكان من الواضح أنهم يستعدون للقهاق بحملة.

وبعدها هناك إضافة لهذه الرسالة: ((ويخصوص الأمر الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة حوله يقول: ((أرسل رجال دابالو)) ولقد أرسلت رجلين، وقد رجع بعضهم وقدم لي هذه المعلومات والبعض لم يرجع بعد من أراضي العدو)).

إن هذا السياق لا يدع مجالاً للشك أن رجال دابالو كانوا كشافين أرسلوا للحصول على المعلومات، وللحصول على مثل هذه المعلومات كأسماء الحكام في أراضي العدو فإن هؤلاء العملاء ينبغي أن يكونوا قد أجروا اتصالات مع جماعات

من أهالي البلد ودخل أراضي العدو إما بالحصول على الأسرى واستجوابهم، أو عن طريق الدفع للجواسيس تلك الأمور المعروفة للجميع.

لدينا رسالة تذكر كيفية الحصول على أسرى من العدو لاستجوابهم عن أوضاع الأعداء، مع أنه وفي هذه الحالة كان بعض المتمردين البابليين يحاولون عمل ذلك لاكتشاف تمرکز الجنود الآشوريين أثناء الاستجوابات الآشورية لضباط الوحدة المتفردة، واكتشفت أهدافهم وتحولت الأمور ونحن نعلم شكل هذه المعلومات من تقرير الضابط الآشوري إلى آشور بانيبال.

تشير التقارير التي أرسلت إلى الملك الآشوري أن المخابرات العسكرية لم تكن مهتمة بتحركات عساكر العدو وأحوالهم فحسب، بل بالقضية التي تؤثر على معنويات العدو، وهذا ■ علاقة ببعض التفاصيل للرواية التوراتية حول حصار اورشليم تحت قيادة منهاريب.

وبهذه المناسبة فإن التوراة تصف كيف أن القائد الآشوري (ريشافي) قد قام بهجوم للتأثير على معنويات المدافعين، وأن إحدى الخزائن الكثيرة لمحاولاته كانت تحديده لاعتمادهم على مساعدة إلههم يَهُوָه.

وكانت محاولاته التي تتحدى وتهدم ثقتهم أن يَهُوָه نفسه الذي نال حزقيا مقامه العالي ومُذْبَحُهُ قاتلاً لليهود ولأورشليم:

((إنكم سوف تميدون أمام هذا المذبح في اورشليم)) (٢ ملوك ١٨ : ٥٢).

وهذا كان إشارة إلى بعض الإصلاحات التي قام بها الملك حزقيا بضد إلغاء أماكن العبادة المحلية القديمة من جميع أنحاء فلسطين وتركيز العبادة في اورشليم.

ولقد ناقش بعض الباحثين في علوم التوراة قائلين: إن القائد الآشوري لم يقل ذلك لأنه لم يمكن يرق شياً عن هذه الإصلاحات إذا كان هناك حقاً إصلاحات، ولكن لم لا؟ وبالتأكيد على الأقل أن جزءاً من خطبة (ريشافي) ينبغي أن يكون قد أتى بشكل أو بآخر من شخص ما قد سمعها.

ولقد تحقق هذا دون أي مجال للشك عن طريق إجراء مقارنة مع رسالة بالخط المسماري مكتوبة إلى أحد ملوك آشور من قِبَل أحد القواد الذي كان يحاصر بابل قبل ثلاثة عقود من حصار اورشليم.

ويخبر هذا القائد في بابل الملك أنه خاطب السكان وحثهم على الاستسلام تماماً كما فعل (ريشافي) فيما بعد في اورشليم.

إن السجل التوراتي من الواجب أن يكون تمثيلاً حقيقياً لنوع الاقتراب الذي قام به القواد الآشوريون في هذا الوقت، ولم يكن بإمكان أي كاتب عبري أن يخترع حججاً وهمية قريبة من تلك الحجج التي أطلقها القائد القديم خارج بابل.

وإذا كان قد تأكد جزء من خلية (ريشافي) فليس هناك من سبب معقول أن نشك في مصداقية ذلك الجزء المتعلق بإصلاحات حزقيال، أو ربما سكان هناك كثير من عدم الرضا والسخط في يهوذا بسبب إلغاء الأشكال المحلية من العبادة للإله يَهُوَه التي كانت تتمتع بالقدم والقداسة التي اكتسبهاها من مخالطتهم للمطاركة وللنبي صموئيل، ولا شك أن (ريشافي) الآشوري قد جعل كل هذه المعلومات حول السخط الديني المنتشر واستعاد منه بذكاء.

هذه الحادثة التوراتية تجلب لنا ظاهرة أخرى من مظاهر المخابرات العسكرية الآشورية فقد كانت الجيوش الآشورية تحتوي أشخاصاً يتكلمون اللغة العبرية بطلاقة، مما سبب الذعر لدى السلطات في اورشليم.

وكذلك فإن الحقيقة التي مفادها أن القواد الآشوريين لم يكن لديهم أي مشكلة بالنسبة للتواصل مع الأوراثيين أو الأسرى الآخرين، كل هذا يدل أن الجنرال الآشوري كان يقضي في هيئة موظفيه مترجمين مناسبين في منطقة عملياته، فقد كان بلاط ملك آشور يحتوي على كثير من المترجمين الذين يتقنون عدداً من اللغات وذلك كما يدل النص الذي اهتمننا به.

التكتيك العسكري

لقد استطاعت الجيوش الآشورية أن تدخل التنوع في تكتيكها طبقاً للمناسبات فقد كانوا يشتركون في حرب المصائب في الجبال، وفي معارك نظامية في الأراضي المفتوحة، وفي حصار أي مدينة.

ولدينا روايات آشورية عن كل هذه الأنواع من القتال، وكان أكثرها دموية تلك المعارك النظامية بين جيوشين في ميدان مفتوح.

ويصف سنحاريب إحدى هذه المعارك عندما صدّ جيشه الجيش الميلاي الفارزي عن نهر دجلة عام (٦٩١ ق. م).

((لقد أتوا وكانهم أمشاط الجراد في الربيع، وكانوا يرغبون أن أشترك في معركة معهم، وقد كان الفيّار الذي يخرج من تحت أقدامهم ينطلي وجه السماء وكانه العاصفة القادمة في طقس بارئ قاسٍ

وقد رثبوا أنفسهم في نظام المعركة ضدي في (حاليومي) على ضفة نهر دجلة، وقد قطعوا طريقي مياه الشرب واستعدوا للمعركة.

(ولقد صلى سنحاريب إلى الآلهة لكسب المعركة ولهم دزعه، وركب عربته الحربية وبادر إلى العمل).

ويأمر من آشور الإله السيد الأعظم اندفعت على العدو وكانى عاصفة، ولقد هزمتهم وأرجمتهم القهقري، ولقد أثخن جنود العدو بالرماح والسهم.

ولقد قطعت حناجر جيش هومان - أنداشا القائد الأعلى لجهوش ملك عيلام بالإضافة إلى نبلائه وبدأت خيولي المعتادة على القتال تنفخ في دمانهم المتفجرة وكانها تخوض في نهر، وقد امتلأت دواليب عربتي الحربية بالدم والقاذورات.

وقد ملأت المنهل بجثثهم وجثث محاربيهم كما يمتلئ بالأعشاب، وكان هناك عربات مع خيولهم قد دُبح ركابها حالاً وصلوا إلى ميدان القتال، وهكذا تحررت الخيول، وبدأت الخيول بالرجوع والتحرك في جميع الجهات إلى مسافات تبلغ ساعتين مزدوجتين (حتى عشرة أميال).

وبالنسبة لشيوخ الكلدانيين لقد ساد الذعر من هجومي عليهم وكناتي
شيطان، ولهذا فقد هجروا خيامهم وهربوا حفاظاً على حياتهم، وداسوا على جثث
جنودهم وهم يهربون وفي لحظة ذعرهم من شدة خوفهم راحوا يبولون ويتغوطون في
عرياتهم)).

ولقد ادعى سنجاريب أن انتهزام الأعداء كان كاملاً بحيث خسروا 150000
رجل، وإذا اعتبرنا أن هذا العدد فيه مبالغة كبيرة وقسمنا العدد على عشرة فإن
الخسائر تظل جسيمة بالنسبة للمركة دامت بضع ساعات.

كانت المركة التي ذكرها سنجاريب قد اشترك فيها راكبو العربات
والمشاة بشكل كثيف وبمجل والبدن مرجون معركة كسبها من طريق
الفرسان، وقد وقعت في جبال شمال غربي إيران، فقد تراجع (روتسا) ملك أورارتو
مع حليفه الرئيس لاستدراج سرجون حتى (وذلك حسب رأي سرجون) امتدت
مواصلاته إلى نقطة انخفضت فيها معنويات جنوده وأصبح من الصعب عليه
السيطرة على جنوده كلهم، وعند ذلك أرسل (روتسا) رسلاً (وذلك تحدياً منه لي)
طلب منه أن يقرب ويشارك في القتال.

وعندها بدأ سرجون يصلي للإله آشور ولقد كان له أمسيابه، وهنا نجد أن
رجل التكتيك الألماني الشهير كلاوزيفتس يشير إلى ذلك في كتابه عن الحرب
كما يلي:

يا لها من أراضٍ جبلية غير مواتية بالنسبة للمعركة الفاصلة، ومن المقاومة
الهائلة التي تقدمها مجموعات صغيرة من الجنود في أرضٍ جبلية يصبح الرأي العام
متأثراً بأن جميع الدفاعات الجبلية هوية للقاية، إن الوصول إلى ملجأ دفاعي في
بلاد جبلية عند حدوث معركة فاصلة صعب جداً، لذلك فإننا ننصح أي قائد وقع
في مثل هذا المأزق أن يتجنب مثل هذه المعارك بقدر الإمكان.

ويمكن (رويا) فقد أدرك سرجون الوضع التكتيكي وقد انتهز الفرصة
التي سنحت له ويفضّ النظر عن المشكلات بالنسبة لجنوده فقد قاد حرسه
الشخصي من الخيالة، وكانت هذه تحت قيادة ضابط ذكر اسمه اندفع إلى وسط

المعركة وكان موجوداً في عربة خفيفة ربما كان ذلك بسبب البروتكول وقد كسر هجوم سرجون خلط العدو واستولى على مقر القلعة ووصل إلى معسكر (روتسا) نفسه حيث عطبوا عربات (روتسا) بشذخها بالسهم وقذف الخيول بالسهم، وعندما ترك ملك أوراتو عربته الحربية وهرب ونزل عن ظهر حصان ولكن لم يكن حصاناً بل فرساً.

وهذا أثار حزن الأثوريين الذين كانوا يعتقدون أن الملك ينبغي أن يعتطي حصاناً فعلاً، وقد حدثت منيحة عظيمة في صفوف الجيش الأوراتي وهرب الباقون بشكل فوضوي إلى الجبال.

لقد كانت الإجراءات التأديبية للجيش الأثوري في أراضي الأعداء غير منحصرة في الأعمال العسكرية فحسب، فقد كانت إحدى الأعمال التي يرسف لها هي قطع الأشجار التي كان يشار إليها وكانها إجراءات تأديبية.

وكذلك قطع أشجار النخيل والكروم أو غابات أو أشجار مفروسة حول الأمكنة المهجورة، وقد حدثت مناسبات لمست بالقلعة عندما خرب الجيش الأثوري عن عمد مناطق بكاملها، مثلاً يستجل سرجون بأسلوب مرتب يتكرر مراراً مع بعض تغيرات طفيفة كما يلي:

لقد هُدمت قرية أنباشتانيا وممها سبع عشرة قرية حولها وسويت بها الأرض، ولقد أشعلت النار في الموارض الخشبية الطويلة في مقوف منازلهم واحترقت محاصيلهم الزراعية وتبنهم، ولقد فتحت أبواب أهرانهم المصكوة بالذرة، وأمرت الجنود بأكل أكواز الذرة، وقد أرسلت الحيوانات التي كانت في المعسكر إلى مراعيهم وكانها الجراد المنتشر، وقد نزعوا العشب الذي كانت تعتمد عليه المدينة، وقد خربت جميع مروجهم.

وفي مكان آخر يصف سرجون تخريبه لنظام الأتية الذي كان يجلب الازدهار في إحدى المناطق.

وكان هناك شكل آخر من أشكال الحروب الأثورية وهو عملية الحصار وكانت هذه العملية في غاية التنظيم.

وكان أول مستلزمات هذا العمل هو عمليات النقل الفعالة التي تلزم لجلب آلات الحصار مثلاً منجنيقات القصف المدرعة ذات المجلات التي ترى صورها في اللوحات المجسمة.

أما السلالم التي تتكون من قوالب من الطين والحجر مع هياكل خشبية قد كانت تبني لتتمكن تلك الآلات من الوقوف أمام النقاط المرتفعة من الأسوار ، أما جنود الهندسة العسكرية فقد كانوا يحقرون الأنفاق لهدم أقسام من الأسوار وكان جنود المشاة يتسلقون على السلالم ويتسلقون الأسوار والأماكن الضعيفة بالنسبة للأحوال الدفاعية.

وقد كان وابل من المهام وحجارة المقاليح ينهمر فوق رؤوس المدافعين من الرماة ورماة المقاليح.

وكان هناك سلاح آخر مستعمل وهو النار ، وقد استعملت طريقة ربما أثبتت في منطقة ما بين النهرين القديمة والتي ذكرت في مراجع من النصوص المسمارية التي تذكر نيران القصب التي تقوض التحصينات وذلك بكسر حجارة السور بتسلط النار عليه وتكون الحرارة شديدة جداً ، ولعلكن ربما كانت هذه الطريقة فعالة بالنسبة لأسوار هزيلة وليس لدينا أي شهادة تثبت أن الآشوريين قد استعملوا هذه الطريقة من الإجراءات.

وإن ما كانوا يفعلونه هو إشعال النار في المدينة بأكملها وكانت إحدى الوسائل لفعل ذلك هو إطلاق سهام تحمل جمرأ ملتهباً وكان المدافعون يرمون المحاصرين بالنار أيضاً وقد كان البترول الخام مُستعملاً لأغراض عسكرية (لا سيما وإن هناك كثيراً من النقاط التي كان يخرج منها البترول بشكل جزئي في منطقة الشرق الأدنى) وقد استعملت هذه الطريقة في أحوال خاصة نمرقها من قبل المدافعين الذين كانوا يحاولون تخريب المنجنيقات والسلالم التابعة للمحاصرين الآشوريين.

وهنا نرى أسر حنون يصف ما حدث:

وبينما أتجول بشكل المنتصر في هذه المنطقة كان هناك سلم قد نصبته ضد
.. في مدينة (أوبيوم) وفي هدوء الليل صبوا البترول على تلك السلم وأشعلوا النار
فيه، وبناءً على أوامر مردوخ ملك الآلهة هبت الريح الشمالية وهي التسيم العليل
التابع لسيد الآلهة وحولت ألسنة اللهب التابعة لإله النار نحو مدينة أوبيوم ولم تحرق
هذه النار الصلال بل أحرقت سور المدينة وحولته إلى رماد.

وبينما كانت تجري عمليات الحصار وكان الجيش الأشوري يبني معسكراً
محصناً خارج المدينة يقصد منه أن ترتاح الجنود فيه.

ونحن نرى في النقوش النافرة مشاهد تظهر الخيام المجهزة بالمفروشات ونحن
نرى عملية إعداد وجبات الطعام ونرى عملية سقي الخيول بالماء وعملية سياسة
الخيول وقد فُسر هذا المشهد بأنه صورة جنود خارجين للاستجمام وهم لا يرتدون
ملابسهم العسكرية وهم جالسون في حفلة مع النساء اللواتي كُنَّ يَتَبَعْنَ الجيش
في معسكراته، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن هذه الجماعة كانت تتألف من
بعض الأسرى وهم تحت الحراسة.

وبينما كانت عمليات الحصار تجري كانت حلقة من الحراس الأشوريين
المنتشرين حول المدينة المحاصرة تحاول أن تمنع المدافعين من تلقي المؤن. وكانت
النتيجة المحتومة هي أنه إذا كانت المدينة قوية جداً بحيث لا يمكن احتلالها
بالقوة إلا أنها سوف تسقط بسبب المجاعة والجوع.

وكانت إحدى الصفات المروعة بالنسبة لقضايها الحصار هي أكل لحوم
البشر الأمر الذي كانت الكتابات المسمارية تشير إليه، وكذلك في التوراة،
ويصف آشور بانيبال بشكل يثير الازمئزاز نتائج حصاره لمدينة بابل وهو يقول: لقد
حل بهم الجوع وسبب جوعهم فقد أكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم وقد مضفوا
الأحزمة الجلدية.

معاملة الأسرى

بعد أن تسقط إحدى مدن الأعداء فقد كانت قضية معاملة الأسرى تختلف بالنسبة للظروف، وهنا تبرز مسألة القضاة التي كانت ترتكب وهذه تتعالب شيئاً من المناقشة نظراً لأن الآشوريين قد لصقت بهم أسماء وأوصاف سيئة على هذا الصعيد، ولقد عالجت هذه الموضوع آنفاً ولكنه عرضة لتوضيحات أكثر.

وعندما يسمع المرء ما سجله آشور ناصر بعل بنفسه عن قائده، فليس هنالك مجال للشك أنه من الممكن اتهام الآشوريين بممارسة القضاة وما هو يكتب واصفاً نتائج إحدى معاركه:

((لقد قُتل ٢٠٠٠ جندي من جنودهم المقاتلين، وقد أحرقت كثيراً من الأسرى الذين أسرتهم منهم بالشار، وأبقت الكثير منهم أحياء وقد قطعت أيادي بعضاً منهم حتى الرمي وقطعت أنوف آخرين وأذنانهم وأصابعهم، وقد سُمِّت عيون كثير من الجنود وقد أحرقت شبابهم وشاباتهم حتى الموت.))

وعند احتلال مدينة أخرى كتب يقول:

((لقد سُوِّمت حكومة من الجثث أمام بوابة المدينة وقد سلخت جلود النبلاء من الذين تمردوا وقد نُشرت جلودهم على أعمدة، وقد سُلِّخت جلود الكثيرين من أهل البلاد ونشرت جلودهم على الأسوار.))

إن مثل هذه الأخبار لا تسبب لنا أي ارتياح ومع ذلك ينبغي أن ننظر إلى هذه المشاهد ضمن منظور الحروب القديمة.

لقد مارس معظم ملوك آشور ابتداء من آشور ناصر بعل فصاعداً سياسة توسعية ولكن المعاملة المتوحشة من النوع الذي رأيناه في المقتطفات السابقة لم تواجه في كل الأحوال بشكل من أشكال عدم التمييز بين المدن أو المناطق خصوصاً تلك التي انضمت إلى انقلب الآشوري حديثاً وتلك التي قامت بتمردات سابقاً.

والحقيقة أنه في حالة أولئك الذين كانوا من الفئة الثانية أي: الذين أظهروا بعض التمردات هم الذين تعرّضوا لمثل تلك العقوبات التي استعملت فيها تلك البربرية والمنف للسكان المفلولين على أمرهم.

وإن الحالتين اللتين ذكرناهما آنفاً هما حادثتان متعلقتان بحالتي تمرد من أكبر التمردات التي جرت ضد الدولة الآشورية.

وقد اشتملت إحداها تمرداً قام به المستوطنون الآشوريون الذين حاولوا الاستيلاء على قاعدة عسكرية مهمة على مدينة منخفضة لخزن الحبوب.

أما الحادثة الأخرى فتعود إلى تمرد في مدينة تحكمها دولة آشور حكماً مباشراً وقد قُتل الحاكم الآشوري هناك وجلب رجل آرامي ونصب ملكاً، وكان هذا تابعاً للدولة الآرامية المعادية لآشور.

وفي أمكنة أخرى ذكرت في حوليات آشور ناصر بمل سكان هنا رواية عن عملية عسكرية جرت بقصد الاحتلال وليس بقصد قمع التمرد ولذلك لا نجد في هذه العملية أي ذكر لأعمال القتل الفظيعة الجماعية، ولم يحدث سوى أخذ بعض الأسرى دون الإشارة إلى إعدامات أو تشويهات.

إن أي شخص قد غفل دماغه بروح الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا ساديين دوماً ينبغي على هذا الشخص أن يلقي نظرة على ثقافتنا التي نود أن نشرحها بالافتقار التالي الذي أخذناه من حملة **Financial Tiner** فاننا نشال تاييني وذلك من برنامج مخصص للأطفال والتلفزيون في عام ١٩٧٨م والبرنامج يقول:

(لا أحد سوف يأخذ روحه سواي سوف أسلخ الجلد عن جسمه الحي وأضعه على جسمي كأنه عبادة).

إن مثل هذه الأعمال الفظيعة كالتى حدثت في آشور لم تكن مظهراً من المظاهر السائدة بل عبارة عن أعمال تأديبية معتمدة قد أمرت بها السلطات المركزية في الحكومة الآشورية المتمثلة بالملك وليس لدينا أي إثبات عن حالة

وقضت فيها أعمال عظيمة اقترفها أفراد من الجيش الآشوري كقضية تتجلى فيها
السادية المجردة.

حقاً لقد كان هناك بعض المشاهد على الألواح والنقوش النافذة بدت فيها
أعمال بربرية (مثلاً سلخ التجلود) بالنسبة للأسرى، ولكن هناك دلالات بأن هذه
الأعمال قد ارتكبت بحق زعماء التمردات ولكن بأمر من الملك ولم تكن أعمالاً
عشوائية بربرية ارتكبتها أشخاص بمفردهم بشكل اعتباطي قام بها جنود
عاديون.

حقاً كان هناك بعض الدلالات عن إصرار الملك على تطبيق النظام بصرامة
بالنسبة لمعاملة أسرى الحرب، وهناك رسالة ملكية موجهة إلى أحد الولاة
الآشوريين تتعلق بتأمين التموين لهؤلاء الأسرى ويحذر الملك هذا الموظف بقوله:
(ينبغي ألا تكون مهملاً وإلا فإنك سوف تموت)).

إن أفضل مصير عادي للأسرى عند التقلب على منطقة أو مدينة متمردة كان
الترحيل أو النفي، وإن بذل العناية بهؤلاء المرحّلين هو أمر نموذجي، مع أن أساس
هذه المعاملة ربما كان لأغراض عملية أكثر منها إنسانية، فقد أصبح الأسرى
جزءاً من الموارد المتاحة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت السلطات الآشورية
ترغب أن يميل هؤلاء إلى الأماكن المقصودة وهم في صحة جيدة وأن يكونوا ذوي
فائدة هناك.

ولقد اتخذت إجراءات إدارية حازمة لهذا الغرض، وقد سمعنا عن ترهيبات
مفضلة لتنفيذ هؤلاء المهجرين في طريقهم إلى الأماكن التي يقصدونها، وقد
اهتمت الدولة حتى بتأمين أحذية لهم وهم في طريق سيرهم.

وفي إحدى الحالات حصلت مساعدة على الزواج، ونحن نرى من ألواح النقوش
النافذة أن بعض العريات كانت متوفرة لنقل النساء والأطفال أو ركوبهم على
الحمير أو ظهور الخيول وهناك دلالات تشير إلى ترحيل العائلات وهذه الدلالات
وأردت في النصوص السامرية التي تدل على أن عائلات بكاملها ومجتمعات كاملة
أيضاً قد رحلت بشكل مجموعات.

لقد كان هدف الترحيل لا يتحصر في قضية التأديب بقدر ما هو وارد لمصلحة الإمبراطورية الآشورية ولمصلحة الأمن، فقد استقر بعض المرحلين في المدن حيث شكّلوا احتياطياً من اليد العاملة لتنفيذ مشاريع البناء فضلاً عن تأمين مصدر من مصادر الحرفيين المهرة، وقد ذهب آخرون إلى مناطق غير مأهولة وذلك لزيادة مساحة الأراضي الزراعية وزيادة المنتجات الزراعية، وبالتالي إحراز الازدهار الاقتصادي.

زد على ذلك فقد وصل آخرون لإعادة إعمار بعض مناطق في الإمبراطورية وكانت قد أخلّفت من السكان بسبب هجرات سابقة أو حالات من العصيان والتمرد، وهناك مثال ثوراتي معروف وهو قصة المماصرة في فلسطين التي أصبحت خالية من السكان لدرجة أن سكنتها الأسود وكانت هذه الأسود مشكلة.

ويبدو أن بعض المهجرين تحت الحكم الآشوري كانوا يستقرون في بيوت جديدة، ويحذر بالذکر أن الإسرائيليين الذين سباهم الآشوريون ونقلوا من المماصرة إلى منطقة نهر الخابور في شمال غرب منطقة ما بين النهرين وإلى شمال غرب إيران قد انجموا في المنطقة تماماً نظراً لأننا لم نعد نسمع عنهم شيئاً، ولكن حدث العكس مع اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر وأسكنهم في بابل فقد احتفظوا بحس الانتماء بحيث رجع قسم كبير منهم إلى اورشليم.

والحقيقة أن الفرق ربما يعود إلى أن الآشوريين كانوا يتمسكون بهجير السكّان إلى أماكن مشابهة للأماكن التي كانوا فيها، فقد عمد الرجل الآشوري ربمّا كاخ في خطابه على تحريض أهالي اورشليم المحاصرين على الاستسلام وأخبرهم بأنه سوف ينقلهم إلى بلاد تشبه بلادهم (٢ ملوك ١٨ : ٢٢).

البواعث الآشورية: الحواجز والإنجازات

لقد ترك الآشوريون انطباعات دائمة في تاريخ العالم بحيث إنه وبعد أكثر من ألفي عام لسقوطهم واختفائهم النهائي، فإنهم استطاعوا أن يثيروا أحكاماً عاطفية موجّهة ضد نزعتهم الاستبدادية وفظاعتهم (التي ربما كان مبالغ فيها). كيف كان معاصروهم ينظرون إليهم؟

لقد أصدر النبي أشعيا الذي عاصر ذروة السطوة الآشورية، حكمه عليهم ولكن الإدانة التي أصدرها لم تكن بسبب وحشيتهم واستبدادهم، فهو في الحقيقة يمزو هذا ويعتبره جزءاً من المشيئة الإلهية لعقاب اليهود.

آلا يا آشور يا عصا غضبي

وعصا سخطي

لقد أرسلتك ضد أمة لا تخاف الله

وضد الشعب الذي غضبت عليه وأمرته

أن ينهب ويحصل على الغنائم

ويدوس عليهم كما يدوس على الوحل في الشوارع (أشعيا ١٠: ٦٠)

وبالنسبة لأشعيا فقد كان ذنب آشور مختلفاً عن مجرد الاستبداد، بل إنه التكبر وعدم الاعتراف بمصدر وينبوع القوة العظمى وهو يَهُوَه،

إن يَهُوَه سوف يعاقب ملك آشور على تكبره وتفاخره وكبريائه البهيمية لأنه يقول:

((بقوة يدي قد فعلت ذلك وبقوة حكمتي لأنني أنا مصدر الحكمة (أشعيا ١٠: ١٢).

هذا وإن المباهاة والتكبر ما هي إلا استخلاص من عبارة عبرية وهي شرة عظمة القلب ((وهي تدل على اعتبار عظمة المرء ناعمة من عظمة قلبه من الداخل،

وإن ما كان أشعياً بدينه هو الاعتداد بالنفس الذي كان يطغى على آشور، وهذه صفة غير مرغوب فيها في إسرائيل، وينبغي أن تكون للرب وحده.

لقد كانت الثقة بالنفس صفة من صفات ملوك آشور في الألف الأول، ومع أن هذه الثقة كانت ملاحظة بوضوح في الحوليات الملصية حيث يتباهى الملوك بحرية بصفتهم الشخصية، وبمجزاتهم الوطنية لأنها تظهر أيضاً نواحي أخرى ولا سيما في كثير من المشاهد الحربية المرسومة على النقوش الجدارية النافرة.

ولم يكن في أي مكان تساؤل أو شك بما كان يفعله الآشوريون أو لماذا أو كيف يفعلون ذلك، ولم تكن هناك أي إشارة أو مرجع بعزو نجاح الآشوريين إلى دعم العناية الإلهية.

حقاً إنه كان هناك شيء في القوس المجنح (الذي يمثل الإله آشور وقوى أخرى إلهية) يظهر عالياً في السماء فوق صورة الملك، ولكن ليس هناك شيء في هذا يشير بأي نقص في ثقة الملوك الآشوريين بأنفسهم ويقواهم.

والحقيقة أنه في مثل هذه المشاهد ليس هناك من دلالة أبداً على خوف الملك من الإله الذي فوقه، بل بالعكس كان الإله هو الذي يبدي الخوف من الملك، نظراً لأن جميع أعمال الإله كانت تربيداً لأعمال الملك (مثلاً تصويب القوس أو ما شابه ذلك).

لقد كان الآشوريون يعلمون أنهم كانوا على حق، وهكذا فقد اعتبروا أنه من المسلمات أن تكون القوى الإلهية المظلمة دائماً داعمة ومؤيدة لمصالح الآشوريين.

هناك بعض الألواح النافرة المحتوية على مناظر طقوسية، وفي هذه المناظر يظهر الملك وكأنه قد اتصل اتصالاً مباشراً بالقوى الإلهية، ومع ذلك لم يمكن هناك أي انتقام من قيمة الملك وهو واقف أمام الإله.

مثلاً: عندما يقف آشور ناصر بل أمام الشجرة المقدسة فإن الملك كان بعيداً جداً عن إظهار أو الاعتراف بوجود أي مسافة ما بين الآشوريين والبشر وبين الإله،

بل بالعكس نرى الملك مرفوعاً إلى مستوى الإله عن طريق القوى السرية التي كان الكائنات النيبيلان يوجهانه إليها ، وبلاستفادة من الشجرة المقدسة .

والحقيقة أنه وحيث نرى الملك واقفاً أمام الإله نرى أن الثقة بالنفس لا تزال موجودة ، ففي الرسوم الجدارية التي تمثل الإله سرجون واقفاً أمام الإله آشور أنه الملك وليس الإله هو الواقف في الوسط ، وتشير الصورة أنه ليس من واجب الملك أن يظهر الخشوع أمام الإله ، بل إنه من وظيفة الإله أن يقوي ويدعم الملك .

إن نوع الموقف وهو ثقة الآشوريين المطلقة بقواهم البشرية ، هذه الحالة مرتبطة بضعف سلطة الدين التقليدية المؤسسة على المواقف التي ترجع إلى الألف الثالث .

فالمواقف القديمة تقص وتقول: إن الآلهة هي التي خلقت نظام هذا العالم ، وهذا كان الأزم وجود ثقل اكتسبته القوى الرجعية المحافظة ، وهذا أدى إلى التأثير على أي نوع من التغيير أو التقدم .

فالآشوريون لم ينكروا تلك المعتقدات علناً ، ولكن في بلاد آشور وفي الألف الأول بدأنا نلمس دلالات على نشوء وجهة نظر مختلفة أو طبخاً للأفكار القديمة كان العالم ساكناً أو بالأحرى دوري الحركة أي أنه إذا تغيرت الأشياء فإنها تتغير ضمن إطار متكرر ، فالنظرة الجديدة للحياة وللعالم تتلخص أن الآلهة كان لديها مخطط في التاريخ ، وأن آشور هي العامل الرئيسي في هذا المخطط .

وكان العنصر الرئيسي في هذا المخطط عاملاً دينياً سياسياً ليكونه يمثل التوسع المستمر وسيطرة آشور وهي تحت الإله القومي آشور ، ولكن مجرد الاعتقاد وإمكانية التطور داخل التاريخ كان يعني إمكانية التغيير بصورة عامة فالأشكال المألوفة بالحياة لم تعد محددة بالطرق القديمة .

وطبقاً لذلك بدأ الآشوريون يقبلون الأفكار الجديدة ، وهكذا أو كما رأينا فقد بدأ الملوك الآشوريون يتبنون الأساليب المعمارية الجديدة من الخارج فقد بدأوا يفتشون على مصادر جديدة للخشب والحجر وقد شجعوا المملكات الجديدة في صنع المعادن ، وشجعوا استعمال المواد الجديدة ، مثل القطن ، واستخدموا الحرفيين المهرة كفنحاتي العاج وبقاة السفن وقد شجعوا هؤلاء على تقديم مهارات جديدة إلى

آشور تحت الحماية الملكية للفنانين للممارسة بأشكال جديدة من الفنون وذلك بالاختراع وبمدها بتطوير الألواح الناقرة ووضعها أساساً للفن الروائي.

ولقد شجع الملوك الآشوريون وجلبوا الألعاب الأجنبية ونحن نعرف ذلك من الألواح اللعب المعقدة التي تتميز بوجود ثقوب صغيرة ووزود وذلك أثناء حكم أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩).

وقد أنت هذه اللعبة من مصر، فقد شوهدت هناك قبل قرون من جلبها إلى آشور، وكان أسرحدون أول فاتح لمصر ومن المؤكد أنه رأى اللعبة عندما كان هناك وأحبها، وكانت الألواح التي جلبت إلى آشور من أهل مصر ومن حجارة مصرية، ويقول فضلات بلاسر الأول: إنه عندما كان في الخارج أخذ بمض الفواكه النادرة التي لا توجد في بلاده وزرعها في حدائق آشور وقد جلب سنجاريب نبتة القطن.

وجلب أحد الولاة تربية التحل من بلاد أجنبية وسجل هذه الحقيقة بفخر، وكل هذه البدع تظهر أن الآشوريين شكلوا راغبين في النظر حولهم بعقل متفتح وأن يتبنوا أفكاراً جديدة، وأن يقبلوا عن وعي وإرادة أنه من الممكن تمثيل الإطار القديم للأفكار والأعمال التي وصلت إليهم من الألف الثالث ق.م.

إن كل الأمثلة المعطاة تعود لصنع الإبداعات التي استمدت منها آشور كثيراً، ولكن اهتمام الآشوريين بالمالم حولهم تقدم إلى أبعد من ذلك.

إذاً حالما توسعت أفاقهم الجغرافية فقد توسعت آفاقهم الذهنية أيضاً، وقد اهتموا بطرق الحياة المختلفة عند بعض الشعوب التي قابلوها.

ونجد بعض المراسلين (ربما كان بابلياً في أصله المرقى بل كان آشورياً بمحسوس وجهة النظر الآشورية) يخبر الملك عن بعض القبائل التي صادفها أنهم كانوا يعيشون على الخبز المصنوع من نبت (الموروتو) ويذوق النفيير والذرة تأكله الحمير الوحشية.

وقد علق آشور بانيبال على إحدى القبائل الجبلية التي كانت ترسل الجزية إن الرجال هناك كانوا يقصون شعورهم كالتعساء.

ولقد أعجب أسرحدون بطريقة الحياة التي يعيشها الفنيقيون الذين وصفهم بأنهم الملوك الذين يسكنون البحر وأن تحصينات أسوارهم هي البحر والأمواج هي جدرانهم الخارجية، وهم الذين يركبون السفينة وكأنها عربة وبدلاً من الخيول يستعملون المجاذيف.

ولقد رأينا من قبل الإعجاب الذي أبداه الملك أسرحدون بعملية تدريب الخيول التي كان يقوم بها بعض الشعوب في ما وراء زاغروس.

ولقد أظهر الآشوريون اهتماماً جاداً بالطبيعة أي: ككلا المناظر وحياة الحيوانات البرية ولقد ذكرنا أيضاً حماسيتهم تجاه المناظر الجميلة، أما بالنسبة للحياة البرية فمع أن الملوك الآشوريين قد تلقوا قسماً كبيراً منها فقد أنشأ بعضهم حدائق الحيوان في بلادهم وفي عواصمهم وهذه ما تدعى بحدائق الصيد.

وفي هذا السياق كئناً قد اشرنا إلى ثلاث بيلاسر الأول ويخبرنا آشور ناصر بل في القرن التاسع ما يلي:

(لقد اصطدت الحيوانات ومسكنتها وهي أحياء، ولقد جمعت في العاصمة كالاح قطعاً من الثيران الوحشية والفيلة والأسود والنعام وذكور وإناث القروذ، والحمر الوحشية والغزلان والذئبة والنمور ومن جميع أنواع الحيوانات التي تكثر في السهول والجبال، وقد عرضتها على الشعب في بلادي).

ولكن ليس هناك من إثبات أن الحيوانات كانت طليقة في حدائق الصيد أم كانت محصورة في أقفاص، وقد أشار آشور ناصر بل إلى أشبال الأسود الصغار في أقفاص، ومن المحتمل أن بقية الحيوانات كانت تعامل بهذا الشكل، ومع ذلك فإنه من المؤكد أن الملك سنحاريب الذي حكم فيما بعد قد أنشأ حديقة من حدائق الصيد حول نينوى حيث حكما يروى:

((قد نمت أجمات القصب بسرعة وبنيت طيور السماء أعشاشها وولدت
الخنائير البرية والوحوش صفارها بكمية وافرة.))

وتشير اهتمامات الآشوريين بالعالم حولهم ورغبتهم بقبول الأفكار الجديدة
على وجود حماس وحيوية ذهنية توازي أو ربما تفزي حماسهم العسكري وبدعهم
الإدارية ، وكان لكثير مما فعلوه تحت تأثير هذه البواعث نتائج مهمة في
التطورات التي حدثت بعد ذلك في الشرق الأدنى ، وهكذا فقد اكتشفت مصادر
جديدة من الخامات والحجارة والخشب ، وانتشرت التقنيات ، ولقد بدأت بعض
الوسائل الجديدة في الحكم ذات الأهمية القصوى بالنسبة للشرق الأدنى فيما بعد
تحت حكم الآشوريين.

مثلاً: نظام الطرق الإمبراطوري بالإضافة إلى نظام بريدي سريع لتأمين
المواصلات بين حكومات الولايات والملك ، وينبغي أن يقال: إن بقاء تلك التجم التي
نُقلت إلى جميع أنحاء العالم عن طريق الحضارة السومرية هذا البقاء مدين جداً
لقوة الآشوريين العسكرية.

وابتداء من زمن الآراميين والموشكي إنشاء حكم تفلات بهلاسر الأول حتى
زمن السبئيين في نهاية الإمبراطورية الآشورية ، كان هناك وبصورة متكررة
تهديدات من هجرات بربرية جديدة إلى منطقة ما بين النهرين ، حيث لم يستطع
الآشوريون صد هذه الشعوب ولتكن حيث استطاعت فإن هذه الشعوب وبفضل
ردود الفعل الآشورية فقد جلبت هذه الشعوب المهاجرة لتقترب من عادات شعوب ما
بين النهرين.

ونحن نلاحظ هذا وبصورة خاصة في حالة الميديين والفرس الذين قابلناهم
لأول مرة وهم يشكل بدو رحل في القرن التاسع ق.م.

وقد برهن هؤلاء أنهم تلاميذ أكفاء لأسلافهم الآشوريين ، لدرجة أنه بعد
قرن من سقوط آشور ظهرت إمبراطورية فارسية حكمت منطقة ما بين النهرين
وبقية أقطار من الشرق الأدنى دون إجراء أي انقطاع في النظام المذكور أعلاه.

ولكن ربما كان قد أتى إسهام الآشوريين في التاريخ العالمي كنتيجة لواحد من الأشياء الأكثر بُغْضاً وكراهية في الفكر الحديث، وهذا هو تهجير وإجلاء الشعوب المقهورة، فقد كان عند الناس الذين تأثروا بعملية التهجير كبيراً وهائلاً، ولقد قُدِّرَ أنه في أثناء القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الإمبراطورية الفارسية بلغ هذا التهجير حوالي أربعة أو خمسة ملايين وقد كانت النتائج طويلة الأمد لهذا التهجير مؤثرة على عملية الاختلاط العرقي فقد كانت الاعتبارات الجغرافية من جبال وأنهار ومحاري والمضايق إلى العوامل التاريخية التي عملت على تقسيم الشرق الأدنى إلى عدة دويلات منفصلة، والتي تطورت في جو من العزلة ويرى الإنسان مثلاً ممتازاً لهذا الذي في فلسطين حيث وجدت عدة مجتمعات من الفلسطينيين والإسرائيليين وشعب يهودا والمزايين والعموريين وشعب صيدوم وعدة شعوب قبلية بقيت متميزة لوقت طويل.

ولقد كانت سياسة الآشوريين المتمثلة في التهجير هي التي عملت على كسر هذه العزلة، وقد كان الإسرائيليون مثلاً على ذلك وعندما نقل هؤلاء إلى صيدا ومنطقة نهر الخابور عندها اختفت لديهم النُصرة الشخصية الوطنية وقد بقوا هناك ولكنهم اندمجوا.

وفي بعض العواصم الكبرى في الدولة الآشورية نفسها كان الآشوريون المرفقيون أقلية وذلك بسبب مجيء شعوب من عروق مختلفة واستقرارهم هناك ومما ملتهم كمواطنين متساوين رغم اختلاف أسلافهم وأجدادهم، ومع استمرار عملية إعادة الإسكان المفيدة فوق كامل المنطقة خلال حوالي ثلاثة قرون فقد حدثت زيادة ٣ بأس فيها في الاندماج والاختلاط العرقي وإضفاف النزعة العرقية الاستثنائية (باستثناء الأماكن التي حافظت على العزلة فيها عن طريق الوسائل الدينية كما حدث مع اليهود).

ولم تكن هذه عملية سريعة ولم تظهر نتائجها حالاً ولكنها مهدت الطريق لنمو الوحدة الثقافية في المنطقة بأكملها مما أثر على التاريخ التالي لمنطقة الشرق الأوسط.

فقد تأمن وجود قاعدة للتجانس الذي مهد لدخول الثقافة الهلينية في الشرق الأدنى بعد عهد الإسكندر الأكبر، وكانت الهلينية بدورها عاملاً مهماً في انتشار الديانة المسيحية بسرعة عبر المنطقة، وبعد ستمائة عام انتشر الإسلام.

الفصل السابع عشر

الكتابة والأدب الآشوري

إنه وبدون الوثائق المكتوبة تبقى معرفتنا عن آشور جزءاً ضئيلاً مما هي عليه الآن، فالبقايا الحية لأمة حضارية من هونها وأدواتها ومفروشاتها وأساليب الدهن فيها بكل هذه من الممكن أن تعرفنا بالشعوب القديمة ولكنها قاصرة عن التمرير الذي يحصل عن طريق النصوص المكتوبة.

لقد اخترعت الكتابة في جنوب منطقة ما بين النهرين في زمن قصير قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، وكانت أقدم أشكالها المعروفة تتألف من صور مرسومة بواسطة قسبة تكتب على قطعة من الفخار الرطب المصفوف الذي كان يضغط بين كفي اليد ليتخذ شكل كعكة مسطحة.

ومع مرور الزمن أصبح شكل الفخار نظاماً كلوح من الفخار مستطيل ذي حواف مسنونة أو مدوّرة أو محدّبة قليلاً، وكان اللوح صغيراً بحجم علبة كهربيت أو بحجم كتاب من قطع الرّيح مع أنه كان بحجم قطعة الصابون.

وفي أوائل الألف الثالث تعرّضت هذه الإشارات لبعض التغييرات عندما بدأ الكتبة يضغطون بواسطة قسبة تسمى (قلم السّمة) وذي مقطع مثلث بدلاً من الرسم، وقد أنتج هذا العمل إشارات مؤلفة من خطوط وشرائح مستقيمة (مسمارية) كانت في بعض الحالات تظهر أنها متماثلة مع الأصل، وهو ذلك ولأسباب متصلة بالطريقة التي كان الكتّاب يحمل بها لوح الطين والقلم فقد تحولت اتجاهات رسم العلامات إلى الخلف خلال تسعين درجة، وهكذا وضعت جميع العلامات على ظهرها وهذا أضعف صلة الوصل مع الصور الأصلية.

وفي الشكل الذي اتخذته الكتابة المسمارية أخيراً فقد كانت الكتابة تسير بشكل أفقي عبر اللوح وفي معظم الأحيان (وليس دائماً) موازية لمحورها الأفقي من اليسار إلى اليمين، وكانت الألواح الأصغر تنقش في عمود مستقل والألواح

الكبيرة إلى عمودين أو أكثر، وعندما كان الكاتب يصل إلى أسفل الوجه الأول مكان يقلب اللوح حول المحور الأفقي وليس العمودي أي: إنه لم يكن يقلبه كما نقلب صفحات الكتاب عندنا.

ونتيجة لذلك كانت الكتابة على أحد وجهي اللوحة تبدو مقلوبة بالنسبة للكتابة على الوجه الآخر.

كانت الكتابة الأصلية بهذا الشكل تمثل الكلمات باللغة السومرية وربما كانت اللغة السومرية تمتلك نسبة كبيرة من الكلمات ذات المقطع الواحد فلن هذا قد سمح بإحداث تطور أصبحت به إحدى العلامات المعينة لا تمثل معنى الكلمة فحسب بل اللفظ الخاص بها، وكانت الحال مثلاً كما لو رسمت صورة نملة **BEC** وبعدها صورة ورقة شجر **LEAF** وهكذا نستعمل هاتان الصورتان لكتابة كلمة **BELEF** معناها اعتقاد أو ظن.

وإن قيمة هذا التطور أن أصبح بالإمكان استعمال هذا النظام في كتابة اللغات عدا عن اللغة السومرية، وابتداء من منتصف الألف الثالث استعمل هذا النظام في اللغة السامية وهي الأكادية.

وكانت اللغة الآشورية إحدى لهجات هذه اللغة واللهجة الأخرى كانت البابلية، وقد استمدت بعض الإشارات السومرية التي تدل على كلمات كاملة تستعمل في نفس الأسلوب في اللغة الأكادية مثلاً: الإشارة التي تعني ملك التي تلفظ بشكل لوجال في السومرية كانت تستعمل بنفس المعنى في الأكادية مع أنها كانت تلفظ بشكل (سادرو) ولكن أصبحت إشارات كثيرة تستعمل كمقاطع.

ونظراً لحدوث مثل هذا التطور أصبح النص الأكادي مزيجاً من العلامات التي تعني بعضها كلمات كاملة، والأخرى تعني مقاطع، وكانت نسبة وجود كل منها تختلف حسب نوع النص وحسب الفترة الزمنية.

وكانت الألواح الطينية ومع أنها كانت الوسيلة الأعم لتدوين الكتابة المسماة إلا أنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، فقد كان من الممكن تدوين

الكتابة المسمارية على ألواح من الفخار مصنوعة بأشكال أخرى مثلاً الأسطوانات الموشورية أو المخروطية أو حتى (بشكل مفتاح لبعض التعاويذ) نملذج من أعضاء حيوانية.

ولكن حدث تطور من نوع آخر وهو استعمال الألواح لكتابة مصنوعة من قطع خشبية مقطاة بالشمع وكانت الإشارات تطبع عليها، وكان من الممكن كتابة الإشارات المسمارية عن طريق نحتها بالإزميل على حجر أو معدن، أو أن تطبع على الفخار أو أحياناً كانت الكتابة المرسومة ترمس بالألوان على سطح من السطوح، ولكن في حالات معينة كانت تعتبر مجرد إضافة إلى لوح منقوش بالطريقة العادية.

وكان الفرض الأصلي الذي جعل المومريين يخترعون الكتابة حفظ السجلات والوصلات والبضائع الموجودة في المخازن، ولكن سرعان ما تطور استعمالها إلى تطبيقات أوسع، فهي أوائل الألف الثانية كانت الوثائق البابلية المكتوبة بالخط المسماري تشمل الأساطير والقصص البطولية وأدب الحكمة (أي: النصوص التي تشبه الأمثال التوراتية) والقوانين والملاحظات الفلكية والمساائل الرياضية والسجلات التاريخية وقرارات المحاكم والجداول التاريخية (أي: تتابع السنوات التي يطلق على كل منها الاسم المشتق من الحوادث التي حدثت فيها) والتعليمات الزراعية، وعمود العمل، والوثائق الإدارية والنصوص المستملة في العبادة والطقوس المستعملة لأغراض السحر، وسلمحة من التعاويذ والتمارين المدرسية اللازمة للكتابة المتمرنين والمعاهدات الدولية والقواميس التي يدعوها المهتمون بالتاريخ الآشوري باسم جداول المترادفات، وكذلك الترامات في قواعد اللغة السومرية، وألوف الرسائل الموجهة لأشخاص عابدين أو إلى الملوك وحتى الآلهة.

ولقد ساهم الآشوريون في تراث المومريين، وكانت معظم أنواع النصوص التي وجدت في آشور وجميع الكتابات الأدبية كلها أخذت من بلاد بابل ولكن

كان هناك بعض الاستثناءات وكان اثنان من هذه ذات أهمية لا بأس بها بالنسبة لمعرفتنا بالتاريخ الآشوري.

المخطوطات الآشورية الملكية

كانت المخطوطات الملكية الآشورية تمثل أشهر الأشكال الأدبية التي تطورت في آشور وابتداءً من زمن السومريين في جنوب منطقة ما بين النهرين في الألف الثالث ق.م.

لقد كتب الملوك مخطوطات لها علاقة بالندور أي: المخطوطات التي تسجل تكريس بعض الأشياء المقدمة للإله أو تصنع لأجل الآلهة، وكانت مثل هذه المخطوطات تتخذ أشكالاً مختلفة بسيطة أو معقدة، ولكن العنصر الأساسي كان تحديد شخصية الملك والتعريف به وذكر الهدايا أو الأعمال الخيرية والمناسبات التي حصل فيها الإهداء، ومع مرور الزمن حدثت تطورات قد أنتجت أخيراً الإطار النهائي الآتي:

أ- اسم الملك، ألقابه، وعلاقته الخاصة بالآلهة.

ب- ذكر الحوادث التي تثبت النقطة الزمنية.

ج- ذكر أعمال الخير: عادة عملية بناء.

إن العنصر (ب) يقدم الوسيلة التي يستطيع فيها الملك أن يشير إلى الأشياء الأخرى التي قام بعملها لمرضاة الآلهة، ففي آشور بعد أن تطورت الفكرة التي مفادها أن الإله آشور ادعى السيطرة على العالم أصبحت رواية حملات الملك لمرضاة الإله مناسبة لتلك النقطة.

وهكذا وابتداءً من عام ٣٠٠٠ ق.م بدأ الملوك الآشوريون (وليس ملوك بابل) يطورون هذه النقطة فأصبحت تمثل وصف ما كان الملوك يفعلونه في المجال العسكري، وبعد قبول هذه الممارسة فقد فتح هذا إمكانات معتبرة لتمجيد الملك لنفسه، وقد تطور هذا ليصبح شكلاً تحكلم فيه الملك بضمير المتكلم مباشرة ويذكر كل ما فعله في المجال العسكري أثناء حكمه ويصلح للتأريخ، ويمكن

ترتيب التفاصيل بعدة طرق إما عن طريق المناطق منطقة بعد منطقة أو عاماً بعد عام.

وإن ترتيب التفاصيل بعام بعد عام من الممكن أن ندعوها حوليات إنما حدثت في آشور في زمن تغلات ييلامر الأول (١١١٥-١٠٧٧) ولقد افترض أن هذا النوع مدين إلى الحثيين ولكن ليس هناك ما يشهد لدعم هذا الرأي عدا الحقيقة التي مفادها، أن الحثيين كانوا يملكون نصوصاً بشكل حوليات في فترات أقدم، ومع أننا نفكر أن هذه النصوص من هذا النوع هي نصوص تاريخية، إلا أنها كانت سابقاً لا تزال نقوشاً تعليمية تنتهي دوماً برواية مناسبة عن عمل شجري من العادة أن يكون بناء معبد أو قصر.

ومع أن هذه المخطوطات كانت مثيرة ولذيذة بالنسبة لنا، إلا أن معظم هذه المخطوطات لم يقصد بها في أول الأمر أن تكون مخصصة للبشر قطعاً أو أن يراها البشر، وذلك لأن كثيراً منها قد كتبت على أسطوانات أو مخاريط ودقنت في أسس بنائية يصفون عملية ترميمها بحيث لا يراها (إلا الآلهة).

وقد كان من المعروف أن ليس هناك من بنائية دائمة البقاء وأنه فيما بعد سوف يعتمد بعض الملوك الأنقياء إلى الحضر وحتى أساسات البناية وعندها سوف يجدون المخطوطات ويقرؤونها، وكان هناك صيغة نظامية مكتوبة في نهاية كثير من المخطوطات الملكية وهي تفلي هذه المناسبة:

((في الأيام القادمة إنني أوصي أي ملك من الملوك من أبنائي وأحفادي الذين أعلن الإله آشور أنه قد نصبه ليرعى البلاد والشعب، إنني أوصيه أنه عندما يصبح هذا القصر قديماً وعلى وشك السقوط أن يعيد ترميمه، وأن ينظر إلى النقوش التي كتبت وتحمل اسمي وأوصيه أن يدهن هذه النقوش بالزيت وأن يريق الخمر عليها تكريماً، وأن يعيدها إلى مكانها، عند ذلك سوف يسمح الإله آشور صلاته)).

لم تكن جميع المخطوطات الملكية مدفونة تحت الأرض إذ إن بعضها كانت منقوشة على ألواح نافرة موضوعة فوق جدران القصور، والأخرى كانت منحوتة

على التماثيل الحجرية الملكية التي تمثل الثيران والأسود والتي كانت تحرس
بوابات المدينة.

وبعضها كانت منحوتة على الأنصاب الملكية المقامة على الحدود النائية
لملكي نخلد ذكرى الانتصارات الآشورية التي حدثت هناك، ولم تمد بعض هذه
النقوش من هذه النقش مجرد نقوش للبناء في شمسكها، بل قد تجاوزت الأطر
الأصلية وأصبحت نصوصاً مختصة لتمجيد مآثر الملك، وربما تكون هذه
التطورات قد حدثت كنتيجة لوجود هذه الأنصاب نفسها أو لوصف بعض أنشطة
الملك نظراً لأنها كانت تعتبر من الأعمال الدينية الخيرية المقامة على شرف الآلهة
تضاهي في قيمتها المعنوية بناء معبد أو ما شابه ذلك، ونحن نرى إمكانية صحة
هذه التفاسير بوضوح في بعض النقوش المنحوتة على بعض التماثيل الهائلة التي تمثل
الأسود والثيران التي أقامها آشور ناصر بل.

وسكان القسم الأعظم من هذه النصوص يمثل إطراءً وتمجيداً للملك عند
قيامه بحملة حربية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن قبل أن ينتهي
النص ينتقل الملك فجأة من الشؤون العسكرية إلى الإدعاء أن الإله نينورتا ونيرجال
قد أوكلاه برعاية شزون الحيوانات، وأمراءه أن يصطاد هذه الحيوانات وسرعان
ما ينتقل النص لذكر مجموعة من الفيلة والثيران البرية والأسود التي قتلها الملك،
ويبدو أن هذا كان تكريماً ضمنياً للآلهة بالنسبة لصيد الحيوانات البرية.

ومن الممكن أن نفترض أن الفرض من إقامة نصب منقوش وعرضه في مكان
عام أن يقرأ جميع البشر هذه النقوش بصورة عامة وبإسهاب، ولكن ولو وضعنا
النصب في وسط مدينة آشور المكتظة فإن ذلك يظل مستحيلاً لأن المتعلمين الذين
يستطيعون القراءة هم أقلية صغيرة، ولكن حينما تنصب الأنصاب في الحدود
الشمالية والشرقية البعيدة حيث السكان جهلة بالنسبة للغة الأكادية التي كتبت
بها النقوش، ما عدا بعض الضباط في الأقليات الآشورية المبعثرة، فإن إمكانية
قراءة السكان لمثل هذه النقوش تكون أقل، ولكن لو كان المقصود بهذه
النقوش تذكير الشعوب المقلوبة بمعظمة آشور، فإن الملك الآشوري سيكتب هذه

النقوش بلفتين أي: الأورارثية والأكاكية وذلك كما فعل أحد ملوك اورارتو في إحدى المناسبات.

وبالنسبة للنقوش النافرة المتواجدة في القصور الآشورية، فلم يطلع عليها سوى عدد من موظفي القصور، وبعض الموظفين من الزوار والأجانب المرموقين.

جداول ليمو

هنالك نوع ثانٍ من النصوص ذات بعض الأهمية التاريخية التي تطورت داخل آشور وهذه ما تدعى (جداول ليمو).

وقد كان اسم ليمو يعني: الموظف المسؤول عن إقامة المراسيم الحكومية الدينية في مدينة آشور، وقد كان الملك والموظفون الكبار في الدولة يخدمون بشكل (ليمو)، بالدور لكل منهم لمدة سنة واحدة، الملك في أول سنة من سنوات حكمه، والآخرين يتهمون ترشيحات تتم بالقرعة، وفيما بعد حسب الترتيب في المكانة في السلطة.

وقد كانت هذه السنة تعرف رسمياً باسم الليمو الذي خدم فيها، وهكذا كانت جداول الليمو تشير إلى تقايح السنوات.

هنالك عدة أشكال من قوائم الليمو بعضها كان يقتصر على أسماء الموظفين، بينما كانت الأخرى تذكر الاسم وبعده أسماء الولايات التي خدم فيها الموظف بالإضافة إلى نبذة قصيرة عن الحملة التي قام بها أو أي حادث آخر.

وإلى ما يلي سنذكر مقتطفاً قصيراً من القائمة التي تتحدث عن السنوات التي كانت سابقة أو لاحقة لاعتلاء الملك تقلابي بيلان العرش:

بالنسبة لليمو نغزال - ناصر	والي تقيبين	نمرد في ككاج
بالنسبة لليمو نابو يعل أشور	والي أودبيما	في الثالث عشر من أيار اعتلى تفلان بيلان العرش ، وفي تشرين ذهب إلى منطقة بين الأنهار إلى الشمال الغربي من منطقة ما بين النهرين .
بالنسبة لليمو نابو يعل أشور	والي ككاج	إلى نامري
بالنسبة لليمو تفلان بيلامر	ملك آشور	إلى أرياد انتصر على أورارتو
بالنسبة إلى ليمو نابو دالي - دالي	والي ثورلان	إلى أرياد

هذا ، وإن القطع المتناثرة من جداول ليمو تتداخل فيما بينها ، وهذا يساعد على إعادة ترتيب أجزائها مدة (٢٦٤) عاماً متتابعاً ، وتحسن الحظ أن إحدى فقراتها تشير إلى الحادث التالي:

(في شهر سوان "حزيران" حدث كسوف الشمس).

والآن ونظراً لأننا نعلم ويشكل تقريبي السنة التي حدث فيها هذا الحادث عندها يستطيع علماء الفلك أن يحسبوا بدقة في أي سنة رؤي كسوف الشمس في آشور في شهر حزيران ، ويظهر أن هذه السنة هي سنة (٧٦٣ ق.م).

هذا ، وبمد تأكيد هذه السنة يمكن تأريخ السنوات إلى (٢٦٤) في هذه السلسلة ، وبذلك يصبح التاريخ الآشوري خلال هذه الفترة دقيقاً جداً.

وإن ملاحظة وتدوين الحوادث كل عام ولو كان باختصار يملأنا إلهاماً
تاريخياً ثميناً لتلك المرحلة التي تبلغ قرنين ونصف، ولكن ليس كلها تملأنا نظراً
لأنه بالنسبة لجزء من هذه الفترة فإن جداول ليمو قد حفظت أسماء الموظفين
فحسب.

تقارير على التجميع

هناك قسم ثالث من النصوص المتعلقة بأشور كان غير ذي علاقة مباشرة
بالتاريخ وهذه النصوص تختص بالتقارير التجميعية التي ذكرت عنها بعض الأمثلة.
ولكن علم التجميع لم يكن معروفاً أبداً في بابل، ولكن في الألف الثالث
بالتحديد عرفت في آشور فقط تقارير تجميعية من هذا النوع وكانت تقدم بشائر
عن الحال بالنسبة لخبر ورفاهية الدولة.

المواحي

وجدت بعض النصوص التي تعود إلى الألف الأول ق.م في آشور وهي تحمل
رسائل تختص بخير البلاد ولكنها تتألف من تقنيات مختلفة، فهي ليست آشورية
صريحة، نظراً لأن هناك أمثلة منها في أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم وبما
في ذلك التوراة ولكن بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين كانت هذه منقولة من آشور،
وحتى في آشور لم تكن شائعة والنصوص التي نمنها تختص بالمواحي التي
يصدرها أشخاص ملهمين وعادة كان نساء من اللواتي كان يدعين أنها رسائل
موجهة إلى الملك من أحد الآلهة وفي ما يلي مثال مما تقوله المواحي:

(لا ينبغي أن تخاف يا أسرجدون، إنه أنا الإله الذي يتحدث إليك، وقد فتشت
في أعماق قلبك مثل والدتك التي وهبتك الحياة، هناك ستون إلهاً عظيمات يقفون
معني لحراسكم فالإله (سن) واقف بجانبك، ليمني، والإله شمش واقف

بجانب يدك اليمىرى، وهناك منون إلهاً آخرون يقفون حولك وهم يطوفون
الإعصار.

لا تثق بأي إنسان بل وجه عينيك إلى جهتي انظر إلي.
أنا عشتار إلهة أرييل ولقد وهبتك عشتار الهاء.
وعندما كنت صغيراً حملتك بين يدي لا تخف بل احترمني.

الرسائل

إن معظم أنواع الكتابات التي وجدت في آشور كانت مأخوذة من بابل،
وهنا هو الحال بالنسبة لمعظم النصوص التي من الممكن اعتبارها أدباً بالمعنى
الضيق، أو الأمثلة التي كانت حولها من أنماط آشورية ولكنها مأخوذة من
نصوص معروفة بشكل جيد من بابل. هذا وإن أهم الأمثلة من الفئة الأخيرة وعلى
الأقل بالنسبة للمعلومات التي يقدمونها لنا وهي الرسائل، إذ هناك بعض من هذه
الرسائل قد أتت من الفترة الآشورية القديمة (وهي تبدأ اعتباراً من الألف الثاني)
وقد وجدت بين بعض الوثائق التي أتت من ككلاء وككيا.

وهناك بعض الرسائل الخاصة المرسله من عدة مواقع تعود إلى الفترة الآشورية
الوسطى (وهي نهاية الألف الثاني) وهناك مجموعات من الرسائل المرسله من ككلاء
شيرجات (آشور القديمة) ومن تل حلف (جوزين القديمة) ومن نمرود (ككلاء)
القديمة) ومن (ككويونيجيك) (نينوى القديمة) هذا وإن العدد الأكبر منها الذي
يبلغ حوالي ألفين أرسلت من (ككويونيجيك) بالإضافة إلى حوالي مئتين من نمرود،
ويرجع تاريخ المجموعتين الكبيرتين إلى القرن الثامن والقرن السابع ق م أما
الأخرى فهي أقدم قليلاً.

ومع أن هذه المجموعات تحتوي على بعض الرسائل الخاصة إلا أن الباقي
كانت عبارة عن مراسلات تخص الدولة، ومعظمها كان مرسلاً إلى الملك وقليل
منها مرسل منه، وبالنسبة إلى الرسائل من الفئة الأخيرة، فإن الأنواع التي نملكها

ينبغي أن تكون نسخاً احتفظ بها للحفظ وذلك نظراً لأن التمسح الأصلية ينبغي أن تكون قد غارت العاصمة وأرسلت إلى الأشخاص من المعينين في الولايات.

وقد كانت الرسائل الموجهة للملك مؤلفة من هتتين إحداهما تتألف من رسائل أرسلها خبراء الملك وتختص بالسحر والغيبيات، وقد فسر هؤلاء المتعلمون كثيراً من علائم الفأل للملك وأخبروه متى يمكنه فعل بعض الأشياء ومتى لا يمكنه ذلك، نظراً لأنه كان شديد الإيمان بالخرافات، وسوف نورد مثلاً أو مثالين يعطينا فكرة عن محتويات تلك الرسائل:

((إلى سيدي الملك من خادمك - شم - أيديمس أرجو أن يكون سيدي بصحة جيدة وأرجو أن يباركك يا سيدي الملك الإله نابو والإله مردوخ يا سيدي وبخصوص معبد الإله ناشوخ الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة بخصوصه هاتلاً:

اختر يوماً يكون ذا فال حسن واكتب لي كيف تسير أمور بنائه.
وأنا أقول إن شهر حيوان (حزيران) مناسب واليوم السابع عشر منه أيضاً مناسب، ومع ذلك فإن هذا الشهر قد انتهى وذهب وهكذا متى سوف يقربون عملها تمام العمل؟
إن أيلول شهر جيد وهو الشهر المناسب لهذا العمل، دعهم يعملونه ودعهم يبدؤون بالعمل خلال ذلك الشهر)).

وهناك رسالة تعتبر مثلاً عن الفأل الحسن وهي تعود إلى فترة تشييد ملك بابل، إذ عندما حذر الملك بالفأل السيئ أخطر للانزعاج واتخذ لقب مزارع بشكل مؤقت بينما حاكم حاكم بديل بالتيابة عنه، ويمدها استقال ذلك البديل وهنا نورد النصف الأول من هذه الرسالة:

((إلى سيدي المزارع من خادمك نابو - زر - ليشر أرجو أن تكون بصحة جيدة يا سيدي، وأرجو أن يباركك الإله نابو والإله مردوخ مدى السنين الطويلة.

لقد كتبت لك جميع البشائر بعدد ما كان سواء كانت من السماء أم من الأرض أو الموالييد بشكل وحوش وقد رددتها الواحدة تلو الأخرى أمام إله الشمس، لقد جعلتهم يطبخون ويأكلون الطيور المحضرة بالنبيذ والتي غسلت بالماء ودهنت بالزيت، أما الملك البديل فقد اتخذ لنفسه نذر بلاد أككاد).

وأما الفئة الثانية المريضة من الرسائل فقد كانت مرسلة من الموظفين الإداريين إلى الملك، ومعظمهم من الولاة وأمري الحاميات العسكرية، وكانت هذه الرسائل تتضمن الحديث عن أي شيء مع أنها كانت تغطي تفاصيل المخبرات العسكرية أو تفاصيل عن الأعمال العسكرية، وحركات أسرى الحرب، وجميع مجموعات الخيول لمصلحة الجيش وأمور الخصومات التي تحدث بين الموظفين.

الوثائق الاقتصادية

هناك عدة أمثلة آشورية عن مثل هذه النصوص التي كانت واسعة الانتشار وخلال منطقة ما بين النهرين في جميع الأوقات، وكانت عناوينها تحتوي محتويات فضفاضة تغطي عدة فئات متميزة، ولكن هناك مبررين اثنين لاستعمالها:

أولهما: إن أهم ما نشر من النصوص الآشورية الجديدة من هذه الفئات قد عولج بشكل جماعي.

أما المبرر الثاني: فهو أن الأنواع الاقتصادية العائدة لكثير من الفئات المختلفة كانت مخزونة لدى الآشوريين أنفسهم. واعتبرت جزءاً من قضايا شخصية خاصة، وتشمل أنواعاً من هذه النصوص التي تندرج تحت هذا العنوان المريض، مع أشياء أخرى كالآتي:

وثائق الأراضي التي منحها الملك، ووثائق بيع (الأراضي، والبيوت، والعبيد) وعقود الزواج واتفاقات التبني، وتقسيم الإرث، وعقود القروض (بيع الشعير، والفضة، والبرونز) والإيصالات عقود العمل (الحصاد، وبناء البيوت) وقرارات

المحاكم وقوائم الأجور ، وفي بعض الحالات وبعض الفترات الزمنية وكانت وثائق العقود تحفظ من التغيرات والتبديلات بشكل غير قانوني فقد كانت هذه الوثائق تحفظ في ظروف من الطين والفضار ، وكان الطرف منقوشاً بمحتويات العقد أو خلاصة تلك العقود ، وفي حالة نشوء خلافات كانت الظروف تكسر للكشف عن محتوياتها.

القوانين

كانت أول مجموعة من القوانين المدونة تعود إلى القرن الثامن عشر وإلى حمورابي ملك بابل ، ولكن هناك مجموعات أخرى من بابل ولديها أمثلة من آشور ، ولقد اكتشفت مجموعتان من قوانين آشور في مصر المتوسط في مدينة آشور وكانت واحدة منهما تختص بامتلاك الأراضي والأخرى تختص بالنساء.

وبعكس قوانين حمورابي فلم تكن هذه مكتوبة بشكل قرارات اتخذها الملك بل كانت عبارة عن ملاحظات حصلت مع رجال القانون (الذين كانوا يملكون ضمن إرشادات الملك) وتتضمن الممارسات القانونية التقليدية في مناطق معينة.

ومن المهم أنه لم يعثر على أي آثار من هذه القوانين في مكتبة كيونيجيك الكبيرة المحتوية على نصوص تعود إلى القرن السابع ق.م ، ومن الممكن أن يكون هذا ناتجاً عن المصادفة ولكن ليس هذا محتملاً نظراً لوجود كميات هائلة من محتويات المكتبة ، وحتى التي كانت بشكل قطع مكسورة ، وكانت الملابس هي أنه مهما كان غرض تأليف القوانين في الفترة الآشورية المتوسطة ، إلا أنها لم تكن تخدم كمجموعة كاملة مكتوبة للقوانين الوطنية التي كانت تستعمل كأساس للقرارات القانونية.

ولم تكن هذه القوانين أيضاً جزءاً نظامياً من منهاج الدراسة الذي يدرسه الكتبة ، وإلا فمن الواجب أن نكتون قد وجدنا أمثلة متأخرة عنها وهي بشكل نماذج نسخت لاستعمال الطلاب (شأنها شأن نصوص أخرى).

النصوص المكتسبة من بابل مباشرة

إن الفئات التي ذكرت حتى الآن إما أنها قد تطورت في آشور أو أنها صنعت في آشور على غرار التماذج البابلية، ولكن عدا عن هذه فإن أغلبية النصوص التي وجدت في آشور كانت مكتسبة من بابل بشكل مباشر، وإن أكثر الأمثلة التي تريد هذا القول هي مجموعة من النصوص التي وجدت في المكتبة الملكية في نينوى التي اكتشفت عندما كشفت الحفريات عن كويونيجيك في القرن الماضي، وقد جلبت هذه النصوص إلى المتحف البريطاني، والحقيقة أنه كان هنالك أكثر من مكتبة نظراً لأن بعض التذييلات ذكرت أن النصوص قد وضعت في القصر، وفي تذييلات أخرى ذكر أن النصوص تنتمي إلى مكتبة المعبد في نابو. ولذلك ونظراً لأنها كانت تحت سيطرة ملك واحد وأنها جميعها الآن موجودة بشكل المجموعة نفسها في المتحف البريطاني لذلك فمن المناسب أن نعالجها كمجموعة منفردة، وقد رتبها العالم الألماني كارل بيزولد **Carl Bezola** بشكل خمسة مجلدات عنوانها ((فهرس الألواح المسماة في كويونيجيك)) ومجموعاتها موجودة في المتحف البريطاني (١٨٩٨-١٨٩٩).

وهناك عدد كبير من القطع المتناثرة لم تضبط في أي بيان أو فهرس، وإن المجموع النهائي لهذا الفهرس يبلغ ٢٥٠٠٠ أو أكثر ولحسن ونظراً لأن كثيراً منها كانت عبارة عن قطع مكسورة ولهمت ألواحاً كاملة لذلك يتناقص العدد إلى (٥٠٠٠) وفي بعض الحالات فإن ألواحاً عدة تكرر النص ذاته ولهذا فإن العدد المقدر ينحصر ما بين ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح.

ولقد وجدت مكتبات أصغر تحتوي على نصوص مسمارية في مواقع آشورية أخرى ولاسيما في مدينة آشور وكالاخ، وأيضاً في موقع سلطن تيب (حوزيرنيا القديمة) قرب حران في جنوب شرقي تركيا، ولقد نشرت أعداد كثيرة ثبتت أهميتها بالنسبة لمرقمتها بالمشؤون الطقوسية في آشور مع أنها تشير إلى مظاهر أخرى من الحياة الآشورية أيضاً.

ولذلك فإننا نعتبر أن القوانين الآشورية في الفترة المتوسطة قد أتت من آشور، هذا وإن المجموعة التي وجدت في كالاخ إنما تؤلف مكتبة معبد الإله نابو الذي كان يحتوي على مكتبة أيضاً نظراً لأنه كان هو إله الكتبة، ولكن هذه لم تنشر بعد، ما عدا استثناءات قليلة أما نصوص (سلطان تهب) التي نشرت في مجلدين فهي تحتوي على كثير من المادة الأدبية. لم تأت جميع الألواح والقطع المتناثر المسجلة في فهرس كيونيجيك في المتحف البريطاني لم تأت من مكتبة نينوى أو من نينوى نفسها على الإطلاق.

إذ لم تشمل وسائل الحفريات في القرن التاسع عشر أي تسجيلات دقيقة حول البقعة التي وجد فيها كل لوح مسماري، وبالنسبة لموقع مساحته حوالي مائة فدان ويحتوي على عدة قصور، فلمس من الضروري أن نفترض أن جميع الألواح التي وجدت قد أتت من نفس البناية.

والحقيقة أننا نعلم من محتويات الألواح أن بعض تلك الألواح التي أظهرت ضمن مجموعة كيونيجيك قد أتت من أحد المواقع غير موقع كيونيجيك، ولكن هناك مثلاً عدة ألواح يرجع تاريخها إلى قرن من الزمان بعد سقوط نينوى.

ولكن حتى ضمن الأكثرية الهائلة التي أتت بالتأكيد من كيونيجيك إلا أن هناك البعض التي ظهر أنها لهمت من مكتبة آشور بانيبال.

وإن معظم الرسائل الرسمية من المحتمل أن تكون ضمن بعض المحفوظات الرسمية الظاهرة من المكتبة، وإنه ومن المؤكد أن المكتبة الوطنية الملكية لا يمكن أن تكون مأوى تلك الوثائق الاقتصادية التي كانت تصالح قضايا مثل عقود بيع خاصة بالمبيد أو البهوت، وعقود تختص بالحصاد وما شابه ذلك، ولقد تمزقت هذه الاستنتاجات عن اكتشاف وثائق اقتصادية مشابهة في نينوى في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠م) في منطقة بعيدة عن تلك القصور.

ومع ذلك فإن معظم الألواح التي وجدت في مجموعة كيونيجيك لم تكن تنتمي إلى القصر الملكي أو المكتبات الملكية في نينوى.

إلا أننا نعلم شيئاً عن أحد هذه المكتبات وهذه المعلومات أنها كانت بفضل آشور بانيبال، مع أن النواة تعود إلى أسلافه الذين مننع بعضهم بعض المجموعات من الألواح.

وابتداءً من حوالي ١١٠٠ ق م لقد أسس تغلات بيلاسر الأول مكتبة في أحد المعابد في مدينة آشور قد عرف حوالي المائة من الألواح فيها من اللقيات التي وجدت هناك.

ولكن لا يشك أن مجموعة آشور بانيبال في آشور هي أعظم جامع للألواح، ولقد نشرت أنشطته المختصة ليس بذكر اسمه في نسبة كثير من الألواح التي وجدت في نينوى فحسب، بل عرفت أيضاً عن طريق إحدى الرسائل التي كانت تفالج هذه القضية، والرسالة هي كما يلي:

((هذا أمر ملكي إلى كودورانو: أمل أن تكون بخير، وأن تكون مسروراً في اليوم الذي يقع بصورك فيه على هذا اللوح، خذ تحت إمرتك (عدة أشخاص ساهم، والخبراء في الكتابة من بورشيبا - وهي مدينة قرب بابل) وفتش عن جميع الألواح التي سوف تجدها في البيوت، والألواح المتواجدة في (اليزيدا) وهو المعبد الرئيسي في بورشيبا والتي إليها هو نابو.

وبعد ذلك تستمر الرسالة الملكية وتذكر بعض النصوص سلسلة من النصوص التي كان يرغب الملك في إيجادها، وهذه كانت تشمل سلسلة من المعارك بالإضافة إلى الألواح التي تنتمي إليهم مهما كان العدد.

مثلاً: النصوص الطقسية من نوع الصلاة التي تدعى: "رفع اليد" والنصوص التي تدعى: "التقوس على الأحجار" و: "ما هو مفيد للملك".

وتستمر تفاصيل تعليمات الملك كما يلي:

((فتش عن وأرسل لي أي ألواح نادرة من الألواح المروضة لديك وهي غير موجودة في آشور....

وينبغي أن لا يستكشف أحد عن إظهار الألواح التي تطلبها، وإذا هناك أي لوح أو أي مقوس لم أذكرها في حين أنك تجد هذه الألواح مناسبة لقصري عندما حصل عليها وأرسلها لي)).

ومع أن هذا الأمر الملكي لم يحتو على اسم الكاتب (ولا تشير الوثائق إلى ذلك) إلا أن ذكر آشور لا يبق مجالاً للشك أن هذه الكتابة هي كتابة الملك الآشوري، وإن مظاهر اللغة تظهر أن هذه الرسالة قد كتبت قبل سقوط الإمبراطورية الآشورية، ولهذا فإن الملك المقصود معرفته هو آشور بانيبال.

وتظهر محتويات الرسالة السبب الذي جمعه هذه الألواح، ولهذا فإن الفئات التي تقع تحتها هذه الألواح تملؤد الفال، والطقوس والصلوات والابتهالات وكان لهذه النصوص أهمية خاصة.

فقد كانت الحياة على الأرض مقطعة بظلال ما وراء الطبيعة التي كانت تأثيراتها تدل على عدم التنظيم مثل قضية الخط، وليس هناك من شخص يهتم بهذه الأشياء إلا الملك وهو تجسيد للدولة، فسي أي وقت ربما تحدث المصيبة، ولكن إذا تمت قراءة علاماتها حكماً يجب فإن إنذاراً سوف يتم إعطاؤه لإظهار الأخطار القادمة، وهكذا فسوف تتخذ خطوات وتدابير مسعرة للتخلص منه، وهكذا فقد أظهرت نصوص الفال أن هناك خطراً يهدد الدولة وليس هناك سوى الطقوس والابتهالات والصلوات، القادرة على تقديم وسائل للتغلب على هذا الخطر.

في هذه الرسالة كان من الواضح أن آشور بانيبال قد صادر الألواح الموجودة في معبد يورشييا وقد وجدت ألواح كان مصدرها بابل (لكونها متميزة عن النسخ المأخوذة من الواح بابلية) في مكتبته، وكان هناك أشياء أخرى أخذها من العواصم الآشورية القديمة وهي مدينة آشور وكالاخ، ولكن المدد الأعظم من الألواح الموجودة في مكتبته (أو بشكل أدق في مكتبته) قد نسخت بشكل خاص خدمة له.

ونحن نعلم مثل هذه التفاصيل من التنبيلات، فالتنبيل إذا قصد به اللوح المسماري ما هو إلا تصريح مكتوب في النهاية يقدم بعض التفاصيل حول أحد الألواح، وأما تلك التي استعملها آشور بانيبال فهي واقعة ضمن ثلاثة وعشرين نموذجاً وهناك ثلاثة أمثلة كما يلي:

((آشور بانيبال الملك العظيم، الملك القوي، ملك الجميع، ابن اسرجون ملك آشور وهو ابن منحاريب الذي كان هو أيضاً ملك آشور، لقد كتبت هذا اللوح وأنا بصحبة خبراء في كتابة الألواح وكتابة الألواح الأصلية من بلاد آشور ومومر وأكاد (أي: بابل) فحسنتها وراجعتها ثم وضعتها داخل قصري لاستعمالي الملكي الخاص، إنني أدعو على أي شخص يمحو اسمي ويكتب اسمه بدلاً من اسمي أن يمحو نابو الكاتب العالمي اسمه أيضاً)).

والمثال الثاني يمثل أطول نوع من الأنواع التي وجدت:

((أنا آشور بانيبال، ملك الجميع، ملك آشور الذي وهبني نابو وتاشميتو (زوجة نابو) الذكاء (في الأصل أفناً وأعية) ووهبني عيوناً صافية لأرى فيها أذن أخبار المعرفة، أنا الذي من بين الملوك الذين سبقوني ولم يفهم هذه الأمور غيري، لقد كتبت على الألواح حكممة نابو أو رسم العلامات المسمارية مهما فكان عددها وبمدها فقد فحسنتها وفارنتها وقد وضعتها في مكتبة معبد سيدي الإله نابو السيد الأعظم، تلك المكتبة التي هي في نينوى وذلك حفظاً لحياتي وحراسة روحي بحيث لن يصيبني المرض، وكذلك لتأمين وتقوية أسس عرشي: أيها الإله نابو انظر إليّ نظرة عطف وحبور وبارك مملكتي، وخذ بيدي كلماء دعوتك وأرجوك أن تبارك خطواتي وأنا سائر في بيتك ومعبدك، وعندما أضبح هذه التموص في معبدك وأمامك انظر إليها وتذكرني بمطبخ وحنان)).

إن هذا التنبيل يكشف لنا أشياء كثيرة فهو يوضح أن اهتمام آشور بانيبال بالألواح لم يكن مجرد الحماس الأدبي بل كان فيه عنصر ديني قوي، فلم تكن النصوص أدباً بقدر ما هي نص من نصوص الكتب المقدسة، وذلك بما تعنيه تلك الكلمة من معانٍ لها علاقة بالأسس التوراتية فهي تحتوي على حكممة نابو، وهذه

النصوص القديمة كانت كلمات مقدمة أيضاً ، وهذا هو السبب في ورود التأكيدات والتنزيلات بوجوب فحص ومقارنة هذه النصوص بالنصوص الأصلية التي كانت تحمل الأشكال القديمة.

وحتى عندما كانت التنزيلات مختصرة جداً إلا أنها كانت تشير إلى التطابق مع النص الأصلي كما هو الحال في المثال الآتي:

لقد كُتِبَ وقُورن طبقاً

لكلمات اللوح الأصلي من كوثام.

هذا وإن الاهتمام الذي ظهر في التنزيلات التي ذكرت لتأمين مصداقية الواح هذه المكتبة ينبني أن تكون قد عكست نظاماً بارعاً من أنظمة ترتيب المعلومات. دعمت وجهة النظر هذه بوجود فهارس لعناوين النصوص ، ولأسوء الحظ ونظراً لعدم علماء الآثار القدماء عن تسجيل الأمكنة التي وجدت فيها هذه الألواح والتفاصيل المرفقة بها إذ ليس لدينا أي معرفة من الدرجة الأولى عن كيفية تخزين هذه الألواح في مكاتب فينوى.

ومع ذلك فقد ملأت الحفريات التي حصلت في نمرود هذه الثغرة ، فقد أتت الرسائل الرسمية التي وجدت هناك من أرض غرفة في البناء الواقع هناك والمعروف بالقصر الشمالي الغربي ، ولا تزال الحاويات التي حفظت فيها هذه الألواح ترى هناك.

وكانت هذه الحاويات بشكل متناهي يبلغ حجم الواحد منها قدماً مكعباً ونصف قدم ، وهي مصنوعة من الحجر المشوي الكبير ، ويبدو أنه من المحتمل أن تكون الواح مكاتب آشور بانيبال قد خزنت بنفس الطريقة.

إن أنواع النصوص التي وجدت في مكاتب آشور بانيبال تعطينا دلالات عن وجود أدب تعليمي مدرسي رئيساً كان من أصل بابلي وهو مستعمل في آشور ، ولا يقدم لنا الاستعراض التالي قائمة مستفيضة بل هو يدل على بعض الأصناف الأساسية للنصوص.

وأما الأصناف الموصوفة من قبل في أول هذه الكتب فلم تذكر مرة ثانية ما لم يكن هناك نقطة خالية ينفي ذكرها حول هذه الأصناف.

نصوص تملويز الفأل

كان أكبر فئة من ضاات النصوص التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال مختصة بالفأل، وقد قدر أن أكثر من ربع المجموع المقرب ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح كانت من هذا النوع.

ولقد شكلت قضية ملاحظة ومعرفة الفأل في الثقافة البابلية والآشورية جزءاً هاماً بارزاً من هذه الثقافة.

فقد كانت وسيلة يستطيع بها الملك أو أي شخص عادي أن يعرف ممبهاً أي حوادث سيئة تنتظره بحيث يستطيع القيام بالخطط اللازمة لتجنب النتائج الخطرة. ولقد نشأ في دولة آشور في الألف الأول شكل من أشكال التفسيرات وهو استعمال النصوص الأثرية، ولقد أنتجت بابل ومن وقت مبكر أنواعاً أخرى كثيرة وهي الأصناف التي ذكرها أكثرها في مكتبة آشور بانيبال.

وإن ضاايا الفأل يمكن ملاحظتها في عدد واسع من الحالات والظروف مثلاً: ظهور عدد كبير من النمل أو الحشرات أو المواشي أو الفم أو الحيوانات الأخرى أو الطيور أو الأفاعي أو العقارب أو الأحلام والمنامات، أو من ظهور النار أو من الدخان أو من نماذج طفو الزيت فوق الماء، أو من الممارسة الجنسية للبشر، أو من الولادات الوحشية، وقد رثبت هذه الحالات من الفأل بشكل تتابع طويل اتخذ في المستقبل، على المدى البعيد من الزمن شكلاً رسمياً أو دينياً.

وقد عرفت مثل هذه النصوص بشكل تقني كسلاسل لكل واحدة منها اسمها الخاص ووضعها الخاص مثلاً: إذا كانت المدينة مبنية على ثلة إلخ.

ولكن الحقيقة أننا نحتاج لصفحات عديدة لنغطي أمثلة على كل نوع من الأنواع الرئيسية ولكن ههنا يلي نوضح بعض هذه الأشكال:

إذا رأى أي رجل متامناً يظهر فيه ككته من صلتني الأختام فإن ولده سوف يموت

وإذا رأى نفسه يقوم بعمل قصار للتسيج بواسطة القمع أو الإجماء
فإذا كان ذلك الرجل فقيراً فإن ذلك يعني: أن المصائب سوف تطارده ولن تصيبه.

إذا صب الإنسان الماء على باب داره واتخذ الماء المصبوب بشكل أفعى.
فإن هذا الرجل سوف يمارس شيئاً من الأفعال الشريرة.
وإذا رأى المرء نفسه مقطراً بالثليل
فإنه سوف يجد ملعاماً يأكله إذا حدثت مجاعة في بلده.

نصوص تعليم الكتبة

لقد كانت هذه المرتبة الثانية لأهم مجموعة من النصوص وأصلاً كانت هذه
عبارة عن مضاعفات مصاحبة للمعرفة التقنية الأساسية المطلوبة لتأهيل الكتبة في
اللغة الأكادية والسومرية.

وكانت هذه تشمل قوائم من العلامات المسمارية مع تفاسير وفواهم مشابهة،
وقوائم من الكلمات السومرية أو الأجنبية مع ترجمات أكادية ونصوص مكتوبة
بـ لغتين: لغة سومرية ولغة أكادية مشابهة في أساسها الموسوعة روجيه (Roger's
Thesaurus).

الطقوس والابتهالات

تشمل هذه الرجاء المباشر من الآلهة وما ندعوه طقوساً دينية وسحرية لتقديم الحماية ضد الشر أو لإطلاق سراح شخص من تلك القوى الشريرة، وقد كانت بعض هذه التصوص مخصصة للطقوس الملكية الرسمية بينما تطبق الأخرى على فرد من الأفراد المهددين بالمصائب أو المصابين بها.

ولقد ذكرنا بعض المقتطفات من هذه الفئة في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب والنصوص التي نحن بصيحتها تشمل سلسلة مستمعة ضد عمل السحر، وأخرى ضد الأرواح الشريرة التي كانت مغمية وغير ظاهرة وباستطاعتها أن تهاجم الإنسان في أي زمن وفي أي مكان، وهناك سلسلة ثالثة تحمل اسم الحرائق وهي مأخوذة من الابتهالات والطقوس المصاحبة لهذه الظواهر.

وكانت تستعمل لملاج أي رجل يشكو من مرض يظن أنه قد أصابه من دخول إحدى الأرواح الشريرة إلى جسده نتيجة لارتكابه إحدى الممنوعات الدينية أو المحرمات أو نظراً لاعتقاده ذنباً من الذنوب، وهناك مجموعة خاصة تمون وتحدد أسباب الإصابات وتشمل الذنوب التي نصنفها حسب معاييرنا الحديثة بأنها خرافات ضمن المجتمع والدين ومن الممكن أن يكون الأذى ناتجاً:

عن الممنوعات الشريرة التي تناولها في طعامة.

وعن كثير من الأعمال السيئة والذنوب التي ارتكبتها.

وعن تقريظه جماعة من الناس

وعن الجماعة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً والتي فصلها بعضها عن البعض الآخر.

وعن عدم احترامه لأحد الآلهة وإحدى الآلهات

وعن حنثه بوعده فتمه من قلبه وهمه ولم ينفذه.

وهناك قسم من هذه السلسلة يشيرون بشكل حازم إلى الأثام الاجتماعية
والمرهقة واعتبارها بسبب من الأساليب إصابة الإنسان بالأذى وهذا القسم يدعو إلى
التخلص من:

أن فلاناً الفلاني، ابن فلان الفلاني، وأبنة فلان الفلاني
والهته الفلانية وإن أسماء فلان الفلاني مذكورة بالضبط في النص (بعد
الدعوات والابتهالات يذكر اسم الشخص المصريح)

وفلان الفلاني هو مريض ومضطرب البال

وهو الذي فرق الابن عن أبيه

والذي فرق الأب عن ابنه

والذي فرق الابنة عن أمها

والذي فرق الأم عن ابنتها

والذي فرق العكئة عن حماتها

والذي فرق الأخ عن أخيه

والذي فرق الصديق عن صديقه

والذي فرق الرفيق عن رفيقه

والذي لم يطلق سراح الأسير ولم يطلق سراح المبد

والذي لم يدع الرجل السجين وهو في السجن يرى ضوء النهار.

إن معالجة الأمور المستعملة في سلسلة سحرية تشمل طقوس التطهير مع
استخدام السحر العاطفي، وإن المظهر المركزي فيه هو أن الأشييو تناول شيئاً من
البصل أو الثمر أو قطعة من الصوف وثم مرّوها إرباً إرباً وألقاها في النار في الوقت
الذي يتلو بعض الابتهالات، وحالما كان البصل يقشر ويترك يحترق هكذا كان
الشرف حسب الإنسان يقشر ويحترق ويتلاشى.

وهناك قسم من هذه الابتهالات هكذا:

ابتهال: حالما يقشّر هذا البصلة ويرميها في النار
ويلتهمها اللهب نهائياً
بحيث لن تزرع في حديقته
ولا تقف بإزاء خندق أو شاة تلري
ولا تمتد جذورها داخل الأرض
ولا يظهر لها أغصان ولا ترى الشمس
ولا تعمل إلى مائدة أحد الآلهة أو أحد الملوك
وهكذا أرجو أن يقشّر المرض الذي أصاب جسمي ولحمي وأوردي كما
قشّرت هذه البصلة
وأرجو أن تلتهم النار ألامي في هذا اليوم.

الأساطير والملاحم (القصص البطولية)

هناك طبقة من النصوص البابلية والآشورية تروى للقارئ العادي في هذه
الأيام، ولكن ليس هناك من سبب يدعونا أن نفترض معاصرة أهالي منطقة ما
بين النهرين في هذا الإعجاب.

والحقيقة أن الأساطير والقصص البطولية كانت متغلّفة بالنسبة لتصوص
القال والأدب المدرسي في عدد الألواح الموجودة في مكتاب كيونجيك، ويدخل في
هذه الفئة نحو أربعين نصاً.

إنّ التمييز ما بين الأساطير والملاحم أي: القصص البطولية هو أن الأساطير
تعالج الأنشطة على المستوى الإلهي والديني، بينما تهتم الملاحم بأعمال الأبطال
ومع أنها تحتوي على كميات كبيرة من مواضيع ما وراء الطبيعة إلا أنها لا تخرج
عن المستوى الإنساني.

ولقد أنتج بحث أصول وهدف الأساطير ولا يزال ينتج كميات واسعة من
التخمين الذي ليس هناك من مجال لبحثه هنا.

ولكن من الواضح أنه وبالنسبة لبابل القديمة (التي أخذ الآشوريون أساطيرهم منها) من الممكن تمييز مظهرين من مظاهر الأساطير:

أحدها: تفسير حول النظام في العالم.

والآخر: تقرير التورات التي سوف تظهر على المستوى السياسي وحتى الشخصي.

وقد اشتملت الموضوعات الخاصة بالأسطورة على المجالات التالية:

وأصل هذا الحكون والخلاقات بين الآلهة وخلق الإنسان والنظام الاجتماعي.

إن أهم أسطورة وجدت في منطقة ما بين النهرين في الألف الأولى كانت

أسطورة الخلق التي اتركز عليها عيد رأس السنة في بابل.

وقد اشتمل هذا على ثُف من عدد من الأساطير الأقدم عهداً والتي تم جمعها

وتجويدها بقصد تمجيد مردوخ إله بابل.

ولقد قدمته الأسطورة كإله صغير ولكنه جبار وقد تقلب على قوى الفوضى

التي كانت بشكل الثينة ثيامات وجنودها ، ولذلك فقد وهبت الآلهة السيادة

لمردوخ في مجتبع الآلهة التي كانت حاكماً على الآخرين.

وقد كانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى بابل وهي المدينة التي كانت المجلية

بالنسبة لكثير من المدن الأخرى التي كانت تعود في أصولها إلى زمن السومريين.

انتقلت إلى بابل المكانة والهيبة كمركز من المراكز الدينية الأشد احتراماً.

ولقد اهتم الآشوريون تلك الأسطورة، ولكنها بدورها سببت لهم مشكلة

لاهوتية، فقد ادعوا أن الإله القومي آشور احتفظ بالقوة العالمية وهذا غير منسجم

مع اللاهوت البابلي الذي ينص على سيادة مردوخ، ولقد حل الآشوريون هذه

المشكلة بأن استبدلوا مردوخ بالإله آشور خلال تلك الأسطورة.

لقد كانت الملحمة العظمى في كل من بابل وآشور هي ملحمة جلجامش.

وهناك شاهد جيد يشير إلى أنه كان هناك شخص اسمه جلجامش وقد كان حاكماً على مدينة أوروك (أبريش) في أوائل الألف الثالث ولقد أنشئت عدة ملاحم حول هذا الرجل ككتبتها جماعة من الكتبة السومريين في الألف الثالث.

وفي أوائل الألف الثاني ظهر شاعر بابلي عظيم استلم هذه الملاحم السومرية وترجمها إلى اللغة الأكادية وجمعها كلها معاً بأسلوب ذكي ليشكل ملحمة واحدة عظيمة، حتى أنه تدخل في قصة الطوفان التي لم يكن لها علاقة بجلجامش، وهناك عدة مواضع ثانوية في هذه الملحمة ولحكن السمة الأساسية التي تجري وتستمر فيها هي مشكلة موت الإنسان ومعلولة الإنسان أن يساوي نفسه مع الآلهة الخالدين، فضلاً عن القتل المحتوم لهذا الهدف عند انحدار الإنسان في هاوية الشيخوخة والموت، ومع ذلك وفي النهاية ينتصر جلجامش والإنسانية التي يمثلها جلجامش معبراً عن منجزات البشر الخلافة.

وقد كانت هذه الملحمة معروفة خلال منطقة الشرق الأدنى القريبة، وذلك طبقاً لما كنا نعرفه من مقاطع من النصوص التي وجدت في عدة أماكن بما فيها فلسطين الواقعة خارج منطقة ما بين النهرين، ولا عجب أن تتمثل بوجود عدة نسخ منها (ولكنها ليست كاملة) في مجموعة كويونيجيك.

ونحن لا نعرف ما هي الأغراض التي خدمتها ملحمة جلجامش بالنسبة لأشور، وليس هناك من سبب أن نفترض أنها قد استعملت في الطقوس، ولكن دون أي رموز درامية، ويمكن أن نخمن أن هذه الملحمة كانت تنلى أشاء الحفلات في القصور الملكية، ولكن ليس هناك من شاهد ملموس يؤيد هذا الرأي.

تشتمل نصوص كويونيجيك معظم الملاحم الأخرى المعروفة من بابل، ولكن هناك ملحمتين قد تم تأليفهما في آشور ولكنهما لم تكونا تقارنان مع ملحمة جلجامش في عمقها وفي قيمتها الأدبية.

ولكن ككتبتهم قد خلدتا انتصارات ملوك آشور في الفترة المتوسطة، وفي هذه الحالة نحن نتعرف على هدفهما، وقد كان هذا الهدف هو الدعاية فقد كان لهما

غرض سياسي ديمتي وهو إظهار حادث استيلاء آشور على بابل بأنه كان طبقاً
لرغبة الآلهة.

أدب الحكمة

تمثل هذه الفئة من الأدب القديم في الشرق الأدنى المعروف لدى الشعراء
الغريبيين، ما كتب في التوراة عن هذا الموضوع مثلاً: سفر الأمثال، سفر أيوب،
سفر الجامعة.

ولا تعلم عن أي عمل من هذا النوع كان أسسه آشور، ولكن معظم أدب
الحكمة البابلي كان موجوداً في آشور، وما عدا وجود مثل عربي مقتبس من
الرسائل فليس هنالك أي دلالة أن مثل هذه النصوص قد نبتت دوراً مرموقاً في
الحياة الآشورية والفكر الآشوري، ولم تكن الأمثلة الرائجة في آشور لتخرج عن
الدوائر الكتابية المحدودة.

ولكن هنالك ثلاثة أعمال ذات أهمية جوهرية فلا يجوز إغفالها.

الأول: هو تاليف ما يدعى (الاسوف أمدح إله الحكمة) حيث نرى
المتكلم في مرتبة الأمراء المرموقة، ولكنه يجد نفسه مهجوراً من قبل الآلهة
ويطرد من الوظيفة والممتلكات، ويصاب بالأمراض والألم، ومع ذلك فهو يصبر
على أنه لم يهمل واجباته تجاه الآلهة، وهكذا فإن النص مؤلف نوعاً ما من
الامتنان كما هو في سفر أيوب التوراتي، وبالنسبة لمشكلة الشر فهو في مستوى
أدنى بكثير.

وفي النهاية نقول: إنه من الممكن نشوء نزاع نظراً لأنه ليس بمقدور البشر أن
يعرفوا إرادة الآلهة المخفية، إن ما هو مناسب للإنسان ربما كان ذنباً بالنسبة
للآلهة. وما يبدو حقيراً أو خسيماً بالنسبة للإنسان ربما كان مناسباً بالنسبة
للآلهة، ولكن من هو الذي يعرف إرادة الآلهة في السماء.

وهناك عمل آخر معروف (التبرير البابلي لالاهوت البابلي) وهذا ظهر بشكل حوار جرى بين شخص متألم وصديقه، يشكو المتألم من الظلم الذي يكثف الحياة.

ولكن الصديق يقدم أجوبة مبتذلة عن روح الدين البابلية التقليدية وعندما يشير المتألم إلى أمثلة عن أولئك الذين خدموا الآلهة دوماً ومع ذلك فإنهم يتألمون ويصادفون الصعاب، فإن الصديق يؤكد أن التقيد الكامل بالتقوى وبالتدين ينبغي أن يكافأ بالخير والأزدهار، وعندما يشير الشخص المتألم إلى وجود رجال أشرار ولعنهم ناجعون ومزدهرون، فإن الصديق يؤكد له أن هؤلاء سوف يلقى النهاية يتألمون عقاباً على أعمالهم السيئة دون شك.

وهناك تأليف آخر يدعى (حوار حول التسليم) وهذا يمثل حواراً بين أحد الأسياد وأحد العبيد الذين يملكهم هذا السيد.

وهنا يقترح السيد إعلان مجموعة معينة للعمل، ولكن العبد يوافق بشكل باعث على الفشان، وعند ذلك يفهر السيد رايه فوراً مشيراً إلى الفباء الذي عرضه في الاقتراح الأول، وعندما يفهر رأي العبد ويقدم أفكاراً تدعم وجهة نظر السيد الأخرى، وهكذا تبين أن هدف القصيدة هو الإشارة إلى أن الأنشطة البشرية هي في غاية النقاة.

أصناف أخرى من النصوص

هناك نصوص أخرى كثيرة مأخوذ بعضها من مجموعة هكينيونجيك وبعضها من مواقع آشورية أخرى ليس أهلها من آشور ولكنها لا تتناسب بسهولة مع أي فئة من الفئات الرئيسية الأخرى.

مثلاً القصة المعروفة باسم (الرجل الفقير من نيبور) وهي تتحدث عن رجل فقير قد غشّه حاكم المدينة، فلهذا استعمل هذا الرجل الفقير وسائل ذكية للحصول على وسائل الانتقام.

وقد ذكرنا هذه الحادثة في فصل سابق وفي مناسبة أخرى، وهناك على الأقل نصان آشوريان يعودان إلى القرن الثامن أو أوائل القرن السابع وهما يُصنفان بالميل نحو الدعاية السياسية ضد بابل تحت ستار ديني، كما وجد نص متماثل مع البابليين.

ويحتوي أحد النصوص المؤثرة وهو من أصل آشوري قصيدة من الشعر حول حملة مرجون وقد اقتبسنا من تلك القصيدة بعض أبيات بشكل رسالة إلى الإله آشور وهناك رسائل من هذا النوع معروفة.

وليس لدينا سوى مثال واحد من نصوص تشمل عقود معاهدات مع الأتباع، أو شرعة تحدد بعض الامتيازات الخاصة التي صوّف تتمتع بها مدينة آشور، وهناك نص يتناول تدريب الخيول ولكن هذه القائمة لم تكتمل ولن تكتمل، وحتى القائمة الكاملة لن تكون نهائية نظراً لأن هناك مئات الأنوف من الأنواع المسماة التي لا تزال مجهولة ولم يقرأها أحد، وهي محفوظة في متاحف العالم.

وهناك أعداد أكبر لم تكتشف بعد ولم تُجر أي حفريات بالنسبة لها ولهذا فمن الممكن أن تبرز أي نصوص تقدم لنا أشياء جديدة كلياً بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين القديمة.

الفصل الثامن عشر

اكتشاف بلاد آشور من جديد

بعد أن سقطت آشور في نهاية القرن السابع قـم حُلَّ محلها كمركز للإمبراطورية العالمية أولاً بابل وابتداء من عام (٥٣٩) إيران. ولم تُعمر بنايات آشور زمنًا طويلاً بعد الدولة التي أنشأتها..

وحتى في أيام عز آشور فإن المابد الرئيسية والقصور لم تكن لتستمر في بنائها، وإذا حكمنا عن طريق سجلات الترميم فإن أكثر أيامها كمراكز صالحة للاستعمال قلما تجاوزت ثلاثة قرون، وغالباً ما كانت أقل من ذلك.

ومع أن أبنية منطقة ما بين النهرين القديمة كانت جميلة بما فيها من الحجارة والقرميد المشوي، إلا أنه وعلى العموم كانت أبنية كثيرة تتألف من القرميد والطين وهو الوضع الذي يتأثر بهطول الأمطار، ومع أن المعدل الوسطي لهطول الأمطار في آشور منخفض نسبياً فإن مثل هذه الأمطار التي تصاحبها أحياناً العواصف الطويلة الأمد في آشور القديمة مما يسبب دخول الماء في شقوق موجودة في سقف المنازل.

وبعد سقوط آشور ساءت الأحوال، فقد حدثت الحرائق التي ساهمت في تخريب كثير من المنازل بشكل سريع، وفي خلال قرنين لم يبق أي شيء يمكن تمييزه في العواصم الآشورية ما عدا المعالم الخارجية لأسوارها وحصونها.

وقد علمنا ذلك من الوصف الذي أطلقه كئز نيفون وهو أحد الجنود المورخين اليونانيين عندما حضر في عام ٤٠١ قـم بصفته قائداً لأحد الجيوش المرتزقة التي كانت تحارب في طريق رجوعها من بلاد الفعج إلى بلاد اليونان.

فقد نصب بعض المعسكرات مع رجاله في أمكنة لم تكن معروفة بالنسبة إليه، ولكننا نعرفها عندما يشير إلى أماكن مثل كالأخ ونيئوي، ويبدو بأن كلا المدينتين قد أصبحتا أمثلة لما كنا نعرفه من الكلمة العربية (تل) فالتل هو مرتفع

صناعي ناتج من احتلال بشري قديم، وقد سكان المستوطنون الأوائل يبنون بيوتهم ومعابدهم على أرض بكر وغالباً ما تكون على مرتفع طبيعي بسيط.

وعندما انهار وسقط هؤلاء المستوطنون الأولون وانهارت الأبنية فإن الجيل الثاني كان يسوي الانقاض ويعيد البناء فوق الأبنية القديمة.

وهكذا يرتفع مستوى سطح الأرض، وهذه العملية تسهم في زيادة تراكم الأتربة والأوساخ، وفي بعض الحالات كانت المعابد والقصور تبني فوق منصات، وكانت هذه العملية تستمر دون كلل أو ملل بحيث إنه وفي خلال قرون أو آلاف السنين كانت المستوطنة ترتفع عالياً فوق السهل الأصلي.

ونحن نعرف على سبيل المثال أن جزءاً من كوينونجيك ومنطقة القصر في نينوى ترتفع سبعين قدماً فوق الأرض البكر.

وعندما أصبحت المستوطنة خالية من السكان بسبب الحرب والأمراض أو لأسباب أخرى عندها أصبحت هذه المناطق وبسبب الفواصف الرملية التي طالما اجتاحت العراق والتي كانت تقطعي خرائب الأبنية وبالتدريج عملت على إنشاء مرتفع ذي سطح أملس ومكسور.

وذلك باستثناء بقايا النراجورات والأبنية المرتفعة التي تبرز إلى الأعلى فوق المستوى المعروف، وإن مثل هذه التلال المتدرجة في أشكالها ابتداءً من أقل من فدان حتى ما يزيد على ثلاثمائة فدان بالنسبة لقلعة مروحان (آشور القديمة) وهذه الأبنية متناثرة في جميع أنحاء منطقة ما بين النهرين.

وهناك أماكن يزيد عددها على المئة ومن الممكن رؤيتها لو زار كنتزنهون منطقة كالاخ ونينوى في ظروف مواتية فإنه سكان سوف يعلم شيئاً عن هوية تلك الأمكنة وتلك الخرائب من السكان الأصليين، إذا إن سقوط الإمبراطورية الآشورية لم يسمح من الوجود السكان الأصليين فقد كان هؤلاء وبشكل واضح مزارعين وفلاحين.

ونظراً لأن آشور كانت تحتوي أفضل الأراضي المختصة بزراعة القمح في الشرق الأدنى، فإن اتصال الفلاحين الآشوريين سوف يبنون قرى جديدة حسب ما تسمح به الظروف فوق المدن القديمة، ويستمترون في حياتهم الزراعية وهم يتذكرون تقاليد المدن السابقة.

وبعد سبعة أو ثمانية قرون أصبح هؤلاء مسيحيين، وقد عمد هؤلاء المسيحيين مع المجتمعات اليهودية المبشرة بينهم إلى إحياء ذكرى مواقع أجدادهم الآشوريين، بل لقد ربطوها مع التقاليد المأخوذة من التوراة، ولقد أصبحت التوراة عاملاً قوياً في إحياء ذكرى آشور ولاسيما نينوى، فقد كانت نينوى واقعة في مركز الخرافات التوراتية، هناك قصة النبي يونان الذي حاول عبثاً أن يتخلص من واجباته الدينية بالتبشير لدى العاصمة الوثنية.

وفي جزء من خرائب مدينة نينوى كان هناك مرتفع مقدس وكان هذا معبداً آشورياً عمد المسيحيون واليهود إلى وصفه بأنه المكان الذي كان النبي يونان يبشر فيه، ولذلك فقد بنيت كنيسة في ذلك المكان وعلى ذلك الموقع، وعندما استولى المسلمون على منطقة ما بين النهرين في القرن السادس بم جعلوا يونان (يونس) وأصبح محترماً عند المسلمين واليهود والمسيحيين، ولقد حل محل الكنيسة مسجد ولكنه ظل محتفظاً باسم يونان.

ولقد كتب الجغرافي المسلم "المقامي" في القرن العاشر عندما وصف منطقة الموصل: ((هنا سامع الإله شعب النبي يونان)) أفلا تحتوي هذه المنطقة على مسجد النبي يونس في تل التوبة الذي يقال: إن سبع زيارات لهذا المسجد تعادل الحج إلى مكة، وهناك زائر آخر مسلم وصل إلى الموصل في نفس القرن وهو ابن حوقل قد تحدث عن أرض نينوى الخصبة حيث دفن النبي يونان.

روايات الرحالة

إن أحد العوامل التي ساهمت في عظمة آشور هو موقعها على الطريق الطبيعي الرئيسي على نهر دجلة، ولقد أكد هذا العامل مرور الحجاج الكثيرين والتجار في كل قرن من القرون بخرائب آشور، وكان أول الرحالة هؤلاء الرابي اليهودي بنيامين من توديلا في إسبانيا، وقد رحل هذا إلى عدة مدن من الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر بـم وكان يستطلع المجتمعات اليهودية والمواقع التوراتية ويكتب ما يلي عن الموصل:

((إن الموصل تمثل آشور العظيم، ويمش فيها حوالي سبعة آلاف يهودي، وتقع الموصل على نهر دجلة وهناك جسر يصلها بنينوى، وبنينوى هذه الآن خربة ولكن ضمن خرائبها هناك بعض القرى والمجتمعات ويمكن تحديد مساحة نينوى من خلال أسوارها البالغة أربعين ميلاً فارسياً، وتمتد حتى مدينة أربيل وفي بلدة آشور هناك كنيس (عوبيا) الذي بناه (يونان)).

وهنا ومع التحديد الدقيق لموقع نينوى نجد تقديرات مبالغاً فيها عن طول أسوار المدينة، ولقد تأثر هذا بالرغبة في التوافق مع الأقوال التوراتية التي تذكر أن نينوى كانت بلداً كبيراً للغاية على مسيرة ثلاثة أيام.

وقد وقع (بنيامين) بالخطأ عندما ذكر أن الموصل هي نفس مدينة آشور، ومع ذلك فإن التحديد الصحيح لموقع آشور إلى الجنوب معروف بشكل تقليدي وذلك كما نعلم من جغرافيا عربي آخر، وهو أبو الفداء من أوائل القرن الرابع عشر بـم وهو يقول عن الموصل:

((وفي المقابل على الضفة الشرقية تقع خرائب نينوى وإلى الجنوب من الموصل يلتقي نهر الزاب الأصفر بنهر دجلة قرب خرائب مدينة آشور)).

وفي القرن السادس عشر زار الموصل شخص اسمه (رافولف) وهو ألماني يوصف بأنه مشهور بمهارته في معرفة المتنوجات الطبيعية وأعمال الحاج، ويقول ما يلي في وصفه تلك الزيارة:

((وفي هذا المكان وفيما حوله تقع المدينة الجبارة نينوى التي كانت عاصمة آشور ، ولكن ليس هناك في هذا الوقت أي آثار ظاهرة ما عدا القلعة الواقعة على التل وبعض القرى التي يقول السكان عنها بأنها كانت تابعة لها في الأزمنة القديمة)).

إن غياب الآثار البارزة ذُكر مرة ثانية في أوائل القرن السابع عشر من قبل المبعوث الإنكليزي إلى بلاط دولة فارس وهو (أنطوني شيرلي) ، وهو يخبرنا أنه لم يبق هناك حجر مستقر في نينوى من الممكن أن يعطي الانطباع بوجود مدينة صغيرة ، ونظراً لافتقارها إلى وجود الآثار لم يكن لدى (المسير أنطوني) أي شك بالنسبة لموقع نينوى وذلك لأنه يضيف ما يلي:

((وعلى بعد ميل واحد من هناك مكان يدعى الموصل وهي شبه صغير ولكنها شاهد على عظمة الآخرين وعظمة الآلهة أكثر من إظهار أي مظهر من مظاهر العظمة نفسها)).

وكان هناك أحد المعاصرين وهو (جون كارترايت) الذي كان يستطيع أن يرى في الخرائب أكثر من رأي (المسير أنطوني) وهنا نراه يصف وصوله إلى الموصل ويقول:

هنا وفي هذه السهول الآشورية على ضفاف دجلة بُنيت نينوى من قبل نمرود ولكن أنهاها نينوس ، ويبدو أنه بمشاهدة الخرائب والأسس (التي رايتها رأي المين) إنها كانت مبنية ولها أربعة جوانب ، ولكن لم تكن هذه الجوانب متساوية ، ولم تكن مربعة لأن الجانبين الطويلين كان كل منهما بطول مائة وخمسين فيرلونج أي: ستون ميلاً ، وأما الجانبان القصيران فيبلغ طول الواحد (٩٠) فيرلونج أي: (٣٦) ميلاً.

لقد كان تخمين (كارترايت) مبالغاً فيه ولكنه قد حدد بدقة أطوال أسوار نينوى ، ولقد سبقه في ذلك الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر وهو ابن بطوطة الذي ذكر موقع نينوى بالموصل وهو يقول:

((لا تزال آثار السور المحيط بالمدينة قائماً ومن الممكن رؤيته وتُرى مواقع البوابات التي كانت فيه بوضوح)).

وهناك رجل فرنسي هو (ج. شافير بلرون أويوني) وهذا قد زار الموصل في النصف الثاني من القرن السابع عشر وقد زاد على تقديرات كارترايت حول أبعاد مدينة نينوى وهنا نقرأ ترجمة معاصرة لما ذكره نقرأ :
ليس هناك ما يستحق الذكر في موقع الموصل..

ولكن الآن دعونا نعبّر دجلة ، وهناك جسر من القوارب ، لنرى منظراً حزيناً لخرائب مدينة أثار ضجة كبيرة في العالم مع أنه لم يَد هناك ما يذكرنا بعظمتها الماضية.

ولقد بُنيت على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة على الجانب الأشوري ولكنها أصبحت الآن كومة من القاذورات ممتدة على بعد حوالي فرسخ على طول النهر ، وهناك عدد من المراديب والكهوف غير المسكونة ولا يمكن لأحد أن يحزر فيما إذا كانت هذه هي المسكن القديم للسكان أو فيما إذا قد بُنيت أي بيوت في ذلك الموقع في الأزمنة القديمة وعلى بعد نصف فرسخ من نهر دجلة تقع ثلة صغيرة تحيط بها البيوت وقد بُني مسجد هناك.

ويقول سكان المنطقة إنها هي المكان الذي دُفن فيه يونان ، وبعد أن قطعنا نهر دجلة سافرنا لمدة ثلاثة أرياع الساعة من نينوى (أي: ميلين أو ما يقارب ذلك) وابتداءً من ضفتي النهر حتى المكان الذي سكننا فيه في ذلك المساء ولم نر أي شيء سوى الخرائب المستمرة التي تجعلني اعتقد أن المكان الذي تقع فيه نينوى القديمة.

وحسب الآن تتفق التقاليد وتقارير الرحالة بشكل إجماعي وتؤكد أن الخرائب المقابلة للموصل هي نينوى القديمة.

ولكن ظهر أخيراً أحد المعارضين ، ففي حوالي منتصف القرن الثامن عشر سكن الرجل الفرنسي (م. أوتو) يميل إلى وجهة النظر التي مفادها: إن نينوى لم

تكن مقابل مدينة الموصل، ولكنها كانت تتمثل في بعض الخرائط الواقعة في مكان يدعى (أسكي موصل) (أي: الموصل القديمة باللغة التركية) وهي على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال.

وقد أبد هذا الرأي بما قيل إنما هو ادعاءات باتصال أسكي موصل القديمة ببيوتان مع أنه كان علماً بالتقاليد التي نقلها أبو الفداء وغيره من الجغرافيين العرب، وقد أنهى كلامه بقوله :

((إن كلاً من أبي الفداء والسكان الأصليين كانا مخطئين)) ولكن نظراً لأنه ليس هناك من تعرف على التقاليد بالنسبة للموصل القديمة لذلك فمن المرجح أن هذه المشكلة كان سببها هو (أوتور) نفسه.

وعندما نتحدث عن التقاليد الخاصة بالموصل في الأزمنة القديمة فإن السكان في شمال العراق لا يزالون يفضلون استعمال الاصطلاح الذي يمين الموصل القديمة. وهذا وفي زمن أوتور كانت اللغة التركية هي اللفظ المباد في شمال العراق، وقد كان أوتور يتكلم تلك اللغة بنفسه ، فإذا كان أوتور يستعمل اللغة التركية لكي يسأل السكان المحليين عن تقاليدهم فإنه كان من الممكن أن يشير إلى الموصل في الأزمنة القديمة باسم الموصل القديمة.

إن تحديد (أوتور) لمكان نينوى كان نوعاً من الخلط والخطأ ، إذ كان من الواجب أن يكون أكثر معرفة ودراية بالأمر، وذلك لأنه وفي منتصف القرن الثامن عشر كانت الموصل مشهورة بخرائطها حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يذهبوا إلى هناك.

وقد عرفنا ذلك من شخص اسمه (بارثلميو بلاستيد) وهو مهندس ومساح كان يعمل في شركة الهند الشرقية ففي عام ١٧٥٠ قد سافر إلى وطنه من بلاد الهند براً من البصرة ومع أن طريقه إلى الوطن كانت تمر ببغداد بعد الصحراء السورية إلى حلب فقد أشار ناصحاً المسافرين الآخرين أنه كان هناك بديل مناسب فقال :

(إذا كنت سوف تشعر بالتمتع من فترة الانتظار في بغداد عندها يمكنك التقدم نحو الموصل، وذلك سوف يقدم لك كمية كبيرة من التمتع نظراً لأن هناك كثيراً من بقايا وخرائب قديمة سوف تسبب لك شيئاً من المتعة والتسلية خصوصاً إذا كان لديك ميول من هذا النوع.

وخلال عقدين من الزمن بعد (أوتير) صرح المستكشف الدانيمركي (كارستين نيبون) بأن ليس لدى أي شك أبداً أن خرائب نينوى تقع قرب الموصل، وهو يذكر اسم قرية تدعى نونيا وأهمه على تلة كبيرة ومسجد كان قد دفن فيه النبي يونان.

وهناك تلة أخرى في هذه المنطقة تدعى (كالونيا) أي: تلة نينوى.

وفي التلة الأخيرة كان هناك قرية تدعى (كونتش جاغ) ويقوم بإبراز صورة عن منظر المسجد وقرية نونيا وأسوار المدينة.

تفسير المخطوطات

لم تشمل إعادة اكتشاف آشور إعادة معرفة وبيان الحفريات في مواقعها فعسب، بل أيضاً تفسير كتاباتها، إذ إنه وابتداءً من القرن السابع عشر ق.م. ظهرت تقارير عن وجود كتابات غريبة مؤلفة من إشارات إسفينية منقوشة على القرميد والحجر في مواقع قديمة مختلفة في الشرق الأدنى.

مثلاً: هناك رجل إيطالي يدعى: (بيروتو بلا فالي) قد كتب لأحد أصدقائه في عام (١٦٢٥) بعض ما قد وجده في بعض الأطلال في منطقة ما بين النهرين الجنوبية التي تدعى: (موكيجد) التي تعرف الآن باسم (أورو) القديمة، وقد كتب يقول:

((لقد وجدت على الأرض قطعاً من الرخام الأسود وهو قاسٍ وجميل، وهو منقوش بنفس الحروف المنقوشة على القرميد، وبين الأحرف الأخرى التي اكتشفها في ذلك الوقت القصير وجدت حرفين متكررين في نفس المكان، أحدهما يشبه الهرم المائل هكذا ...

والآخر: يمثل نجمة ذات ثلاثة أبعاد.))

ولكن المنطقة التي جُذِبَت الانتباه كانت في جنوب بلاد المجمع، ففي مكان يدعى: (تخت جاشد) وهو معروف الآن بموقع: (بير سوبو ليمس القديمة) إلا أن هناك بقايا ذات مظهر مؤثر لقصر رخامي وفيه عدة حجارة منقوشة.

ولقد نشر (بيترو) هذا بحثاً عن الكتابات التي وجدت هناك مع بعض المعينات، وقد أتبع هذا النظام عدة أشخاص آخرين خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وبعضهم قد نسخوا ونشروا نقوشاً طويلة.

ولقد أتى الإسهام الهاماً من (كارستن نيبور) إذ إنه لم يبق بإعداد بعض النسخ الممتازة من النقوش في (تختي جامشيد) فحمب، بل أيضاً قد عرف أنها كانت تحتوي ثلاثة أنظمة مختلفة من الكتابات وكان أحدها أبجدياً.

ونحن نعرف الآن أن الملك الفارسي داريوس الذي بنى (بيرسوبوليس) قد كتب مخطوطاته بثلاث لغات البابلية والهيلامية والفارسية القديمة، وكان لكل لغة من هذه اللغات نظام خاص من العلامات المسمارية.

أما بالنسبة للغة الفارسية القديمة فقد استعملت الأبجدية، هذا وإن نشر نسخ نيبور في عام (١٧٧٤-١٧٧٨م) قد أثار الاهتمام فيما بين الباحثين في أوروبا وقدم المادة اللازمة والحوافز لإجراء محاولات لتفسير المخطوطات، وكان الباحث الذي أحرز أعظم نجاح هو الألماني (ج. ف. جروتفند) من (جوتنجن) ولقد عرفنا مبادئ طريقته وسوف لا نعيد هنا.

ويكفي أن نقول: إنه وفي عام ١٨٠٢ استطاع نشر ورقة تشير إلى القيم الصحيحة بالنسبة إلى حوالي ثلث الأحرف الهجائية الفارسية المسمارية. ولكن الفضل في التفسير الكامل يعود إلى رجل إنكليزي يدعى (هنري كريسويل رولنسون) الذي سوف نقابله فيما بعد.

دعونا نرجع إلى منطقة ما بين النهرين فلقد أرسل عدد من الرحالة قطعاً من الفخار المنقوش إلى أوربة، ولكن لم تحدث أي حفريات علمية بعد ذلك، وإن أول

محاولة في هذا المجال بدأت خلال عقد من زمن (جروتفند) وأبحاثه ويحافظ تلك الأبحاث جزئياً، وكان الرجل المني هو (كلوديوس جيمس ريتش) وقد ولد هذا في فرنسا من والدين إنكليزيين عام ١٧٨٥ بهم ولقد عيّن في عام ١٨٠٢ موظفاً في شركة الهند الشرقية نظراً للسهولة التي أبداه في تعلم اللغات الأجنبية الشرقية.

وبعد سفره بعدة سفوات في الشرق الأدنى بقصد إجادة معرفته باللغة العربية والتركية وصل إلى بومباي في أواخر عام ١٨٠٧ بهم وقد اشترك في معيشته مع السير (جيمس ماكنتوش) المسجل العدلي في مدينة بومباي وهو فيلسوف إنكليزي متميز ورجل مثقف وفي ربيع عام ١٨٠٨ تزوج (ريتش) بالابنة الكبرى للسير جيمس) ثم تعين وهو لم يبلغ الأربعة والعشرين من العمر في وظيفة مرموقة وهي المندوب السامي للحكومة البريطانية في بغداد، والتي كانت وظيفة شائخة.

وعندما استقر في منطقة ما بين النهرين التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فقد قام بخدمات عظيمة للمصالح البريطانية التجارية والقضائية السياسية، وكذلك خدماته بالنسبة لعلم الآثار ككبيرة، ويستحق حماء (أي والد زوجته) بعض الفضل بالنسبة للخدمات الأخيرة وهي علم الآثار، وذلك كما سوف نلاحظ من النصيحة التي أرسلها السير جيمس إلى ريتش:

((إنه وعلى الرغم من الأبحاث والتحريرات في المناطق المجاورة (لهيلا) التي قام بها (بيرو ديلافالي) و(نيبور) و(بوشامب) إلا أن هناك الشيء الكثير الذي ينبغي عمله بخصوص آثار بابل)).

ويقول الميجور دينيل: ((إن وضع أسوار المدينة لا يزال من الممكن التحقق منها حتى اليوم نظراً لأن التضاريس والخرائط قد تركت أثراً واضحة، هذا وإن تخليط ووصف الموضع والآثار سوف يبرهن على وجود إحدى القطع الأثرية القريبة التي صادف وعرضت في الأزمنة الحديثة.

ولهذا فإني أعتبر أن هذه القضية مهمة وتستحق إعطائها اهتمامك ومواهبك، وإن موهبة الرسم عندك سوف تقدم لنا خدمات مهمة، فإذا استطعت أن تجد آثاراً مهمة فإنك تكون قد أديت خدمة عظيمة)).

وبالانسجام مع اقتراحات وتصانح حماد (أي والد زوجته) بدأ ريتش بتنفيذ أولى حفرياته العلمية (المختلفة عن الحفر لإيجاد أشياء تكنولوجية) وذلك في بابل وقد نشر في عام ١٨١٢ كتاباً اسمه (مذكرات حول طرائف بابل) ويمدحها تبمه في عام ١٨١٨ المذكرات الثانية، وقد خلد الشاعر بايرون هذه البداية في قصي علم الآثار من منطقة ما بين النهرين بقوله:

البعض من الكفار الذين لا يريدون

نظراً لأنهم لا يستطيعون أن يمشوا

على تلك البقعة في بابل بل لأنهم لا يريدون

مع أن كلودئوس ريتش المحترم قد حصل على قطع من القرعيد

وهكتب كتابين من مذكراته في هذا الشأن

وفي عام ١٨٢٠ ولكي يهرب من الحرارة المخيفة في بغداد قام ريتش برحلة استكشاف من خلال جبال كردستان، ويمد رجوعه عن طريق أربيل والموصل تقدم ببعض الملاحظات القيمة حول المواقع الآشورية في كل مكان قام بالتمرف وتسجيل الشواهد على وجود الآثار القديمة، مثلاً: ((الثلة الاصطناعية العالية من الزمن القديم)) في (سكارواليمر) (وهذا موقع آشوري ولم يكشف عنه بعد).

وفي أربيل تأكد أن ذلك المرتفع القديم الذي يطل على المدينة الحديثة كان يحتوي على كتل من المواد الفخارية مع أنه ربط هذا الفخار ببلاذ المعجم وليس بالآشوريين.

وكذلك قام ريتش بفحص شامل لأطلال نينوى وحتى ذلك الوقت وبمساعدة مساح يوناني قام بفحص المنطقة لإنتاج مخطط ثمين لموقع نينوى.

ويدعى المرتفع الجنوبي الرئيسي لنينوى يونس (الاسم العربي للنبي يونس) ويعتبره المسلمون في تلك المنطقة مقدساً بسبب المسجد الذي يملو المنطقة، وبالنظر لأقترانه مع يونس بحيث أصبح من الصعب إجراء حفريات في تلك المنطقة حتى هذه

الأيام نظراً لقدمها وهكذا أصبح البحث عن الآثار الآشورية متحصراً في الأبنية أو ترميم البيوت، وقد استغل ريتش من هذا الوضع وكتب يقول:

تضم قرية النبي يونس حوالي ثلاثمائة ألف بيت، وهي مبنية على المرتفع الاصطناعي القديم وهي لا تغطي مساحة كل هذا المرتفع، ولقد تأكد قدم هذه المنطقة عن طريق وجود بعض الآثار التي ظهرت عند الحفر فيها بشكل عميق عندما ظهرت قطع من القرميد وقرميد كامل، وقطع من الجبس وكلها مغطاة بالنقوش على الطريقة المسمارية.

واليوم وجدنا بعض القطع تحت أسس بعض الأبنية، وكان أحدها قطعة مكسورة من الجبس وعليها أحرف مسمارية، وجدت في مطبخ بيت ضئيل، وقد ظهر أنها جزء من جدار ممر صغير يقال: إنه يصل إلى الجبل.

ولقد حفر بعضهم في هذه المنطقة في السنة الماضية، ولكن نظراً لأن هذه الحفريات ينبغي أن تتم تحت المنازل وخوفاً من تعرض هذه المنازل للهدم فقد أقتلوا هذا المشروع، وملأوه بالقاذورات.

وعلى بُعد قليل وفي غرفة صغيرة تسكنها امرأة من سكان البلدة، وقد كانت هذه المرأة لطيفة جداً، وبشكل أدب سمعت لنا بالدخول وفحص المكان في أوقات فراغها.

وهناك وجدنا نقشاً آخر محفوراً بأحرف مسمارية كبيرة على قطعة من الجبس، وهذا النقش محفور وهو يمثل مركزه المادي، ومن الممكن أن نجد آثاراً قديمة أخرى في هذا التل، ولكن القسم الأكبر منها كان مغطى بأبنية من البيوت الصغيرة، ولهذا فإنه لا يمكن اكتشاف أي شيء إلا عند ترميم هذه البيوت أو سقوطها وهدمها.

وفيما بعد قام ريتش بفحص كامل سطحي في أكبر هذين المرتفعين في نينوى وسكرونيجيك وهو يصف هذه الأعمال بما يلي:

((إن جوانب هذا المرتفع منحدره وقمته منبسطة، وعلوه حوالي ثلاثة وأربعين قدماً، ومحيط قاعدته (٧٩٦) قدماً، وإن قمة هذا المرتفع لا تشير إلى أنه كان أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر، ولكن من الواضح أنه كان هناك أبنية فوقه وهي على الأقل حول أطرافه.

ومن الممكن استخلاص الحجارة والقرميد في كل مكان من هذا المرتفع، وبينما كنا ننظر حول هذا المكان وجدنا قطعة من القرميد والقضار منقطعة بشكل كثيف بكتابة مسمارية جميلة.))

لقد تعرف ريتش طبعاً على القصص التي تتعلق بالخرائب قرب الموصل في نينوى، ولكن لم يكن لديه أي برهان حول هويتها، وقد اشتهع بالقول هذا بالنسبة للخرائب الباقية التي رآها في النبي يونس وكيونيجيك والأسوار المحيطة، ولكن سواء كانت هذه تنتمي إلى نينوى أو أي مدينة أخرى فإن هذا مسألة أخرى لم تثبت صحتها بعد، ولكن ليس هناك مجال للشك في كونها من عمر واحد وصفات واحدة.

ولقد لفت ريتش النظر إلى أهمية المرتفع في قلعة شيد خان الذي نطم الآن أنه موقع عاصمة آشور القديمة، وقد قدم صورة له تظهر أدناه:

((يظهر أن هذا المرتفع مصنوع من التراب وفي أسفله جدار متهدم، وهو مرتفع فوق منصة من الخرائب، ولقد كانت هناك أكوام من القمامة مبعثرة هنا وهناك حيث يمكن أن تُرى صفوف من الحجارة المبنية وعليها إسمنت كلوسي فوق سطحها، وهناك قطع من القرميد المربع.

وقد كانت هذه الخرائب تستحق الاهتمام والفحص، وهي تشكل كتلة علوها نحو عشرين قدماً، وهي ممتدة باتجاه شمالي جنوبي على طول الضفة الغربية للنهر لمسافة ميلين تقريباً.))

وفيما بعد وفي نفس السنة رحل ريتش إلى شيراز في بلاد المعجم عند انتشار وباء الكوليرا هناك، وقد هجر المدينة الأمير مع جميع عائلته وجميع القبلاء، والطبقات العليا من السكان، ومن كان قادراً من الطبقات الدنيا.

ولكن السيد ريتش رفض مغادرة المكان، واستمر في تطمين السكان بشكل نبل ووفاء، وفي مساعدة المرضى الذين هم على وشك الموت، ولكن أخيراً انتقل إليه المرض وتسبب في وفاته، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، ولقد وصلت مجموعته عن آثار منطقة ما بين التهرين إلى المتحف البريطاني، وأصبحت من ممتلكاته.

بوتا ولايار وفولنسون آباء علم اللغويات الآشورية

لقد بدأت الحفريات الرئيسية بمد وهاة ريتش بعشرين عاماً، ولكن عمل عاملان بصورة خاصة على حدوث هذا.

وسكان العامل الأول والأهم: هو حدوث نوع من الاهتمام بالآثار لدى الطبقات العليا من المجتمع، وقد بدأ هذا الاهتمام ابتداءً من أوائل القرن السادس عشر بـم. فقد أطلق هنري الثامن ملك بريطانيا على قسمه الخاص لقب (مسؤول الآثار لدى الملك) ولقد زاد انتشار هذا الاهتمام أثناء القرن الثامن عشر، وفي نهاية هذا القرن انتشرت عادة جمع الآثار خلال أوربة حتى أن تشارلز ديكنز يذكر على سبيل الدعابة اللطيفة هذه الدعابة في كتابه (أوراق الكوبيك) نشر عام (١٨٣٦-١٨٣٧) حين أشار المهد بكوريك لاكتشافه على جانب الطريق حجراً يحمل نقوشاً مكتوبة هكذا:

Bilst
UM
Pshi
S.M.
ARK.

وقد كتب تشارلز ديكنز كراسة أو مکتیباً يحوي على ست وتسعين صفحة بالحرف الصغير، وفيها سبع وعشرون قراءة مختلفة لتلك النقوش. وقد كوفئ على ذلك بانتخابه عضواً فخرياً، في سبع عشرة جمعية وطنية وأجنبية لقاء اكتشافه هذا.

وكان العامل الآخر الذي ساعد على بدء الاهتمام هو عامل سياسي، لقد كانت هناك عدة بلدان أوروبية مختلفة في مقدماتها إنكلترا وفرنسا مهتمة اهتماماً كبيراً بالهند.

وكانوا يفتشون عن طريق برية للاتصالات بالهند، ولذلك فقد انتهرزت بريطانيا وفرنسا أي منسبة ممكن للاستيلاء على مناطق مختلفة من الشرق الأدنى والأوسط مثل مصر ومنطقة ما بين النهرين وبلاد المجر وبسط نفوذها على هذه البلدان لحماية الطريق إلى الهند، وكانت إحدى الوسائل الموصلة لهذه الغاية هي الاهتمام بعلم الآثار، وأرجو أن أقول قوياً:

بأنه لم يحدث أي اقتراح مهما كان ضئيلاً ولا أي تلميح، وإن علم الآثار في الشرق الأدنى كان بداية لهذا التدخل.

إذ إنه كان غطاءً لأعمال التجسس والتخريب، ولكن كان له نتائج شريفة سواء في كسب المعرفة حول الأحوال المحلية أو بإنشاء رويط محلية من الصداقة.

هذا وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ فقد كان من المحتمل بسط نفوذ البلدان الأوروبية خلال المناطق ذات العلاقة في الشرق الأدنى.

وفي عام ١٨٤٢ أنشأت الحكومة الفرنسية قنصلية لها في الموصل وعينت لهذه القنصلية (بول أميل بوتنا) وقد كان رجلاً مرموقاً ولم يكن من العرب الذين مارسوا الخدمة القنصلية فحسب، بل إنه بعد أن درس الطب في شبابه، قام برحلة حول العالم في بعثة خاصة بعلم النبات، ومع أن مواقفه وميوله كانت ضد بريطانيا بشكل عنيف، ولكن هذا لم يمنعه من إقامة صداقات حميمة مع بعض الإنكليز كأفراد، حيث قال أحدهم: إن (بوتنا) قد تضرع وشكوا مرة أو مرتين.... وأرغب السفير الفرنسي في القسطنطينية بذكره قصصاً مثيرة وعجيبة حول دساتنفا في بغداد.

ولقد وعدت الجمعية الأسبوعية في باريس التي كانت متأثرة كمجموعة (ريتش) من الآثار الموجودة في المتحف البريطاني لقد وعدت هذه الجمعية بدعم بورتا دعماً كاملاً في أي نشاط في علم الآثار من الممكن أن يقوم به.

وهكذا بدأ بالحفريات في كيونيجيك في كانون الأول عام ١٨٤٢ ولكن نتائج حفرياته كانت ذات مردود ضئيل نظراً لأنه لم يكن يحضر في أعماله كافية.

وفي شهر آذار عام ١٨٤٩ نقل عمليات الحفر إلى خورماباد على بعد عشرة أميال إلى الشمال الغربي من الموصل، وفي خلال عشرة أيام توصل عماله إلى جدران من الألواح الحجرية معقور عليها مشاهد من النقوش النافرة.

وعندما وصلت أخبار هذه اللقى الحساسة إلى باريس بادرت الحكومة الفرنسية إلى وضع أموال جديّة تحت تصرف بورتا لكي يستمر في هذه الأعمال، وإن ما وجده بورتا لم يكن سوى أحد القصور التي بناها الملك سرجون الثاني في عاصمته الجديدة (دور شاروكين).

والآن ينضم إلى المشهد رجل إنكليزي آخر وهو أحد عمالقة عالم الآثار في منطقة ما بين النهرين وهو (هنري أوتن لايلارد) وقد ولد في باريس عام ١٨١٧ وقد رُبي حتى أصبح في الثانية عشرة من العمر في فلورنسة ثم تمهده أخيراً خاله وكان محامياً ناجحاً في لندن.

وفي شهر حزيران عام ١٨٣٩ وجد نفسه مقبلاً كمدرّج عام في المحكمة الملكية، وبناءً على نصيحة عمه الأصغر الذي كان قد أنهى خدمته وتقاعد من منصب عالٍ في الخدمة المدنية في سيلان، لهذا قرر الذهاب إلى سيلان حيث من الممكن أن تسمح له موهلاته أن يصبح محامياً عاماً حيث كانت علاقاته المائليّة تؤمن له النجاح.

ولقد انضم لايلارد إلى شخص يدعى (إدوارد ميمفور) للقيام برحلته الموعودة وكان هذا رئيسه في العمل، وقد بدأ كلاهما الرحلة في شهر تموز عام ١٨٣٩ من بروكسل براً، ولكن حماس لايلارد للرحلة رافقته رغبة في التبرص والتمتع في

الأمر، إذ قبل مغادرته اتخذ خطوات لتعلم شيء عن فن الملاحة والإبحار والطرق وعادات الشعوب، وتلقى معلومات ابتدائية عن الطب والإسماعيات الأولية وتعلم كتابة اللغة العربية وقليلاً من الفارسية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اطلع على ما أتيج له من معلومات حول منطقة ما بين النهرين وبلاد العجم، وبعض الكتب عن الكتابة المسمارية وفي شهر تشرين الثاني كان الرجلان في حلب، وبعد مخاطرات ككل لا يارد أن يفقد حياته فيها من القبائل المعادية وملا إلى الموصل في نيسان ١٨٤٠.

وهناك نزلا ضيفين على (وليم دانيس اينسويرث) وكان هذا طبيباً كثيراً ما يسافر في طلب الآثار، وكان لديه اهتمامات بعلم الآثار وكان قد أصدر كتاباً عنوانه "أبحاث حول آشور وبابل وبلاد الكلدان" وعلى شخص اسمه (كريستيان ريام) وهو رجل مسيحي من أهل البلاد قد عمل كمساعد قنصل، ولقد قضى لا يارد وقتاً طويلاً في الموصل واهتم بمرتفع كيونيجيك، وكان يقوم بالقياسات ويبحث عن قطع من الرخام والأجر التي تحمل نقوشاً مسمارية، ولقد أخذ مضيقوه هؤلاء المسافرين إلى الصحراء لرؤية مدن أخرى مهدمة.

وهنا يصف لا يارد الانطباعات التي أثرت به ويقول: ((يستحق المشهد حوائها للتأمل، فالوحشة تملأ الوحشة، ويتأهي الشموور بالرهبة إلى الدهشة ولقد ولدت هذه المرتفعات الضخمة في آشور انطباعاً عميقاً في نفسي، وأنتجت افكاراً أكثر جدية، ولكن المكان المقصود كان سيلان.

وهكذا توجه لا يارد ومنغورد إلى بغداد حيث التحق بقافلة مسافرة إلى بلاد العجم، وهناك كانت الصعوبات تنتظره، فقد نمنا من السفر شرقاً في الطريق الذي اقترحه نظراً لأن هذا الطريق يؤدي إلى أراضي مختلف عليها ولكن قدمت لهما بعض البدائل.

ولقد قبل منغورد ولم يقبل لا يارد، ولذلك افترقا وكان لا يارد يأمل أن يسير في طريقه المقترحة فسافر جنوباً إلى أصفهان، وعندما وجد أنه لا يزال تائهاً قرر أن ينمطف نحو لوريستان حيث جبال زاغروس وإن جزماً مما كان يجذبه إلى

هناك هو تحديداً أطلال مدينة شوشان (سوسة) التورانية، والمعروف أنها كانت موجودة في تلك المنطقة مع أن ذلك الموقع قد وقع عليه خلاف.

ولقد قضى بيلارد عشرة أشهر في تلك الجبال مع قبيلة بختياري وقد قسم وقته ما بين فحص الأنقاض بقصد الحصول على معلومات دقيقة حول إمكان القيام بأعمال تجارية في المنطقة، والقسم الثاني لمعالجة بعض الدسائس السياسية دعماً للقبيلة التي كانت على وشك العصيان ضد الشاه، وبعد اعتقال الخان رئيس القبيلة وضع لايارد تحت الاعتقال المصريح ١٨٤١ وبعد أن تخلى عن فكرة الذهاب إلى سيلان هرب ورجع إلى البصرة، وكانت تحت الحكم العثماني.

ولقد أرسل تقريراً عن رحلاته في لوريستان إلى حملة الجمعية الجغرافية الملكية التي نشرت خلاصته في عام ١٨٤٢، وبعد رحلاته في جنوب المنطقة ما بين البحرين وبلاد الميجم المجاورة وذلك لفحص الآثار والإمكانات التجارية قرر الرجوع إلى إنكلترا.

وفي هذا الوقت كان القائم بالأعمال البريطاني الكولونيل تايلور مهماً بإعطاء السفير البريطاني في استنبول معلومات كاملة عن الخلافات الحدودية بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية تلك الخلافات التي كانت تؤثر على المصالح البريطانية، وقد كان لايارد قد قرر الرجوع إلى إنكلترا عن طريق استنبول، وهكذا ونظراً لمعرفته التامة بشؤون الخلافات القبلية قرر تايلور أن يوكل به أمر الرسائل المرسلة إلى السفير ككاندج مع التفاهم بأنه سوف يضع نفسه تحت تصرف السفير ككاندج ليقيم معلومات إضافية إذا طلب منه ذلك.

بدأ لايارد بالرحلة تحت حماية أحد القناصل (الذين كانوا مسؤولين عن المراسلات الحكومية) ولقد قضى لايارد ثلاثة أيام في الموصل ومن ضمن حظه أن تعرف على القنصل الفرنسي المقيم حديثاً وهو يوتا الذي عامله معاملة حسنة، وقدم له المساعدة بأن اصطفيه إلى الخرائب وكيويجييك والبي يونس.

وفي القسطنطينية عمل لايارد انطباعات جيدة بالنسبة لكاندج الذي كان مسروراً للاستفادة من معرفة لايارد وخبرته ولم يرغب ككاندج أن يخسر خدمات

ذلك الرجل الشاب فاخترع له وظيفة ودعاء للذهاب في مهمة لكشف الحقائق في المنطقة التي تعرف بيوغوسلافيا حيث كانت الاضطرابات هناك تهدد المصالح البريطانية والمصالح الأوروبية.

وهكذا فقد خدم لايارد كسكرتير خاص للسفير، وشكل بذلك جبهة مفيدة يستطيع السفير أن يستفيد منها بممارسة نفوذه عن طريق اشتراكه في تحرير الجريدة المشهورة في حوض البحر الأبيض المتوسط وهي **Malta Times** مالطة تايمز.

وعندما أنجز بوتنا لقيادته المرموقة في خورماباد في شهر آذار عام ١٨٤٢ أبدى تكهماً بإرساله إلى لايارد وصفاً دقيقاً عن هذه المكتشفات، وقد استخدم لايارد هذه المعلومات لزيادة اهتمام السفير كاتذج به فأصبح يدعى خاص بالأثار في الحفريات المقامة في منطقة ما بين النهرين.

والآن سوف نقابل شخصاً انكليزياً آخر سوف يتقاسم مع لايارد وبوتنا شرف بداية علم الآثار الآشوري وهو (هنري كريسبيوك دولنسون) وكان باحثاً كلاسيكياً جيداً رياضياً جيداً وكان موظفاً في شركة الهند الشرقية، وبعد أن حصل على معلومات جيدة في اللغة العربية والفارسية عين في دائرة المخابرات.

وفي عام ١٨٢٥ أرسل إلى بلاد المجمع بصفة مستشار عسكري لأخي الشاه، وهناك كرس وقت فراغه في نسخ النقوش المهمة القديمة الموجودة على الصخور والتي كان أشهرها نقش كبير مكتوب بثلاث لغات عالياً فوق صخرة عالية في مكان يدعى: بيستون قرب كركيسي.

وفي عام ١٨٤٢ عين رولنسون قائماً بالأعمال في بغداد خلفاً للمكولونيل تابلور وهذا قدم له الوقت لحل رموز نقوش بيستون، وسرعان ما استطاع حل رموز الحروف الهجائية الفارسية القديمة التي بدأ بها جروتيفند قبل أربعين عاماً.

وفي أوائل عام ١٨٤٥ نجد رولنسون يبدأ في مراسلات مع لايارد شجعت عليه تلك المقالات التي كان لايارد قد كتبها في صحيفة مالطة تايمز **Malta Times** حول حفريات بوتنا وكذلك تلك الملاحظات حول النقوش التي كان

تركها مع الكولونيل تاليور ، ولقد عرف رولنسون من بعض النقوش التي كان لا يارد قد نسخها ولحفظه طالب إعطاء تفاصيل عنها من أي مثال كان من الممكن أن يساعده في التحاليل التي بدأ بها.

وفي أثناء ذلك فقد كان بوتنا وبعد أن تغلب على معارضة والي الموصل التي سببت له بعض التأخير قد بدأ في متابعة خبراته في خورساباد بعد أن أحرز نجاحات مرموقة ، ولذلك فقد أقفل مشاريع حفرياته في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٤ وقد جمع منتجات من أفضل اللقيات المحفوظة التي تشمل تماثيل هائلة من الثيران الحجرية ، كل هذه أرسلت إلى فرنسا عن طريق نهر دجلة بواسطة طوف نقلها إلى إحدى السفن ومن ثم إلى فرنسا.

لقد أعطى نجاح بوتنا دفعة قوية لقضية الحفريات في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ولقد كان رولنسون يطمح بأن تبذل بعض الجهود البريطانية في هذا السبيل ، ولذلك فقد قام هو بنفسه بحفريات على مقهى ضيق في جنوب العراق وقد كتب إلى لا يارد في تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ما يلي:

((سوف أكون في غاية السرور إذا استطاع السفير من خلاله جعل الحكومة البريطانية أن تقتنع ببذل بعض الاهتمام بالآثار القديمة في هذه البلاد ، وإنه ليؤمني غاية الألم أن أرى الفرنسيين يحتكرون هذا المجال ، وذلك لأن ثمرات أعمال بوتنا التي تم إحرازها ولا يزال يتقدم ليست من الأشياء التي سوف تمر في يوم أو يومين بل إنها ستؤلف المجد لتلك الأمة في المصور القادمة في المستقبل عندما تصبح الإمبراطورية العثمانية التي نحن لا نزال نجاهد لإبقائها سوف تصبح قضية من قضايا التاريخ.))

وفي هذا الوقت كان لا يارد قد أفتق السفير في دعمه مادياً لبدء فترة صفيرة من العمل في الحفريات في منطقة ما بين النهرين ، هناك مذكرة مكتوبة بخط كانانج نفسه والتاريخ مكتوب (ليس بخط كانانج) في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٤٥ كما يلي:

((إنني أمل أن ينتبه السيد لا يارد مشكوراً إلى النقاط الآتية:

١- أن يستمر في إعلامي عن عملياته وعن أي شيء ذي أهمية أو أثر قد
يكشفه.

٢- أن يتقبه غالبية الانتباه للمصائل السياسية والدينية وبأكثر ما يمكن بشؤون
المبشرين أو زعماء القبائل الوطنيين الذين تضمهر لهم السلطات التركية العداء
والفيرة.

٣- الحصول على رضا الباشاوات وموظفي السلطان الآخرين بكل معنى
الكلمة.

٤- أن يتذكر دائماً طبيعة أعماله كرجل سائح مولع بالآثار القديمة والمناظر
الجميلة، ويأنه يستحسن معرفة جميع العادات الفربية في آسيا.

٥- أن لا يبدأ بترك العمل والرجوع إلى الوطن دون الحصول على موافقتي
المسبقة بعد تقديم تقرير عن تحرياته الأولى ومحاولاته الاستكشافية.

٦- في حالة إحرازه أي نجاح ينبغي عليه أن يقدم لي معلومات مبكرة ودقيقة
عن طبيعة المواد المستكشفة وأحسن الطرق لاستخراجها الخ... مع التقديرات
اللازمة للتكاليف بالإضافة إلى راتب قدره ٢٠٠ جنيه إسترليني سنوياً، وهذا راتب
مستمر بالإضافة إلى ٢٠٠٠ قرش قد حصل عليها مقدماً لقاء مصاريف
التجهيزات، فإن السيد لا يارد سوف يستلم من السيد هانسون مبلغاً آخر قدره
٢٠٠٠ قرش على حساب نفقات السفر، وقد رُوِّدته بالرسالة المرفقة إلى السيد
رسم في الموصل التي تضمن بالإضافة إلى توصيه بالتكثُر بالمساعدة، وتحتوي
على الثمان أو دين واجب علي بمبلغ ١٠,٠٠٠ ليرة تركية.

إنني أقدر أن يصل السيد لا يارد إلى الموصل حوالي نهاية شهر تشرين الأول
حيث سوف يتمكن من إتمام دراسة مستفيضة حول أفضل الأمكنة ملائمة
للاستكشاف خلال الشهرين التاليين، وإذا كان لديه من الأسباب التي تقتضي
إضافة عشرة أيام أو أسبوعين على الموعد المحدد فله ذلك، وهو مخوّل أن يستعمل
عقله وإدراكه في هذا الخصوص.

ولقد ابتهج رولنسون عند سماعه خبر وصول لايلارد إلى الموصل (٢٧ تشرين أول عام ١٨٥٤) وكان مستعداً للإمداء نصيحة.

وهكذا فقد كان لدى لايلارد فكرة واضحة عما ينبغي عليه عمله، وبعد تقديم أوراق اعتماده إلى حاكم الموصل المستبد مع أنه لم يخبره عن أهدافه فقد تقدم فوراً لتنفيذ خططه، وكان من الضروري أن يتخذ جانب الحذر نظراً لأنه لم يملك أي تفويض رسمي من السلطات التركية لإجراء الحفريات، لهذا فقد تظاهر بأنه ذاهب لصيد الخنازير البرية وانطلق راكباً قارباً يدعى الكيكليك جنوباً فوق نهر دجلة يرافقه صديقه هنري جيمس روس وهو تاجر بريطاني في الموصل، وحارس وعامل بناء مع بعض الأدوات اللازمة للعمل قد تم صنعها.

وقد كانت وجهته نمرود وهو تل متميز على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو على ارتفاع نحو أربعين قدماً فوق السهل وهو يغطي مساحة قدرها حوالي ستين فداناً مع بقايا نافورة واقعة على تلة بارزة واقعة في الزاوية الشمالية الغربية، وهو يعرف كيف أنه وفي إحدى المناسبات عندما كان مسافراً إلى بغداد بواسطة كيكليك في نيسان عام ١٨٤٠ عندها رأى تلة نمرود وهو سائر فوق نهر دجلة وقد قرر في ذلك الوقت أنه سوف يقوم باستكشافها في يوم من الأيام.

((رأيت خرائب نمرود للمرة الثانية، وأصبحت لدي فرصة أفضل لفحص هذه الخرائب، وكان قد حل المساء عند وصولنا إلى المنطقة، وقد عملت أمطار الربيع على إكساء التل بالعشب الأخضر.

وقد كانت المروج الخصبة الممتدة حوله مغطاة بالأزهار من مختلف الألوان، وفي وسط هذه الخضرة البهيجة كانت هناك قطع من القرميد والفخار والمرمر التي كان يظهر فوقها الآثار الإسفنجية ذات الصفات المسمارية، ولقد امتدت خطوط من المرتفعات والقلل المتتالية التي لا تزال محتقطة بمظهر الجدران أو المتاريس وهي ممتدة من قاعدة الخرائب مشكلة ساحة رياضية الزوايا واسعة.))

وجد لايلارد أن القرية القريبة من نمرود قد أصبحت مهجورة نتيجة لعمليات النهب التي كان يمارسها والي الموصل الوغد ، وكان الشخص الوحيد الموجود في القرية هو أحد شيوخ القبائل الذي نهبت قبيلته وتفرقت، وقد لجأ إلى كوخ مهجور هناك وقد استخدمه لايلارد لتنظيم جمع بعض العمال من المستوطنات المجاورة للمساعدة في عمليات الحفر.

بدأت الحفريات في يوم تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ولقد تلا ذلك النجاح الأكيد وبعد أسبوع استطاع لايلارد أن يكتب ككاندج:

((بعد أن فتحت خندقاً صادفت حجرة طولها ٢٥ قدماً وعرضها ١٤ قدماً وهي مشكلة من ألواح من الرخام طولها ٨٠٥ قدماً ويحتوي كل لوح على نقوش بالخط المسماري، وبعد عمل أربعة أيام أصبحت بحسب خفيفة أجبرتني على الرجوع إلى الموصل، وبعد ذلك تركت الحفريات تحت حراسة (القوامس) وهو الحارس المخصص وأمرت أن ينظف الحجرة)).

لقد انتهز لايلارد فرحة وجوده في الموصل للتقاهم مع الوالي وقد كتب إلى ككاندج يقول: ((لقد زرت الباشا الذي كانوا قد أخبروه أنني قد اكتشفت كنزاً ، ولكنني حسرت له طبيعة أبحاثي ولذلك لم يمرض ولقد تجنبت أن أحدثه في طلب الإذن للاستمرار في عملية الحفريات)).

لم تكن المشكلة هي الوالي فحسب، فقد علم لايلارد أن القنصل الفرنسي (م. روتيه) وهو خليفة بوثا كان يقوم بالتعرض على إيقاف الحفريات، وبالتالي إلى سعيه للحصول على الأولوية بإتمام ما يمكن إتمامه من العمل قبل أن تتخذ الخطوات لإيقافه عن العمل، لذلك أمد عماله بالقيام بحفر خنادق في ستة مرتفعات آشورية أخرى، والتي كان ككاندج قد أمره بحفرها، ولذلك استمر هو نفسه في متابعة الأعمال في نمرود وهناك وفي نهاية شهر تشرين الثاني وجد ألواحاً تحمل سلسلة رائعة من النقوش النافرة التي تصور المارك الحربية لآشور، وكان قد أخبر ككاندج عن إحرازه النجاح عندما نجح الفرنسيون في إلهيهم التي أنتجت تدخل الوالي لإيقاف الحفريات، ولكن كانت هذه نكسة مؤقته حاول لايلارد

الالتفاف عليها عن طريق صداقته الشخصية مع أحد الضباط المسؤولين عن قيادة الجنود المحليين، وقد كان يأمل أن يجد متحولات كبيرة وسرعان ما تسنى له ذلك.

ففي ١٩ كانون الأول استطاع أن يرسل تقريراً إلى كاننيج يخبره أنه قد وجد ثورين مجنحين عظيمين، وكذلك وحوشاً من الحجر الصلصلي بارتفاع أربعة عشر قدماً، وقد كان يوتا قد وجد تماثيل مشابهة قد أثارت ضجة كبيرة في أوروبا على الرغم من أن النقوش لم تكن قد وصلت إلى فرنسا بعد.

لقد استمر لايارد في مواجهة التداخلات من أن لآخر بشؤون حفرياته التي لم يحصل على إذن بالاستمرار في القيام بها بعد، ولكن إحدى مواهبه كانت مهاراته في التغلب على معارضيه، وهكذا استمر في الحفر وتسجيل وتفسير لقياته التي تشمل نقوشاً نادرة تحتوي على صور ليران حجرية وأسود.

ولكنه لم يكتف بأعمال الحفر والقدرة في علم الآثار ولذلك فقد أشغل نفسه في محاولة حل رموز النقوش الآشورية، فقد كان رولنسون في بغداد يقوم بنفس العمل ومع أنه كان في ذلك الوقت متوقفاً عليه في هذا المضمار (فقد كان قد أكمل حل رموز حروف الهجاء الفارسية) لكنه كان يعامل آراء لايارد بالنسبة للنقوش الآشورية باحترام وكان يستعين بأرائه.

لقد كان كاننيج متحمساً لما لمسه من نتائج أحرزها لايارد والاهتمام الشبه الذي سوف تصادفه هذه النتائج، وحتى ذلك الوقت كانت تمويلاته للايارد شخصية أي: من جيبه الخاص ولكنه خطط أن يتصل بالوزير السير روبرت بيل عند رجوعه إلى بريطانيا بعد وقت قصير ويطلب منه مساهمة الدولة في مماعدة لايارد كما حدث بقضية يوتا بالنسبة للحكومة الفرنسية.

وفي أثناء ذلك حاول كاننيج جاهداً الحصول على رسالة من الصدر الأعظم التركي تقدم للايارد الصلاحية بإجراء الحفريات في محافظة الموصل وهذا نص الرسالة التي حصل عليها:

((هنالك وكما يعلم سعادتك في جوار الموصل كميات من الحجارة والأثار القديمة، ولقد أتى أحد الرجال الإنكليزي إلى هذه المنطقة للتفتيش عن مثل هذه الحجارة، وقد وجد على ضفاف نهر دجلة في بعض الأماكن غير المأهولة بالسكان بعض الحجارة القديمة التي تحتوي على صور ونقوش، ولقد طلب السفير البريطاني بأن لا تقام العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل الإنكليزي المذكور أعلاه عند أخذه تلك الحجارة التي ربما كانت مفيدة له بما فيها ما يمكن أن يكتشفه خلال تلك الحفريات، ولا مانع من إرساله تلك المكتشفات إلى إنكلترة)).

وكانت الصداقة الحميمة التي وجدت بين الحكومتين سهلت قبول تلك الطلبات، ولذلك لم يكن هناك من مانع لأخذ تلك اللقيات والحجارة الموجودة في تلك الأماكن المهجورة وهي حجارة قديمة تحتوي على صور ونقوش فقد طلب السفير البريطاني عدم وضع العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل، أو عندما يقوم بإجراء حفريات في أماكن غير مأهولة بالسكان حيث يمكن إجراء ذلك دون إحداث أي إزعاجات لأحد، أو في أخذ هذه الأشياء حسب رغبته بين تلك التي استطاع استكشافها.

لم يكن كاندنج فحسب هو الذي تأثر بلقيات لايلارد فقد كانت المجتمعات الإنكليزية والأمريكية قد بدأت بالاهتمام العميق بأقوال التوراة وتاريخ الممالك العبرية القديمة، وكان هناك كثير من الناس في ذلك الزمن يشعرون بنفس شعور تلك السيدة التي كتبت عنها الشاعر ماثيوبريور:

لقد حفظت هذه السيدة بعض أجزاء التوراة عن ظهر قلب

وقد ابتهجت بقراءة الأخبار التاريخية في ذلك الزمن

ويعلم الجميع أن الآشوريين قد أسروا القبائل المشرقة الإسرائيلية وأن سنحاريب وعن طريق قائده رابشا قد حاصر مدينة أورشلهم المقدسة وقد كانت هذه الأشياء قد حازت على اهتمام الرأي العام والثقافة البريطانية والأمريكية والوعي في تلك البلدان، وبالنسبة لتلك الأقلية من المثقفين المهتمين بالتاريخ القديم

فقد كانت اللقيات التي وجدها بوتلا ولايارد ذات أهمية بالنسبة للثقافة البشرية على العموم، ولكن معظم الزخم كان منصباً على الحوادث التوراتية.

وبالإضافة للقياته الرئيسية التي تتمثل في تلك الأنواع من النقوش النافرة والتماثيل العظيمة في نمرود فقد صلافا لايلارد نجاحاً في خطوط سيره في مكان آخر، فقد كتب يقول:

((لقد فتحت عدة خنادق في التل الكبير في (باشيغا) واكتشفت قطعاً من النقوش وقرميداً منقوشاً وأواني فخارية، وفي ككارامليس أزيح التراب عن منصة من أعمال القرميد، وقد ثبت الأصل الآشوري لهذه النقوش عن طريق قراءة النقوش المرسومة على الصخور التي احتوت على اسم ملك خورسيلا.

وسكان من الواضح أن لايلارد أصبح قادراً على فهم الكتابة المسمارية بشكل استطاع أن يميز به اسم الملك والأسماء الأخرى في مواقع أخرى.

وحتى الآن فقد امتنع لايلارد عن المقر في المرتفع الكبير في كيونيجيك عبر نهر دجلة من جهة الموصل نظراً لأنه مع افتقاره لإذن رسمي بالحفر كان يخشى التدخلات من قبل الشعب في الموصل.

ولكن بعد أن تسلم بكتاب المصدر الأعظم بدأ بالعمل بثقة وشعور بالإفلات من العقوبة، وكانت المعارضة الوحيدة التي صادفها هي معارضة القنصل الفرنسي الذي ادعى بأن له حقوق الأسبقية، ولكن لايلارد لم يأبه لهذه المعارضة.

منذ أن رحل بوتلا حل محله (روتيه) حصلت منافسات بين الإنكليز والفرنسيين، وقد وصلت هذه المنافسات إلى الصحافة، فقد كتب أحد أصدقاء لايلارد رسالة له من القسطنطينية في (٨ حزيران عام ١٨٤٦ م) يقول:

قبل بضعة أشهر ظهر في جمعية **literary gazette** من القسطنطينية رسالة تتحدث بلغة مثيرة عن أعمال روتييه الفرنسي، وبشكل استخفاف واضح عن أعمالك لذلك أمل أن أكون قادراً على كتابة شيء موثوق إلى رئيس التحرير بخصوص النتائج المقارنة لتلك الحفريات.

وكان هناك مظهر آخر لهذه المناقصات: وهو الأول الذي يمرض القليات
الأشورية أمام الجمهور في أوربة، فقد أرسل (بوتا) عينات ولصقتها تأخرت في
بفداد، وعندما علم لايارد بذلك كتب إلى الصغير كاندج في أوائل سكانون الأول
عام (١٨٤٥ م) ما يلي:

((أظن أن علينا أن نُبَيِّر أمر إيصال منعوتلتا إلى أوربا بشكل أسرع من
الفرنسيين، وهذا أمر هام بالنسبة لمُعَقِّبًا)).

وقد دعم رولنسون هذه الفكرة فكتب إلى كاندج، وعرض استعمال
باخرة تخص شركة الهند الشرقية الراسية عند مصب نهر دجلة وقد أرسل إلى
لايارد مَوْضَعاً هذا الأمر:

((إذا استطعت أن تغلي محتويات حجرة أو حجرين قبل بداية شهر آذار،
وان تجهز الأطواف، فإنني صوف أرسل الباخرة في ذلك الوقت مع تجهيزاتها.

ومن الممكن أن تصل هذه إلى إنكلترا في أوائل الخريف حيث تعرض
مروضاتنا في معرض له حق الأولوية ويكون نصراً لنا.

ولقد كتبت إلى سفيرنا شيئاً حول الموضوع وهو سير باخريتا صموداً إلى
أعلى المناطق في النهر، مشيراً إلى الفوائد السياسية عندما يظهر عَلمنا صاعداً في
أعلى النهر.))

ولكن المنحدرات النهرية منعت استمرار سير السفينة إلى أعلى النهر حتى
نمرود، وفي تلك الحالة اضطروا إلى نقل الآثار إلى بفداد بطريق الطوف.

ولكن الفرنسيين ربحوا قصب السبق أخيراً ضمن مدة ثلاثة أشهر، فقد
عرضت لقيات بوتا في متحف اللوفر في شهر أيار عام (١٨٤٧).

بينما تأخرت الأنواع الحجرية الإثنا عشر من النقوش النافرة التي وجدها
لايارد والتي عُرِضت في المتحف البريطاني في شهر آب (١٨٤٧).

إن العمل الذي قام به (روتيه) والذي استحق به الشاء والمديح في مجلة: **literary gazete** لم يكن سوى شيء زهيد بالنسبة لما فعله بوتنا في خورساباد مع أنه قد حصل على بعض النقوش النافرة على وجه صخرة في موقع آخر.

وقد زار لايارد خورسا باد في أواسط صيف (١٨٤٦) وذكر ما يلي:

منذ رحيل السيد بوتنا فقد امتلأت الحجرات بالروميات بسبب تهدم الخنادق، وهكذا فقد تلفت جميع المنحوتات ولم يبق سوى القليل من هذا النصب المرصوف، ونضيف عبارة ممتعة وهي أن الجغرافيين العرب القدماء يصفون خورساباد بأنها تحتل موقعاً يدعى سراجون.

وهذا شاهد قديم يدل على موثوقية التماثيل القديمة الشفوية التي تذكر أن سراجون ما هي إلا شكل من أشكال كتابة اسم سرجون الذي كان عنصراً مهماً من عناصر هذا الاسم.

لقد قضى لايارد شهراً أو أكثر اعتباراً من نهاية آب (١٨٤٦) وهو في حالة سفر في الجبال إلى الشمال من الموصل، وعندما رجع إلى الموصل وجد أن كاننذج بعد رجوعه من إنكلترا قد حصل على دعم رسمي للحفريات، وقد كتب كاننذج يقول:

سوف يتمهد المنصف البريطاني قضية الحفريات في نمرود بدلاً عني، وقد سمحت الخزينة بصرف مبلغ (٢٠٠٠) جنيه إسترليني في هذا السبيل.

إنك أنت الموكل بالعمل وسوف تأخذ (٥٠٠) جنيه لك فضلاً عن (١٠٠) جنيه البهنية.

أما المبلغ الذي أنفقته أنا فسوف يستدونه لي، وسوف يخصص مبلغ يتراوح ما بين (١٠٠٠-١١٠٠) جنيه لكتابة إتمام العمل بما فيه أجره شحن المنحوتات التي سوف تجدها، وعليك أن تنهي كل ما ذكر في نهاية حزيران القادم.

ولكن لايارد اعتبر أن هذه الإعانة المالية غير كافية، وفيها شيء من الشح والبخل:

((إن هذه المنحة قليلة، وأنا أشك أن باستطاعتي إتمام التوفعات التي توقعوها، وإن المبلغ الذي منح ليوتا لقاء حفرياته في خورسباد لوحدها قد زاد بشكل كبير على جميع المنح التي وجهها المتحف البريطاني التي كانت تشمل المصاريف الخاصة، ومصاريف النقل وكثيراً من النفقات التي لا بد منها في الشرق.

ولممكن قد قررت أن أقبل هذا التكليف وهذه المسؤولية، وقررت أن أقتصد بالقدر الذي أستطيعه بحيث تمتلك الأمة من المواد الأثرية الآشورية ما هو أرقى من ضالة المبلغ الذي خصص لهذا الموضوع)).

ولقد استمر لبارد في تلخيص سموياته فقال:

((لقد أصبحت كثير من المنحوتات بالتلف وهذه حالة يجب إصلاحها، ولم يكن التصوير الفوتوغرافي متوفراً بمد، وإن التمجيد لا يمكن إنجازه إلا عن طريق الرسم)).

ثم يقول لبارد: ولم يكن هنالك أي دلالة بأنهم سوف يرسلون رسماً لمساعدتي، ولذلك فإن عليّ أن أراقب الحفريات عن كثب، وأن أرسم جميع النقوش النافرة بنفسي والتي تم اكتشافها.

وأن أنسخ وأقارن النقوش التي لا تمتد ولا تحصى، وأن أصنع قوالب عنها، أو أن أشرف على أعمال تحريات وتعليب المنحوتات)).

وكان عليه أيضاً أن يبني بيتاً لنفسه وبيوتاً للعمال، وأن ينظم الدفاع ضد غزوات القبائل العربية، وهو قد فقد مكان البدو يفضلون أن يضعوا بين يديه قضائياً خصوماتهم الخاصة وخلافاتهم المائلية ليقرر ما يجب عليه أن يحكم فيها، وفي إحدى الحالات كان عليه أن يجد زوجاً لفتاة قد تقدمت إليه طلباً لحماية.

هذا وقد استأنف عمليات الحفر على مقاييس واسعة في نمرود في شهر تشرين الثاني عام ١٨٤٦ وذلك عندما اشتملت لقياته على أنواع من النقش النافر ذات الأهمية وتستحق الذكر، وهو يقدم لنا وصفاً جيداً لمجموعات مختلفة.

مثلاً: تحتوي السلاسل السفلية من الألواح ذات النقوش النافرة على ثلاثة مواضيع: حصار قلعة، والملك وهو يستقبل الأسرى، والملك مع جيشه وهو يعبر النهر، وترى المحاربين وقد جلبوا منجنيقاً للقصف (وهو موجود في برج متحرك مصنوع من الأغصان المجدولة من القصب) وترى أحجاراً كثيرة قد تم إطلاقها من المنجنيق وهي تتساقط على القسم الخارجي من السور، ويرى أحد الجنود الذين قد حوصروا وقد نجح في إمساك المنجنيق بسلسلة وهو يحاول رفعه وتحريره من مكانه.

ويرى جندي آخر وهو يلقي النار من الأعلى إلى آلات الحصار (وترى آثار الدخان الأحمر لا تزال عالقة على المنحوتات) ويرى الجيش المحاصر في الأسفل وهو يحاول إطفاء النار وذلك بحصب الماء عليها من صنبورين موجودين في البرج المتحرك، ويرى شخصان يلعبان ككامل الدروع والأسلحة وهما يحفران تحت الأسوار بواسطة أدوات تشبه الرماح المثمنة، بينما نلاحظ أن اثنين آخرين قد وجدا ممراً سريعاً يوصل إلى داخل القلعة.

وبالإضافة إلى النقوش النافرة وجد لايارد دروعاً من الحديد والنحاس وخوذاً وأواني من الرخام الشفاف ومن الزجاج، وكذلك ثوراً مجنحاً هائلاً وسلّة سوداء من الرخام علوها ستة أقدام ونصف، وإن أفضل وصف لهذه الأشياء ذكره لايارد بنفسه:

((لقد كانت هذه منحوتة من جوانبها الأربعة، وكان هناك أربعة وعشرون لوحاً من الألواح المنقوشة النافرة وفوقها وتحتها وفي ما بين جوانبها كتبت نقوش تحتوي على ٦١٠ أسطر وقد كانت كلها محفوظة بشكل جيد، ولم يكن هناك أي حرف من حروف النقش ناقصاً أو مفقوداً، وكانت صور الأشخاص واضحة ومحددة كما لو أنها قد نحتت قبل أيام، وترى صورة الملك مرتين يتبعه رجاله، وأسيراً قد ارتدى تحت قدميه، ويرى الوزير ومعه بعض الخصيان وهم يقدمون رجالاً يقودون حيوانات مختلفة ويحملون مزهريات وأشياء أخرى تتعلل بالجزية..

والحيوانات المصورة هي التيفل والكركدن والجمل ذو المنامين والثور البري، والأسد والوعل وأنواع مختلفة من القرد، وبين الأشياء التي يحملها الرجال كحجرية وكانت أنياب الفيل، والشالات والمزهريات المصنوعة من المعادن الثمينة، والفواكه والقضبان من المعدن أو حُزم من الأخشاب النادرة.))

تحتوي نمروود على عدد من القصور تعود إلى فترات مختلفة خلال القرن الثامن والقرن التاسع، وكانت معظم اللقيات المذكورة من القصر الشمالي الغربي، ولكن لا يارد كان يحفر في أنقاض قصر في الزاوية الجنوبية الغربية من التل وهنا وجد آثاراً من نوع مشابه ولكن كانت هناك فروق سجلها يفتا وقد وصفها بأنها تعود إلى تاريخ مختلف، وإن أحد العوامل التي أعطت لعمل لا يارد أهمية خاصة عند اكتشاف بلاد آشور من جديد كانت خبرته في المجالات الفنية، وربما كان ذلك نتيجة لتربيته الأولى في فلورنسة الأمر الذي ممكنه أن يرى بسرعة مالا يستطيع أن يراه أحد من نتاج قطع من هتون النحت تتابعاً زمنياً.

في هذه الأيام ربما اعتبرنا عملاً غير لائق أن نسال عالم آثار عما وجده، فإنه من المحتمل أن يجهنا بتكلف أنه يفتش عن أجوبة لعدة مشاكل وهو لا يبحث عن أجوبة عن الأشياء، ولكن كان لا يارد موقف صلب وقد كوفى بذلك النجاح الحقيقي الكبير وذلك بأنه استطاع أن يرسل حمولة كبيرة أخرى من اللقيات إلى الأماكن المرجحة إليها في المتحف البريطاني وهنا نراه يقول:

((وفي يوم عيد الميلاد عام ١٨٤٦ شمعت بالرضا والامتنان لولية طوف وهو يحمل ثلاثاً وعشرين محفظة ومن ضمنها المسلة وهي عائمة فوق النهر، وقد راقتهم حتى غابوا عن الأنظار، وبعدها أسرعوا ركضاً إلى الموصل لأحتفل بعيد الميلاد مع حفنة قليلة من الأوربيين الذين جمعهم الواجب أو شؤون العمل في هذه البقعة النائية من بقاع العالم.))

وبعد عطلة الميلاد تابع لا يارد عمله في الحفريات في نمروود وبصورة رئيسية في القصر الشمالي الغربي خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٨٤٧، وكانت إحدى لقياته الممتعة حجرة مملوءة بالمعاج المحفور، وكانت هناك أيضاً غرف فيها رسوم

جدارية باللون الأحمر والأزرق والأسود والأبيض، وتمكنه ولسوء الحظ لم يستطع أن يحفظها من التلف.

كان هناك مكتشفات مهمة أخرى بحيث لا مجال لذكرها هنا، ولكن لا يارد قد ذكرها في مذكراته وهنا يذكر خلاصة أعماله في نمرود:

((لم يكن بوسعي القيام بأعمال الاستكشاف كما يجب، ولكن ومع وجود ذلك المبلغ الضئيل من المال تحت تصرفي لم استطع أن أمارس أعمال الأبحاث إلى المدى الذي كنت أتوقفه وأرغب به، ولهذا فقد تركت مرتفع نمرود لمن سيأتي بعدي من المستكشفين الذين سوف يعملون على استكشاف خرائب آشور)).

وكما سوف نرى فإن هذا التحدي المطروح لم يتملق إليه أحد إلا بعد قرن من الزمان وينجح كبير على يد ب. د. مالوان (المير ماكس) فيما بعد وهو زوج أجاثا كريستي.

وعندما نضر لا يارد نتائج أبحاثه فقد وقع في خطأ وهو أنه طابق اسم نمرود مع نينوى التي تمثل بالحقيقة بكيونيونيك والنبى يونس ولم يكن الخطأ سببه لا يارد الذي ترك السؤال مفتوحاً مدة طويلة بل كان السبب هو رولنسون الذي كتب إلى لا يارد بتاريخ ١٠ كانون الأول عام ١٨٤٥ ما يلي:

((لقد فحصت مؤخراً بعناية تامة القضية الجغرافية والتاريخية المحتمنة بنمرود وأخيراً توصلت إلى استنتاج قاطع وهي أن نمرود هي نينوى التي هدمها (سارد أنابا لوس) أما الخرائب الموجودة في النبي يونس فهي خرائب نينوى الثانية وهي عاصمة الأسرة الآشورية الأخيرة)).

لم يعتمد رولنسون عن الصواب، كما من الممكن أن نتصور فإذا استبدلنا كلمة عاصمة آشور بكلمة نينوى فإن ما قاله رولنسون يبدو صحيحاً، إذ إن فكرته بأن نمرود كانت عاصمة أقدم وقد حل محلها عاصمة كانت النبي يونس جزءاً منها، فهذا كلام صحيح ودقيق مع أن اسم نينوى يخص العاصمة المتأخرة.

ثم يكتفئ لايارد بعمليات الحفر في نمرود وكيونيبيك ، فقد سمع قصصاً من الزوار العرب عن موقع يدعى قلعة شيرجات (باللغة العربية قلعة الأرض) وهي واقعة على نهر دجلة على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو يقول:

((كان هناك أحد العرب من قبيلة شمر (وهي قبيلة رئيسية في الجزيرة العربية) كان يقضي من وقت لآخر ليلة بين عمالي ويسليهم برواية القصص حول الأصنام والأشكال المنحوتة التي تمثل المردة التي كانت سبباً في دخول الخوف والرهبنة في قلوب القبائل المتجولة الذين ينصبون خيامهم قرب ذلك المكان)).

ويقول: ((إن المنظر كان خطراً للغاية لكونه كان لقاء لكل الجماعات التي تعمل في السلب والنهب، ولكن أصبحت حركات القبائل الآن تمثل ظروفاً يستطيع خلالها ان يذهب حياً منها بأمان وأطمئنان ولكنه وجدها بقعة موحشة)).

ويقول لايارد: لقد توجهنا نحو الخرائب بعد الظهر وركبنا بمساعدة الفأبة هوجدنا الأرانب البرية والذئاب والثعالب وبنات أوى والخنازير البرية وكانت تمر بالطرق أمامنا باستمرار، وكانت طرائد الصيد متوفرة ومن جميع الأنواع وتوجد الأسود أحياناً قرب قلعة شيرجات، وحالما توجهت إلى بغداد قبل عام سمعت زئير أسد لهم بمهداً عن المنطقة.

ولقد أرسل لايارد جماعة من العمال قبل ذهابه ببضعة أيام لكي يبدؤوا بالحفريات فوجدوا تمثالاً مقطوع الرأس مصنوعاً من البازلت الأسود، وقد ساعدت لايارد إجلدته وتمكنه من معرفة وفهم الحروف المسمارية تمكنه فوراً أن يحدد هوية هذا التمثال وأنه يعود إلى لقيت نمرود.

وكانت قطعة الحجر التي توضع عليها التمثال مقطوعة من ثلاثة جوانب بالنقوش المسمارية، وكان السطر الأول يحتوي على اسم وألقاب الملك ولكن بشكل غير واضح، ولكن وجدت بعد قراءة كلمة أو كلمتين استطعت أن أستخدم اسماً مطابقاً للاسم المكتوب على التمثال الثور العظيم الواقع في منتصف قلعة نمرود، وعندما توجهت عيناى إلى الأسفل نحو العمود الأول من النقوش وجدت اسمي والد (وهو باني أقدم قصر في نمرود) واسم جد.

وهذا أثبت أن القراءة كانت صحيحة، وبعد ذلك جلب أحد البدو قطعة من القرميد تحتوي على خرافة صغيرة فيها ثلاثة أسماء كاملة، وهكذا استطعت أن أعين الفترة الزمنية لتلك الخرائب المستكشفة حديثاً.

ونحن نعلم الآن أن الملك الذي دعاه الجدد لم يكن سوى توكونوتي نينوترا الأول (٨٩٠-٨٨٤) ق. م، وأما يأتي أقدم قصر في نمرود فهو آشور ناصر بمل الثاني (٨٥٨-٨٢٤) ق.م، وإن التمثال المصنوع من البازلت الأسود كان ابنه سلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤) وهو التمثال الجالس الذي يعطي جمالاً لمصالة نمرود المركزية في المتحف البريطاني في لندن.

لقد كانت الحالة الأمنية في قلعة شيرجات سيئة مما حرم لايارد من فرصة استمرار العمل هناك ما عدا نظرة خاطفة، وكان على عمليات الحفر أن تنتظر قدوم بعثة ألمانية في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، هذا وقد عاد لايارد إلى نمرود لإكمال حفرياته الأساسية، ولكي يرتب قضية نقل الثور المجنح العظيم والأسد وقد فعل ذلك بواسطة عجالات وعربة صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وقد جرّها حوالي ثلاثمائة رجل كانت تشجهم الموسيقى والنساء المنشدات مسافة ميل تقريباً من التلة في نمرود إلى ضفة نهر دجلة، وهناك تركت هذه الآثار لتتخلف ارتفاع ماء النهر الذي سوف يساعد في زحزحة التمثال الكبير وإدخاله إلى الطوف (الكهليك).

وبمناسبة حدوث موجة من القحط انتقل سكان جميع القرى الواقعة حول نمرود إلى القلال حيث كانوا يأملون في زراعة بعض الحبوب، وكذلك فقد نزح البدو الرعاة وقبائلهم شمالاً، وهكذا لم يكن هناك أي عربي في المنطقة سوى عمال لايارد، وحالما حصل ارتفاع في منسوب النهر أصبح من السهل إدخال المنحوتات إلى القارب ولكن الرجال من العمال ظنوا أن لايارد بحاجة إليهم وإلى مساعدتهم فقد قاموا بعمل إضراب طلباً لرفع الأجور، ولكن لايارد لم يكن بالرجل الجبان الذي من الممكن إرهابه، ولذلك سمح لهم بالذهاب فذهبوا ولكن بعض العائلات رفضوا مغادرته.

ولكن كان هناك قبيلة من الببدو الرحل كانت تربطها علاقة الصداقة مع لايلارد فأرسل لهم لايلارد رسالة مع شخص على ظهر حصان، فترسلوا له رجالاً لا يكفون لإتمام العمل، وعندما رجع المضررون وعرضوا استئناف العمل بأي شروط، ولكن لايلارد استطاع أن يتم العمل بدونهم.

وبعد أن تم نقل المنحوتات عمداً لايلارد إلى دفن المنحوتات الباقية بناء على تعليمات وردت من أمانة المتحف البريطاني، وقد ترك نمرود في منتصف شهر أيار عام ١٨٤٧.

ونظراً لوجود بعض المال الذي بقي من المنحة التي قدمت له قرر أن يستعمل هذا المال في عملية حفر في كيونيجيك، وقد كان يقصد بذلك غرس النفوذ البريطاني هناك بقصد إخراج القنصل الفرنسي الجديد وهو م. غولويس الذي كان قد قدم طالباً السماح له بالحفر هناك، وكان لايلارد صريحاً بالنسبة لأهدافه عندما كتب إلى كاندج بتاريخ ١٤ حزيران عام ١٨٤٧ ما يلي:

((لقد قمت بعمليات الحفر في كيونيجيك خلال الأسبوعين الماضيين وقد نجحت العملية إلى حد ما، ولقد كشفت عن ثمانية حجرات، هذا وإن استكشاف هذا البناء والمدى الذي توصلت إليه الحفريات ربما تؤكد وتدعم ادعائنا بأهمية العمل في المستقبل في هذا التل فيما لو رغب أمناء المتحف البريطاني باستمرار البحوث في هذه البلاد)).

لقد كان المشكل العملي بالنسبة لأعمال الحفر في كيونيجيك والمشكل الذي جمد نشاط بوتنا في محاولاته هناك عمق التربة الكبير فوق مستوى الأرض في بلاد آشور، ولقد كان لايلارد عالماً بهذا الأمر، فقد حفر خنادق على عمق عشرين قدماً لكي يصل إلى الأرض التي بني فوقها القرميد المشوي بالشمس، وهنا أيضاً وجد ألواحاً من النقوش النافرة وثيراناً مائلة مجنحة.

هذا وإن معرفته بالرموز المسمارية جعلته يعلم أن الملك الذي كانت هذه الآثار تنتمي إليه كان هو ابن الملك الذي بنى خورساباد، وكما نعرف الآن أن قصر كيونيجيك الذي يمثل نينوى قد بناه سنحاريب الذي كان والده سرجون باني

قلعة مرجون (خورمباد) وقد سجل هذا الملك أيضاً عدة ألواح مستطيلة مصنوعة من القصيريد غير المشوي مع وجود بعض النقوش المسمارية فوق جوانبه.

وكانت هذه أول الدلائل لوجود تلك الثروة الهائلة من الألواح المسمارية في كويونجيك التي كانت في غاية الأهمية بالنسبة لمرفتنا بتاريخ منطقة ما بين النهرين.

لقد نال لايارد مساعدات لا بأس بها في كويونجيك من هنري جيمس روس، وحالما كان لايارد يقوم بالاستعداد لمفادرة منطقة ما بين النهرين ككف المتحف البريطاني (روس) بالاستمرار وعلى مقاس ضيق بالحفريات في كويونجيك وكان الفرض الأساسي الاحتفاظ بحق بريطانيا في هذا الموقع، وقد غادر لايارد المنطقة متوجهاً إلى القمطنطينية في شهر حزيران عام ١٨٤٧ ووصل إلى إنكلترا في وقت عيد الميلاد وذلك بعد أن عرض رسوم المنحوتات الآشورية على رجال علم الآثار في إيطاليا وقضى بعض الوقت في مناقشة اللقيات مع (بوتا) وزملائه في باريس.

ولكن أعماله أصبحت معروفة جيداً في إنكلترا، وفي أوائل شهر تشرين الأول عام ١٨٤٦ عقد اجتماعاً للمؤسسة الملكية للعمارة برئاسة الإبريل دي جري، وذلك لأجل بحث ما وصفه لايارد لأحد البنى الأثرية في (تل هافور) في منطقة ما بين النهرين، وكذلك لمناقشة بعض الآثار المكتشفة حديثاً في نمرود (وهو موقع نينوى) وقد كان أولى لقيات لايارد قد عُرضت في المتحف البريطاني منذ شهر آب عام ١٨٤٧ وقد أثار ذلك العرض ضجة لا بأس بها في الرأي العام، وقد كان أصدقاءه حريصين أن ينال الشرف الذي يستحقه.

فقد كتب كاننجد (ينبني عليك أن تقدر معظم الآثار الآشورية وأن تصنف هذه الآثار وأظهر أفضلها وأجمل الجمهور يفهم أنهم قد حصلوا على جائزة كبرى).

وهكذا بدأت آيات الشرف تتوجه نحوه، إذ إنه وبعد وقت قصير من عودته إلى بريطانيا انتخب عضواً في المجمع العلمي، وفي شهر تموز عام ١٧٤٨ منح درجة الدكتوراه D.C.L من جامعة أكسفورد.

ولقد اهتم اهتماماً كبيراً بالآثار الآشورية أمانة المتحف البريطاني باستئناف عمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين ومن المفضل أن تكون تلك العمليات بإشراف لا يارد، ولكنه فضل رفض هذا الطلب لمببين وكان أحدهما مادياً نظراً لأن سلم الأموال التي يخصصها المتحف البريطاني لمثل هذه الأعمال كان ضئيلاً.

أما السبب الآخر: وهو أنه رغم نجاحه المرموق في عمليات الآثار إلا أن ذلك كان مجرد هواية بالنسبة له، فقد كان هدفه الحقيقي هو العمل في الحقل الدبلوماسي، فقد أحرز درجة راقية في هذا السبيل وذلك بتعيينه ملحفاً ثقافياً للسفير سائر أنفور كاننجز في القسطنطينية (ولكن دون راتب) وقد ترك بريطانيا للعاق بذلك المنصب في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٨ وقال كما أخبر صديقه: إنه سوف يلتحق بوظيفة ملحق ثقافي دون أجر وهو لا يملك ستة بنسات.

وفي أثناء ذلك كان مستعداً لنشر مكتبته ونتائج أعماله، فأصدر مجلداً يحتوي رسوم الأنصاب الذي ظهر في عام ١٨٤٩ تحت عنوان ((أنصاب نينوى)) وبعد ذلك صدرت له إصدارات جديدة عام ١٨٥١ بعنوان (مخطوطات بالرموز المسمارية من الأنصاب الآشورية) وقد وضع فيها لوحات من نسخ من النقوش المسمارية كانت في غاية الدقة بحيث إنها لا تزال ذات قيمة للباحثين بعد قرن وربع من الزمن من صدورهما.

ولكن رائحته وأفضل مؤلفاته كانت كتاب (نينوى وأثارها) وكان في مجلدين وهو يعطي قيمة حية ليس بالنسبة لحفريات بصورة عامة في نمرود (التي وردت خطأ باسم نينوى) فحسب، بل أيضاً بالنسبة لرحلاته وقد نشر هذا الكتاب في بداية عام ١٨٤٩ ولم يكن هذا الكتاب نجاحاً كاسحاً فحسب، بل كان

ضجّة قوية وقد أصيب لايارد بالذهشة بقدر ما أصيب بالسرور وقد كتب من القسطنطينية في ٥ شباط مخاطباً أحد الأصدقاء:

((لقد غمرني العجب من المديح الذي لاحظته بالنسبة إلى كتابي المتواضع، وأنا أشك أن أحداً يمزح معي. وإن (موري) الناشر يفكر بإصدار طبعة ثانية ومع ذلك كانت تقديرات الناشر غير كاملة)).

ففي شهر أيار صدرت الطبعة الثالثة، وفي تموز ظهرت الطبعة الرابعة وقد كتب أيدوين لاوريس إلى لايارد من مكتب الخارجية في ١٩ شباط يقول:

((أهنتك لأنك أصدرت كتاب الموسم، الحقيقة لم يزل أي كتاب ما ناله كتابك من التقدير وحيث ما أذهب أسمع السؤال:

ما هو رأيك في كتاب لايارد؟

وليس هناك أي شخص يسأل: هل قرأت هذا الكتاب؟

لأن ذلك أمر مفروغ منه.

فقد زار كل شخص ذي أهمية ابتداء من الأمير ألبرت الأثار الأثرية في المتحف البريطاني.

وقد كتب صامويل بيرتش من المتحف البريطاني إلى لايارد في ٢٨ آذار ما يلي:

لقد جنّ العالم شوقاً لرؤية الذهب والجميع يصيحون: الشيران، الشيران ولقد أنعمتني تلك الجماهير من الناس القادمين من صفوف اللوردات والسيدات الذين أتوا لرؤية نمرود.

ولكن حدثت بعض المتفصصات من جراء هذا المديح، فقد كتب له رولنسون من بغداد بتاريخ ١٧ كانون الثاني يقول:

ما رأيك بتلك الهجومات الموجهة إليك من قبل المجمع العلمي الذين ينمتونك بكونك أحد برابرة القرن التاسع عشر؟

هل تعتقد أن بونومي يفكر أن نمرود هي اثينا؟

أما يونومي فكان يكبر لايلارد بعشرين عاماً وكان من الثقات في النحت وقد حاز على شهرة عندما رسم الأنصاب المصرية.

وقد تابع هجومه على لايلارد بنشره كتاباً ناجحاً عنوانه (نينوى وقصورها) مع عنوان إضليلي (اكتشافات بوتا ولايلارد بالنسبة لشرح الكتاب المقدس) وكان هذا تكيفاً لكتاب لايلارد نفسه وهو (نينوى وأطلرها) ولكن بشكل أقل أناقة وروعة.

وفي القسطنطينية كان لايلارد يشك بالحكمة في اشتراكه مرة ثانية في الحفريات في منطقة ما بين النهرين، ولكنه سمع الآن أن الحكومة البريطانية قد أعطت التعليمات لكاندنج بالاستفادة من خدمات لايلارد لذلك الفرص (أي: بالحفريات) وبعد وقت قصير علم أنه سوف يوظف كمحقق ثقافي ولكن بأجر قدره (٢٥٠) جنيهًا إسترلينياً سنوياً كاعتراف من الحكومة بأهمية خدماته بالنسبة للتاريخ القديم.

وقد هناك كاندنج قائلاً أتمنى لك السرور لأنك قد أصبحت ملحقاً ثقافياً براتب، وإن هذه الوظيفة هي بمثابة كمسكة رقيقة الحجم لتنين المجد العنيف الذي حظيت به، ولكنها ليست شيئاً على كل حال.

ولقد صوّت البرلمان على إعطاء منحة قدرها ١٥٠٠ جنيه إسترليني لمدة سنتين مكافأة على القيام بمهمات الحفر في منطقة ما بين النهرين، ولقد تم تأمين هيئة صغيرة تتألف من أحد الفنانين وطبيب وهرمز رسام وهو الأخ الأصغر لثائب القنصل البريطاني في الموصل، ولقد أرسل المتحف البريطاني مذكرة إلى لايلارد مؤرخة بـ ١٤ تموز تلخص شروط الحفريات:

إن العملة التي سوف يصبح السيد لايلارد مسؤولاً عنها قد شكلت للحصول على أوسع المعلومات وأدقها بخصوص الآثار القديمة في منطقة ما بين النهرين التي من المحتمل أن تستطيع الموارد المالية للأمانة العامة للمتحف تقديمه في هذا الصدد. وكانت هذه المعلومات التي سوف تقدم للمتحف البريطاني سوف تكون بشكل عينات مختارة من الآثار المنحوتة والمنقوشة، وجزء منها بشكل مخططات

الأبنية المكتشفة ورسوم النقوش والمنحوتات ونسخ عنها مع أوصاف مفصلة عن الأشياء والمواد التي من الممكن أن تظهر أثناء الحفريات.

ولا نعتقد الأمانة العامة أنه من المناسب تقييد حركة السيد لايلارد بتحديد المواضع التي سوف تشملها أبحاثه، إذ إن خبرته الواسعة بأحوال تلك البلاد ومواقعها الأثرية سوف تكون أفضل مرشد.

ولقد اعتبر لايلارد أن المبالغ التي وضعت تحت تصرفه كانت ضئيلة وغير كافية، لذلك كتب إلى أحد استشارائه يقول:

((لا يمكنني القول إن أمناء المتحف البريطاني قد ملوكوا سلوكاً مناسباً وتصرفوا بمسحاء، ومن جهة أخرى أظن أن الرأي العام قد عاملني معاملة سخية وممتازة مما يعوضني عن معاملة الأمناء.

وفي السنة التالية كان أكثر شكوى من السنة الماضية وهو يقول:

((إن أسوأ ما في الأمر هو أن الأموال المخصصة مقلنة، ومن المنتظر أن أفن وقتي أيضاً، فلو منحوني المبلغ مباشرة فإني أستطيع أن أنهي العمل في مدة سنتين. أما في الظروف الحالية من تقييد الأموال فإني لا أستطيع إنهاء نفس العمل في مدة خمس سنوات أو ست سنوات، أما الرسام الذي أرسلوه لي فهو غير لائق لعمله وليس بإمكانه أن يخدم المصلحة بجدارة وعدل)).

لقد غادر لايلارد القسطنطينية متوجهاً إلى الموصل في أواخر شهر آب عام ١٨٤٩، ولقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها في حملته الثانية أوسع مدى من حملته الأولى، فقد امتدت إلى بابل جنوباً حتى نيبور مع أن نجاحه كان محدوداً بسبب الأحوال غير المستقرة هناك.

وأما في آشور فقد كان عمله موزعاً ما بين كويونيبيك ونسرود مع قضاء بعض الوقت في قلعة شيرجات ومواقع أخرى.

وكانت طريقته في الحفر هي الاستمرار حتى الوصول إلى أرض الحجرات المائدة إلى القصور الآشورية وبمدها يعمل حول الجدران حتى يجد أمثلة مناسبة

من اللقيات مثل الأكوام من النقوش النافرة التي كانت متوفرة في القصور
الأشورية.

ولكن في إنشاء تنظيف أراضى الغرف فقد وجد عدة لقيات ممتعة اشتملت
نمرود على مجموعة مهمة من المواد البرونزية كالأجراس والأسلحة والمراجل
والمزهريات وحتى العروش الملكية.

وكذلك اكتشف تمثالاً بالحجم الكامل للملك آشور ناصر بعل في حالة
جيدة تقريباً.

أما في كيونيجيك فقد اكتشف مجموعة ضخمة من النقوش النافرة وبعضاً
من تماثيل الثيران المجنحة ولكن أهم لقية وجدها في الموقع الأخير كانت أول
مجموعة كبيرة من الكتابة المسمارية من مكتبة آشور ناصر بعل والتي إذا حلت
رموزها فهي سوف تقدم المفتاح للوصول إلى الأدب والدين والطب وطرق المعيشة
والتفكير بالنسبة للناس الذين سكنوا منطقة ما بين النهرين القديمة.

لقد دامت أعمال الحفريات أثناء حملته الثانية ابتداءً من تشرين الأول عام
١٨٤٩ حتى نيسان عام ١٨٥١ ولكن سادت محنة لا يارد وأصابه الاكتئاب لاسيما
بالنسبة إلى المزن والأموال التي خصصها المتحف البريطاني وهو يقول:

((لقد وصلت البعثة إلى حالة مهووس منها ، ولم يعد لدي أموال مناسبة ولا
عون أو مساعدة مناسبة وسوف لا تصل الأمور في النهاية إلى المستوى الذي كنت
أتوقعه)).

ووصلت الأمور إلى درجة أن قرر أن يترك الأعمال الأثرية إلى الأبد ، وقد أخبر
أحد أصدقائه قائلاً:

((أظن أنه حان الوقت لكي أترك أعمال الحفر وأن أعود للاهتمام بواجباتي
في هذه الحياة وأن أسمى لتكوين وضع دائم لنفسى)).

ولقد أصبر على هذا القرار رغم المجهودات التي بذلت لإقناعه للقيام بحملة
ثالثة ، وعند رجوعه إلى إنكلترا في شهر تموز كان قد قرر أن ينتهي ويشكل

نهائي من ميدان علم الآثار وهكذا فعل، ولكن أنجز لايلرد التزاماته من خلال إصدار كتابين آخرين وهي سلسلة ثلثية من كتاب نصب نينوى والثاني قصة بعثته الثانية تحت عنوان: (اكتشاف بين أطلال نينوى وبابل) ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً يضاهي نجاح كتاب (نينوى وآثارها).

وفي أثناء ذلك استمر رولنسون بالمراسلة مع لايلرد حول شؤون التعاقد الزماني حول قراءة المنحوتات المسمارية، وسوف يستغرق معنا وقتاً طويلاً إذا بحثنا هنا عن تاريخ الخطوات والمراحل التي مرّ بها تقدّم رولنسون.

ولقد رأينا أنه قد أكمل حل الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة عام ١٨٤٥ وفي عام ١٨٤٩ أعرب لايلرد عن رضاه على مقدرة رولنسون قراءة الشكل الآشوري من الرموز المسمارية، فقد كتب لأحد أصدقائه في إنكلترا.

لقد كان رولنسون هنا مؤخراً وقضى يومين أو ثلاثة أيام معي، ولقد سلمته رسالة إلى الضيوف، وهذا التصرف لم أسكن لأقدم عليه لولا معرفتي أن رولنسون أسد حقيقي فهو صديق من الطراز الأول ومن المؤكد أنه الأول في مجاله، ولا شك بأنه سوف يدهش الناس في إنكلترا باكتشافاته في مجال الكتابة المسمارية، ولا شك أنه الآن أصبح ملهماً لجميع القضايا المبدئية بالنسبة لكل رموز النقوش، وأن الكتاب الذي ينوي نشره وهو في إنكلترا سيكون ترجمة تقريبية إن لم تكن كاملة لتلك النقوش الموجودة على العملة ومعظم السجلات المهمة في آشور والتي اكتشفت حتى الآن.

فكتور بلاس وهرمز رسام

في أثناء حملته الثانية أقام لايلرد مساعداً وهو هرمز رسام وهو أحد مواطني الموصل من المسيحيين وهو الأخ الأصغر للرجل الذي خدم مساعداً للمفصل البريطاني، وكان لايلرد قد أرسله إلى كلية أوريل في أكسفورد لإتمام تعليمه، وعندما رفض لايلرد القيام بالحملة لثالث مرة وهي التي خططت لها الأمانة العامة

للمتحف البريطاني، فقد اقترح تعيين رسام في هذه المهمة، ولقد حدث عندما أرسل رسام في عام ١٨٥٢ لمزاولة أعمال الحفريات تحت إشراف رولتسون في بغداد.

ومع ذلك في بداية شهر كانون الثاني عام ١٨٥٢ وصل إلى الموصل قنصل فرنسي جديد اسمه فيكتور بلاس، ولقد أخبر هذا رولتسون عن نيته بأن يزاول أعمال الحفر في كيونجبيك، ولذلك لم يمكن من مانع لدى رولتسون نظراً لأنه كان يعتقد أن لا يارد قد نظف المكان وأخرج منه كل المواد ذات الأهمية الأثرية. وعند وصول رسام الذي كان يعرف جيداً أن هناك أشياء كثيرة ينبغي عملها في كيونجبيك لذلك لم يمانع.

وبعد ذلك بدأ بلاس ورسام يعملان كل على حدة في أماكن مختلفة من الموقع، ولقد أحرز رسام حظاً أوفر من النجاح، فهو لم يكتشف سلسلة رائعة من النقوش النافرة من التي كانت تصور صيد الأسود من قبل آشور بانيبال فحسب تلك النقوش التي تعتبر إحدى أمجاد المتحف البريطاني، ولكن اكتشف أيضاً مجموعة من الألواح المسارية التي تولى مكتبة الملك والتي كانت تولى أسس علم الدراسات الآشورية.

وبعد ذلك دخل بلاس ورسام في منافسة للحفر في قلعة شيرجات ولكن لم ينل أي واحد من هذين الرائدتين أي نجاح هناك، ولكن كان هناك مجال مرضي للعمل في نمرود حيث استمر رسام في إنجاز أعمال لا يارد وكانت نتيجة جيدة ولاسيما في خورساباد، وهناك كشف بلاس عن مائة وست وثمانين حجرة أخرى في أحد القصور الآشورية بالإضافة إلى أربع عشرة غرفة كان قد وجدها بوتنا.

ولقد كان لدى بلاس أهداف تختلف عن أهداف بوتنا ولا يارد مثلاً: بدلاً من التركيز على لقيات قابلة للعمل فقد كان مهتماً باكتشاف المخططات المفصلة للأبنية وإن ما كشفه في خورساباد ٣ يزال أفضل مثال لقصر آشوري.

وقد عرض بلاس أيضاً بعض الرسوم الممتعة لواجهات الأبنية بعد ترميمها، ورغم مظاهر الاحتكاك ما بين الرجلين حول حقوقي الحفريات إلا أن العلاقات ما بين رولتسون وبلاس كانت على مايرام، ولقد تبادل هذان الممثلان لدولتين

مختلفتين النُصب التذكارية من كيونيجهيك ونمرود وخورسابل وأرسلها إلى متاحفها المختلفة، ولكن حدثت مصيبة للأثار الفرية وهي على نهر دجلة عام ١٨٥٥ ولذلك أعيد إرسالها بواسطة كيكليك بالطريقة المعتادة، ولكن وفي المنطقة التي يلتقي فيها نهر دجلة مع نهر الفرات تعرض الركب لهجوم من بعض القبائل العربية المتمردة وهكذا غرق اثنان من الكيكليك واختفت حمولتهما من الأثار في مياه نهر دجلة، وهناك بقيت هذه الأثار تنتظر الأموال والتقنيات والاستقرار السياسي والحظ للمساعدة على إنقاذها واستعادتها.

ولقد أنهى بلاس ورسام حفريتهما عام ١٨٥٤ وبعد رحيل رسام أنجزت بعض الأعمال في كيونيجهيك من قبل شخص آخر يمثل المتحف البريطاني وهو W.KLOFUS (كلوفوس) الذي انحصر عمله الرئيسي في الحفر في المنطقة في جنوب بابل وقد بدأ الاهتمام الآن بالانتقال من المواقع الآشورية إلى الجنوب، ولقد بدأ ميدان علم الأثار يظلل بتلك الأهمية التي حصل عليها تراكم الألواح المسماة.

وفي عام ١٨٥٥ استقال رولنسون من منصبه كمتنصل عام في بغداد وعاد إلى إنكلترا حيث كرس نفسه لتفسير ونشر النصوص المسماة، وقد كان هناك عدد من الباحثين يعملون في تفسير الرموز المسماة ولكن كان هناك موجة من التشاؤم لدى الرأي العام بخصوص مصداقية الترجمة المقدمة، وأخيراً قررت الجمعية الآسيوية الملكية اعتبار رولنسون وثلاثة من الباحثين الآخرين البارزين المعتمدين في تحضير الترجمات بالنسبة للنقوش الطويلة، وعندما قورنت النتائج ظهر أنها متشابهة إلى حد كبير، مما أثبت أن تفسير الرموز المسماة من النظام البابلي والآشوري قد تمت بنجاح وثقة.

ولقد خولت الأمانة العامة للمتحف البريطاني رولنسون وأعطته كعامل المسئولية لتحضير سلسلة من المجلدات تحتوي على نصوص مسماة مع أن معظم عمليات النسخ قد قام بها أناس آخرون، وربما كان أشهر هؤلاء المساعدين شاب يدعى: جورج سميث، وكان تحلّت لدى أحد نقاشي العملة وهو في الرابعة عشرة

من الممر، ولكن اهتمامه الشديد في التاريخ التوراتي والآثار الآشورية والنصوص المختصة بذلك الموضوع أدّى به أن يقضي معظم وقته في المتحف البريطاني.

وقد لاحظ المسؤولون هذا الاهتمام، ويعد أن أثبت بأن لديه معرفة لا بأس بها بالموضوع، قدّمت له وظيفة لوصول قطع الفخار بعضها ببعض ووصل الأنواع المكسورة المأخوذة من نينوى، وفي أثناء هذا العمل علّم نفسه كيفية قراءة وفهم الحروف المسمارية، وفي عام ١٨٦٦ عُيّن مماعداً في دائرة الآثار الشرقية حيث عمل على نسخ الألواح المعدة للنشر.

وفي عام ١٨٧٢ أحرز جورج سميث اكتشافاً رائعاً فقد عرف أن أحد الألواح المكسورة من كيونيجيك والتي كان يشتغل في ترميمها كانت تحتوي على نظير آشوري لقصة الطوفان في النوراة وكانت إنكلترا ما تزال أمة مسيحية لديها اهتمام عميق بالتوراة.

وعندما أعلن هذا الاكتشاف وعرضه على جمعية الآثار التوراتية في شهر كانون الأول خلق هذا العرض ضجةً كبرى فقد ظهرت الأصوات التي تتادي بضرورة استئناف عمليات الحفر في كيونيجيك لإيجاد الأجزاء المفقودة من لوح الطوفان وقدمت صحيفة **Dulytelegraph** ديلي تلغراف ألف جنبه إسترليني لهذا الغرض، مع الاقتراح الذي يشترط أن يسافر جورج سميث ويقوم بالحفريات.

سافر جورج سميث في أوائل عام ١٨٧٢ ويعد معارضات قدمها الوالي هناك بدأ بالحفريات في أيار وفي خلال أسبوع وجد لوحاً عليه نص يحتوي القسم المفقود من قصة الطوفان.

وعندما عاد سميث إلى إنكلترا في شهر تموز ولكنهم أرسلوه للمرة الثانية ووصل إلى الموصل في أوائل عام ١٨٧٤ وقد وجد عدة مئات من الألواح في موقع كيونيجيك، ولكن قلة خبرته والتعامل مع البيروقراطية الشرقية أنتج مصادرة بعض هذه الألواح، وقد نشرت قصة سفرياته وعمله المملوءة بالترجمات والمناقشات حول النصوص المسمارية، في عام ١٨٧٥ تحت عنوان (الاكتشافات الآشورية) وفي

عام ١٨٧٦ رجع جورج سميث إلى الشرق مرة ثانية ولكنه عثا بمرض الدوزنطاريا دون أن يستطيع القيام بأية حفريات أخرى.

ولكن وفي هذا الوقت حدث اهتمام شعبي مرموق بالكتابة بالخط المسماري في إنكلترا وأصبح الخط المسماري هو الطراز السائد في بريطانيا، وضح نجاح جورج سميث في إيجاد مزيد من الألواح في كيونيغيك سيباً معقولاً لاستمرار التحدث بهذا الشأن.

وكان الشخص الظاهر في هذا المجال هو هرمز رسام الذي أرسل في أواسط عام ١٨٧٧ وبعد التأخيرات الناتجة عن المطالبات البيروقراطية استطاع أن يبدأ حفرياته في شهر كانون الثاني ١٨٧٥ وقام بحملات معاتلة في عام ١٨٧٨-١٨٧٩ و ١٨٨٠ و ١٨٨٢ وكان نجاحه في جميع النصوص من المواقع الأثرية الآشورية قد أدى إلى جمع مجموعتين من الألواح فيها حوالي ١٦٠٠ نص من النصوص.

وقد حملت هذه النصوص اسمه في المجلد الرابع في المتحف البريطاني، وكانت إحدى لقياته المرموقة في تل يدعى (بالاوات) على بعد حوالي عشرين ميلاً من الموصل، هي بوابة آشورية مزودة من الخشب (التي أصبحت مهترئة) وهي مزينة بالألواح من البرونز مع وجود مشاهد حربية، وهذه الألواح البرونزية قد حفظت بشكل ملاحظ وجيد ترى الآن في المتحف البريطاني.

ولكن الجزء الأعظم من مجرودات (رسام) قد كُتبت للصوامع في جنوب منطقة ما بين النهرين وليس في آشور، فقد حدث هناك انتقال هام بالاهتمام في المواقع في بابل وكانت تقدم نصوصاً تُقَدَّ بالآلاف، وخلال السنوات العشرين بعد إتمام رسام لمهامه في عام ١٨٨٢ لم يتم أي عمل في بلاد آشور.

الحملات الأثرية

هناك باحثون آخرون عدا عن الإنكليز والفرنسيين قد اشتغلوا في النصوص المسامرية وما تبعتها من النصب التذكارية.

وهناك عمل هام نشر في عام ١٨٨٢ ساعد على انتشار وشهرة علم الدراسات الآشورية في البلدان التي تتكلم اللغة الألمانية، وذلك في المؤلف الذي نشره شرادن وهو النقوش السامرية والمهد القديم.

وسكان هذا واحداً من العوامل التي أدت إلى تأسيس الجمعية الألمانية الشرقية عام ١٨٨٩ تحت رعاية القيصر، وقد رعت هذه الجمعية عمليات الحفر في بابل التي استمرت ابتداءً من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩١٧.

وقد اشتمل نشاطها الحفريات في قلعة شيرجات وهي مدينة آشور القديمة، وقد استمر العمل تحت إشراف W. Andrac (أندراك) من عام ١٩١٤.

ولم يكن عمل أندراك هذا منعصراً بالبحث عن الأنواع أو الآثار الأخرى، بل في عمليات تويعة باهتمام وهوس وهي مختصة بالبحرث علم الآثار مع محاولة الكشف عن مخطط المدينة واسوارها وأبنيتها، والعلاقات المتبادلة بينها وبين غيرها من المدن في فترات مختلفة، ولقد تركزت عملية الحفر الآشورية على الفترة ابتداءً من النصف الأول للألف الأول وقد رجع أندراك عند بحثه عن تاريخ علم الآثار إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن مع أن غرضه لم يكن الكشف عن الأنواع إلا أنه وجد مجموعة لا بأس بها من الأنواع ذات الأهمية العالية بالنسبة للتاريخ الآشوري وهي الدين والقانون.

وبعد الحرب العظمى الأولى أعطى الانتداب الإنكليزي على العراق أبعاداً جديدة بالنسبة لعلم الآثار ويتشجع من جرترويديل أنشأت دائرة الآثار وفي عام ١٩٢٤ تم تأسيس متحف بغداد، وفي نفس السنة أعلن قانون الآثار الذي بموجبه وبموجب أفضل شروطه أن دائرة الآثار العراقية ينبغي أن تستلم كل اللقيات الثمينة المكتشفة من قبل البعثات الأجنبية ونصف اللقيات غير الثمينة.

أما السنوات الواقعة ما بين الحربين العالميتين فقد أتت النتائج المرموقة من المواقع السومرية في جنوب منطقة ما بين النهرين ومنها ثقيات السير (ليونارد ويلي) في آشور (١٩٢٢-١٩٢٤) ومع ذلك فقد حدثت بعض الحفريات في آشور مرة ثانية، وفي أعوام ١٩٢٦-١٩٣١ حضرت بعثة أمريكية في مواقع قرب كركوك وفتحت أخيراً جديدة في تاريخ بلاد آشور في الألف الثاني ق م وذلك بتصنيفها تحت اسم أفضل مدينة معروفة فيها وهي (نوزي) وقد وجدت الوف الألواح ذات الأهمية بالنسبة لفهمنا المجتمع في الشرق الأدنى بما فيه تاريخ البطارقة والنوراثيين، وتقدم حدثت حفريات أمريكية أيضاً فيما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٨ في موقعين على بعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من الموصل وهو (تل بيبلا) حيث صنع لايمارد بعض الحفريات وثيب جاورا، وكان كلا الموقعين هامين في ككون تلك الفترات المتتالية من الاحتلال وكانت ترجع إلى عهود قديمة جداً وفي حالة تيب جاورا كانت تعود إلى العصر الحجري الحديث.

ولقد قامت بعثة أمريكية تابعة لجامعة شيكاغو بالحفر في خورساباد عام ١٩٢٥ متجاهلة حقوق الفرنسيين القديمة بالحضر، وكانت الأهمية الرئيسية لنتائج أعمال تلك البعثة هي أحداث بعض التصحيحات في مخططات المدينة والأبنية التي نشرها هريش (بلاس) قبل سبعين عاماً مضت.

وفي أثناء نفس الفترة أعاد المتحف البريطاني والمؤسسات التابعة له عمليات الحفريات في كويونجهيك (١٩٢٧-١٩٢٢) وكانت أهم تطورات هذه الأعمال هي محاولة فحص فترة ما قبل التاريخ في ذلك الموقع عن طريق الحفر العميق الذي أعاد تاريخ الاحتلال إلى الألف الخامس ق م، وكان هذا العمل صعباً جداً من وجهة تقنية بحيث كان الشخص المساعد والمسؤول وهو م. ي. ل. مالون كان مجبراً أن يحضر حضرة عمقها تسمون قديماً للوصول إلى الأرض البكر وذلك للحصول على معلومات مستقيضة حول المستويات التابعة لفترة ما قبل التاريخ المختصة بالاحتلال والاستيطان في تلك المناطق، قام مالون كذلك وفي عام ١٩٢٢ بالحفر في الموقع القريب وهو (أريشية) حيث لم يحصل أي احتلال في تلك المناطق.

وكان المظهر الدولي المريض للأبحاث الآشورية فيما بين الحريين العلميتين قد ظهر في اشتراك بعثة إيطالية بدأت موسماً من الحفريات عام ١٩٢٢ في مدينة آشورية تدعى (كالكيزي) (قرات سابقاً باسم كاكوزو إلى الجنوب الشرقي من أربيل).

ولقد منعت الظروف السياسية استمرار العمل، وكان هذا لسوء الحظ من وجهة نظر علمية، حيث إن السكان المحليين هناك وجدوا وهم يحضرون دون إذن من السلطان ألواحاً مسمارية لا تزال تعود إلى ملكية خاصة لم ينشر أي شيء عن هذه الألواح ولم يقرأها أحد.

إن الحدود الآشورية القديمة لا تطبق بدقة مع حدود الجزء الشمالي من دولة العراق الحديثة، ونتيجة لذلك هناك مواقع في شمال شرق سورية لها علاقة بتاريخ آشور، ولقد جرت أعمال الحفر في بعض هذه المواقع مع الحصول على نتائج مهمة، وكان أشهر هذه هي حفريات تل خلف قرب منبع نهر الخابور والتي قام بحفرها (هارون ماسكس خوان وابنهايم) قبل الحرب العظيم الأولى وبمد العشرينات من القرن العشرين ١٩٢٠ وقد كان أهمية هذا الموقع تعود لسببين:

أولاً: لكونه مصدراً من مصدر تأمين الوثائق المسمارية المتصلة بمركز ولاية آشورية وهو (جوزانو).

وثانياً: لكونه موقفاً يعود إلى أحد المواقع الثقافية في فترة ما قبل التاريخ لمنطقة أصبحت تدعى آشور.

ولقد فحص بالوان ابتداء من عام ١٩٢٤ تلالاً رئيسية أخرى في منطقة نهر الخابور، وهذه المناطق مهمة بالنسبة للتاريخ الآشوري إلى أن أوقفت الحرب العالمية الثانية جميع الأنشطة في مجال علم الآثار، ولقد كان آخر وجه من أوجه إعادة اكتشاف آشور قد بدأ عندما قرر (مالوان) إعادة فتح مشروع الحفريات في نمرود عام ١٩٤٩، وقد استمر العمل متقطعاً حتى عام ١٩٦٢ وقد كان مالوان المشرف على هذا العمل شخصياً أو عن طريق بعض علماء الآثار الشباب الذين يعملون تحت جناحه.

ولقد بدا أن معظم علماء الآثار البريطانية كانوا يحاولون أن يلتزموا عن وعي أو بدون وعي بالنموذج الذي اختطه لايارد ولكن مالوان كان قادراً على فك النموذج بشكل أفضل.

ولقد أحرز نجاحاً بالنسبة للقياسات من الممكن مقارنة بتجارب لايارد، ومع أن مظاهر قليلة جديدة قد فتحت بالنسبة للحياة الآشورية (ماعدا سور الحرفا) إلا أن العمق والتفاصيل قد أضيفت إلى مآرظنا لآشور في عدة نقاط، ولكن نجاحاته قد بدت وكأنها حجر عثرة بالنسبة لبعض علماء الآثار المتأخرين الذين كانوا مدينين في كثير من الفرص لمجهوداته.

وهنا نجد إحدى السيدات النافذات تكتب في عام ١٩٨١ باشمزاز عندما تشير إلى أعمال مالوان وهي تقول:

((إن أثاراً بغيضاً متخلفاً من مخلفات القرن التاسع يؤكد الناحية الموجهة نحو المادة أكثر من التأكيد على المعرفة وعن الأهداف الموجهة نحو السلوك الحسن، خصوصاً أنه وقع في الإثم عندما فكر أن المجموعة الرائعة من الماجيات المنعوتة التي اكتشفتها هي كنز من الكنوز)).

ولكن بدا الهدف الوحيد لتخصيص الأموال العامة لمصلحة علم الآثار وهو أن يفني حياة أولئك الأشخاص غير المهتمين بعلم الآثار الذين يدفعون المال في آخر الأمر، ومن المؤكد أن جمال الماجيات الآشورية المنعوتة لها دورها الذي سوف تلعبه تجاه تلك الفاية على الأقل من حيث العلم بالتفاصيل الخاصة بمثل هذه القضايا مثلاً قضية ملكية الأراضي.

لقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها مالوان في بلاد آشور آخر حفريات حدثت حسب الأسلوب القديم وهو الذي كان يسير ضمن خطوات ذات نتائج سريعة يقصد بها كسب اهتمام الرأي العام وذلك طبقاً للمثل اللاتيني الذي يقول:

Sic briviter gloria

ومعناه: هكذا يمر المجد الفخوري ويسرعة.

لقد جرت أعمال الحفريات التالية في شمال العراق ولكن على نطاق أضيق إذ قد أثرت عليها أهداف مختلفة وأسهمت عوامل كثيرة في الوصول إلى تلك النتائج، وإحداها: تنقيح قانون الآثار العراقي بعد ثورة عام ١٩٥٨ حين ألغيت حقوق البعثات الأجنبية بالحصول على نصف اللقيات المتطابقة أي: التي لها مثيل طبق الأصل، ولقد أزال هذا الإجراء أي حافز لإعطاء الأفضلية لأي نوع من المواقع الأثرية الذي من المنتظر أن يكشف عن آثار تستحق أن توضع في المتاحف.

أما العامل الآخر: فهو عامل مادي مالي، فقد ارتفعت تكاليف العمل في المراق ارتفاعاً فاحشاً منذ عام ١٩٥٨ فقد أصبحت الآن وفي عام ١٩٨٢ في مستوى الأسعار في البلدان الغربية، وهذا ما منح الأفضلية للمواقع الصغيرة التي تمتاز بأن الطبقات الاستيطانية فيها ليست مغطاة بشكل كثيف باطلال المراحل اللاحقة بها.

وهناك عامل ثالث: وهو أن السلطات العراقية أصبحت تعتبر أن المواقع الأثرية هي من الأماكن السياحية التي تجذب السياح من جميع أنحاء العالم، ولهذا فقد ضغطت السلطات العراقية على البعثات القائمة بالحفريات أن تقبل مسؤولية ترميم الأنصاب باعتبار ذلك تكملة للحفريات، وهذا أمر مكلف مادياً لاسيما إذا احتوى الموقع بنايات كبيرة ومنحوتات، وهناك أيضاً قضية المراحل التاريخية وأي مرحلة هي بحاجة ماسة إلى شرح وتوضيح أكثر من غيرها.

ونتيجة لهذه العوامل المتراكمة انحصرت أعمال الحفريات التي تجري في آشور منذ زمن بعثات المدرسة البريطانية في نمرود، في الواقع أقدم عهداً من زمن الإمبراطورية الآشورية.

ومع ذلك فلم تهجر المواقع الإمبراطورية الآشورية نهائياً، إذ عمد فريق بولندي إلى إجراء بعض الحفريات في نمرود في محاولة لحل بعض المشكلات المتروكة منذ أيام لايارد ومالوان، هذا وإن السلطات العراقية التي انتخبت علماء آثار من وزن عالٍ جداً قد قامت بأعمال مهمة في كل من شريف خان (وهي تاريخيزو القديمة الواقعة إلى شمال نينوى) وفي كيونجيك، وقد انحصر العلم في المواقع

الأخيرة في المحافظة على النصب وترميم الأبنية، مما جعل أسوار وتحصينات
وبوابات سنجاريب ماثلة للعيان مرة ثانية ليراها جميع المهتمين بهذه الأمور، وفوق
ذلك فإن المعالم مدين للسلطات العراقية وللمعلماء الأثاريين العراقيين لإتقانهم نينوى من
التجار الفارين الذين كانوا قد خططوا لإقامة وبناء منازل وأبنية في ذلك الموقع.

انتهت الترجمة في ٢٠٠١/١١/٢٦ .

الفهرس

٥	المقدمة
٧	١- الفصل الأول .
٧	آشور- الخلفية - والبدائيات
٧	الإطار الجغرافي
١٢	فترة ما قبل التاريخ
١٧	أقدم القرى الأولى.
١٩	تل حمونة
٢١	تل حلف
٢٣	عبيد
٢٦	عصر التاريخ
٢٨	التطورات في سومر
٢٩	أسرة أككاد
٣٠	نشوء البلدات والمدن
٣٣	آشور الأولى.
٣٥	٢- الفصل الثاني.
٣٥	ملوك آشور الأوائل
٣٥	قائمة ملوك آشور
٤٠	سلسلة أور الثالثة
٤١	آشور والتجارة
٤٢	مستعمرات ككابادوكيا التجارية

٤٩	.. الفصل الثالث .
٤٩	.. الفترة الفاصلة الحورية .
٤٩	.. من ظلال التبعية حتى الاستقلال .
٤٩	.. مملكة شمسي أداد الأول .
٥٢	.. المهاجرون الحوريون .
٥٤	.. مملكة ميتاني .
٥٥	.. ضم آشور .
٥٧	.. استقلال آشور .
٥٨	.. الروابط مع مصر .
٥٩	.. من الملكية إلى الإمبراطورية .
٦٢	.. الفصل الرابع .
٦٢	.. توسع آشور .
٦٢	.. حشد نيراري الأول .
٦٦	.. شلمنصر الأول .
٧٠	.. نوكلتي نينورتا الأول .
٧٥	.. صمت مرحلة الانحطاط .
٧٩	.. الفصل الخامس .
٧٩	.. الإمبراطورية الآشورية الوسطى .
٨٠	.. تجدد آشور .
٨١	.. الحرب الوثائقية .
٨٢	.. تغلات - بالاسر في الأناضول .
٨٤	.. تهديد الآراميين .
٨٩	.. مراكز الحدود البابلية .

٩٠	الهجرات الآرامية
٩١	الاتفاق الآشوري البابلي
٩٣	الممالك الآرامية
٩٥	الفصل السادس
٩٥	نشوء الامبراطورية الآشورية الجديدة
٩٥	الأمن العسكري والتطور الاقتصادي
٩٨	آشور ناصر بعل الثاني
٩٨	الاستراتيجية الإمبراطورية في آشور
١٠١	البحر الأبيض المتوسط
١٠٣	مدخل على حقن الأنعام في نصوص العهد القديم
١٠٣	فيما وراء جبال أمانوس وطوروس
١٠٤	فيما وراء زاغروس.. الميديون والفرس
١٠٥	الحرب الأهلية
١٠٦	الأم الملكية التي أصبحت أسطورة
١٠٧	أورارتو - المملكة المنافسة
١١١	الملوك الضعفاء والولاة المفالون في القوة
١١٥	الفصل السابع
١١٥	عنقوان الإمبراطورية
١١٥	الإصلاح الإداري
١١٧	السياسة تجاه الدول التابعة
١١٨	التوسع خلال حكم تفلان بلاسر الثالث
١٢٢	النزاع مع السكثديين
١٢٤	اعتلاء سرجون العرش

١٢٥	المشكلة الأورارتية الحل النهائي
١٢٩	سرجون في بلاد بابل
١٣٠	بناء قلعة سرجون
١٣٢	منعاريب
١٣٢	نينوى العاصمة العالمية
١٣٤	قلاقل كلدانية جديدة
١٣٥	حصار أورشليم
١٣٧	الحرب مع عيلام
١٣٨	نهب بابل
١٤١	الفصل الثامن
١٤١	بداية الثورة ثم السقوط والانهايار
١٤١	وراثة العرش الملكي
١٤٣	عطف المشيئة الإلهية على بابل
١٤٤	مهيطرة الميديين
١٤٦	السلام الآشوري في الغرب
١٤٧	غزو مصر
١٤٩	آشور بانيبال
١٥٢	إبادة عيلام
١٦١	سقوط الامبراطورية الآشورية
١٦٩	الفصل التاسع
١٦٩	المجتمع الآشوري والمعادن الآشورية
١٦٩	الآشوريون أمة وليس عرقاً
١٧٩	الطبقات الاجتماعية


١٨١	الأساس الزراعي للحياة الآشورية
١٨٥	الفلاحون الفقراء - الأتقان والمهيد
١٩٠	العائلات الفلاحية
١٩٢	ولادة الأطفال ووفياتهم
١٩٥	الزواج
٢٠١	الحياة الجنسية
٢٠٦	التعليم
٢٠٧	الملك والبلاط
٢١٥	الفصل العاشر
٢١٥	الحياة المنزلية
٢١٥	الملابس
٢١٩	لباس القدم - الحذاء -
٢٢٠	المجوهرات
٢٢١	الشعر وأغطية الرأس
٢٢٢	المفروشات المنزلية
٢٢٤	الحكراسي بلا ظهر - الطاولات والحكراسي العادية -
٢٢٦	الأسرة
٢٢٧	الإضاءة الاصطناعية
٢٢٧	أدوات التجميل والتواليت
٢٢٨	أدوات المائدة
٢٢٩	وسائل التخزين
٢٢٩	تمديدات المياه
٢٣٠	الأوزان والمقاييس

٢٣٢	.. الفصل الحادي عشر .
٢٣٣	.. الزراعة وتربية الحيوان والتجارة .
٢٣٤	.. الزراعة .
٢٣٩	.. تربية الحيوانات .
٢٤٢	.. الحمير والخيول والبغال .
٢٤٦	.. الطيور .
٢٤٧	.. التجارة .
٢٤٧	.. التجارة الداخلية :
٢٥٥	.. التجارة الخارجية .
٢٦٢	.. الفصل الثاني عشر .
٢٦٢	.. السيطرة على البيئة .
٢٦٣	.. الأشوريون والموارد الطبيعية .
٢٧٢	.. التكنولوجيا الكيميائية .
٢٧٥	.. تخطيط المدن .
٢٨٥	.. البيوت الخاصة .
٢٨٧	.. قوة الحيوانات والمواصلات البرية .
٢٩١	.. المواصلات المائية .
٢٩٥	.. الفصل الثالث عشر .
٢٩٥	.. عائم ما وراء الطبيعة .
٢٩٧	.. تعدد الآلهة .
٣٠١	.. مبدأ التوحيد اليديائي .
٣٠٣	.. المعابد .
٣٠٥	.. بيت الإله .

٣١١	كهنة المعبد ورجال الدين الآخرون
٣١٢	الشانفو
٣١٣	الحكاوي
٣١٥	موسيقى المعبد والبلاط
٣١٥	الأشيبو
٣٢٣	العراقون- البارو
٣٢٦	فئات العراضين الأخرى
٣٢٨	علم التنجيم
٣٣٦	الساحرات والسحرة
٣٣٧	الفصل الرابع عشر
٣٣٧	الطب عند الآشوريين
٣٣٨	مفهوم الآشوريون للمرض
٣٤٢	الطبيب في الممارسة
٣٤٤	المواد الطبية
٣٤٦	دعوة الطبيب إلى المنزل
٣٤٩	الفصل الخامس عشر
٣٤٩	الفن الآشوري
٣٥٠	الألواح المصنوعة
٣٥٨	النحت القراغي
٣٥٩	العاج المنحوت
٣٦١	الاختتام الأسطوانية

٢٦٥	.. الفصل السادس عشر .
٢٦٥	.. الجيش الآشوري .
٢٦٩	.. مقدمات النزعة العسكرية الآشورية
٢٧٢	.. الحرب النفسية .
٢٧٧	.. الجيش أثناء الحملات العسكرية
٢٧٨	.. القواعد العسكرية والتحذيرات اللوجستية
٢٨٠	.. الجيش أثناء تنقله
٢٨٢	.. المواصلات
٢٨٨	.. التكتيك العسكري
٢٩٣	.. معاملة الأسرى
٢٩٧	.. البواعث الآشورية: الحوافز والإنجازات .
٤٠٥	.. الفصل السابع عشر .
٤٠٥	.. الكتابة والأدب الآشوري
٤٠٨	.. المخطوطات الآشورية الملكية .
٤١١	.. جداول ليمو
٤١٢	.. تقارير على التجويع .
٤١٣	.. المواحي
٤١٤	.. الرسائل
٤١٦	.. الوثائق الاقتصادية
٤١٧	.. القوانين
٤١٨	.. النصوص المقتبسة من بابل مباشرة
٤٢٤	.. نصوص تماويذ الفأل
٤٢٥	.. نصوص تعليم الكتابة
٤٢٦	.. الطقوس والابتهالات

٤٢٨	الأساطير والملاحم (القصاص البطونية)
٤٢٩	أدب الحكمة
٤٣٢	أصناف أخرى من التصوص
٤٣٥	الفصل الثامن عشر
٤٣٥	اكتشاف بلاد آشور من جديد
٤٣٨	روايات الرحالة
٤٤٢	تفسير المخطوطات
٤٤٨	بوتا ولايار ودولنسون آباء علم الدراسات الآشورية
٤٧٦	فكتور بلاس وهرمز رسام
٤٨١	الحملات الأسمية
٤٨٧	الفهرس



عظمة آشور

لقد قصص الباحث (هاري ساغز) أكثر من نصف حياته وهو يدرس الحضارة الآشورية، مما جعله أحد أكثر العلماء في العالم قدرة على تقديم وصف شامل ومتعمق لهذه الحضارة التي كانت أحد أهم بيناتر النهضة الإنسانية.

نشأت الدولة الآشورية في شمال ما بين النهرين ثم توسعت سريعاً مشكلة أول إمبراطورية في التاريخ امتدت من مصر إلى مرتفعات طوروس وزيكروس، ومن آسيا الصغرى إلى صحراء شبه جزيرة العرب.

عند قراءة هذا الكتاب لا يمكن إلا أن نشاطر المؤلف حبه لهذه الحضارة.

فرغم الانتقادات الكثيرة الموجهة للآشوريين بوصفهم شديدى القسوة تجاه الشعوب المغلوبة فإن سموتهم هذه مبالغ في وصفها بسبب الاعتماد على الادعاءات التوراتية. ويكشف واقع حضارة جوانب رائعة في كل المجالات سواء منها الأدبية والثقافية أم العلمية والثقافية..

يضيف الكتاب ثقافة شوايح السواء والموت بتاريخ الحضارة في الشرق القديم.

Bibliotheca Alexandrina



0673412

دار ونگو رهاون
دار الكتب والعلوم
القاهرة

طبعة ١٩٩٥ - ٢٠٠٥